الهيئة العامة لقصور الثقافة

ذاكرة الكتابة

شخصيات تاريخية

من سقراط إلى راسبوتين



د. على ادهم

الهيئة العامة لقصور الثقافة

شخصيات تاريخية

من سقراط إلى راسبوتين

د. على أدهم

ذاكرة الكتابة

شهرية / العدد : ٤٢

شخصيات تاريخية من سقراط إلى راسبوتين

• د. علي أدهم

• تصميـــم الغـــلاف : غريب نـــدا

• المراجـــعة اللغويـــة : عادل سميح

• الطبعة الأولى : مارس ٢٠٠٣

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/٢٦٥٤

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 305 - 364 - 4

• المراسلات : باسم رئيس التحرير

على العنوان التالى

١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى

رقم بريدى : ١١٥٦١

• الطباعة والتنفيذ :

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

ت : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com



الهيئة العامة لقصور الثقافة



المقـــدمة

بذلت جهود كثيرة لتفسير التاريخ من زوايا مختلفة ، فحاول بعض الباحثين أن يجعل للبيئة والعوامل الجغرافية الأثر الأكبر فى توجيه التاريخ ، وحاول باحثون آخرون أن يجعلوا للعوامل الاقتصادية المكانة الأولى فى أحداث التاريخ وتطوراته ، ورأى بعض المفكرين أن الأفكار الدينية أو السياسية هى المحرك الخفى للحركة التاريخية والباعث الحقيقى وراء استحالات التاريخ وأحداثه ووقائعه . وفى كل رأى من هذه الآراء جانب من الحق وجانب من الإسراف والمبالغة ، وفى اعتقادى أن الشخصية الإنسانية هى المرجع الأول والأخير فى الحركة التاريخية وأن لها المكانة الأولى غير المنكورة فى أحداث التاريخ تعاونها الأسباب الأخرى وتمهد لها .

وللعالم المؤرخ الأنثروبولوجى جوردون تشايلد كتاب قيم عنوانه « الإنسان يصنع نفسه » وهو عنوان ينطوى على شىء من التحدى ، ولكنه يفسر تاريخ الإنسانية فى مختلف أدواره تفسيرا يرينا كيف شق الإنسان طريقه الوعر الحافل بالعقبات إلى تكوين المجتمع الإنسانى وبناء الحضارة ، وسن القوانين والشرائع ووضع النظم والتقاليد ومكونات الثقافة فى مختلف ألوانها .

وإذا تأملنا حالة الإنسان فى أى موقف من المواقف التاريخية المأثورة نجد أنه يعمل على الدوام على أن يلائم بين نفسه وبين موقفه التاريخى ، وكل موقف من المواقف التاريخية هو فى الواقع نتيجة لمجموعة مختلفة من الأحداث متباينة الألوان والسمات وليس نتيجة لحادث واحد بعينه أو للون واحد من ألوان الوقائع ، فإذا تأملنا مثلا الموقف فى فرنسا سنة ١٧٨٩ عند بدء هبوب الثورة الفرنسية نجد أن الرجال المغامرين الذين عاصروا هذه الفترة كانوا هم أنفسهم ثمرة الموقف السابق ، فثقافتهم الفكرية واتجاهاتهم المذهبية وأساليب تفكيرهم ... والعوامل الشعورية واللاشعورية التى كانت تعمل فى نفوسهم ، ونفس لغتهم التى كانوا يتحدثون بها ويصبون فيها أفكارهم ويصورون بها منازعهم ، كل ذلك تقتضى دراسته العودة إلى الماضى ، والرجال الذين يعملون فى أى وقت من الأوقات وفى كل مرحلة من

مراحل التاريخ تحيط بهم ظروف قاهرة وملابسات موجهة حتى فى اللحظة التى يظنون فيها أنهم قد خلصوا من تأثيرها ، وقطعوا الصلة بينهم وبينها .

ولكن علينا برغم ذلك كله أن نذكر دائما أن الإنسان هو العامل الأول فى صنع التاريخ ، فنحن لا نجلس هادئين صامتين لنتلقى توجيه التقاليد ونحمل على تيار الحوادث مستسلمين خاشعين ، وإنما نعمل عقولنا ونستعمل إرادتنا ونشاطنا وحيويتنا للتأثير فى سير الأحداث ، وذلك لأننا لسنا أشياء جامدة تجرى عليها أحكام الضرورات بغير نقض ولا إبرام ، وحقيقة أن المشكلات التى نتناولها نتيجة من نتائج الأحوال السالفة وأثر من آثار الماضى البعيد والقريب ، ولذلك يمكن القول بأن فى كل وقت من الأوقات توجد حركة تاريخية ، ولكن هذه الحركة التاريخية إن كانت تفرض شروطها على الإنسان ، وتملى عليه أحكامها فإن إرادة الإنسان فى مستطاعها أن تناقش تلك الشروط وتنقض أو تعدل تلك الأحكام .

والظروف التاريخية قد تتناول الخامة الإنسانية وتعمل على تشكيلها وصوغها بما يلائم طبيعة تلك الظروف وتصبها فى القوالب المناسبة ، ولكن هذا كله لا يمنع كون الإنسان من العوامل الكبيرة الأهمية فى الحركة التاريخية .

والمؤرخ حينما يفسر لنا الأحداث السالفة يتناول بالبحث والدراسة أعمال الإنسان فى الظروف المحيطة به ، وخلال التيارات الموجهة لتفكيره والدافعة له إلى ما يأتى من الأعمال ، أى أن يدرسه بوصفه متأثرا بمشكلات عصره واتجاهات التاريخ فى زمنه ، ولكن الحكم الأخلاقى على الإنسان يضعه فى إطار عصره ، ويلم بنشأته ، وعوامل بيئته ومكونات ثقافته ، ويحدد مكانه فى الحركة التاريخية ، وهو حينما ينتقل من سرد الأحداث بعد تمحيص الروايات وغربلة الأخبار يحاول أن يبين لنا تلك العوامل المؤثرة ، والظروف القاهرة ، ولو أنها فى الواقع ليست قاهرة كل القهر للإنسان ، لأن للإنسان نصيبا لا يستهان به من حرية الإرادة لا يمكن إنكاره ، وإذا غالينا فى إنكاره سقطت من فوق كاهل الإنسان التبعة الأدبية وانتفت مسؤوليته عما يتورط فيه من الآثام ، ويرتكب من الأخطاء ، وحقيقة أن الإنسان واقع فى شبكة أحداث عصره ، ولكنه يملك أسباب التحرر من تلك الشبكة ، وهذه الحرية الممنوحة للبشر لا تجعلنا قادرين على التكهن بما قد يصدر عنهم من

الأحداث لأنهم ليسوا آلات مسيَّرة ، ولا جمادات مسلوبة الحركة والإرادة عاجزة عن التفكير وأعمال الرأى ، وهناك ظروف من غير شك تحيط بالانسان ، ولكن الإنسان ليس أسير تلك الظروف ولا سجينا فى أغوارها وكبولها ، وقد لا يستطيع الرجل الشرقى مثلا أن يفهم عقلية الغربى ، لأن لكل منهما تقاليده التى شب عليها ، وأساليب تفكيره التى ألفها ، ولكن كلا منهما يستطيع أن يفهم عقلية الآخر إذا أراد ذلك ، وبذل جهدا ، وصدق المحاولة ، وأخلص فى الطلب ، والرجل الثرى الواسع الخيال القوى الحس يستطيع أن يدرك حالة الفقير المعدم الذى يعانى متاعب الخصاصة وآلام الحرمان ، ومعنى ذلك أن الناس ليست مقيدة بالحدود المضروبة حولها ، وأن فى وسع الإنسان أن يستشرف آفاقا أوسع من الآفاق التى نشأ بها ، ويقدر عادات وتقاليد لم يكن لديه بها سابق علم أو قديم عهد إذا بذل جهدا ، وأحسن التفكير ، والذين يفسرون التاريخ تفسيرا اقتصاديا ينظرون إلى العوامل الاقتصادية بوصفها دوافع لا يستطيع الإنسان أن يغالب مؤثراتها ، ولا نكران أن العوامل الاقتصادية لها دورها المؤثر فى سير الأحداث التاريخية ، ولكن أى تفسير للتاريخ لا يقيم وزنا للشخصية الإنسانية وتأثيرها فى سير الأحداث لا يسلك المحجة الواضحة ، ويضل فى تيه الأحداث المتنافرة .

وعلينا فى الوقت نفسه أن نقدر الماضى برمته ، لأنه لازم لتفسير الحاضر ، وإذا قيل إن الأسباب الاقتصادية هى العامل الوحيد المؤثر فى الحركة التاريخية فإن ذلك يحمل معنى أن الانسان يعيش بالخبز وحده ، فى حين أن الأمر على نقيض ذلك ، فالانسان حقيقة لكى يعيش لابد له من الخبز ، ولا يتضمن ذلك بطبيعة الحال أنه لا يعيش إلا بالخبز وحده .

ولا نزاع فى أن الأفكار من القوى المؤثرة فى سير التاريخ ، ومن الأشياء الهامة فى الدراسة التاريخية أن نتتبع مناشئ تلك الأفكار التى أثرت فى التاريخ الإنسانى ، ونحن معرضون دائما لأن نعزو التأثير الذى يقع على الأفراد إلى الأفكار السائدة فى العصر ، ولكن الواقع أن الأفكار لابد أن تتجسم ، فهى لا تسرى مستقلة عن الآخذين بها ، والأفكار نفسها نتيجة من نتائج الحركة التاريخية قبل أن تكون سببا من أسبابها ، وعلينا أن نستعين بالتاريخ ليفسر لنا سير الأفكار وما طرأ عليها من

تغيير ، ولا خلاف فى أن تأثير الأفكار من المسائل الهامة فى التاريخ ، وقد تتجمد بعض الأفكار فى أدمغة الناس فى عصر من العصور وتصبح من معوقات التقدم مثل الضرورات المادية ، وتقدمنا العقلى وتطور الحضارة بوجه عام قد يقف فى سبيلهما بعض الأفكار الجامدة التى أصبحت مسيطرة على العقول ، ولكننا إذا اقتصرنا على دراسة الأفكار المؤثرة فى سير التاريخ كونًا لأنفسنا فكرة ناقصة عن سير التاريخ ، لأن الأفكار لا تعيش بغير أجسام ، والتاريخ القائم على تتبع الأفكار وحدها ودراسة تأثيرها فى سير الحضارة الإنسانية عرضة للخطأ ، وإذا تعمقنا فى تتبع بعض الأفكار نجد مرجع بعضها إلى تبدل فى العوامل الاقتصادية ، ولكن علينا مع ذلك ألا ننسى أن العقل البشرى بموارده المحدودة يستطيع أن يعمل ، وسواء كنا ندرس الانتقال البارز من الحضارة التى غلبت عليها النزعة الدينية فى العصر الوسيط إلى الحضارة التى غلبت عليها النزعة العلمية التى مهدت لظهور العلم الحديث وهيأت الجو لنمو الديمقراطية فعلينا أن لا نكتفى بتصوير الموقف على أنه صراع بين رجال أشرار ورجال تنزهوا عن المطامع ، أو خلاف بين قوم متخلفين منحرفين وقوم أذكياء مستنيرين ، بل علينا أن ننظر إلى الأحداث فى إطار عمليات اجتماعية أوسع نطاقا وأكثر تعقيدا .

وقد أدرك المؤرخون الذين تأثروا بالفكر الماركسى أن التاريخ لا يسير فى تقدم منطقى ولو أنهم ليسوا أول من كشف هذه الحقيقة ، وأن الحركة التاريخية تحدث من جراء الموضوعات التى تنشأ فى المجتمع ، ومن شأن هذه الموضوعات والقضايا أن تؤدى إلى صراع بين الطبقات أو بين أجزاء من المجتمع ، وهذا الصراع أو هذه المعركة تسوق الناس إلى إنتاج شىء جديد يضع حدا للنزاع ، وهو يسمو فوق الخلافات لأنه يجمع بين النقيضين ، ويشق الطريق لظهور جماعات حديثة ، أو بلفظ آخر إن الصراع بين الموضوع والموضوع المناقض لن يؤدى إلى ظهور مُرَكب يجمع بين النقيضين ، وللمؤرخين الماركسيين الفضل فى أنهم استرعوا نظر المؤرخين إلى البناء التحليلى للتاريخ ، فبدلا من الوقوف على الصراع بين الأفراد البارزين مثل الصراع بين شارل الأول ملك إنجلترا والزعيم السياسى الحربى كرومويل على أنه صراع بين ممثلى طبقتين ، جعلوا المؤرخين يتعمقون فى معرفة

أسباب هذا الصراع ، وينظرون إلى الأسباب الاقتصادية والبواعث المادية التى كانت متوارية فى الأعماق ، ومن طبيعة هذا التقصى فى البحث عن مختلف الأسباب التاريخية أن يجعلنا أكثر تقديرا للعوامل المختلفة التى تعمل فى بناء التاريخ ودفع حركاته ، وأصبح مهما لإدراك تطوراته وتفسير دقائقه وأحداثه .

والمؤرخون الماركسيون يعزون التغيرات التاريخية إلى الدوافع الاقتصادية ، وأن أى تغيير فى أساليب الإنتاج لابد أن يتبعه تغيير فى الموقف التاريخى ، وفى ضوء هذا التفسير يعللون ظهور نظام الإقطاع والنظام البورجوازى الحديث ، ولا نزاع فى أن المؤثرات الاقتصادية لعبت دورها المأثور فى إيجاد الموقف الحضارى الراهن ، ولكن النظرة الأوسع إلى التاريخ ترينا كيف تتلاقى فى بنائه العوامل المختلفة وتختلط الدوافع والمؤثرات ، وحينما نتأمل الأنسجة المختلفة التى يتكوّن منها التاريخ قد نعجب كيف يستطيع إنسان أن يضع يده على خيط من خيوط تلك الأنسجة ويبيح لنفسه أن يدّعى أنه العنصر الأصيل والعام الهام الذى تطغى أهميته على سائر العوامل .

وما من شك فى أن التفسير الاقتصادى للتاريخ يجعلنا ننظر إلى التاريخ نظرة واقعية ، ومن عيوب المؤرخين القدامى أنهم كانوا لا يعنون بالمؤثرات الاقتصادية ، أو كانوا ينظرون إليها نظرة عارضة ، وكانوا يوجهون عناية أكبر إلى تأمل سير الأفكار وكأنهم كانوا ينظرون إلى الأفكار غير مجسدة وأنها البادئة فى كل شىء ، وكأنها ليست فى الكثير من الحالات نتيجة للتغير ، وللغلاة فى تقدير العامل الاقتصادى فى التاريخ عذرهم لأنهم فى الواقع يقدرون عاملا كثر إهماله ، ولم يلق الالتفات الجدى إلا فى القرن التاسع عشر ، ولكن هؤلاء المؤرخين الذين يسرفون فى تقدير العامل الاقتصادى قد يسوقهم ذلك إلى الوقوع فى الخطأ نفسه الذى وقع فيه المؤرخون القدامى الذين كان الكثيرون منهم يقيمون التاريخ على أساس مؤامرات القصور ودسائس رجال الحاشية ، وأوهام الحاكمين بأمرهم أو الذين أتاحت لهم الظروف شيئا من السيطرة على بعض الأحداث القليلة الأهمية ، وامتلاك عنان بعض الظروف التى لا تقدم كثيرا ولا قليلا .

وكان هناك خطأ آخر كثيرا ما يعرض للذين يفسرون التاريخ تفسيرا اقتصاديا ،

وهذا الخطأ هو إيجاد علاقة وثيقة بين هذا التفسير الاقتصادى للتاريخ والفلسفة المادية الخالصة التى تفسر الكون فى ضوء المذهب المادى . ولكن الواقع أن تقدير العوامل الاقتصادية تقديرا صحيحا سليما لا يقتضى أن يدين الإنسان بالفلسفة المادية المحضة ولا يقتضى قبولها بحذافيرها . وإذا ربطنا بين التفسير الاقتصادى للتاريخ وبين وجهة النظر المادية فإن معنى ذلك أن العامل الاقتصادى هو العامل الوحيد المؤثر فى الحركة التاريخية ، ولا يخلو ذلك من تشويه للحركة التاريخية ، كما أنه يتضمن إنكار جانب الشخصية الإنسانية والدور العظيم الذى تقوم به فى بناء التاريخ .

ولكننى أود أن أقرر أننا حينما نذهب إلى أن العامل الإنسانى هو أهم العوامل فى الحركة التاريخية لا نستطيع أن نزعم فى الوقت نفسه أننا فى ضوء هذا العامل نستطيع تفسير كل شىء تفسيرا كاملا ، والتفسير الذى نصل إليه بعد التعمق فى دراسة أى شخصية من الشخصيات الإنسانية لا يعدو أن يكون تفسيرا للرجل الخارجى ، لأن المؤرخ الحق يعرف أن للنفس الإنسانية مداخل لا يستطيع أن يستطلع خوافيها ويجلو لنا غوامضها ، وكل تفسير للشخصيات التاريخية يحوى ثقوبا ونوافذ نطل منها على العالم المجهول ، فليس هو تفسيرا فاصلا ، والإنسان صانع التاريخ لا يكفى فى تفسيره دراسة عصره والوقوف على ملابسات حياته لأن الكائنات الإنسانية ليست مجرد ثمرات لعصورها ، وكل شخصية إنسانية عرضة لأن تأتى بشىء جديد غير مسبوق ، وإذا كان من الخطأ إهمال الجانب الاقتصادى فى تفسير التاريخ فإن الأكثر إيغالا فى الخطأ عدم تقدير عامل الشخصية الإنسانية وما تحويه من البواعث النفسية والكنوز الروحية والشخصيات التى تناولت جانبا من حياتها ومأثور أخبارها فى هذا الكتاب جميعها من الشخصيات التى تركت طابعها على أحداث عصرها سواء فى عالم الفكر والثقافة أو فى دنيا الواقع والسياسة ويستطيع أن يتبين فيه القارئ بعض سماتهم العقلية والنفسية وملامح عصورهم .

سقراط

يعد سقراط من كبار الفلاسفة وشيوخ الحكمة الذين أثروا فى تطور الفكر البشرى ، وتقدم الفلسفة رغم أنه لم يكتب شيئا ، وليس له مؤلفات يرجع إليها ويعتمد فى تحديد مواقفه الفكرية عليها ، ولكن ما خلفه تلامذته الذين أخذوا عنه ، واقتدوا به يعد من أنفس الآثار الفلسفية وأبقاها على الدهر ، وقد قدم سقراط للعالم مثلا نادرا فى سمو التعاليم والوقوف إلى جانب ما اعتقد أنه الحق ، والتضحية بالذات فى سبيل حرية الرأى ، والاستهانة بالأخطار الراصدة والمخاوف المحدقة .

ولم تتعرض شخصية سقراط للشك الذى تعرضت له بعض الشخصيات التاريخية ، فحياته فى أثينا من المسائل المسلم بصحتها ، ولكن الآراء مع ذلك مختلفة فى تحديد معالم شخصيته ووصف مواقفه وتحرى أخبار حياته ونشأته ، وفى مدى علمى أنه يمكن القول بأن البحث التاريخى لم يصل بعد إلى نتائج حاسمة ومقررات نهائية لا يعتورها الشك فى هذا الصدد ، وتسمو على المراجعة والتفنيد ، والمحاكمة التى ختمت بها مأساة حياته تعد من المحاكمات التاريخية التى طالما عنى بها المفكرون ، وشغل بها الناس ، مثل محاكمة جان دارك وغيرها من المحاكمات التاريخية المأثورة .

وأهم المراجع التى يعتمد عليها فى تعرف أخبار سقراط ومطالعة آرائه هى « المحاورات » الخيالية التى كتبها أفلاطون ، أعظم تلامذته وأبعدهم شهرة ، وأسماهم مكانة فى عالم الفكر ، وكذلك ما كتبه عنه أكساتوفون ، وإن قصر عن مدى أفلاطون ولم يبلغ مبلغه فى الدقة وصحة الفهم ، وأفلاطون فى محاوراته يوضح لنا الجوانب المختلفة لشخصية سقراط ، وحقيقة أن هذه المحاورات خيالية ، ولكن أفلاطون كتبها فى عهد قوم عاصروا سقراط وعرفوا الكثير عن حياته واتجاهاته الفكرية فإذا كان إعجابه الشديد بأستاذه قد دفعه إلى تجميل الصورة ونسبة بعض أفكاره الخاصة إلى أفكار سقراط فإنه مع ذلك يمكن إلى حد ما أن يُتحقق من صدق الصورة وصحة الآراء بشيء من الرجوع إلى ما كتبه أكساتوفون وما رواه بعض المعاصرين عن سقراط ، وإذا كان أصدقاء سقراط وتلامذته قد غالوا فى الإشادة

بمزاياه وفضائله ، فإن خصومه قد بالغوا كذلك فى تسفيه آرائه وانتقاص قدره ، وعلى رأسهم شاعر الملهاة الكبير أرسطوفانيز Aristophane ، فقد قدم لنا صورة فى مسرحية « السحب » ، ملأى بالسخرية من ســـقراط ، وإهدار مكانته ، وتشويه آرائه .

وقد كان سقراط مثل الكثيرين من عظماء الرجال وأفذاذ الإنسانية يبعث الحب والإعجاب والتقدير فى قلوب بعض الناس ، ويثير العداوة الصماء والحقد الشديد فى قلوب فريق آخر منهم ، وكان أرسطوفانيز من هؤلاء الذين أساءوا فهم سقراط ، ولم يستطيعوا أن يتبينوا حقيقة رسالته ، وخالوه من السفسطائيين الذين حفل بهم عصره .

وقد ولد سقراط سنة ٤٦٩ قبل الميلاد على مقربة من أثينا بعد موقعة سلاميز بعشرة أعوام ، وهى الموقعة التى انتصر فيها الأثينيون بمساعدة إسبرطة وقضت على قوة إكسرسيز الفارسى . وفى أكثر الروايات أن أباه سوفرونيسكاس Sophroniscus كان مثالا ، وأن والدته فيناريت Phaenarete كانت قابلة ، ويروى أنه هو نفسه بدأ حياته باتخاذ صنعة أبيه ، وأنه نحت تمثالا لهرمس وآخر لربات القدر الثلاث أقيم قرب مدخل الأكروبوليس . وكان من الفكاهات التى لا ينفك ينطق بها عن نفسه قوله إنه لم يفعل أكثر من مواصلة حرفة أمه ، ولكنه نقلها إلى مجال الأفكار فكان يساعد غيره من الناس على أن يخرجوا للعالم أفكارهم الكامنة فى بواطن نفوسهم . وفى أكثر الروايات أنه كان فقيرا ، وقد عنى عناية كبيرة بصحة جسمه ، وكان فى أغلب أيامه قوى البنية جيد الصحة ، وتجلت شجاعته وقوة صبره واحتماله فى أثناء حرب البلوبنيز ، وقد حارب فى بوتيديا Potidaea سنة ٤٣٢ وفى ديليوم Delium سنة ٤٢٤ وفى أمفبوليس سنة ٤٢٢ . وأنقذ فى بوتيديا حياة السبياديز وهو من الشخصيات اللامعة فى تاريخ أثينا ومن أشهر تلامذة سقراط الذين أساءوا إلى سمعته وكانوا من أسباب محاكمته ونكبته ، وقد نزل له سقراط عن جائزة الشجاعة ، وقد بز سقراط الجميع فى قوة الاحتمال والصبر على المتاعب دون أن يشكو ، ولم يكن سقراط كَلِفا بالأسفار والرحلات ولذلك لم يترك أثينا إلا فى الحملات الحربية وأوقات الجهاد .

وقد تزوج من زانتيب Xanthippe وقد عرفت بسلاطة اللسان ، وكانت تعيب عليه إهماله لشئون أسرته ، وكان هو نفسه يعترف بعدالة شكواها ، ويتقبل نقدها له بصدر رحب ، ويثنى على كرم أخلاقها وحسن اضطلاعها بشئون المنزل وتعهد أطفالها .

ولم يكن سقراط بمقبول الشكل ، فقد عرف بأنفه الأفطس وشفتيه الغليظتين ولحيته الكثة ، وعينيه الجاحظتين . ولكنه كان ساحر الحديث ، وكان مريدوه لا يعدلون شيئا بالاستماع إلى أحاديثه المستطابة وعباراته الخلابة ، وتستهويهم دماثة شمائله ، وسراوة أخلاقه ، وفطنته الحادة وبصيرته النفاذة ، وبساطته فى عرض أفكاره ، ومنطقه المتماسك وقدرته الفائقة فى الجدل والنقاش .

وكان سقراط يقنع بثوب بسيط رث طوال السنة ، ويؤثر أن يسير بغير حذاء أو خف ، وكان مثلا شرودا فى امتلاك زمام النفس والسيطرة على الأهواء ، والقناعة والزهد ، وبرغم ذلك لم يسلك فى حياته مسلك القديسين ، ولم يُحرِّم على نفسه طيبات الدنيا ، وكان يستطيع أن يتناول الشراب كما يفعل أى رجل مثقف دون أن يفقد اتزان عقله وحسن خلقه ، وكان لا يأبى الدعوة إلى ولائم الأثرياء ، ولكن دون أن يفرط فى كرامته أو أن يتنزل عن آرائه ، وكان يرفض هدايا الكبراء والملوك ، ولم يكن يفارق ميله إلى الدعابة ورقة الحاشية ، قال عنه أفلاطون « كان بحق أعقل وأعدل وأحسن من عرفت من الناس فى حياتى كلها » .

وقد كان سقراط بطبيعته ميالا إلى النقاش والجدل ، وقد عمد إلى دراسة الفلسفة ، وأعجب حينا ما بالسفسطائيين الذين تكاثروا فى أثينا أيام شبابه ، وقد التقى فى الأغلب بيارمنيدس و بروتاغوراس وغورغياس وغيرهم من فلاسفة عصره ، وليس ببعيد أن يكون قد رأى زينون حينما زار أثينا حوالى سنة ٤٥٠ قبل الميلاد ، ويرجح أنه عرف أنكساغورس .

وقد تحول من علم الطبيعة الذى مال إليه فى مطلع حياته إلى علم الأخلاق ، وأخذ يختبر معتقدات الناس ليرى الأسس التى قامت عليها هذه المعتقدات ، وكان يطلب ممن يوجه إليهم الأسئلة إجابات دقيقة محددة لا يشوبها التناقض ، ويخيف

من يعجز عن أن يكون واضحا فى تفكيره ، منطقيا فى حديثه ، وكان يصارح الناس بأنه لا يعرف شيئا ، وأنه ليس سوى هاوٍ من هواة الفلسفة ، وحينما سأل صاحبه كريفون Chaerephon عرافة دلفى عن من هو أكثر رجال أثينا حكمة ، قالت العرافة إنه ليس هناك من هو أكثر حكمة من سقراط ، وقد عزا سقراط وصفه بالحكمة إلى أنه كان لايعرف شيئا ويجهر بذلك ، والفرق بينه وبين غيره من الناس أنه يعلم جهله ، وهم يظنون أنفسهم عقلاء وحكماء ، ويعرفون كل شىء .

وما قالته الكاهنة بعث سقراط على التفكير العميق ، وعَدَّه شبه أمر له ليعمل به ويقوم بتنفيذه ، وهكذا صار سقراط الفقير الذى لا مال له ولا جاه ولا سيطرة سوى نفوذ بعض أصدقائه من معاصريه الممتازين ، صار يعتقد أن له رسالة مقدسة . وكان الرجل يؤمن بالله وبالقيم الروحية ، وكان بطبيعته دينى النزعة ، ولكنه كان لا يؤمن بحرفية الأساطير الشائعة ، ويعتقد أنها وليدة أخيلة الشعراء ، ولا يرى مع ذلك بأسا فى انتقالها من جيل إلى جيل ، وصار سقراط يعتقد أن عمله فى حياته هو أن يختبر ويحلل ويكشف إذا استلزم الأمر حكمة غيره المزعومة ، وكان هذا بدء المتاعب !

فإخوانه المواطنون لم يستريحوا لهذا الكشف الذى يظهر تهافت أفكارهم ، وأصبح سقراط فى رأيهم رجلا مولعا بالأسئلة المعقدة ليشبع حب الاستطلاع الذى سيطر على نفسه ، فما هدفه ؟ إنه لا يعمل شيئا ولا يقدم جوابا ، وإنما يثير شكوك الناس فى آرائهم ، ولا يستطيع أحد أن يجاريه فى ميدان الجدل والنقاش .

وعرف سقراط أنه سيثير عداء الكثيرين ، ولكن هذا لم يثن عزمه ، وحاول فى بادئ الأمر أن يجرى تجربته على أحد السياسيين البارزين فى عصره ، وكان هذا السياسى يخال نفسه غاية فى سداد الرأى وحسن السياسة ، ولم يجد سقراط عند هذا السياسى صحة المعرفة واتساق الآراء وتماسك المنطق ، وأدرك أنه أحسن منه حالا لأن هذا السياسى لا يعرف شيئا ويحسب أنه يعرف كل شىء ، فى حين أن سقراط يقر بجهله وقلة معرفته ، وقد صار هذا السياسى يمقت سقراط أشد المقت لأنه أربكه وأوقعه فى حيرة من أمره .

وكان هذا هو حال الكثيرين ممن حاول سقراط أن يبلُوَ علمهم ويختبر

حكمتهم ، وكشف بعد ذلك سطحية آرائهم وتفاهة تفكيرهم ، وبرغم كراهة بعض معاصريه له وتحاملهم عليه فقد أدركوا أنه رجل ثاقب الفكر ، ولم يكن هو يريد ذلك ، مما سبّب له الحيرة ، وكان سامعوه يعدونه حكيما ، وهو يعتقد أن الله وحده هو الذى تفرد بالعلم والحكمة ، وأما نحن البشر فخير ما نعلمه أن نعرف أننا لا نعرف شيئا !

ولسنا نعرف التاريخ الذى بدأ فيه سقراط يشعر بصوت وحى داخلى أشبه بصوت الضمير بل أقوى منه سيطرة ، وهو كثير الإشارة إلى هذا الهاتف الداخلى ، وقد تعود طاعته والخضوع لنواهيه ، وكان هذا الهاتف سلبيا يخبره بما يمسك عن فعله لا بما يمكن أن يفعله .

كانت طريقة سقراط فى نقاشه أن يدّعى الجهل ويتلقى إجابة محدثه بالتسليم ، ثم يلقى عليه الأسئلة التى تثير الشكوك وتوقع محدثه فى التناقض والاعتراف بالجهل ، وهذا ماعرف بالسخرية السقراطية ، وكان يرمى من وراء ذلك إلى إظهار المعرفة الخاطئة وحث الناس على تحرى الحقائق ، وطلب المعرفة الصحيحة ، وكان فى المرحلة الثانية يلقى الأسئلة فى ترتيب منطقى يجعل من الميسور الانتهاء إلى الحقائق ، وكان هذا ما أسماه سقراط نفسه بالتوليد أى مساعدة الناس على أن يستخرجوا الحقائق بأنفسهم ، وكان يوجه عنايته إلى تحديد الألفاظ والمعانى التى تحتويها على خلاف السفسطائيين الذين كان عدم التحديد يتيح لهم الفرصة للإغراق فى المغالطات والتشكيك فى الحقائق .

وقد قال عنه أعداؤه الذين لم يحسنوا إدراك غرضه إنه يهدم ولا يبنى ، ويرفض ولا يجىء بشىء من عنده ، وإنه من أجل ذلك أفسد الأخلاق ومهد السبيل لسريان الشكوك ، وزاد الأمور غموضا وبلبلة ، ومن سوء حظه أنه كان من تلامذته كرتياس الذى كان يستمتع بتهكم سقراط على الديمقراطية والذى لعب بعد ذلك دورا سياسيا جعله بغيضا إلى الأثينيين ، كما كان منهم السبياديز الفتى النابغة المدلل ، وكان من صفوة تلامذة سقراط ومن أصدقائه المقربين ، وقد أساء إلى أثينا وتنكر لها ، وحالف إسبارطة وأعانها على أثينا ، وكان كذلك منهم ابن الزعيم الديمقراطى

إينوس ، وهو شاب آثر أن يستمع إلى حديث سقراط ويغفل العناية بعمله ، وهو الاتجار بالجلود ، مما حمل أباه أنيتوس على القول بأن سقراط قد أفسد عقل الشاب بما بثّ فيه من شكوك ، فلم يعد يبجل أباه أو يحترم الآلهة .

ولم يكن سقراط يميل إلى المشاركة فى الاتجاهات السياسية ، ولا يتطلع إلى المناصب الإدارية ، وقد شاء القدر أن يكون عضوا فى مجلس الخمسمائة من سنة ٤٠٦ إلى سنة ٤٠٥ قبل الميلاد ، وكان دائما فى مواقفه السياسية يتحرى جانب الاعتدال والرفق ، وكان هو الوحيد الذى دافع عن القواد المنتصرين فى معركة أرجنوسى البحرية Arginusae ، فقد اتُّهم ثمانية من هؤلاء القواد المنتصرين بأنهم تركوا بحارة خمس وعشرين سفينة من السفن التى أغرقها العدو يموتون غرقا على إثر عاصفة بحرية ولم يعملوا على إنقاذهم ، وحُكم عليهم بالإعدام ، ولم تُجد معارضة سقراط ، ونفذ الحكم فى ستة من هؤلاء القواد .

واستولى بعد ذلك على الحكم فى أثينا ثلاثون من الالجاركيين ، وكان حكمهم إرهابيا فصادروا أموال الكثيرين من أغنياء التجار ، ونفوا من المدينة الكثيرين من الديمقراطيين وأعدموا ألفا وخمسمائة آخرين ، ولم يتورعوا عن قتل من خالفهم ومن كانوا غير راضين عنهم سواء لأسباب سياسية أو لدوافع شخصية محضة ، وقضوا على حرية الاجتماع ، وحرم أكريتاس - الذى كان يوما ما من تلامذة سقراط - على سقراط مواصلة أحاديثه فى الأسواق والأماكن العامة ، وأراد الثلاثون أن يعرّضوا الفيلسوف للشبهات ويشركوه فى آثامهم ، فأمروه بالذهاب مع أربعة آخرين للقبض على التاجر الديمقراطى ليون ، فأطاع الأربعة الأمر ، وأبى سقراط الاشتراك فى ذلك معرضا نفسه للانتقام والأخذ بالشدة .

وازدادت جرائم الالجاركيين ، وأمعنوا فى الاضطهاد والطغيان ، مما أدى إلى سقوط حكمهم وزوال دولتهم ، وعاد الحكم الديمقراطى إلى أثينا فى سنة ٤٠٣ قبل الميلاد ، وسارت الجمعية التى تولت الحكم سيرا معتدلا ، فلم يصدر حكم بالإعدام إلا على بعض زعماء الثورة على النظام الديمقراطى ، وسمح لهم بالنجاة من هذا الحكم بطريق تيسير الخروج من المدينة ، وأعلن بعد ذلك العفو العام عن

جميع من ساعد الالجاركيين من غير هؤلاء الزعماء ، وكان من شأن هذه السياسة الحكيمة أن تعيد إلى أثينا الاستقرار والأمن والسلام الذى كانت فى أشد حاجة إليه بعد الحروب الدامية وعواصف الخلافات العاتية .

ولكن هذه الديمقراطية السمحة لم تلبث أن تورطت فى خطأ من أكبر الأخطاء التى تورطت فيها حكومة من الحكومات ، وهذا الخطأ البالغ هو محاكمة سقراط بعد أن نيف على السبعين وإصدار الحكم بإعدامه .

وكانت التهمة الأولى التى وجهت إلى سقراط هى أنه لا يؤمن بآلهة المدينة ، ويدعو إلى عبادة غيرها من الآلهة ، وكانت التهمة الثانية هى أنه أفسد أخلاق الشبان ، وجرأهم على الاستهانة بالتقاليد والخروج على طاعة آبائهم .

وكان من زعماء الحزب المنتصر أنيتوس ، وكان شديد الحقد على سقراط لاعتقاده أنه أفسد عليه ابنه ، ولم يشفع لسقراط عند أنيتوس أنه أبى أن يطيع أمر الطغاة الثلاثين فى إبان سطوتهم ، وعلو كلمتهم ، وأخذ مليتوس وليكون وأنيتوس على عاتقهم رفع الدعوى على سقراط ، وأحيلت القضية إلى محكمة مشكّلة من قضاة منتخبين من عامة الشعب بطريق الاقتراع ، وليس للكثير منهم نصيب من الثقافة أو المعرفة المستفيضة ، وكان عددهم خمسمائة ، وبعضهم من النوتية والتجار وغيرهم من أصحاب الحرف والمهن المختلفة .

وقد أكد سقراط للمحكمة أنه يؤمن بألوهية الشمس والقمر ، وأظهر لمتهميه تناقضهم فى اتهامه قائلا لهم : « إنكم تقولون أولا إنى لا أومن بالآلهة ثم تتبعون ذلك بقولكم إنى أومن بأنصاف الآلهة . . . إن مثلكم هذا كمثل من يؤكد وجود البغال ثم ينكر وجود الخيل والحمير » .

وأشار إلى اتهام أرسطوفانيز له بالمروق وتأثير هذا الاتهام فى نفوس قضاته ، وقال لهم إنه مكلف بالقيام بأعباء رسالة إلهية مضمونها إرشاد الناس إلى الحياة الصالحة وإنه لا يثنيه شيء عن القيام بما تتطلبه هذه الرسالة ، وإنه لا يخشى الموت فى سبيل أدائها وصارحهم قائلا : « إذا قلتم لى ، يا سقراط إنا سنعفو عنك الآن ولا نشترط عليك إلا أن تكف من هذه الساعة عن متابعة البحث والتفكير على هذا

النمط ، فإننى سأجيبكم قائلا إنى أحبكم ياأهل أثينا وأحبكم ، ولكنى سأطيع الله ولا أطيعكم ، ولن أمتنع ما دمت حيا وما دامت لدىّ قوة عن الاشتغال بالفلسفة ، وتعليمها للناس ، وعن القيام بوعظ كل من ألقاه على طريقتى الخاصة » .

وساء ذلك القضاة بطبيعة الحال ، ورأوا فيه ما يمس كرامتهم وينال من كبريائهم ، فأمروه بأن يكف عن الاسترسال فيما رأوا فيه استهانة بشأنهم ، ولكنه مضى فى دفاعه غير عابئ بما أظهروه من الضيق والتبرم واسترسل قائلا : « أحب أن تعرفوا أنكم إذا أقدمتم على قتل رجل مثلى أسأتم إلى أنفسكم أكثر من إساءتكم لى .. لأنكم إن قضيتم علىّ لن يتيسر لكم أن تجدوا رجلا آخر مثلى ، فأنا إذا سمح لى أن ألجأ إلى هذا التشبيه المضحك السخيف كذبابة بعثها الله إلى الدولة ، والدولة شبيهة بجواد عظيم كريم بطىء الحركة لضخامة جسمه ، وهو فى حاجة إلى ما يبعث فيه الحياة .. وإذا كنتم لن تجدوا مثلى فنصيحتى لكم أن تُبقوا علىّ » .

وفوض أمره لقضاته بعد أن أكد لهم أنه يأبى أن يستعطفهم ويستلين قلوبهم ، ويلتمس منهم الرحمة ، ولم يعجب القضاة هذا الترفع والإباء ، وعدّوه لونا من ألوان التحدى لهم والاستهانة بهم ، وأعلنت نتيجة المحاكمة بعد إجراء الاقتراع ، فإذا بالأغلبية تقرر إدانته وتعده مذنبا ، وكان القانون يخول له حق مناقشة العقوبة المطلوبة واختيار العقوبة التى يرضاها لنفسه ، ولكن سقراط أصر على رفض أى نوع من أنواع العقوبة ، لأن قبوله أية عقوبة يتضمن الاعتراف بالذنب ، وهو بحسب تقديره برىء من الذنوب ، ومن حقه أن يثاب على ما يبذل من النصيحة وحسن التوجيه ، ومن حقه على الدولة أن يعيش على نفقتها ، وألح عليه أفلاطون وغيره من الأصدقاء أن يقبل تأدية غرامة فى نظير العقوبة ، وتكفل أفلاطون وسائر الأصدقاء والأتباع بأن يضمنوا تعهده ، ولكنه كان قد أغضب القضاة ، وأثار نقمتهم عليه ، فلما أخذ الرأى للمرة الثانية زاد عدد أصوات الذين حكموا بإعدامه .

يقول الأستاذ يوسف كرم فى كتابه عن تاريخ الفلسفة اليونانية « وكانت أثينا ترسل كل سنة حجيجا إلى معبد أبولون فى جزيرة ديلوس ، فاتفق أن كلل مؤخر المركب فى اليوم السابق على صدور الحكم ، وكان قانونا مرعيا أن لا تدنس المدينة بإعدام طوال زمن الحج ، وقد استغرق تلك السنة ثلاثين يوما ، فانتظر سقراط فى

سجنه أوبة المركب ، وكان تلاميذه يختلفون إليه كل يوم يتلاقون عند الفجر فى المحكمة ، فإذا ما فتح باب السجن دخلوا ، وكثيرا ماكانوا يقضون معه النهار بأكمله ، وكان هو ينظم فى أوقات الفراغ ، فنظم أمثال أيوب ونشيد الأبولون ، ولم يكن قد نظم الشعر قبل ذلك » .

وعمل تلامذته على أن يمهدوا له سبيل الفرار ، والراجح أن قضاته كانوا يؤملون أن ينتهى الأمر على هذا النحو ، لأن هدفهم الأصيل كان إبعاده عن أثينا والتخلص منه ، ولكنه أبى الفرار وعدّه نوعا من الخروج على قوانين بلاده التى يحترمها ، وقد نشأ وعاش فى ظل تلك القوانين ، فكيف يرضى لنفسه أن يستهين بها ويخرج عليها ؟ وجاءته زوجته باكية وبين ذراعيها أصغر أطفالها فأخذ يواسيها وطلب إلى أكريتون أن يصحبها إلى دارها ، ولما قال له أحد تلاميذه المتحمسين « إنك لا تستحق هذه الميتة » أجابه سقراط : « هل تريد إذن أن أستحقها ؟ » .

وعادت المركب وحان موعد الأجل ، وبكر تلاميذه بالحضور ، واتفق أن أفلاطون كان مريضا فى ذلك اليوم فلم يستطع الحضور ، وكان سقراط يبدو منشرح الصدر مطمئن النفس واثقا كل الثقة من أن الموت انتقال من عالم الدثور والفناء إلى عالم الخلود والبقاء .

ودار حديث بينه وبين بعض أصدقائه من الشبان أبدوا فيه ما خالجهم من الشكوك عن بقاء الروح بعد فناء الجسد ، فأكد لهم أن الروح لا تولد مع الجسد ولا تفنى بفنائه ، وإنما تشارك فى الأبدية الحق والخير .

وعند غروب الشمس ودعه حاكم السجن وهو يبكى لأنه لم يجد فى حياته سجينا أرق من حاشيته وأثبت جنانا ، وجاء الحارس الذى يحمل جرعة السم ، فتناول سقراط الكأس فى هدوء وشرب كل ما فيها دون أن يبدى أى تردد أو تقزز ، وهكذا كانت خاتمة هذا الفيلسوف الكبير .

أفلاطون والأدب والفن

أفلاطون أحد كبار الفلاسفة العالميين والمفكرين الخالدين ، وقد جمع بين القدرة على التفكير الفلسفى والملكات الأدبية الممتازة . وبالرغم من أنه لم يقرض شعرا مثل بعض الفلاسفة الشعراء فإن شاعريته تجلت فى محاوراته المشهورة ، فهذه المحاورات لا تمتاز بالتفكير الصارم والمنطق المتماسك وحدهما وإنما تمتاز كذلك بجمال الأسلوب وحسن اختيار الألفاظ ، والتشبيهات الرائعة والأخيلة اللامعة ، والاستعارات والمجازات والإشارات الموحية ، إلى الأساطير والخرافات التى لا يجمع شواردها سوى شاعر قوى الحس واسع الخيال .

ويعد أفلاطون فى طليعة كبار الكتاب الذين تناولوا مشكلات الأدب والفن ، وكان الاهتمام بالمشكلات الأخلاقية غالبا عليه ، ولذلك كان أول ما اجتذب انتباهه واسترعى اهتمامه فى الإنتاج الأدبى ، وألهاه عن المزايا الأخرى الموضوع الذى عرض له الشاعر أو الكاتب أو الذى تناوله الفنان .

ومعيار الإجادة الفنية عند أفلاطون هى أن تكون المعرفة المستفادة من الطرائق الأدبية أو من التحف الفنية مطابقة لواقع الحياة ، ولما كان قد بدأ بحثه بفكرة الربط بين الفن والأخلاق لذلك ذهب إلى أن الأعمال الأدبية والآثار الفنية إنما هى وسيلة لإظهار الحقائق الأخلاقية .

وقد عبر عن ذلك فى « الجمهورية » بقوله :

« إن حسن البيان وصحة الوزن والجزالة والإيقاع كافة تتوقف على الطبيعة الصالحة ، ولا أقصد بها السذاجة التى ندعوها – مجاملة – طبيعة صالحة ، بل أقصد بها العقل السليم سلامة حقيقية تجلت سلامته فى السجية الأدبية الشريفة . . . وأظن أن هذه المزايا تدخل إلى حد بعيد فى فن النقش ، وفى كل الفنون التى تحاكيه كالحياكة والتطريز والبناء والصنائع المنوعة بمختلف الآلات ، بل فى بناء الأجسام الحية ، وكل أنواع النبات ، لأن للرشاقة والمعاظلة دخلا فى كل هذه الأوساط ، وفقدان الجزالة والإيقاع واللحن حليف الأسلوب الفاسد والخلق الردىء ، أما وجودها فحليف الخلق الحميد ، أى الشجاعة والرزانة ، وإعلان له » .

« وإذا كان الحال هكذا ، أفنحصر أنفسنا فى مراقبة شعرائنا فنوجب عليهم أن يطبعوا منظوماتهم بطابع الخلق الحميد وإلا فلا ينظموا ، أو نوسع نطاق مراقبتنا فتشمل أساتذة كل فن فنحظر عليهم أن يطبعوا أعمالهم بطابع الوهن والفساد والسفالة والسماجة سواء فى ذلك رسوم المخلوقات الحية أو الأبنية أو أى نوع آخر من المصنوعات ، ومن لا يستطيع غير ذلك فننهاه عن العمل فى مدينتنا ، لكى لا ينشأ حكامنا فى وسط صور الرذيلة نشوء الماشية فى مراع رديئة ، فتتسرب الأضرار إلى نفوسهم فتفسدها بما تلتهم يوما فيوما من الأقوات من مختلف المواقع ، فيتجمع فى نفوسهم مقدار وافر من الشر وهم لا يشعرون ، وعندئذ يجب علينا أن نستدعى فنيين من طراز آخر فيتمكنوا بقوة عبقريتهم من اكتشاف مواطن الجودة والجمال ، فينشأ شبابنا بينهم كما فى موضع صحى ، يتشربون الصلاح من كل مربع تنبعث منه آى الفنون ، فتؤثر فى بصرهم وسمعهم كنسمات هابة من مناطق صحية ، فتحملهم منذ حداثتهم دون أن يشعروا على محبة جمال العقل الحقيقى والتمثل به ومطاوعة أحكامه » .

ينتقد هوميروس وكتاب الدراما

نرى من ذلك أن أفلاطون قد اتخذ النقد وسيلة لإظهار المدى الذى يستطيع الأدب أو الفن أن يوافينا فيه بمعلومات صادقة قيّمة لا تشوبها الشوائب عن حقائق الحياة . وفى إخضاعه الآثار الأدبية والفنية فى عصره لهذا المعيار . لقد وجد أفلاطون أن الأدب السائد الذى كان يشمل بوجه خاص أشعار هوميروس وهسيود وأغانى بندار وطرائق كتّاب الدراما اليونانيين لا يرتفع إلى المستوى المطلوب ، ولا يعين على تحقيق الهدف المنشود ، « لأنى أرى أن الشعراء والناثرين كتّاب الأقاصيص قد تورطوا فى الخطأ وأوغلوا فيه حينما يقولون إن الكثيرين من الرجال غير العادلين سعداء ، وإن الكثيرين من الرجال العادلين أشقياء تعسون ، وإن عدم مراعاة العدالة يجلب النفع إذا لم يكشف أمره ، وإن العدالة تنفع الغير وتؤذى صاحبها ، ويبدو لى أن نحظر عليهم إشاعة مثل هذه الأقاويل ونأمرهم بنظم الأغانى وتأليف الأقصوصات التى تحدث فى النفس تأثيرا مخالفا لذلك » .

ويسترسل أفلاطون فى نقده للأدب والفن فيضيف إلى ما أخذه على الموضوعات الأدبية والفنية وخروجها على الأخلاق نقدا آخر موجها إلى الأسلوب نفسه ، وهو فى هذا النقد يكشف عن الحدود الفكرية التى فرضها عليه عصره . إن أفلاطون لم يستطع أن يتبين أن النظرة الأدبية أو الفنية بطبيعتها نظرة ذاتية ، وأن ما عدّه عيبا ونقصا هو فضيلة ومزية ، فالشاعر أو الكاتب فى تمثيله للواقع لا يمثله فى واقعيته وإنما يقدم لنا المظاهر الفعلية للواقع ، فهو يرى أن الكاتب أو الشاعر حينما يصف شيئا واقعيا - أى حينما يقدم لنا الصورة الفعلية لهذا الشىء برموز كلماته - يكون أدنى مرتبة فى تمثيل الواقع من الفنان الذى يقدم صورة مطابقة للشىء بخطوطه وألوانه ، بل يكون كذلك أدنى مرتبة من الصانع الذى يصنع الفراش وهو المادة الواقعية التى يصورها الرسام ويصفها الشاعر والكاتب . ومعنى هذا أنه لم يفرق بين صدق الحواس وصدق الفكرة أو صدق المنطق وصدق الفن ، ولذا رأى أن الصور العقلية التى يجىء بها الأدب الخالق لا نصيب لها من الواقع ، ومن ثم لا تصلح للأغراض التعليمية .

أفلاطون ينتقد الشعراء

ولا يكتفى أفلاطون بذلك ، بل يضيف إلى الأدب عيبا آخر ناشئا عن طبيعة الأدب الخالق ولكن بطريقة غير مباشرة ، وذلك أن الشعراء لكى يأتوا بصور للحياة بالغة التأثير يضطرون إلى اختيار أفاعيل رديئة ويصورون شخصيات تعصف بها الأهواء العارمة ، والعواطف الغلابة العابثة ، ويعرضون عن تصوير الأعمال الصالحة والشخصيات العادية . ويقول أفلاطون على لسان سقراط تأكيدًا لذلك : « من فى طباعهم نزق وطيش يسهل محاكاة طبائعهم بطرائق شتى ، أما الأيسار الحازمون الذين لا تطير بلبهم الأحداث فإنه من الصعب محاكاتهم ، وحينما يحاول أحد محاكاتهم يكون من العسير فهمهم ، وبخاصة حينما تجتمع فى المسرح حشود مختلفة المشارب والأهواء . والمحاكاة فى هذه الحالة تقدم لهم لونا من ألوان الشخصية لا يألفونه لأنهم لم يتعودوا أمثاله » .

ويتبع ذلك أن الاطلاع على الأدب الخالق يقوى فى الإنسان الجانب العاطفى على حساب الجانب الفكرى ، ويمضى أفلاطون فى تأكيد رأيه هذا على لسان سقراط قائلا : « إن القسم الذى نضبطه لدى حلول ملمة بنا ، والذى يتوق إلى الاسترسال فى النحيب والعويل لأنه يميل إلى ذلك بطبيعته ، هو القسم الذى يغذيه الشعر سدا لشوقه ، فيطرب لهذه الأوصاف ، بينما قسمنا الأفضل طبعا يقصر فى ضبط القسم المتذمر ، لأنه لم يحصل على التهذيب اللازم عقلا وعادة ، لأنه شهد آلام الآخرين ولأنه لا يعيبه مدح من يحسبه صالحا وإن كان حزنه فى غير وقته ، والواقع أنه يرى السرور الذى يشعر به بعده كسبا له ، ولا يسمح لاحتقاره للقصيدة فى مجموعها أن يسلبه هذا السرور . وقليلون هم الذين يستطيعون أن يدركوا أن طبيعة خوالجنا لابد أن تتأثر بالطريقة التى نشاطر بها الآخرين مشاعرهم . وإذا نحن غذينا عامل العطف على الغير فى أحزانهم فليس من السهل أن نكبح جماحه فى حالة الأحزان التى تلم بنا » .

ولم يسأل أفلاطون نفسه هل هذا هو التقدير الصادق للشعر ووظيفته ، وإنما اكتفى بأن يبحث هل هذا التقدير للشعر نافع للفضيلة والأخلاق أو ضار بهما . وهذه هى الناحية التى تناول منها الموضوع فى جمهوريته ، ووقف الجزء العاشر منها على تناوله وتفصيل رأيه فيه .

أفلاطون يخضع كل شىء لخدمة المجتمع والفرد

وقد وضع أفلاطون كتاب الجمهورية ليوضح فيه مثله الأعلى للفرد من ناحية أخرى ، وحاول إخضاع كل شىء بما فى ذلك الفنون والآداب لخدمة المجتمع والفرد من الناحية الأخلاقية ، وحاول أن يزيل من طريق الدولة والفرد كل ما يعترض تحقيق المثل الأعلى للدولة والفرد ويقيم فى سبيله العقبات والحواجز . فهو من أول الأمر قد نظر إلى الموضوع من الناحية الأخلاقية الاجتماعية ، وأظهر أنه لا يحفل بالفنون والآداب إلا من ناحية تأثيرها الحسن فى تكوين حياة المواطن الصالح ، فجودة الشعر وإتقانه وبراعته وروعته لا تشفع له إذا رأى الحكام منعه من الإذاعة والانتشار وتحريمه لأنه يسىء إلى كيان الدولة ويهبط بمستوى الأخلاق .

لذلك لم يحجم أفلاطون عن مهاجمة هوميروس وهيسود ومن إليهما من الشعراء اليونانيين الذين ساروا فى آثارهم ونهجوا نهجهم ، وكيف يسمح الحكام بتمثيل الآلهة تمثيلا سيئا وإظهارهم فى مظهر الحريصين على الانتقام والذين غلبتهم الشهوات على أمرهم ، أو فى صورة الأشخاص الغلاظ القلوب الذين يسفكون الدماء ، ويستحلون المحرمات ، ويحارب بعضهم بعضا لأتفه الأسباب ؟ وكيف يسمح الحكام لهؤلاء الشعراء بأن يصفوا الله وهو مصدر الخير والنعم بأنه موجد الشر؟ وكيف يترك للشعراء حرية إظهار الآلهة فى صورة مختلفة والتحدث عنهم بالباطل والافتراء عليهم والحط من أقدارهم ؟ ولا يليق كذلك بالشعراء أن يتحدثوا عن الأبطال أمثال أخيل وبيريام بما يكشف ضعفهم ويظهرهم فى صورة من استبد به الحزن أو من تملكه الغضب وغلب عليه حب الانتقام .

يتهم هوميروس بإفساد الأخلاق

فهوميروس وهسيود متهمان بأنهما يفسدان الأخلاق ، وشعراء المأساة وشعراء الملهاة يؤخذ عليهما كذلك أنهما يقلدان أشياء غير جديرة بالتقليد ، فلا مكان لهم جميعًا فى جمهورية أفلاطون ودولته المثالية ولا مانع من أن تكرم وفادتهم وتوضع أكاليل الغار على رؤوسهم ، ولكن ليكن كله من ناحية بعيدة عن الجمهورية التى يجب أن لا يدنسها حضورهم ، وهكذا وقف أفلاطون فى صف بعض المتشددين من العبّاد والزاهدين الذين يرون فى الفنون والآداب مايغرى بالفساد ويهيج الشهوات ، ويحرك ميول الشر الهاجعة ونزوات النفس المستكنة .

ولكن أفلاطون لا يقف عند هذا الحد ، فهو قد انتقص الشعر من وجهة نظر الأخلاقى المتشدد ، أما من وجهة النظر الفلسفية فهو يرفض الشعر لأنه فى رأيه قائم على الباطل ، وأفراد جمهوريته ينشدون المثل الأعلى الأخلاقى فى سلوكهم ، ويطلبون الحق فى تفكيرهم ، فما حاجتهم إلى الفنون الموغلة فى الباطل والمحال ؟

الفنان عنده موكل بمظهر المظهر

والفنان عند أفلاطون موكل بالمظهر ، بل الأمر أدهى من ذلك وأمرّ ، لأن

الفنان فى الواقع موكل بمظهر المظهر ، فهو يتناول الدنيا التى يفرقها عن طريق الحواس ، دنيا المظاهر العارضة المتقلبة والرؤى الفانية التى تروح فيها الأشياء وتغدو ، وتبدو مرة صغيرة ضئيلة وأخرى ضخمة كبيرة ، وتكون مرة حلوة مستعذبة وأخرى تكون مرة مجتواة ، ولكنها لا تنفك فى تغير دائم ، وتحول مستمر ، على حين أن الشيء الحقيقى ثابت لا يتغير وواحد لا يتعدد ، فهناك مظاهر كثيرة نصفها بأنها حمراء أو صفراء أو خضراء ، ولكن هناك لون واحد أحمر ولون واحد أصفر ولون واحد أخضر ، وهو فكرة اللون الأحمر أو الأصفر أو الأخضر الكامنة خلف المظاهر المتعددة لهذه الألوان الأصلية . وهناك أشياء كثيرة نصفها بأنها أشياء جميلة ، ولكن الجمال المطلق واحد يدرك العقل حقيقته ، وأما ما تراه العين فإنه من صور الجمال ، وهى صورة منقولة عن هذا الأصل ، والفنان يقلد أمثال هذه الصور ، فهو لا ينقل عن الأصل وإنما يقلد التقليد .

والكرسى الذى يصنعه النجار ليس هو حقيقة ، وإنما هو مظهر ، وذلك لأن الكرسى المثالى واحد ليس غيره ، لأنه لو تعدد لكان وراء كل صورة كرسى الكرسى المثالى المطلق ، وهذا المثالى المطلق لا يتعدد ، فالنجار إذن يحاكى الحقيقة ويتخذها أنموذجا ، ومحاكاة الحقيقة مهما بلغت من الإتقان ليست الحقيقة ، فالكرسى الذى يصنعه النجار إذًا غير حقيقى ، والمصور الذى يصور هذا الكرسى إنما يصور خيال الحقيقة أو ظلها ، فصورته فى الواقع هى خيال الخيال أو ظل الظل ، فهى من ثم أبعد عن الحقيقة لأنها محاكاة المحاكاة .

وكالمصور الشاعر

والشاعر مثل المصور إلا أنه يستعمل الأفعال والأسماء والأوزان التى تستجيب لها الأذن ، كما تستجيب العين للصور ، وهو مثل المصور لا يستحضر سوى الأشباح المحكية والصور المرددة المكرورة ، وعمله مثل عمل المصور محاكاة للمحاكاة ، وموضوعه باطل ، وطريقته ضلال فى ضلال ، لأنه لا يستجيب للعقل ، وإنما يستجيب للعواطف التى لا كابح لها ، والتى نخجل فى حياتنا العامة من أن نطلق لها العنان ونلبى رغباتها ، ومن أجل هذه الأسباب القوية لا مندوحة من إبعاد

هوميروس وهسيود عن الجمهورية المثالية ، وإذا سمح فيها بتلاوة شيء من الشعر فليقصر ذلك على القصائد الدينية التى تمجد الآلهة وتسبح بحمدها .

خطأ أفلاطون فى ثناياه بعض الحق

وهذا هو موجز رأى أفلاطون فى الأدب والفن الذى بسطه فى جمهوريته ، ومن السهل أن نلمس فيه ناحية الخطأ وجانب الضعف والانحراف ، ولكن خطأ أفلاطون مثل خطأ سائر كبار الفلاسفة والمفكرين ، يطوى فى ثناياه جانبا من الحق الذى قد ينفع المفكرين ويرشدهم إلى الطريق السوى ، فأفلاطون على حق حينما يقول : « إن الشاعر أو الفنان يأتى بشيء ينقص عن الحقيقة التى يريد تمثيلها ، وأقدر الناس على التصور لا يجيء بالصورة المطابقة للأصل تمام المطابقة ، ولكنه وإن كان من ناحية يرسم صورة أقل من الحقيقة والواقع ، فهو من ناحية أخرى يضيف إلى الحقيقة والواقع شيئا من عنده ، لم يكن فى الأصل الذى نقل عنه ، أى أنه يخلق شيئا ، ويضيف جديدا ، فهو يبث فكرته ويضيف إحساسه الخاص ، ويكشف لنا عن إدراكه الذاتى للصفات الأصلية الجوهرية والجوانب المميزة البارزة فى الأشياء التى يتناولها وكأنه يحاول أن ينقى الصورة من التفصيلات التى لا لزوم لها والحواشى غير الجوهرية ليبرز لنا الفكرة فى صفائها ونقائها ، وهو بذلك قد استطاع أن يسبغ على القطعة الصغيرة التى استخلصها من الدنيا صفة الوحدة والنظام والاتساق والبقاء والدوام التى يكثر أفلاطون من التحدث عنها .

وقد أوضح أفلاطون الخلاف بين الفن والأخلاق ، والكثيرون من مفكرى العصر الحاضر لا يقرون أفلاطون على وجود هذا الخلاف ، فالمذاهب الأخلاقية تهذِّب وتعلم ، والفن لا يحاول أن يعلم وإنما يحاول أن يصف الحياة كما يحبها الفنان . ومن حقنا أن نقبل ذلك الوصف أو نرفضه ، وإذا أردنا أن نستخرج منه درسا فهذا عملنا نحن وليس للفنان شأن فى ذلك ، فهو لا يعلِّم ولا يعظ ولا يبشر ، وإذا تعلمنا منه ووعظنا بآرائه وبشرنا به فالتبعة فى ذلك علينا ، وليست تبعته ، فهو قد وصف لنا رؤياه وأحلامه وأوهامه وعواطفه وأحاسيسه فلنسمها ما نشاء ، فإن هذا لا يعنى الفنان . أما الفنان الذى يحاول فى فنه أن يبشر بمذهب أو يدعو إلى فكرة

فإنه يسمى داعية أو مصلحا أو ما شئت من الأسماء ، ولكنه لا يسمى فنانا بالمعنى الأصيل للكلمة .

– سلكوا الشعراء فى سلك المعلمين ، فأثار هذا أفلاطون –

ومن الأسباب التى جعلت أفلاطون يحمل على الشعراء والفنانين أن أهل عصره أصروا على أن ينظموا الشعراء فى سلك المعلمين والهواة المصلحين ، فلما حاول أفلاطون أن يزنهم من هذه الناحية لم ترجح بهم كفة الميزان ، ووجد نفسه فى النهاية مضطرا إلى طردهم من جمهوريته ، وقد كان تفكير أفلاطون متجها إلى إبعاد العقل عن عالم الحس لينصرف إلى عالم الحقيقة الخالصة ، والفنان يصل إلى عالم الحقيقة عن طريق عالم الحس . فطريقته تخالف صميم مذهب أفلاطون الفكرى ، ولا غرابة إذن فى أن يناصب أفلاطون الفنون العداء ، وقد رأى أفلاطون أن الفنان يحاول تصوير الحقيقة أو ما يسميه أفلاطون المظهر ، أى أنه يحاول تصوير الحياة ، وهو يعمل على أن يسرنا هذا التصوير ويمتعنا ، وهذا هو مصدر خطر الفن عند أفلاطون . وقد عرف أفلاطون أن التصوير لا يستطيع أن يحاكى الأصل المحاكاة كلها ، ولكنه لم يفكر فى النواحى التى قد ترجح فيها الصورة على الأصل الذى حاولت محاكاته ، ومهما يكن من الأمر فإنه قد أدرك الصلة بين الفنون المختلفة ، فالشاعر الذى يقرض الشعر يقوم بمحاولة كمحاولة المصور الذى يعمل على رسم الصورة ، وكلاهما عنده يحاكى الصورة ولا ينقل عن الأصل ، وكلاهما يحاول أن يمتع ويسر ويثير العواطف ويحرك الأهواء ، وقد صرفت مشكلات السياسة والأخلاق أفلاطون عن إطالة تسليط أشعة فكره القوى على مشكلات الفن والأدب .

وحماسة أفلاطون فى الدفاع عما اعتقد أنه الحق جعلته لا يرى بأسا فى التنكر لأصدقائه الشعراء والفنانين وانتقاص الشعر على إعجابه وحبه له ، وكأنه فى حملته على الشعر والشعراء قد يضع من نفسه بضعة ، وضحى بجزء من كيانه على مذبح الفلسفة ، ولم يستطع فى جمهوريته أن يغالب الاعتراف بحبه للشعر ، وكأنه بهذا الاعتراف كان يحاول التكفير عن هذه الخطيئة فيقول على لسان سقراط : « يجب أن

أصرح بفكرى رغما عن احترامى هوميروس الذى أحسبه منذ حداثتى أمير ناظمى المآسى والمراثى الأعظم ، على أنه من الخطأ تضحية الحقيقة إكراما للإنسان ، لذلك يجب أن أقول قولى » .

رأى سن جوبتا فى حملة أفلاطون على الشعراء

ويقول البحاثة الهندى سن جوبتا Sen Gupta فى تعليل حملة أفلاطون على الشعر فى كتابه « نحو نظرية للخيال » : « يرى بعض الناس أن حملة أفلاطون على الشعر محدودة بحال التطبيق ، لأنه عاش فى وقت كانت أثينا قد غلبتها على أمرها إسبارطة فى الحرب البيلوبينزية ، ومن الطبيعى أن الأثينى فى مثل هذه الحالة يرى أن حكومة إسبارطة هى الحكومة المثالية ، ويعزو ما أصاب أثينا إلى ما أحدثه الشعر والفنون فى إلانة العزائم وإضعاف الأخلاق » .

وكأنه لم يكتف بهذا التعليل فيمضى قائلا : « لقد أشير كذلك إلى أن اليونانيين القدامى لم يكن لهم كتب فى اللاهوت والدين تعد مراجع محترمة يرجع إليها ويعتمد عليها ، ولذلك اتجهوا إلى الشعراء ليتلقوا منهم الإرشاد ويأخذوا عنهم التوجيه فى هذين الموضوعين ، وقد تأدى بهم هذا الاتجاه إلى التصور الأساسى الخاطئ للشعر ، فقد جعلهم يلتمسون فى الشعر الحق والدروس الأخلاقية بدلا من التماس التجربة الخاصة التى نسميها المتعة الجمالية » .

وفكرة المثل عند أفلاطون ، القائمة على اعتقاده أن فوق عالمنا هذا عالمًا آخر تعمره المُثُل الأصلية للأشياء ، جعلت أفلاطون يتشبث بفكرة أن الفنون جميعها قائمة على المحاكاة ، كما أن اعتقاده أن العقل وحده هو سبيل النفاذ إلى عالم المُثُل ، مال به إلى الشك فى العواطف والأحاسيس التى قد تنال من سيطرة العقل وتضعف من رقابته على الإنسان ، ويضاف إلى ذلك أن فلسفته الجمالية بوجه عام متمشية مع المذاهب الأخلاقية التى كانت سائدة عند القدماء وجميعها ترمى إلى كبت العواطف ومقاومة الأهواء والنزعات .

أرسطو ورأيه فى الشعر

من الكتب التى كان لها تأثير بعيد المدى فى النقد الأدبى عند نقاد الغرب كتاب أرسطو عن الشعر ، فما هو أصل الفن عند أرسطو ، وما غايته ؟ وهل يرمى الفن إلى خلق الإحساس بالجمال الحسن الوقع فى النفس فحسب ؟ وإذا لم يكن هذا هو هدفه فما هو هدفه إذن ؟ وما هو جوهر الفن ؟ وماذا يفعل الشاعر حينما يصور فى شعر غنائى آلام الحب ومسراته ، ولواعج الشوق وتبريحاته ؟ وماذا يصنع المصور الذى يقدم لنا صور المناظر الطبيعية الرائعة ؟

الغالب على تفكير العصر الحديث أن جوهر الفن هو خلق المثل العليا ، لأن الإنسان فى حاجة ماسة إلى مطالعة ما يسمو على الواقع الحائل اللون الذى مللنا رتوبه ، ولكن الإغريق القدامى كان لهم رأى آخر ، فالفن كان عندهم قائما على محاكاة ما نراه فى واقع الحياة ، فالتصوير والشعر والمسرحيات والقصص والروايات ليست سوى صور مطابقة للأصل الذى يقدمه لنا الواقع ، ويرجع إليه فى تصويره ، ويعمل على أن يكون أمينا فى محاكاته .

وأساس الفن فى رأى أرسطو هو المحاكاة ،ولكن مذهب المحاكاة كان معروفا عند الإغريق قبل أن يقول به أرسطو ، وقد عرفه قبله سقراط ، وأيده وبنى عليه أحكامه أفلاطون ، وقد استخلص منه أفلاطون نتائج حملته على أن يهاجم الشعر ، ويتنكر للفن ، ويوحى بإخراج الشعراء من جمهوريته .

ولم يكن أفلاطون رجلا حالما ، وإنما كان يرى أن الفرد يجب أن يكون قبل كل شىء نافعا للدولة ، وأن يعمل على أن يعيش عيشة نبيلة مجيدة ، ويسهم فيما يعود على الناس بالخير ، وكان ينظر إلى العلم والفن لا من الوجهة العلمية الخاصة أو من الوجهة الفنية المحضة ، وإنما من الوجهة الاجتماعية الأخلاقية ، وعنده أن الإنسان لم يوجد للعلم والفن ، وإنما العلم والفن قد وجدا من أجل الإنسان ، وأن على العلم والفن أن يكونا فى خدمة الإنسان ، وكان له من اتجاه أهل عصره إلى الإسراف فى التعلق بالفن شفيع وعذير فيما قد يبدو فى كتاباته من تحامل على الفن بوجه عام ، وعلى الشعر بوجه خاص . والفن عند أفلاطون ملهاة ثمينة باهظة

التكاليف ، تستلزم وقتا طويلا ممن لا عمل لهم غير معاناته ، والتفانى فى الاستجابة لرغباته .

وكان أفلاطون يرى أن هناك نوعين من الفنون ، فن منتج وفن محاكاة ، أوحسب المصطلح الحديث فن عملى تكنى وفن جميل ، فالأول ينتج الأشياء اللازمة للحياة والنافعة للناس ، مثل الآلات اللازمة للزراعة والصناعة ، والآلات اللازمة للرياضة التى تمنح مباشرتها القوة ، ومثل تحضير الأدوية والعقاقير الطبيئة التى تساعدنا فى الاحتفاظ بالصحة الحسنة ، وتذود عنا غوائل الأمراض والعلل ، وكل هذه الصناعات جديرة بالتقدير ، وخليقة بالعناية والاهتمام ، أما فنون المحاكاة ، ولنسمها الفنون الجميلة ، فأى بغرض تخدم ؟ إنها تسر النفس ، وتشرح الصدر ، ولكنها قليلة النفع ، فهى من قبيل الألعاب ووجوه التسلية والترفيه عن النفس ، وليس لها كبير قيمة فى رأى الناس الجادين ، وقد يرد على ذلك بأن الاستمتاع بطرائق الفن له فائدة عظيمة للإنسان ، لأنه يسمو بنفسه ، ويصقل ذوقه . والارتياح الذى يبعثه الفن فى نفس الإنسان يجعله أكثر قابلية للعطف على إخوانه البشر ، والإنسان بعد خروجه من أحد متاحف الفن ، أو بعد مشاهدته تمثيل إحدى المسرحيات يشعر بأن آفاق نفسه قد اتسعت ، وبأنه أكثر ميلا إلى معاونة إخوانه البشر من الرجل المنحرف المزاج ، والفنان لا يعنى بالمحتوى الداخلى ، وإنما يشغل نفسه بالظواهر الخارجية ، وهو يكتفى بالمعرفة السطحية للأشياء ، لأنه لا يحاكى سوى المظهر الخارجى ، والطبيب يعرف بناء جسم الإنسان ولكن الفنان يجهل ذلك ، والشاعر مثله لا يعرف الحياة الإنسانية معرفة صحيحة ، ولا تتيسر هذه المعرفة إلا بعد دراسة عميقة مستوعبة ، إذ لا تكفى الملاحظات السريعة والخواطر العارضة، والمصور والشاعر لا يعرفان شيئا عن طبيعة ما يحاولان محاكاته، فهما يخبطان فى الظلام ، ويسيران بدافع الغريزة ، ويزعمان أنهما يتبعان ما يلهمهما به الوحى الخفى ، والهاتف الداخلى .

ويشتد أفلاطون فى حملته على الفن لأنه يراه قليل النفع للإنسان .

والعلم هو مستودع تجارب الإنسان ، ولكن الكشوف العلمية لا يفيد منها الناس إلا إذا انتشرت رغم نفعها ، والحقائق العلمية تستلزم معرفة سابقة ، وتفكيرا جديا

قد لا يستطيعه الكثيرون ، ولتمكينهم من استساغتها يقتضى الأمر أن نعرض عليهم تلك الحقائق فى صورة مبسطة ، وقراءة القصص والروايات تتكفل بهذه المهمة ، لا لأن كتّابها تعمدوا القيام بهذه المهمة بل لأنهم أسمى ثقافة ، وأقرب إلى إدراك قيمة الحقائق العلمية من جمهرة القراء ، .ويستطيع عدد كبيْر من الناس أن يزيدوا معلوماتهم ، ويوسعوا نطاق ثقافتهم عن طريق الاستمتاع بقراءة القصص والروايات والأشعار والمسرحيات ، وهذا يبين أن لفنون الأدب قيمة تعليمية برغم انتقاص أفلاطون للشعر والفنون قاطبة .

والمحاكاة التى عدها أفلاطون أول ما يعيب الفن ويزرى بقيمته فى رأى أرسطو هى أول مميزاته وأجل خصائصه ، فالميل إلى المحاكاة أن علاقة مباشرة بالظمأ إلى المعرفة ، والرغبة القوية فى المعرفة تحثنا على الموازنة بين الأصل والصورة ، وتستدعى هذه الموازنة دراسة الموضوع والإحاطة به ، وهذا هو سر المتعة التى نجدها فى الفن فى رأى أرسطو ، فالفن إذن قوى الصلة بأسمى تطلعات النفس الإنسانية ، والمعرفة عند أرسطو أسمى من الحياة ذاتها ، والتفكير النظرى أسمى من الممارسة العلمية ، ومثل هذا اللون من التفكير يتجه إليه الذين يرون أن المعرفة أهم أغراض الحياة ، وهذا التفسير لأصل الفن يمنحه مكانا ساميا بين مجاهدات الروح الإنسانية . ويخالف النقاد المحدثون أرسطو فى ربطه الميل إلى المحاكاة بطلب المعرفة ، ويرى هؤلاء النقاد أننا نحاول المحاكاة لا لأننا نريد أن نتعلم شيئا ، وإنما نحاولها لأننا نريد أن نصنع شيئا ، فالمحاكاة نشاط عملى وليست محاولة فكرية ، وحقيقة أننا فى بعض الأحايين نقرأ الأشعار لنتعلم منها أشياء عن الطبيعة البشرية وخفايا النفس الإنسانية ، ولكن ليس هذا هو الدافع لقراءة الأشعار فى معظم الأوقات ، والشاعر لم يقرض الشعر لأنه يريد أن يوضح لنفسه مشكلة ، أو أن يعالج قضية من قضايا الفكر ، وإنما نظم القصيدة بدافع الرغبة فى المحاكاة كما كان يقول القدماء أو الرغبة فى الخلق كما يقول النقاد المحدثون ، والإعجاب بهذه الموهبة الخلاقة هو منبع الارتياح الذى تبعثه فى نفوسنا الطرف الفنية .

والشعر فى رأى أرسطو يصور الحياة البشرية من وجهة نظر عامة ، ولا يمثل تفاصيلها القليلة الأهمية ، وإنما يقتصر على توضيح ما هو جوهرى ، وعناية الشعر

بتصوير خصائص الحياة الجوهرية وإغفال ما ليس له قيمة ولا دلالة تجعل له قيمة فلسفية ذات شأن ، وهو من هذه الناحية أسمى من التاريخ فى رأى أرسطو ، والتاريخ يصف الخصائص الجوهرية والأشياء غير الجوهرية والتى ليست لها أهمية داخلية ، والشعر أسمى من التاريخ كذلك من ناحية أنه يمثل الأحداث فى ترابطها الداخلى ، فى حين أن التاريخ يعرض الأحداث دون أن يكون بينها اتصال وثيق ، ويحتوى التاريخ على تفاصيل كثيرة خالية من الدلالة والأهمية ، ويقول أرسطو فى ذلك « ليست وظيفة الشاعر أن يروى لنا ما حدث ، وإنما وظيفته أن يروى لنا ما يمكن حدوثه تبعا لقانون الاحتمال أو الضرورة ، وليس الفرق بين المؤرخ والشاعر أن الشاعر يستعمل الوزن والمؤرخ لا يستعمله ، فكتاب هيرودوت يمكن أن ينظم ولكنه يظل مع ذلك تاريخا ، والفرق بين التاريخ والشعر أن التاريخ يروى ماحدث فى حين أن الشعر يروى ماكان يمكن أن يحدث ، ولذلك كان الشعر أعمق وأكثر دلالة من التاريخ ، والشعر يروى العام والكلى فى حين أن التاريخ يهتم بالخاص والجزئى ، والعام هو مايمكن أن يقوله إنسان معين أو ما يمكن أن يفعله تبعا لقانون الاحتمال أو قانون الضرورة » .

ويبدو لى أن رأى أرسطو فى المفاضلة بين الشعر والتاريخ وترجيح الشعر على التاريخ كان قائما على صورة الكتابة التاريخية التى كانت موجودة فى عصره ، وكانت أقرب إلى الحوليات منها إلى الكتابة التاريخية الحقة ، وكتاب هيرودوت فى التاريخ ينقصه الترابط والتماسك ، وهو حافل بطرائف الأخبار ، وقد حاول هيرودوت أن يكتب تاريخ حرب الفرس والإغريق ، ولكنه لم يبدأ قصة تلك الحرب إلا فى الجزء السادس من الكتاب ، وقد حدثنا عما عرفه من تاريخ الأقوام الذين خالطهم وألم بعاداتهم وتقاليدهم ، وقد أعلن الفرس الحرب على المصريين ، ويغتنم هيرودوت هذه الفرصة ليفيض فى الحديث عن المصريين ، كما أعلن الفرس الحرب على الاسكوزيين ويتيح له ذلك الفرصة للتحدث عن الاسكوزيين وتاريخهم ، ويتخلل ذلك روايات شتى سمعها من القساوسة والرهبان ، فهو راوى قصص مسلية وطرائف شائقة ، ولكن كتابه ينقصه البناء المحكم والتماسك المنطقى ، والمؤرخ اليونانى توكوتيدس كاتب حوليات تدل على سعة المعرفة وعمق

التفكير ، ولكن ما يرويه كذلك ينقصه الترابط المنطقى ، واتباع هذه الطريقة فى كتابة التاريخ يجعل المؤرخ عرضة لأن يوجه اهتمامه إلى تفصيلات قد لايكون لها أهمية تستحق الذكر ، ولم يكتسب التاريخ الصفة العلمية إلا فى العصر الحديث ، وكتابة المؤرخين المحدثين تمتاز بالتسلسل المنظم والترابط المنطقى ، وهى خالية من التفصيلات التى لا أهمية لها ، وتحوى الحقائق الهامة التى لها دلالة عامة كالحقائق التى كان يريدها أرسطو ، وهى الحقائق التى توضح خصائص العصر ومميزاته ، ولا أحسب أن رأى أرسطو فى التاريخ يصدق على مثل طريقة جيبون فى كتابه عن سقوط الإمبراطورية الرومانية أو غيره من المؤلفات التاريخية الممتازة التى ظهرت فى العصور الحديثة مثل مؤلفات مومسن وكارلايل وميشليه ورينان وغيرهم من كبار المؤرخين المحدثين .

وقد قصر أرسطو الشعر على أربعة أنواع ، وهذه الأنواع الأربعة تتألف منها مجموعتان بينهما روابط تاريخية وفنية ، وقد ابتدأ الشعر فى نوعين ، كما أن البواعث عليه تسير فى اتجاهين ، فهو يبدأ إما شعرا حماسيا وهو الذى يتمثل فى الملاحم ، ومن شعر الملاحم نشأت المأساة ، وإما شعرا هجائيا ، ومن الشعر الهجائى نشأت الملهاة ، والملاحم من الناحية التاريخية أقدم من المآسى ، كما أن شعر الهجاء كان أسبق من الملهاة ، ولذلك رأى أرسطو أن ظهور المأساة والملهاة يمثل تطورا هاما فى الشعر جديرا بأن يسلط عليه الضوء ويركز عليه البحث ، وقد أغفل أرسطو الحديث عن الشعر الغنائى ، ويعلل الناقد ابركرومبى ذلك بأن شعر الغناء كان مرتبطا بالموسيقى ، وأرسطو ينص على أن أداة الشعر الكلام .

ويختلف مفهوم المحاكاة عند أرسطو عن مفهومها عند أفلاطون ، ومفهوم المحاكاة عند أفلاطون متصل برأيه المشهور فى نظرية المُثُل ، وهو يضرب مثلا لذلك بالسرير الذى يصنعه النجار ، فهذا السرير محاكاة لفكرة السرير الموجودة فى المثل ، فإذا جاء المصور ورسم صورة لهذا السرير فإن هذه الصورة تعد منقولة عن الصورة التى صنعها النجار ، وعلى هذا النمط سار أفلاطون فى تفكيره عن الشعر ، فالشعر فى رأيه قائم على محاكاة المحاكاة ، وهو بذلك شىء لا لزوم له ولا فائدة ترجى منه ، والعمل الجدير بالرجل العاقل هو أن يعنى بالحقائق التى تكسب مزيتها من الأفكار التى تمثلها .

والمحاكاة عند أرسطو ليست محاكاة خالصة أو تقليدا أعمى ، والهدف الذى يرمى إليه التقليد الشعرى هو أعمال الناس ، والمقصود بذلك الحوادث التى لها صلة بالإنسان وحياته ، أى القصة فى أوسع معانيها ، وأبرز العناصر فى كل قصة هو بطبيعة الحال العنصر البشرى ، وبذلك أصبح من الميسور تقسيم المحاكاة الأدبية بحسب طبيعة العنصر البشرى ، والناس فى العادة يوصفون بأنهم أشرار أو أخيار ، والشعر يتناول تصوير الناس بصورة خير مما هم عليه أو بصورة شر مما هم عليه ، أو مطابقة لما هم عليه ، وأرسطو لا يحفل بهذا الاحتمال ويتجاهله ، ويصر على بحثه الحالة الأولى والحالة الثانية ، فالشعر الذى عنى به هو الذى يحاول تصوير الناس فى صورة خير مما فى الحياة ، أو بصورة شر مما فى الحياة ، والصورة الأولى هى الشعر الجدى ، والصورة الثانية هى الشعر الهزلى ، وهذا هو أساس تقسيمه الشعر إلى شعر المأساة وشعر الملهاة ، واتباعا لهذه الاعتبارات قد يكون الشخص فى المأساة خيرا منه فى الحياة العادية ، وقد يكون الشخص فى الملهاة شرا مما نراه فى مألوف الحياة .

وليس معنى هذا أن أشخاص المأساة يكونون دائما من الناحية الأخلاقية أسمى من سائر البشر ، وإنما المقصود بذلك أنهم أقوى تأثيرا فى النفس ، ويمكن أن نستخلص من ذلك أن المحاكاة الشعرية ليست محاكاة خالصة . لأنها إذا كانت كذلك لما استطاع الشعر أن يقدم لنا صورة خيرا من الأصل أو شرا منه ، وواضح من ذلك أن الشعر لا يحاكى الطبيعة وإنما يصور ما يتمثل فى خيال الشاعر ، ولا حاجة بالشاعر إلى إعطاء صورة مماثلة للطبيعة كل المماثلة لأن الطبيعة ماثلة أمامنا فى كل حين ، فالشعر إذن فى رأى أرسطو ليس من قبيل المحاكاة التى تصورها أفلاطون ، وإنما يقدم لنا الشعر عالما خياليا يمثل احتمالات لما يمكن أن يوجد فى الطبيعة ، والشعر يصور الحياة كما يمكن أن تكون ، وهذا مما يفسح المجال للخيال ، ويمكنه من أن يمارس وظيفته ، ولو اقتصر عمل الخيال على استبعاد النواحى التافهة التى لا دلالة لها فى الواقع لكان هذا كافيا فى توضيح أن الشعر لايقدم صورة منقولة نقلا حرفيا من واقع الحياة ، وهو الأمر الذى جعل أفلاطون يحمل حملته المعروفة على الشعر والشعراء . والحقيقة أن ما يسميه أرسطو المحاكاة فى الشعر هو لون من

ألوان البراعة المضنية والقدرة على الصياغة والتأليف أو الخلق كما يعبر عنه المصطلح الحديث .

وقد اتهم أفلاطون شعر المأساة بأنه يثير المشاعر ويستدر الدموع ، وعد ذلك من عيوبه ، وقد استطاع أرسطو أن يفند هذا الرأى بنظرية التطهير التى أوضحها فى كتابه عن الشعر ، وعند أفلاطون أن بطل المأساة حينما يندب سوء حظه ، ويشكو ما حل به من الكوارث ، يضرب للناس مثلا سيئا فى انحلال عقدة الصبر ، وإظهار الضعف تلقاء الحوادث . والإنسان فى الحياة العادية لا يعجب بالرجل الذى يسرف فى الشكوى ، ولا يكف عن عرض أحزانه على جيرانه وإخوانه ، ويكبر الرجل الجلد الصبور الذى يثبت للأحداث ، وينأى بنفسه عن أن يكون موضعا للرثاء واستدرار العطف ، وإذا سمحنا لأنفسنا بالاسترسال فى مشاركة أبطال المأساة أحزانهم فقدنا السيطرة على مشاعرنا ، وضعفت عزيمتنا ، وعجزنا عن احتمال ما يصيبنا من الآلام ، وبذلك تصبح المأساة سيئة الأثر فى النفس ، وموهنة لسيطرة العقل ، ويسلم أرسطو بما تثيره المأساة من الانفعالات فى النفس ، ولكنه يرى أن هذه الإثارة جد نافعة ، لأنها بمثابة التطهير للنفس ، والمأساة فى رأى أرسطو تثير انفعالين ، وهما شعور الرأفة والخوف ، وهما انفعالان موجودان فى جميع أفئدة البشر ، وبينهما رابطة قوية ، فقد يستتر الخوف وراء الرأفة .

ويرى بعض شراح نظرية أرسطو أنه ربما كان يشير بذلك إلى نظرية من نظريات الطب كانت معروفة فى عصره ، كما رأى بعض هؤلاء الشراح أن أرسطو ربما يكون قد اتجه إلى هذه الفكرة لما لاحظه من تأثير الموسيقى فى شفاء بعض الاضطرابات العصبية ، وقد كشف علماء النفس المحدثون أن بعض العقد النفسية المستعصية تخف حدتها وتعالج عن طريق الاستهداف للانفعالات العنيفة التى تثيرها الضجة المدوية أو الموسيقى الصاخبة ، وقديما قال أبو نواس :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

وقد استهل الشريف الرضى إحدى قصائده الرائعة بقوله :

اسل بدمعك وادى الحى إن بانوا إن الدموع على الأحزان أعوان

وكان فى الطب اليونانى رأى يقول إن كل جسم يجوز استخراج ما به من مادة

غريبة بأن يعطى مادة تشابهها بمقادير خاصة كما يقول الناقد ابركرومبى ، وعذره أن هذا يشبه التطعيم ضد الأمراض فى الطب الحديث .

والمأساة – مجاراة لهذا الرأى – تبرئ النفس من شعور الخوف والرأفة ، لأنها تثير فى النفس هاتين العاطفتين ، وهذا يعد من أهم مزاياها ، وهو مصدر الارتياح الذى نستشعره بعد حضور تمثيل المأساة ، أو بعد قراءة الشعر الذى تغلب عليه النغمة الحزينة بوجه عام ، مثل رباعيات عمر الخيام ولزوميات أبى العلاء المعرى وشعر الغزل الذى يصف ما يعانيه المحبون من لوعات الفراق ولواعج الاشتياق وقصائد الرثاء الذى يصف مايصيب النفس من الآلام المبرحة حينما تفجع فيمن يعز عليها فقدهم من الأقارب الأعزاء والأصدقاء الأوفياء . ويقول ابركرومبى [١] « لعل ملتن أول كاتب إنجليزى قام بشرح هذه النظرية وإيضاحها ، فقد ذكر فى مقدمة لمنظومته المعروفة عن شمشون الجبار « إن المأساة هى أكثر أنواع الشعر نفعا » واستدل على هذا الرأى بكلام أرسطو فقال « ولهذا قال أرسطو عنها بأنها حين تثير شعور الرأفة أو الخوف والرعب فإنها تطهر الروح من هذه العواطف أى تخفف من وقعها وتنقصها إلى القدر اللازم مع ارتياح النفس عند مطالعة أو مشاهدة هذه العواطف مقلدة تقليدا متقنا ، والطبيعة تثبت صحة ما ذهب إليه ، ففى الطب تستخدم الأشياء ذات الصفة اللمفاوية لمعالجة الأمراض اللمفاوية ، ويستخدم الحامض ضد الحموضة والمالح لاستبعاد الملوحة ، وهنا نرى الآراء التى كانت سائدة فى القرون الوسطى عن الطب اليونانى ، ولكن لاشك فى أن ما ذهب إليه ملتن صحيح وهو أن أرسطو كان يرى أن وظيفة المأساة شىء يشبه الطب ، والذى تتضمنه المأساة من الرأفة والخوف هو العلاج الذى يستطيع به شاعر المأساة أن ينظف نفوس سامعيه ، ويعيدهم إلى العاطفة الصحيحة بطريق التطعيم .

وبرغم ما وجه إلى آراء أرسطو فى كتابه عن الشعر من نقد فإنه لا يزال من المراجع المأثورة فى النقد الأدبى والفلسفة الجمالية .

---

(١) راجع صفحة ١٢٣ وصفحة ١٢٤ من كتاب قواعد النقد الأدبى تأليف لاسل ابركرومبى وترجمة الدكتور محمد عوض محمد .

مؤامرة كاتيلين

من الأقوال المأثورة عن المؤرخ البريطانى جيبون قوله فى كتابه المشهور عن سقوط الإمبراطورية الرومانية خلال حديثه عن الإمبراطور الرومانى أنطونيوس بيوس « يمتاز حكمه بالميزة النادرة ، وهى تزويد التاريخ بمواد جد قليلة ، والتاريخ فى الواقع لا يزيد إلا قليلا عن تسجيل جرائم البشر وحماقاتهم وكوارثهم ولا يسع من يطيل النظر فى تاريخ البشر أو يلم به إلماما يسيرا إلا أن يقر هذا الرأى ، فصفحات التاريخ وسجلاته ملأى بالحروب المدمرة والأحداث الدامية والفواجع الأليمة والخيانات والحماقات والسخافات التى نسميها تاريخ الإنسانية » .

ومن قبيل تلك الأحداث المؤامرات على اختلاف أنواعها ، والأصل فى التآمر هو التشاور بين اثنين أو أكثر لإيقاع الأذى ، والقيام بعمل ينطوى على تحدٍّ للقانون ، مثل الاتفاق على السطو على إحدى المؤسسات ، أو إحراق حى من الأحياء ، أو اغتيال شخصية من الشخصيات البارزة ، مثل زعماء الأحزاب أو رؤساء الدول أو القادة العظام .

وكثيرا مايشغل المؤرخون بالهم بتحرى أخبار المؤامرات السياسية بوجه خاص ، وذلك لأن هذه المؤامرات فضلا عن كونها تكشف جوانب مختلفة من الطبيعة الإنسانية فإنها شديدة العلاقة بالتيارات الفكرية والحالات النفسية الغالبة على العصر الذى تدبر فيه ، ويمكن أن يقال بوجه عام إن معظم المؤامرات السياسية كان باعثها الصراع من أجل طلب السيطرة والنفوذ والسلطان ، أى أنها فى جوهرها لون من ألوان الصراع السياسى .

وقد اشتهرت فى التاريخ العالمى مؤامرات سياسية كثيرة ، بعضها حقق الأهداف التى كان يرمى إليها المتآمرون ، وفى بعضها أخفق المتآمرون فى إصابة الهدف وتحقيق الغاية منه ، من أمثلة ذلك مؤامرة الديسمبريين فى تاريخ روسيا السياسى ، وقد حدثت فى أعقاب وفاة القيصر الإسكندر الأول فى نوفمبر سنة

١٨٢٥ للإطاحة بالحكم القيصرى ، وقد أخمدها القيصر نيقولا الأول ، وبعد إخفاقها أرسل الوزير البريطانى المقيم فى بطرسبرج إلى كاننج وزير خارجية إنجلترا فى تلك الفترة يقول[١] « أخفقت المؤامرة الأخيرة لأنها كان ينقصها الإدارة ، ويعوزها الرأس الموجه ، وقد كانت من قلة النضج بحيث لا تستطيع تحقيق أية غاية ، ولكنى أعتقد أن البذور التى ستأتى بالنتائج الهامة قد ألقيت » .

ومن أشهر المؤامرات التاريخية تلك المؤامرة التى حدثت فى أواخر العهد الجمهورى عند الرومان ، وهى المعروفة باسم مؤامرة كاتيلين ، وكان هدف القائمين بها وعلى رأسهم لوسياس سرجيوس كاتيلين الاستيلاء على السلطة .

وكانت الطبقة الحاكمة فى روسيا حينذاك مفرطة الثراء ، مسرفة فى طلب المتعة والانغماس فى الترف ، ولكنها مع ذلك لم تكن قد فقدت نشاطها الجم ، وحيويتها القوية ، وقدرتها على التنظيم ، والميل إلى المغامرة ، والصبر على احتمال المشاق ، وما إلى ذلك من الصفات التى مكنت الرومان من فرض سلطانهم على جزء واسع الرقعة من العالم المعروف فى زمانهم .

وكانت تتلو طبقة النبلاء الطبقة المتوسطة المكونة من أعيان الريف وتجار المدن ، ووراء هذه الطبقة الثالثة من الفقراء والصعاليك والعبيد أسرى الحرب وسلالاتهم .

وقبل وقوع مؤامرة كاتيلين ببضع سنوات قامت هذه الطبقة المعدمة بثورة خطيرة تزعمها المدعو سبارتكوس أحد العبيد المجلوبين من تراقيا والهاربين من مدرسة تدريب المصارعين ، وقد لقيت الجمهورية الرومانية صعوبة شديدة ، وبذلت جهودا شاقة فى التغلب على هذه الثورة وإخماد جمرة العصاة .

وكانت المدن الرومانية النامية المزدهرة الغاصة بالسكان تجمع بين النقيضين ، القصور الفخمة الحافلة بفاخر الرياش ونفائس التحف ، والأحياء القذرة التى يعيش فيها الفقراء المحرومون ، وبرغم احتفاظ أسر النبلاء بامتيازاتها كاملة كان الكثير من تلك الأسر غارقا فى الديون ، وكانت كثرة الديون آفة ذلك العصر ، وقبل ذلك

---

(١) صفحة ١٤٧ من كتاب « تكوين روسيا الحديثة » بقلم ليونل كوسان .

بخمسين سنة كان يسهل على الأسر النبيلة سداد ديونها وتفريج أزماتها المالية باختيار أحد أفراد الأسرة حاكما لولاية من الولايات الرومانية الكثيرة ، فقد كان فى هذه الحالة يستطيع أن يصادر من الممتلكات ويبتز من الأموال مايكفى للوفاء بديون الأسرة ، ويكفل لها استعادة مكانتها . ولكن ذلك العهد تولى وانقضى ، وعرف سكان الولايات الالتجاء إلى المحاكم ، والاستعانة بالمحامين المدارة من أمثال سيشرون وأضرابه ، وكانت الأسر النبيلة التى ظلت محتفظة بمكانتها تحرص على أن تظل مستأثرة بالخيرات ، وتحاول أن تقصى من صفوفها الأسر التى لم تستطع المحافظة على كيانها ، والاحتفاظ بمكانتها .

وكان من هؤلاء النبلاء الذين رأوا أنهم أصبحوا مهددين بالسقوط من مكانتهم العالية ، والطرد من صفوف النبلاء كاتيلين ، وكانت حياته صورة من صور حياة شباب الطبقة الأرستقراطية فى عصره ، فقد بدد أمواله بغير حساب للعواقب ، وأسرف فى الاقتراض ، وأرخى لنفسه العنان . وحينما بلغ الثلاثين من عمره أصبح أمله الوحيد لعلاج أحواله ، واستدراك أخطائه ، أن يصبح حاكما لإحدى الولايات ، وفى أيامه لم يكن ذلك ميسورا فى كل حين ، ولكنه مع ذلك استطاع الحصول على مثل هذا المنصب ، ولم يصلح من سيرته ، ولم يقتصد فى نفقاته ، وبرغم ابتزازه الأموال من ولايته على إفريقية أغنى الولايات الرومانية ظلت الديون تلاحقه .

وكان كاتلين فارع القامة ، حسن التكوين ، قوى البنية ، جلدا على احتمال المشاق ، يستميل قلوب النساء بشدة أسره ، ويستهوى الرجال بالهدايا والملاينة ، ثم يقتضيهم ثمن بسط حمايته عليهم ، وقد ولد زعيما ، ولكن بغير كابح ولا ضمير رادع ، ويقال إنه قتل زوجته الأولى وابنه ، وعذب أحد أبناء عمومته حتى أزهق روحه ليستولى على أملاكه التى كان يطمح فى حيازتها .

ولما عاد إلى روما بعد عزله من الولاية على إفريقية اتصل برجلين لعبا دورا هاما فى تاريخ روما ، وهما الثرى الواسع الثراء كراسس ويوليوس قيصر ، وكانا يميلان إلى « حزب الشعب » ويشجعان الجنود المدربة المسرحة بالمنح والعطايا ، ويقاومان بذلك سياسة النبلاء القدماء المسيطرين على السناتو (مجلس الشيوخ) وقد استطاعا أن يضما إلى جانبهما كاتيلين ، وكان قبل ذلك يناصر حزب السيناتو ،

وشجعاه على أن يتقدم لترشيح نفسه للقنصلية نائبا لحزب الشعب فى انتخابات القنصلية سنة ٦٥ قبل الميلاد .

وحينما وضع اسمه فى قائمة المرشحين وقف فى سبيله ماضيه حينما كان واليا على إفريقية ، وبرغم أن الرومان كانوا لا يتشددون فى محاسبة الولاة على الفساد وقبول الرشا إلا أنهم كانوا فى الوقت نفسه لا يتساهلون فى شيئين ، وهما العجز عن أداء الدين أو التعرض للمحاكمة ، ولم يكن فى وسع من ركبته الديون أو رفعت عليه قضية أن يقبل ترشيحه لأحد مناصب الدولة الكبيرة ، وكان قد اتفق فى هذه الظروف أن جاء وفد من إفريقية وأقام الدعوى ضد كاتيلين يتهمه فيها باغتصاب المال خلال مدة حكمه ، ونجم عن ذلك إلغاء ترشيحه لمنصب القنصلية .

وكان قد تقدم للدفاع عنه ماركاس تلياس سيشرون أحد المحامين البارزين فى روما وخطيب الرومان الشهير ، ولم يكن من طبقة النبلاء ، وكان يفتخر بذلك ، وقد نشأ فى بلدة أربينام القريبة من روما ، وكان رجلا مثقفا يجيد اليونانية قراءة وكتابة ، ويهوى الرسم والنحت ، ويعد نفسه من الفلاسفة ويتأنق فى تدبيج الرسائل البليغة .

وكان سيشرون بعيد الطموح ، طامعا فى منصب القنصلية ، وقد اعتمد إلى حد ما على الحزب الشعبى لمساندته فى تحقيق طموحه ، وربما كان من أسباب ذلك تقدمه إلى كاتيلين بطلب الدفاع عنه ، ولكن كان فى سلوك سيشرون ما بغضه إلى كاتيلين الأرستقراطى النشأة ، ولذلك استعان بمحام آخر نجح فى دفاعه عنه .

وخسر الوفد الإفريقى القضية ، ولكنه نجح فى تشويه سمعة كاتيلين ، وكلفه فقدان البقية الباقية من ثروته ، ومن ذلك الحين فقدت الناس الثقة به ، وحامت الشكوك حول أمانته واستقامته ، فلم يوفق هو ولا غيره من مرشحى حزب الشعب فى انتخابات القنصلية التى أجريت فى نوفمبر سنة ٦٥ قبل الميلاد .

وأثاره هذا الاخفاق ، وحرك كوامن الشر فى نفسه ، وأصبح مهددا بالإفلاس وفقدان المكانة الاجتماعية إن لم يبادر إلى عمل شىء يرد عليه أمله ، ويحقق له هدفه ، وسبق له أن استعان بالخنجر للخروج من أزماته السياسية وضائقاته المالية ، ولذلك صمم على اغتيال القنصلين الجديدين عند ذهابهما إلى السيناتو فى مستهل سنة ٦٤ قبل الميلاد .

وتسربت الأخبار كما يحدث عادة فى أغلب المؤامرات ، فذهب القنصلان إلى المجلس فى حراسة شديدة ولذلك لم تعط الإشارة لإشهار الخناجر .

ولم يكن الجنود القدامى المدربون صالحين لفلح الأرض ، ولم يستطيعوا إصلاح المزارع التى عهد إليهم الإشراف عليها بالمنح التى أعطيت لهم ، وغرقوا فى الديون مثل كاتيلين ، مما جعلهم يعطفون عليه ، وقد عرفوه فيما مضى جنديا بارعا مقداما أظهر ضروبا من الشجاعة فى عهد الحرب الداخلية القديمة ، لذلك صمموا على مساندته إذا تقدم لانتخابات القنصلية مرة أخرى .

وخيم على ميدان السياسة فى تلك السنة هدوء كالهدوء الذى يسبق العاصفة ، وكان يوليوس قيصر وحليفه كراسس يعملان على مقاومة الحزب المسيطر بطريق أذنابهما ، وكان سيشرون من ناحيته يعمل على تحسين علاقته بحزب السيناتو ، فلما تقدم للانتخابات القنصلية التالية عجب الناس كيف يسلك هذا الرجل من الطبقة المتوسطة والذى صناعته الكلام فى مقاومة منافس من الطبقة الأرستقراطية شديد المراس مثل كاتيلين الذى تقدم بوصفه مرشحا مستقلا ، ولم يكن سيشرون يملك سوى مقوله سلاحا وقدرته على الانتصار فى قضايا كثيرة ، ولكن هل تنفع الكلمات اللوامع والحجج الدوامغ فى مقاومة الخناجر ؟

كان الانتخاب حافلا بالشغب ، فقد جاءت الجنود المدربة المسرحة من الأقاليم ، وكانوا يعرفون أساليب فض الاجتماعات السياسية ، وطاف سيشرون بالدوائر الانتخابية وهو معرض للاغتيال فى كل لحظة ، وكان أينما حل يلقى كلماته الساحرة بصوته الرخيم المؤثر ، وكان يستطيع أن يقول ما يشاء عن خصومه ومنافسيه لأنه لم يكن هناك قانون يمنع القذف والنيل من سمعة الأفراد ، وأنصار كاتيلين من محترفى الإجرام وحثالة المجتمع كانت له مجالات القول واسعة ، وقد افتن سيشرون فى الحملة على كاتيلين ، وأظهر عيوبه ، وفضح مخازيه وجرائمه ، ووصف مؤيديه بأنهم عصبة من الأشرار السفاكين والنهابين السلابين ، وأنهم عرضة فى كل وقت للانقضاض على المواطنين المسالمين والفتك بهم واغتصاب أموالهم ، فكيف يختار المواطنون مثل هذا المجرم العتيد لمنصب القنصلية ؟ وكانت كلماته

تلقى القبول فى نفوس المواطنين لأنه هو نفسه كان يخشى حقا عدوان كاتيلين ورفاقه ، ويرهب سطوتهم ، ولا يأمن شرهم .

وهزم كاتيلين فى هذه المرة كذلك ، ولكن لم يكن ممن يقبلون الهزيمة ، فقد كانت فيه طبيعة المناضل العنيد الذى يأبى التراجع ، ولا يقبل الاستسلام للهزيمة ، وكان يعرف أن سيشرون لم يكن على جانب كبير من الشجاعة ، وكان يزعم أن كاتيلين يرصد له القتلة فى كل مكان ، وأن عناية الآلهة الحريصة على سلامة الدولة هى التى وقته شرهم ، وردت عنه كيادهم .

وما دام كاتيلين يدبر له المؤامرات ، وينصب له الشباك ، فما عليه إلا أن يذيع الإشاعات عن تلك المؤامرات برغم عدم توافر الأدلة الكافية على وجودها ، وكانت هذه هى المرحلة الأولى فى الصراع بين الرجلين ، ولم يلبث سيشرون أن جاءته البينة التى يستطيع الاعتماد عليها فى توجيه الاتهام إلى كاتيلين ، وذلك أن أحد أصدقاء كاتيلين المقربين الذين يشبهونه فى أخلاقه وعاداته ، وهو كوينتاس كيرياس كان على صلة بإحدى سيدات الطبقة الأرستقراطية ، وهى الحسناء فولفيا ، وقد كان لهذه السيدة أثر كبير فى إتلاف ماله وتكاثر الديون عليه ، ولما قلّ ما بيده بدأت تتنكر له ، فحاول استرضاءها بزعمه أنه فى سبيل الحصول على مايدر عليه الأموال الطائلة ، بل هددها أنها إذا استرسلت فى مغاضبته فإنه يستطيع فى المستقبل متى حدث ذلك الحادث المجهول الذى لم يفصح لها عن حقيقته أن ينتقم منها ، وقد نقلت فولفيا هذا التلميح إلى رجال سيشرون الذين كانوا يتسقطون الأخبار ويجمعون المعلومات ، ودفع لها سيشرون مبلغا من المال لتظل توافيه بأخبار صاحبها .

ومن هذه اللحظة أصبح سيشرون على علم بكل ما يدبره كاتيلين وأصحابه ، ولكن ذلك لم يكن كافيا لتوجيه الاتهام إلى كاتيلين فى مجلس الشيوخ ، فقد قال له أحد الشيوخ المجربين فى المجلس « أين الوقائع التى تستطيع تقديمها ؟ إنك تذكر شبهات ، ولكنك لاتقدم لنا اسم مواطن واحد تستطيع أن توجه إليه الاتهام » .

وكان من رأى سيشرون أن إجراء انتخابات فى مثل هذا الجو المشحون بالإشاعات لا يخلو من خطر ، وحمل ذلك أعضاء المجلس على التردد ، ولم يبلغ بذلك سيشرون كل مايريد ، وأقر المجلس إرجاء الانتخابات يومين ، وقد استطاع

سيشرون أن يلحق شيئا من عدم الثقة حول اسم خصمه . وتكاثرت الإشاعات حول كاتيلين وأدرك أن الطريق إلى السيطرة قد سد فى وجهه ، فجمع عصابته ، وشاورهم فى الأمر ، وكان أكثرهم باستثناء لنتلاس القنصل السابق من ذوى السمعة المتهمة والسيرة المشبوهة والنزعة الإجرامية ، وصارحهم بأنه ليس أمامهم سوى تحريض الجنود المدربين السابقين فى تسكانيا على الثورة ، وأشار على مانليوس ، أحد أصحابه المقربين ، بأن يمدهم بالسلاح . ووافق مانليوس على القيام بتلك المهمة ، واقترح كاتيلين إشراك العبيد الأرقاء المضطهَدين فى الثورة ، ولكن لنتلاس عارض فى ذلك ، فلم يوافقه الزعيم ، وذكر له أهميتهم فى كسب المعركة .

واتفق على إحراق النواحى التى يسكنها الرجال ذوو الأخطار فى المدينة ، وقتل طائفة مختارة من أعضاء السيناتو البارزين ، على أن لا يتم شىء من ذلك إلا حينما تظهر كتائب المهاجمين من الشمال على أبواب المدينة .

وحدث شىء لم يفسر قط تفسيرا مقنعا ، ففى مساء يوم ٢٠ أكتوبر بينما كان كراسس يهم بمغادرة منزله ليتنسم هواء روما النقى لحظ وجود مجموعة من الرسائل على منضدة فى الردهة ودفعه حب الاستطلاع الكامن فى رجال الأعمال إلى الوقوف على محتوياتها قبل الخروج من المنزل ، وطلب إلى مرافقيه الانتظار حتى يقرأ ما بها ، وكان عدد الرسائل ثلاثين رسالة ، وليس بها سوى رسالة واحدة باسمه ، والرسائل الباقية موجهة إلى غيره من رجال روما البارزين ، وكان مضمون الرسالة « أن كاتيلين سيحرق المدينة فخذوا حذركم » . وأطلع كراسس صاحبين له كانا معه على مضمون الرسالة ، فسأله أحدهم عما يصنعه ، وأشار عليه بالتوجه إلى القنصل ، ووافق كراسس على هذا الرأى ، وطلب من صاحبيه الذهاب معه إلى سيشرون ، وذهب الثلاثة إليه .

وقرأ سيشرون الرسالة الموجهة إلى كراسس وسائر الرسائل ، ووجدها جميعها خالية من التوقيع ، وأنها متفقة فى المضمون ، ومكتوبة بالخط نفسه ، وسر ذلك سيشرون ، فها هنا دليل جديد على تدبير المؤامرة الواسعة النطاق ، فدعا السيناتو إلى الاجتماع فى صباح اليوم التالى ، وعقد الاجتماع ، وجاء الأعضاء فى طياليسهم البيض إلى دار السيناتو ، ووقف القنصل ، وخطبهم مقدما دليله على وجود

المؤامرة ، وذكر لهم أنه قد بلغته أنباء مضمونها أن مانليوس أحد أعوان كاتيلين مع الجنود المدربين فى تسكانيا ، وأنهم يتأهبون للزحف على العاصمة ، فوافق الأعضاء على إعلان حالة الطوارئ وخولوا القنصل السلطة التى تجعله فوق القانون ، وهكذا وجد رجل الطبقة المتوسطة الوافد من أربيام أنه قد أصبح حاكما بأمره .

وكان الرومان منذ عهد الحكم الملكى يكرهون أن يستأثر فرد بالحكم ، ولذلك كان من أسس الحكم الجمهورى عندهم أن يقتسم الوظيفة اثنان ليكبح كل منهما جماح الآخر ، ولكن حينما تتأزم الأمور كانوا يضعون مصائرهم فى يد رجل واحد يمنحونه السيطرة المطلقة ويدعونه الدكتاتور ، وكانوا فى الوقت نفسه يرصدون له العقوبات الشديدة من النفى إلى الإعدام إذا تجاوز حده وأساء استعمال السلطة الممنوحة له ، وكانت تعطى له السلطة المطلقة لمدة معينة ، وكان يقدم للمحاكمة إذا استعمل هذه السلطة بعد انقضاء المدة المحددة .

وكان هناك شرط جوهرى قبل تعيين الحاكم بأمره ، وهو وجود العدو المسلح فى داخل التخوم الإيطالية ، ومعنى ذلك أن ديكتاتورية سيشرون من بادىء الأمر لم تكن مطابقة للقانون ، فكاتيلين ومانليوس لم يكونا قد أعلنا الثورة بعد ، وقد شغلت هذه المسألة بال سيشرون صاحب العقلية القانونية ، وجعلته يخشى العواقب إذا خانه التوفيق فى استعمال سلطته العالية ، فبدأ بتنظيم كتيبة تجوس الشوارع والطرقات ليلا لتراقب وقوع حوادث العنف ، وبخاصة إشعال الحرائق ، ومر أسبوعان ساد فيهما القلق والتوجس .

ولم تسر أمور كاتيلين على مايرام ، فقد حرك مانليوس كتائبه فى يوم ٢٧ أكتوبر ، ولكن المشكلة الحقيقية كانت محاولة الحصول على المال الكافى للتسليح ، وكان كاتيلين قد أنفق ما عنده وأصبح خاوى الوفاض ، وخشى أن يكشف أمره ، فصمم على عقد اجتماع مع أنصاره ليلة اليوم السادس من نوفمبر ليرى مدى استعدادهم لتنفيذ خطتهم ، وتم الاجتماع فى منزل أحد الأعضاء المغمورين ، ووعد بعض أنصاره بقتل سيشرون فى داره ، وتسربت هذه الأخبار إلى سيشرون عن طريق فولفيا ، فوضع حراسة مشددة على داره .

وحاول سيشرون أن يستفيد من أخبار هذه المحاولة ، فدعا السيناتو إلى الاجتماع مرة ثانية ، واستكثر من الحراس لحماية الأعضاء ، وحضر كاتيلين الاجتماع ، وتحاشى الأعضاء الاقتراب منه ، ووقف سيشرون يخطب ، وألقى خطابا يعد من أبلغ خطبه ، وهاجم كاتيلين هجوما عنيفا ، ووجّه إليه الكلام قائلا « أناشدك باسم السماء ياكاتيلين إلى متى تستغل صبرنا ؟ وإلى متى يسخر منا جنونك ؟ وإلى أى حد يدفع بك تهورك غير المكبوح ؟ » .

وكان سيشرون يرمى بذلك إلى استدراج كاتيلين إلى الاعتراف بالجريمة ، أو إلى إرغامه على الانضمام إلى مانليوس فى خارج روما وإعلان الثورة ، ويثبت بذلك إنه عدو للدولة ، ويتخلص سيشرون بذلك من تبعة المسارعة إلى نقله وظيفة الديكتاتور .

واسترسل قائلا « إنك لست الرجل الذى يصده الحياء عن ارتكاب الخزيات ، ولا يمنعه العقل عن التورط فى الأعمال الجـنونية ،ولا يحول الخوف بينه وبين الإقدام على الخطر . . . » .

وذكر فى الخطبة « أن المؤامرة أصبحت معروفة ، وأنه أصبح مكروهًا من الجميع ، وأن أنصاره من ذوى السمعة السيئة والماضى الملوث » .

واحتمل كاتيلين هذا الهجوم العنيد دون أن يغض طرفه أو يتغير لون وجهه ، بل وجّه إلى سيشرون سؤالين بارعين ، أوقعا القنصل فى حيرة ، فقد سأله قائلا : « هل هذا الاتهام الموجه إليه بوصفه عدوا للشعب ؟ وإذا كان كذلك فما هو الدليل عليه ؟ » والسؤال الثانى هو « هل يرى القنصل نطيعه ؟ » .

وكان هذان السؤالان يثيران إشكالين قانونيين خطيرين ، فأين الدليل على التهمة الموجهة إليه ؟ وكان سيشبرون يعرف أنه بوصفه قنصلا لايملك السلطة التى تخول له نفى أحد المواطنين ، لأن الحكم بالنفى كان من سلطة مجلس الشيوخ ، ولكنه بوصفه حاكما بأمره كان يملك ذلك ، وفى هذه الحالة كان فى استطاعة كاتيلين أن يثبت أن سيشرون قدم للمجلس معلومات غير مؤكدة ليضلله لكى يحصل على سلطة الديكتاتور ، وأدرك سيشرون ما قصده كاتيلين ، فقال له فى رفق « إنى لم آمر

بنفيك ، وإنما قدمت لك نصيحة أخوية ، وهى أن تخرج من هذا البلد الذى أصبحت فيه مكروها يخافك الجميع » .

وأثار خطاب سيشرون حماسة أعضاء السناتو ، وجعلهم يقدرون خطورة الموقف ، وينقمون على كاتيلين ، ولكن كاتيلين ظل يناضل من أجل حريته ، فطلب أن يوضع تحت رقابة اختبارية يتولاها أحد الأعضاء ، وليكن كراسس أو يوليوس قيصر أو لنتلاس ، ولكن لم يتقدم أحد من هؤلاء السادة بقبول هذا الاقتراح .

واضطر هذا الموقف كاتيلين إلى الكشف عن حقيقته والمجاهرة بالثورة ، وقضى تلك الليلة ، وهى آخر ليلة قضاها فى روما ، مع أعوانه ، وكان لابد من القيام بالعمل بعد ما حدث فى صباح اليوم بالمجلس ، ولوحظ أن مانليوس كان بطيئا فى حركاته ، فلابد إذن من ذهاب كاتيلين بنفسه إلى الشمال ليظاهره ، ولابد من إثارة العبيد فى الجنوب ، واتفق على أن لا يحرق أى حى من أحياء المدينة ، ولا يقتل أى عضو من أعضاء السيناتو إلا حينما تقترب أعلام كاتيلين ومانليوس من أبواب المدينة ، وبعد أن أخذ كاتيلين على أعوانه المواثيق المؤكدة ، وضمن ولاءهم لقضيته ، ركب مع صديقين من أصدقائه الذين يثق بهم جوادا سريعا ، وهربوا فى جنح الليل من أبواب المدينة ، وكسب سيشرون المعركة .

وأذيع أن كاتيلين قد ذهب إلى مرسيليا ، ولكن الديكتاتور سيشرون كان متأكدا من أنه انضم إلى كتائب مانليوس ، وأنه ترك جماعة من أعوانه البارزين فى المدينة ، وكان معظمهم من شباب النبلاء وعلى رأسهم لنتلاس الذى كان قنصلا سابقا ، ووجد سيشرون وثيقة يستطيع بها إدانتهم فاعتقلهم جميعا ، وقدمهم للمحاكمة ، وبرغم اعترافهم تصدى يوليوس قيصر لطلب الترفق بهم ، وقلل من خطورة الاتهام الموجه إليهم ، وكاد يختلط الأمر على المجلس لولا تصدى كاتو – أحد أعضاء السيناتو – للسخرية من هذا الطلب وحملته على المتهمين لأنهم عرضوا الدولة للخطر الشديد ، وحاولوا إشاعة الفوضى ، وارتكاب الجرائم المنكرة ، فقضى المجلس بإعدامهم جميعا .

ولم يجد كاتيلين محيصا من إعلان ثورته ، وكان جيشه مكونا من خليط من الجنود المدربين القدامى وزعانف العبيد وشرذمة من الأوغاد ونفايات المجتمع ، ولم يكن معهم مايكفى من السلاح ، ودارت معركة حامية بين جيش الجمهورية وكتائب كاتيلين ، وأسفرت عن هزيمته ومقتله وصفوة أنصاره ، وأنقذت روما من أخطار المؤامرة الواسعة النطاق والتى كان باعثها الطمع فى السيطرة ، والرغبة فى الهدم والتدمير ، وعدم المبالاة بالعواقب ، وعد سيشرون أبا لوطنه ، ومنقذا للجمهورية .

والخطب الثلاث التى ألقاها وتناول فيها قضية كاتيلين تعد من نماذج البلاغة اللاتينية ، وأرقى أمثلة الهجو السياسى والحملات الخطابية .

ولكن هذا الموقف أكسبه عداوة رجل لا يستهان بعداوته ، وهو يوليوس قيصر ، وكان قيصر محاميا قديرا مثل سيشرون ، وكان يرى أن موقف سيشرون من الوجهة القانونية لم يكن سليما ، ولابد أن أفضى بذلك إلى ابن أخته الإمبراطور الرومانى أغسطس قيصر ، ففى سنة ٤٣ قبل الميلاد أمر أغسطس بقتل سيشرون بعد عشرين سنة من انتصاره العظيم على كاتيلين وركونه إلى الشدة فى معاملته والقضاء على حركته .

ومهما يكن من أمر هذه المؤامرة فإنها ترينا الكثير من النقائص والعيوب التى سرت إلى الخلق الرومانى ، وتعارض التيارات السياسية التى غلبت على ذلك العصر ، وأدت إلى انتقال الرومان من الحكم الجمهورى إلى الحكم الإمبراطورى .

مصرع يوليوس قيصر

كانت المائة من السنوات السابقة لسنة ٤٤ قبل الميلاد من السنوات الحافلة بالأزمات والمشكلات فى حياة الجمهورية الرومانية ، وكان الخلق الرومانى قد فقد الكثير من الصفات والمزايا التى مكنت الرومان من موالاة الانتصار فى الحروب التى خاضوا غمارها وبسط سيادتهم على جانب كبير من العالم القديم .

وفى أواخر سنة ٤٥ قبل الميلاد كانت المخاوف تساور أعيان الرومان وأعضاء مجلس الشيوخ بوجه خاص ، فقد منح يوليوس قيصر الديكتاتورية لمدة عشر سنوات ، وهى منحة لم يكن لها سابقة فى التاريخ الرومانى ، وكان الخوف من أن طول استعمال قيصر لهذه السلطة المطلقة الممنوحة أن يفسد عليه أمره ، ويغريه بالطغيان يشغل بال المحافظين وغيرهم من سائر طبقات الأمة الرومانية .

وكان الرومان من الأمم التى يبهر أبصار أبنائها تألق الشخصية ،وتعجبهم المواقف البطولية . ولكن بطلهم المحبوب ، ومعبودهم الأثير ، عليه أن يلتزم الحذر فلا تزل قدمه أو يبطره الغرور ، ويطش بلبه فرط الإعجاب فيستحيل الحب الشديد كراهة صماء تستنزل البطل من عليائه ، وتجعله أمثولة لتقلب الخطوط فتكر الأيام .

وأى بطل من أبطال التاريخ النوادر كان يوليوس قيصر !

كان فى مستهل حياته محاميا بارعا ، حاضر البديهة ، قوى الحجة ، يستطيع مصاولة سيشرون أخطب خطباء الرومان ، ومثلهم الأعلى فى اللسن والفصاحة وبلاغة الأسلوب .

وكان عالما دارسا واسع الاطلاع ، يعرف مذاهب المفكرين اليونانيين والأدب اللاتينى ، وله مشاركة فى علمى الهندسة والرياضة .

وفضلا عن ذلك كله كان أحد قواد العالم المشهورين ، يحبه جنده لأنه يحرص

على حياتهم ، ولا يعرضهم لأخطار لا لزوم لها ، ويعيش مثلهم برغم نوبات الصراع التى كانت تنتابه من الحين إلى الحين .

ولم ينس مع ذلك نصيبه من المتعة الحسية ، فكان برغم صلعته المشهورة محبا ذائع الصيت تميل إليه النساء ، ويخلصن له الحب ، ويصفينه الود إذا ماانقضى زمان الحب ، وكان جنوده حينما يدخلون معه إحدى المدن يتغنون فخورين بقائدهم الأصلع الوسيم « أيها الأزواج حافظوا على نسائكم فقد جاء معنا الفاسق العظيم » .

وكان توفر هذه الصفات فى يوليوس قيصر أكثر مما يلزم للفت الأنظار ، وكسب الأنصار ، وضمان المستقبل الباهر والمكانة الشماء ، ولكنها كانت كذلك كافية لإثارة مخاوف أعضاء مجلس الشيوخ المحافظين . وإثارة حسد الحاسدين ، وأحقاد الحاقدين ، وتحريك المنافسة وتأريث العداء ، ويضاف إلى ذلك أن الرومان كانوا بطبيعتهم يكرهون الديكتاتورية ويقبلونها مضطرين نزولا على حكم الظروف ، ومسايرة لتقلب الأحوال ، ولهذا كانت الأخطار تسير فى آثار يوليوس قيصر .

وقد أصدر مجلس الشيوخ قرارا بأن تقام تماثيل ليوليوس قيصر فى معابد روما جميعها ، وفى المدن الإيطالية كلها ، وأن يحتفل بالبطل العظيم ، والقائد المظفر كل خمس سنوات ، وعند قدومه لروما أقيم له احتفال تجاوز فى فخامته كل ما وعته ذاكرة الرومان ، وحباه مجلس الشيوخ بكل ما يريد من ألقاب التعظيم ، وأجاز له أن يلبس أكاليل الغار الذى كان يوارى صلعته ، وأن يحمل حتى فى أوقات السلم رمز سلطات الإمبراطور ، كما كان منصب الحبر الأكبر يمكنه من السيطرة على الشؤون الدينية .

ولكن قيصر برغم ما أسبغ عليه من ألوان التكريم ، وما ظفر به من عليا المراتب ، كان لا يزال قلق النفس ، متطامعا إلى المزيد ، وبدت أن أعماله السابقة أو انتصاراته المتوالية قليلة الشأن غير جديرة بمواهبه المحلقة ، وقد فتح بلاد الغالة ، وغزا بريطانيا ، وأخضع القبائل الضارية فى غرب ألمانيا وسويسرة ، ونشر السلام فى ربوع إسبانيا ، وقضى على منافسه العظيم يومبى ، وأسقط متراديت من فوق عرشه فى آسيا الصغرى ، ولكن هل يمكن موازنة هذه الأعمال بما قام به أعظم فاتحى العهد القديم الإسكندر المقدونى ؟ لقد غزا الإسكندر الهنود فى عقر دارهم ،

فلماذا لا يتجه هو كذلك إلى الشرق ليثأر من البارثين ويؤمن حدود الإمبراطورية عند نهر الفرات ؟ ولينتقم كذلك لمصرع كراسس الذى أقرضه فى أوائل عهده من المال ما ساعده على توطيد مكانته والانتصار على منافسيه ، وإذا تم له إخضاع بارثين (خراسان القديمة) زحف حول البحر الأسود لتهدئة سكوزيا وارثاء نهر الدانوب وأتم فتح ألمانيا .

وكانت الديكتاتورية التى ارتضاها مجلس الشيوخ لقيصر فى الواقع إلغاء للنظام الجمهورى ، ولونا من ألوان الملكية المقنعة ، وكان النظام الملكى بغيضا إلى قلوب الرومان . فحينما حاول مارك أنطونى أن يضع التاج على رأس قيصر فى فبراير سنة ٤٤ قبل الميلاد رفض قيصر التاج بطريقة مسرحية أوقعت الشك فى نفوس أنصار النظام الجمهورى المخلصين ، وجعلت خصوم قيصر يبسطون ألسنتهم ، ويبثون الشكوك فى نياته ، ومن ذلك الوقت اتجه التفكير إلى القضاء عليه والتخلص من عدوانه على النظام الجمهورى ، فقد أصبح واضحا لهم أنه يرمى إلى تنصيب نفسه ملكا على الرومانيين ، والتقاليد الرومانية تمجد قتل الطغاة المستبدين ، ومن يدرى ماذا يصنع إذا أتيح له الذهاب إلى الشرق وغزو ثبنيا والعودة بعد ذلك إلى روما مكللا بأكاليل الغار محفوفا بالفيالق الموالية له ، والملبية لرغباته ؟

ولقد أصبحت إرادته قانونا ، وكان الانتخاب للوظائف الكبيرة لا يزال موجوداً من الناحية النظرية ، ولكن فى الواقع لم يكن أحد يستطيع أن يرقى إلى منصب عال مثل منصب القنصل أو منصب التريبون إلا باختياره ، واستأثر باختيار الأعضاء الجدد لمجلس الشيوخ ، وجعل عدد أعضائه تسعمائة عضو بعد أن كانوا ستمائة ، وأدخل فى عضويته بعض سكان الولايات التى ضمت إلى روما ، وكان مع ذلك يتجاهل ما يصدره المجلس من قرارات إذا كانت لا تلائم رغباته أو تعارض سياسته .

ومن خلاله المأثورة أنه كان لا يميل إلى الانتقام ، ولا يحمل الحقد ، ويعفو عند المقدرة .

قال عنه سيشرون الذى كان ينطوى له على الكراهية « إنه لا ينسى سوى الإساءة » والأمثلة على ذلك كثيرة موفورة فى حياة يوليوس قيصر ، من ذلك أن اثنين فى طليعة الذين سعوا فى حتفه وعملوا على تدبير مؤامرة لاغتياله ، وهما كاسيوس

وماركوس بروتس من أنصار منافسه الخطير يومبى ، ولكنه مع ذلك عفا عنهما بعد تغلبه على منافسه والقضاء عليه ، واختارهما لمنصبين كبيرين من مناصب الدولة ، وكان بروتس صديقا لقيصر ، وكان قيصر شديد العطف عليه حتى قيل إنه ابنه لعلاقته الغرامية القديمة بسرفيليا والدة بروتس ، وكان كاسيوس أكبر سنا من بروتس وأكثر منه تجربة ، ولكن حب قيصر لبروتس جعله يسند إليه المنصب الأسمى مما أثار حقد كاسيوس ، وكان رجلا مهزولا خبيث الطوية شديد الحقد ، وقد أحاله ذلك الحقد نصيرا قويا للنظام الجمهورى ، ومهما يكن من الأمر فإنه لم يكن الرجل الذى يقبل أن يصير ملكا على روما .

وكان مارك أنطونى بعد أن رفض قيصر تتويجه ملكا قد أراد أن يحتال للأمر ويوحى إلى مجلس الشيوخ أن يبيح لقيصر استعمال لقب الملك فى مفاوضاته خارج روما وبعيدا عن إيطاليا ، وكان المنظور أن مجلس الشيوخ سيوافق على ذلك ، لأن الكثير من أعضائه كانوا مدينين لقيصر بالكثير ، كما كان بعضهم يخشى الوقوف فى طريقه ، ولكن قلة من أعضاء المجلس كانت مصممة على مقاومة هذا العرض مهما يكلفها الأمر ، وكانت بواعث أعضاء هذه القلة مختلفة ، فبعضهم كان باعثهم المصلحة الخاصة ، وبعضهم كان باعثهم الحقد والحسد ، وبعض أفراد قلائل كان باعثها صدق الإيمان بالنظام الجمهورى والإخلاص له .

وأخذ كاسيوس الممتلىء حقدا وضغينة يسعى سعيه ، ويثير هواجس أصدقائه ويحرك فى نفوسهم دوافع الحسد والتبرم والسخط ، ويبالغ فى تصوير مطامع قيصر وعدوانه على النظام الجمهورى ، ونجح فى إقناع جماعة من الرجال الشجعان الأمناء بضرورة القضاء على ذلك المارد الجبار ، ولكن واجهت الجماعة تلك المشكلة التى كثيرا ماتعرض للمتآمرين ، وهى محاولة إظهار عملهم فى صورة العمل المثالى العظيم الذى لا مندوحة عنه لإنقاذ النظام القديم والمحافظة على التقاليد الجمهورية ، ورأوا أن تحقيق ذلك لا يتيسر لهم إلا إذا ضموا إلى صفوفهم رجلا نقى السمعة معروفا بفرط تعلقه بالنظام الجمهورى مثل ماركوس بروتس ، ولكنه كان فى ذلك الوقت من أصدقاء قيصر المقربين ، ولن يتم لهم النجاح فى تحقيق هدفهم إلا إذا ضم إليهم وأيد خطتهم .

ولكن سعة حيلة كاسيوس كانت كفيلة بمعالجة الموقف ، ولم تكن العلاقات بينه وبين بروتس ودية ، وحتى إذا استطاع أن يزيل أسباب الخلاف بينهما ويتقرب منه فإنه كان هناك صعوبة أخرى وهى كيف يستطيع أن يحمل رجلا بطبيعته غير ميال إلى العنف على الاشتراك فى عمل ينطوى على القسوة ويتسم بالعنف ، ولكن كاسيوس كان ثاقب الفكر جم النشاط ، وكانت عنده القدرة على خلق الجو المناسب لما يريد أن يقدم عليه ، وهى مسألة تند عن إدراك بروتس وأمثاله من الذين لا يفطنون إلى حيل الماكرين المطبوعين على الدهاء والتدبير فى الخفاء .

وكان فى روما تمثال للوسياس بروتس الذى كان قديما قد أقصى ملوك الرومان القدامى وأعاد الجمهورية ، فى إحدى الساحات القريبة من المكان الذى يباشر فيه ماركوس بروتس عمله بوصفه بريتورا (وهو ثانى منصب فى الدولة ، ويتولى شاغله تحقيق العدالة فى البلاد) فأخذ كاسيوس يرسل فى الساعات المتأخرة من الليل من يكتب على تمثال هذا الجد الشهير بعض العبارات المثيرة لبروتس مثل « لو كنت لا تزال حيا » أو « ليتك كنت حاضر أمرنا فى هذه الآية » وبعضها ينطوى على لوم لبروتس مثل « أى بروتس ! هل مت ؟ وإلا فإن آباءك براء منك » . وكان بروتس فى كل يوم يمر بالتمثال ولا يعبأ بأمثال هذه العبارات ، ولكنه حين وجد عبارات مثلها فى مقر عمله لم يتردد فى الاعتقاد بأنه المقصود بهذه النذر ، واسترعى نظر كاسيوس لها ، وسأله رأيه فيها .

وكانت هذه هى الفرصة التى ينتظرها كاسيوس ، فقال له « إذا كنت لا تدرى من المقصود بهذه الإشارات فإنك أنت الوحيد فى روما الذى يجهل ذلك ، إن سكان المدينة جميعا يتطلعون إليك لتقودهم » .

فعجب بروتس من قوله ، وقال له « أقودهم فى ماذا ؟ »

فأجابه كاسيوس « تقودهم ضد قيصر بطبيعة الحال » .

فلم يفطن بروتس فى بادىء الأمر لمعنى حديث كاسيوس ، وقال له « ليس هناك ما يستوجب أن أقوم بعمل لا يرضى قيصر ، فهو صديق صدوق لى ، وقد كان كريما إلى أقصى حد فى معاملته إياى بعد موت يومبى ، وكذلك كان سلوكه معك » .

فقال كاسيوس « إنى أعرف ذلك ، وأنا آخر من يتكره ، ولكن طموح قيصر إلى مكانة الإله قد أزعج الناس ، وبلبل الأفكار ، وتكاثرت الأقاويل عنه » .

فأجابه بروتس قائلا « لقد أقر مجلس الشيوخ ذلك بالتصويت ، وأصبح هذا قانونا ، ولا تستطيع أن تغيره بالتذمر والشكوى ، وماذا عندك غير ذلك ؟ »

فاسترسل قائلا « لابد أنك تعلم أن مارك أنطونى يسعى فى تقديم اقتراح بمنح قيصر لقب ملك ، فهل أدركت ما يرمى إليه ؟ »

وحار بروتس فى أمره وقال « ماذا تعنى بهذا القول ؟ لا أصدق هذا عن قيصر »

– « سأقيم لك الدليل الذى لايرد على ذلك ، وإذا أقنعتك فماذا أنت فاعل ؟ »

فقال بروتس متمهلا « لابد من مواجهة مثل هذا الموقف ، وعلى كل إنسان أن يحارب دفاعا عن التقاليد المقدسة ، وإذا لزم الأمر فإنى مستعد لأن أقتل فى هذا السبيل » .

– « ولكن يا بروتس لا أحد يريد أن تضحى بنفسك بهذه الطريقة ، وأحسبك أدركت أن تلك الرسائل الموجهة إليك قد كتبها سرا بعض الرجال ذوى المكانة فى روما ، فهى ليست من عمل الصعاليك المهيجين ، وتستطيع أن تتبين ذلك إذا جشمت نفسك مشقة فحص الخط الذى كتبت به ، ولكن الشعب يهيب بك كذلك ، وهو الذى ينتظر منك إسقاط الديكتاتور الذى يريد أن يكون ملكا على روما » .

فذهب بروتس إلى بيته مهموما ، وبدأت تتداعى فى فكره الشكوك فى سياسة قيصر ، وقد أوقعه كاسيوس فى الشبكة التى أعدها له ، ومن ذلك الوقت أصبحت دار بروتس المكان الذى يفزع إليه المتآمرون فى جنح الليل متخفين للتشاور وتبادل الرأى ، وكان من رأى بروتس الاكتفاء بقتل قيصر وإعادة روما إلى نظمها السياسية التقليدية ، ولكن كان هناك من يعارض هذا الرأى ويرى أن الثورة لا يمكن أن تؤتى ثمرتها وتحقق غايتها إلا بالإطاحة برؤوس كثيرة .

وشغلت هذه الأفكار بروتس وأهمته ، وأرقت جفنه وسلبته راحته ، وهالته فظاعة الواجب الذى فرض على نفسه القيام به . ولحظت زوجته بورتيا ما يعانيه من هم ، ولحظ هو أنها تعانى أزمة نفسية ، فسألها فى ذات ليلة قائلا « ما شأنك يا بورتيا ؟ حدثينى عما بك » .

وكانت بورتيا امرأة شديدة الكبرياء ، وهى ابنة كاتو أحد القواد الجمهوريين القدماء ، وقد آثر أبوها الموت على الاستسلام ليوليوس قيصر بعد هزيمة يومبى منذ عامين .

فأجابته قائلة « إننى ابنة كاتو ، وأنت تعلم أنه كان رواقيًا مثلك ، ولكى أثبت لك أننى أستطيع أن أؤتمن على سرك أحدثت جرحا فى ساقى منذ شهر ، وهذا هو الجرح الذى لا تعرف عنه شيئا ، فأفض إلىّ بالسر الذى ملأ شعاب نفسك وأقضّ مضجعك » .

وضمت بورتيا إلى جماعة المتآمرين ، وقارب عددهم الستين من الحاسدين والحاقدين والحريصين على النظام القديم والمؤملين فى اجتناء الكسب وتأثيل المكانة إذا تغيرت الأحوال وزال قيصر من الطريق .

وكان قيصر قد أبى أن يكون فى حراسة أحد وهو يسير فى الطرقات ، وامتنع عن حمل أى سلاح يدافع به عن نفسه ، وكأنه أراد أن يدخل فى روع أفراد الشعب الرومانى أنه واحد منهم ، وربما كان باعثه على ذلك الإيمان بالقضاء والقدر ، وأننا لا يصيبنا إلا ما كتب لنا ، وليس لنا حيلة فى رد القضاء ودفع المقدور ، ومهما يكن من الأمر فإن هذا المسلك من ناحية قيصر جعل مهمة المتآمرين سهلة ميسورة .

وحدد المتآمرون لقتل قيصر اليوم الذى يعرض فيه مارك أنطونى على مجلس الشيوخ اقتراحه بمنح قيصر لقب ملك فى خارج إيطاليا ، وكان ذلك هو الوقت المناسب ، واتفق أنه كان يوم الخامس عشر من شهر مارس سنة ٤٤ ق . م .

وتمكن بروتس من إقناع المتآمرين بالاكتفاء بقتل قيصر ، والذهاب بعد ذلك إلى الكابيتول – قلعة روما القديمة – والمناداة بالجمهورية الجديدة .

وشهر مارس فى روما كان فى أغلب السنين من الأشهر التى تصفو فيها السماء ، وتبرز الشمس جلواء الطلعة ، وتزدهر الأشجار ، ولكن منتصف مارس فى روما سنة ٤٤ ق . م . كان من الأوقات التى ثارت فيها هوج العواصف ، وأومضت البروق ، وقصفت الرعود ، وتراءت للناس الرؤى والأشباح التى فسرها أهل ذلك العصر المؤمن بالخرافات بأنها تحمل نذر الشر المستطير .

وفى اليوم الرابع عشر من شهر مارس كان القلق والاضطراب يسودان منزل

قيصر ، فقد حذره عرافه الخاص شر اليوم التالى ، وذكر له أنه سيكون يوما شديد الخطر على حياته ، والظاهر أن بعض أخبار المؤامرة تسربت حتى وصلت إلى علم هذا العراف المسمى سبيرنًا ، ومؤامرة يتجاوز عدد أعضائها الستين من المحتمل إلى حد بعيد أن تذيع بعض أخبارها ، ولا يخفى أمرها كل الخفاء مهما يبالغ فى كتمان أخبارها القائمون بها .

واتفق فى تلك الليلة أن تناول يوليوس قيصر طعام العشاء مع ليبداس قائد فرقة الخيالة ، ودارت بعد العشاء مناقشة فلسفية حول موضوع ما هى أسهل الطرق التى يأتى بها الموت ، وحينما جاء دور قيصر لإبداء رأيه فى هذا الموضوع قال « إنه يؤثر الموت المفاجىء غير المنتظر » .

ولما عاد قيصر إلى داره وجد الريح تعصف بالنوافذ والأبواب ، وذكرت له زوجته كاليورينا أنها لم تستطع النوم إلا غرارا ، وأن الكوابيس اعترضت نومها ونفت النوم عن عينيها ، وأنها رأته فى أحد تلك الأحلام المفزعة ملقى بين يديها مضرجا بدمائه ، وتوسلت إليه أن يستشير الكهنة والعرافين قبل أن يقوم بعمل أى شىء فى اليوم التالى .

وعجب قيصر من أمر زوجته ، وأثر فى نفسه حديثها ، فقد عهدها قوية الجنان راجحة العقل غير مبالية بالخرافات ، وأقلقه ذلك وأثار هواجسه .

وفى صباح اليوم التالى رجت زوجها أن يرجىء أعمال اليوم ، ولكن قيصر جاء لها فى رفق ولين قائلا « ماذا يقولون عنى إذا عرف أنى لزمت دارى لتأثرى بأحلام امرأة ؟ ليس هذا من طباعك ياكاليورينا ، وكل ما فى الأمر أنك عانيت بعض التعب فى الليلة السالفة » .

فطلبت إليه أن يرى على الأقل الطالع ، فوافق بعد لأى ، وبالرغم من أنه كان حر الفكر فإنه لم يسترح لما أخبره به الكاهن بعد أن ضحى بديكين ووجد أن أحدهما ليس له قلب وأن الآخر ليس له أمعاء ، وهما أقوى العلامات على توقع الشر ، ووافق على عدم الذهاب إلى مجلس الشيوخ برغم أن الجلسة كانت لها أهميتها من ناحية علاقتها بمستقبله السياسى .

واجتمع المتآمرون فى منزل كاسيوس ليقفوا على آخر الأنباء ، ويتلقوا الإشارة

الأخيرة قبل أن يسلك كل منهم سبيله إلى مجلس الشيوخ ، وذهب كاسيوس فى صحبة بروتس إلى مكان عمله بوصفه بريتورا ، وكانا يستطيعان من هذا المكان الإشراف على رواق مجلس الشيوخ ، ويعرفان الوقت المناسب لذهابهما إليه .

وأخذت الإشاعات تنتشر وتذيع مرددة أن قيصر لم يأت بعد ، ثم ذاع نبأ أنه لن يحضر إلى المجلس فى ذلك اليوم ، وجلس بروتس وكاسيوس عند الباب الخارجى فى مقر البريتورية يراقبان تجمع زملائهما فى سقيفة مجلس الشيوخ ، وقد خبأوا الخناجر فى طيات ثيابهم منتظرين الإشارة عند قدوم قيصر ، وفى هذه اللحظات التى توترت فيها الأعصاب كانت تكفى كلمة واحدة لكشف المخبأ ، وإيقاع الرعب فى القلوب ، وكاد يتجمد الدم فى عروق كاسكا ، أحد المتآمرين ، حينما مازحه أحد أصدقائه قائلا له « لقد أحسنت الاحتفاظ بالسر ولكن بروتس قال لى كل شئ » . وقبل أن ينطق كاسكا بكلمة واحدة أضاف صاحبه قائلا فى براءة تامة « لكن أخبرنى كيف جمعت فجأة المال الكافى للحصول على وظيفة من وظائف الدولة؟» .

وتلا ذلك ماهو أسوأ ، فقد همس بوبلياس ليناس لبروتس وكاسيوس قائلا : « أرجو لكما النجاح فيما دبرتما من الأمر ، ولكن بحق السماء أسرعا فقد كثر اللغط حوله » .

ولكنهما لم يكن فى وسعهما الإسراع ، ولم يستبعدا أن يكون سرهما قد ذاع ، وأن أحد المتآمرين قد خان الأمانة ، وأنهما سيقعان فى يد رجال قيصر بعد قليل من الزمن ، ولابد لهما من الانتظار ، وقد تأخر قيصر متأثرا بالأحلام التى طالعته بها زوجته ، وأخذا يترقبان سماع الهتاف الدال على قدوم قيصر والدقائق تمر متثاقلة بطيئة .

وكان ديسيمياس بروتس – وهو أحد المشتركين فى المؤامرة وكان يمت إلى بروتس بصلة القرابة البعيدة – قد وصلت إلى سمعه إشاعة تقول إن قيصر لن يحضر إلى المجلس فى ذلك اليوم ، وكان هذا الرجل من خاصة أصدقاء قيصر ، فقصد إلى منزل قيصر ليتبين جلية الأمر ، وهناك رأى كاليورينا متكئة على إحدى الأرائك وقد شحب لون وجهها ، ورأى قيصر جالسا إلى جانب النافذة مستغرقا فى التفكير ، وسمع ديسيمياس بروتس قصة الأحلام وما تكهنت به الطوالع ، فتكلم بأسلوب الفيلسوف

المتعالى وبلسان رجل الدنيا المجرب قائلا « ماهذا ؟ إنه لشىء عجاب ! قيصر العظيم يلتزم البقاء فى داره بسبب حلم من الأحلام ؟ إن هذا سيكون مثارا للضحك فى روما إذا سمعت به » .

فنظر إليه قيصر فى تردد وقال « أتظن ذلك يا ديسيما ؟ »

- « إنى أقدر ماهو أخطر من ذلك ، فإنه إذا عرف مجلس الشيوخ أنك لزمت دارك لمثل هذه الأسباب فإن أعضاء المجلس سيعدونها إهانة لهم إذا عاملتهم كأنهم عبيد لك تدعوهم إلى الاجتماع حينما يلائم ذلك مزاجك ، والمجلس فى هذا اليوم مستعد لأن يمنحك اللقب الذى تصبو إليه والذى هو جدير بك ، ولكن حينما توجه إليه مثل هذه الإهانة فإننا لا ندرى ماذا يصنعه غدا ؟ »

واستولى على قيصر شعور قوى بأن هذا اليوم لن يأتى له بخير ، ولكنه وجد أن أقل ما يجب عليه عمله هو أن يذهب بنفسه إلى مجلس الشيوخ ، ويطلب إرجاء الاجتماع .

وهكذا استدرجه إلى حتفه ديسيماس الذى كان قيصر يعده من أصدقائه الأوفياء المخلصين ، والاحتياط الوحيد الذى اتخذه قيصر هو أنه بدلا من أن يقصد المجلس ماشيا حمل إليه فى محفة ، ورأى فى طريقه سبيرنا العراف ، فأراد أن يداعبه قائلا « لقد حل اليوم الخامس عشر من شهر مارس » .

فأجابه العراف محذرا « نعم ولكنه لم ينته بعد » .

ولقيه فى الطريق أستاذه القديم اريتميدورس الذى كان معلما للكثيرين من أصدقاء قيصر ، فأقبل إليه مخترقا الجموع المتراصة إلى المحفة ، وألقى فى يده بورقة ، ورجاه أن يبادر إلى قراءتها لأن بها شيئا يعنيه ويهمه ، واحتفظ بها قيصر فى يده ، ولم يعطها لأحد من أتباعه كما كان شأنه فى العرائض والالتماسات التى تقدم له ، ودخل قيصر مجلس الشيوخ وهذه الورقة فى يده ، وكانت تحوى أسرار المؤامرة .

وحانت اللحظة التى يترقبها المتآمرون الذين أزعجهم الترقب وطول الانتظار ، ولكن من هذا الذى كان فى صحبة قيصر ؟ إنه يوبلياتس ليناس الذى بدا أنه على بينة من الأمر ! فوضع المتآمرون أيديهم على خناجرهم واستعدوا للانتحار إذا كانت

هناك محاولة لإلقاء القبض عليهم ، ولكن الظنون قد كذبتهم ، فوجه قيصر لم يطرأ عليه تغيير ، وذهب الخوف عنهم واطمأن بالهم .

وجلس قيصر ، واقترب منه تيلياس سيمبر ليقدم له عريضة يلتمس فيها عودة أخيه من المنفى ، ولم يكن عجيبا أن يلمس سيمبر الكساء الذى يرتديه قيصر ، فقد كانت هذه العادة متبعة عند تقويم الالتماسات ، ولكن نخبة المتآمرين تجمعوا ليساعدوه ، ولمست أصابعهم ثياب قيصر ليتبينوا هل كان يلبس درعا أو لا ، فوقف وقد ساءه إلحاح هذه الجماعة الملتفة حوله ، وأثار هواجسه ، وكان تمثال يومبى منافسه القديم قائما خلفه ، وأمسك تيلياس سيمبر بكساء قيصر وجذبه من ناحية رقبته ، وكانت هذه هى الإشارة المتفق عليها لبدء الهجوم على قيصر .

وطعنه كاسكا طعنة غير محكمة من الخلف ، فاستدار قيصر فى سرعة وطعنه بالسلاح الوحيد الذى كان يحمله ، وهو خنجر صغير يستعمل للكتابة ، وصاح قيصر قائلا « ماذا تصنع يا كاسكا » وتقدم حينذاك كاسيوس وطعنه فى وجهه ، وتدفق الدم من قيصر وحجب النور عن إحدى عينيه ، وتوالت عليه الطعنات ، ورأى قيصر بروتس صديقه المقرب رافعا الخنجر ليطعنه فسحب الكساء وغطى وجهه تاركا لهم جسده دريئة لطعناتهم .

ووجد فى جثة قيصر ثلاثة وعشرون جرحا ، وقبل ذلك بعامين وجدت جثة يومبى فى شواطىء مصر بعد هزيمته فى معركة فارساس وقد انتزع منها الرأس ، والآن يرقد قيصر عند قاعدة تمثال منافسه القديم دامى الجسد مسلوب الروح .

وأسرع القتلة إلى الكابيتول مهللين فرحين وقد لطخت دماء قيصر ثيابهم ، وأخذوا يلوحون بخناجرهم صائحين وهم يهيبون بالمواطنين أن يشاركوهم فى فرحتهم بميلاد الجمهورية الجديد !

وهكذا نجحت المؤامرة فى القضاء على أعظم رجل أخرجته روما وأحد النوادر المعدودين فى تاريخ الإنسانية قاطبة ، وعد قتله من أفظع الجرائم التى حدثت فى التاريخ ، وقد ألقى دانتى فى أعماق جحيمه بصانعى الشر الثلاثة وهم يهوذا الإسخريوطى الذى خان السيد المسيح ، وبروتس ، وكاسيوس .

ولم تأت هذه الجريمة بخير لروما . بل قذفت بها فى حرب داخلية استمرت

ردحا من الزمن ، وقد رأى المتآمرون أن فى قتل قيصر رد اعتبار للنظام الجمهورى ، ولكن الواقع أن النظام الجمهورى فى روما كان قد تغلغل فيه الفساد ، وفقد مزاياه كلها ، وأكثر المؤرخين لا يحملون قيصر تبعة فساده ، ويرجع هذا الفساد إلى أسباب عدة ، اقتصادية واجتماعية وسياسية .

والثقات من مؤرخى الدولة الرومانية بعضهم يقف فى صف قيصر ويتصدى للدفاع عن سياسته ، وبعضهم يقف منه موقفا معتدلا ، ومنهم من يناصبه العداء ويوجه إليه الهجوم مثل المؤرخ الإيطالى جليلمو فريرو .

ومن أشد المؤرخين تحمسا له ودفاعا عنه المؤرخ الألمانى مومسن ، فهو يهاجم بعنف يومبى وسيشرون وكاتون ، ويصور قيصر باعتباره رجل الأقدار الذى أدرك مايحتاج إليه عصره ، وأن هدفه كان تجديد شباب الإمبراطورية الرومانية وتحسين أحوالها السياسية والعسكرية والأدبية ، وقد عاب عليه المؤرخ ستراوس فرط تعصبه لقيصر ، وقال عنه « أى محاولة لإعلاء شأن قيصر وخلع صفات الكمال عليه ! إن المؤرخ قد يلوم ، ولكنه لا يسرف فى التعنيف ، وقد يمدح ولكنه لا يفقد اتزانه » .

ولا خلاف بين المؤرخين فى أن الجمهورية كانت فاسدة ، وأن عمل قيصر فى القضاء عليها كان لازما ونافعا ، لا لأنه جاء بالخير موفورا ، وإنما لأنه أقل ضررا وأهون شرا .

والمؤرخ الألمانى كارل بيتر يسلم بأن حكم قيصر كان حكيما ، ولكنه ينكر عليه قدرته على تجديد شباب الدولة الرومانية .

وهكذا قد تختلف الآراء فى تقدير أعمال قيصر ، ولكن لا خلاف بين أنصاره وخصومه فى أنه كان من أفذاذ الرجال ونوادر الأبطال ، وأن قتله كان جريمة شنعاء لم تدفع الشر ، ولم تأت بالخير .

خرستوف كولمبو فى رحلاته الكشفية

يقترن اسم خرستوف كولمبو بمغامرة من أعظم المغامرات التاريخية التى عرفها البشر ، وسجلها التاريخ ، وكان لها أثرها فى تطوير الفكر وتقدم الحضارة .

ويحيط الغموض بأصل هذا الرجل العظيم الذى قام بهذه المغامرة ، ففى بعض الروايات أنه ولد سنة ١٤٥٣ وهى السنة التى سقطت فيها القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين ، وفى رواية أخرى أنه ولد سنة ١٤٤٦ فى جنوا ، ويزعم بعض مؤرخى سيرته أنه ولد فى إسبانيا ، وأنه ابن دومينيكو كولومبو الذى كان نساجًا فى جنوا ، وفى بعض الروايات أن أسرته من اليهود الإسبانيين الذين دخلوا فى الديانة المسيحية ، وأنه كان يحاول إخفاء ذلك ، والمرجح أنه إيطالى من أصل إسبانى ، وكان يدعى أنه من سلالة الكونت كولمبو ليلحق نفسه بطائفة النبلاء .

وركبت أباه الديون ، وحبس من أجل ذلك ، واضطر ذلك خرستوف إلى أن يعمل تاجرا متجولا وعميلا لبيت من البيوت التجارية الكبيرة فى جنوا ، وهى شركة دى نجرو وسبينولا ، وفى سنة ١٤٧٦ أبحر إلى إنجلترا لتوزيع بعض منسوجات الشركة المذكورة ، فهوجمت سفن جنوا عند رأس سنت فنسنت بالبرتغال ، وحرقت ثلاث سفن ، وأخذ البرتغاليون السفينة التى كان بها خرستوف إلى لشبونة ، وكان فى لشبونة فرع للشركة التى يعمل بها ، وتمكن هو بعد ذلك من الإبحار إلى إنجلترا ، وعاد فى السنة التالية إلى لشبونة يعمل فى مخازن شركة نجرو ، وزار جزائر كنارى وماديرا .

وكثيرا ما يردد أن الفكرة التى كانت غالبة على أذهان الكثيرين فى ذلك الوقت هى أن الأرض منبسطة وأنها غير كروية الشكل ، وأن المحيط الأطلسى حافل بالجان ، والشياطين ، وأن خرستوف كولمبو هو الذى وضع حدا لهذه الخرافات الشائعة ، ولكن الواقع أن ربابنة السفن والتجار المغامرين والعلماء والملاحين الذين كان يخالطهم خرستوف لم يكونوا يعتقدون أن الأرض منبسطة ، وكانت فكرة أن الأرض مستديرة أخذت فى الذيوع .

وقد ظل خرستوف طوال حياته يعتقد أنه ليس فى الدنيا سوى أوروبا وإفريقية وآسيا ، وغلب عليه الاعتقاد أنه يمكن الوصول إلى آسيا إذا اتجهت السفن فى الناحية الغربية لبلاد البرتغال .

وكانت المدن الشاطئية فى البرتغال وإسبانيا ملأى بكثيرين من الملاحين الراغبين فى المغامرة واقتحام المجاهل ، وحياة خرستوف من هذه الناحية تعبر عن روح العصر واتجاهه ، وقبل رحلة خرستوف بأربعة أعوام وصل الرحالة البرتغالى برتلميو دياز إلى رأس الرجاء الصالح ، وعاد إلى البرتغال بعد أن رأى الطريق الموصل إلى الهند ، وكان إلى جانب الكشوف الجغرافية التى عرفت كشوف أخرى تعرفها بعض الشركات التجارية الكبيرة وتحتفظ بأسرارها ، وقد وضعت بعض الخرائط الجغرافية بناء على المعلومات المستمدة من الربابنة والعاملين فى تلك الشركات ، وفى رواية أن خرستوف وهو يقوم بمساعدة أبيه فى توزيع منسوجاته فى النواحى القريبة من جنوا لقى العالم الفلورنسي بيترو توسكانيللى ، وكان هذا العالم قد قام بعمل خريطة أوضح بها جزيرة كوبا تحت اسم انتيليا .

والواقع أن الحافز العتيد وراء الحركة الكشفية ، ذلك الحافز الذى يوقد الحماسة ويستنهض الهمم إلى المغامرة والبحث عن طريق آخر للشرق كان هو تزايد قوى الأتراك العثمانيين ، فقد سد ذلك الطريق إلى الشرق من ناحية الشرق فى وجوه الإيطاليين ، وكان لذلك أثره فى تناقص الذهب وتزايد الحاجة إلى التوابل والبهارات ، كما اشتدت الحاجة إلى المال للقيام بحملة شعواء لإيقاف تقدم الأتراك ، ومقاومة الإسلام ، وكان معنى النجاح فى الرحلات الكشفية الإبقاء على سيادة أوروبا وفتح الطريق إلى الأسواق فى الشرق الأقصى ، ولذلك كان الملاحون والعاملون فى الشركات التجارية شديدى الاهتمام بالكشوف الجغرافية ، دائمى التفكير فيها ، ومن ثم كان من الخطأ تصوير خرستوف كولمبو على أنه الوحيد من بين رجال عصره الذى عنى بكشف طريق جديد للهند والصين .

وقد رأى خرستوف أن يرتبط بأسرة لها مكانتها لتمكنه الصلات العائلية من تحقيق غرضه الذى ملأ شعاب نفسه ، وأصبح عقيدة ملازمة له ، وهو إمكان الوصول إلى الشرق الأقصى من الناحية الغربية . وتزوج من سيدة ميسورة ولقومها

مكانة فى المجتمع البرتغالى ، وكان لوالد زوجته مكتبة حافلة بكتب الرحلات انتفع بها خرستوف ، ووردت إشارة فى أحد تلك الكتب إلى أن هناك بين إسبانيا والهند بحرا صغيرا يمكن أن تطوى مسافته فى أيام قلائل ، وكان هناك رواية وهى أن سبعة من الأساقفة هاجروا من إسبانيا حينما استولى العرب على الاندلس ، وذهبوا إلى انتيليا ، وأنشأوا بها سبع مدن ، وقام البرتغاليون بمحاولات كثيرة للوصول إلى تلك المجموعة من الجزر التى أطلق عليها اسم انتيليا .

وتمكن خرستوف عن طريق أسرة زوجته من المثول بين يدى جوا الثانى ملك البرتغال ، وكان خرستوف طويل القامة ساطع اللون مشرق ، له شارة وهيئة حسنة ، وقد أسرع الشيب إلى فوديه ، وكان يتحدث فى هدوء وأناة ويتحاشى الإطالة فى الحديث ، ويتحرى الجد ، ولا يعرف الهزل ، ويعرف متى يلوذ بالصمت ، ومن العجيب فى أمره أنه كان يجد من السهل اليسير أن يدخل البهجة على نفوس الملوك والعظماء بحسن حديثة وبارع إشاراته ، ولكنه لم يكن موفقا فى اكتساب ثقة الطبقات الأدنى والظفر بتقديرها وولائها ، وكان الملاحون الذين صحبوه فى رحلاته يمقتونه ويزدرونه ، وقد أصغى الملك جوا لحديثه بانتباه شديد واحترام ، ولكن الشروط التى كان يقدمها خرستوف لم يكن من السهل قبولها والنزول على حكمها .

فقد كان يطلب أن يكون أميرا للبحر ، وواليا على النواحى التى يكشفها ، وأن يكون له عشرة فى المائة من تجارتها ، وأن يكون له سلطة اختيار الحكام ، وأن يكون ذلك كله وراثيا فى أسرته ، ومعنى ذلك كله أن يكون شريكا للدولة فى سيطرتها ، ولم يقبل خرستوف التنازل عن هذه المطالب أو المساومة فيها ، وكانت هناك سوابق لرحلات كشفية ، ولكن لم يتقدم أحد القائمين بها بمثل هذه المطالب المسرفة ، ولم يكن هناك فى مكانة خرستوف الاجتماعية ولا فى ماضيه فى الملاحة ما يسوغ التساهل فى قبول مطالبه ، فقد كانت قيادة السفن فى عصره لا يعهد بها إلا لأبناء الطبقة العالية ، وهو يريد أن يقود أسطولا لا سفينة واحدة ، كما أن مطالبته بأن يفوض إليه اختيار الحكام معناه إيجاد سطلة منافسة لسلطة الدولة ، ولذلك رفض الملك مطالبه ولكن فى أدب وترفق .

وفى بعض الروايات أن مستشارى الملك حرضوه على أن يستمع إلى حديث الرحالة الجنوى ، ولا يعطيه ردا قاطعا ، ويتركه فى انتظار الإجابة ، وعلم خرستوف أن رجال الحاشية أرسلوا سرا بعض السفن لبحث المشروع ، واتجهت السفن غربا ، وواجهتها عاصفة شديدة اضطرتها إلى أن تعود أدراجها ، وأغضب ذلك خرستوف ، وحمله على الخروج من بلاد البرتغال والاتجاه إلى إسبانيا ، وعرض الأمر على الملك فرديناند صاحب أرجون والملكة إيزابلا صاحبة قشتالة ، وكانت زوجته قد توفيت فى سنة ١٤٨٤ فأخذ معه إلى إسبانيا ابنه ريجو ، وكانت السنوات السبع التالية من أشد السنوات قسوة فى حياته ، فقد كان يتحرق شوقا إلى تنفيذ مشروعه ، وبرغم أن بعض الأعيان لم يحفلوا بمشروعه ، وسخروا من مطالبه إلا أن بعض ذوى الحظوة والنفوذ فى البلاط الملكى أعاروه أذنا صاغية ، وعلى رأسهم دون سيدونيا وكان أوسع الإسبانيين ثراءً ، ولكن الملك والملكة كانا حينذاك مشغولين بمحاولة القضاء على الولاية الإسلامية الباقية للعرب فى إسبانيا ، وهى ولاية غرناطة ، وقد أوصى دوق سيدونيا صديقه وابن عمه دوق سيلى خيرا بخرستوف وأن يشمله برعايته ، ووافق دوق سيلى على مشروع خرستوف ، ولكن مطالبه المنشودة وقفت عقبة فى الطريق ، وبذل خرستوف بعد ذلك جهده فى محاولة لقاء الملكة إيزابلا ، وتمكن من مقابلة الملك والملكة ، ولكن مطالبه المغالية ظلت عقبة كأداء .

وفى إحدى زياراته لثغر بالوس لقى مارتن الونزو ينزون ، وهو أحد أمراء أسرة تملك مجموعة من السفن ، وتعد من الأسر الثرية القوية ، وكان مارتن نفسه يتطلع إلى القيام برحلة كشفية ، وله دراية تامة واسعة بشؤون الملاحة ، وكان قد عقد العزم على القيام بالرحلة الكشفية قبل لقائه لخرستوف ، فلما التقيا تم الاتفاق بينهما ، وأعطى مارتن خرستوف نفقات رحلته إلى البلاط الملكى .

وفى يناير سنة ١٤٩٢ سقطت غرناطة وهى آخر قلعة للعرب والإسلام فى الأندلس ، وضمها فرديناند وإيزابلا إلى أملاكهما ، وأخذت إيزابلا فى العمل على محو آثار الحضارة الإسلامية فى الأندلس . ولاحت الفرصة لخرستوف ، وتحمست الملكة إيزابلا لمساعدته ، وأعلنت أنها مستعدة لبيع مجوهراتها وحليها

لإعداد المال اللازم للرحلة ، وأقرت منحه لقب أمير البحر ، وبدا أن حلم حياته قارب التحقيق ، وكان خرستوف حينذاك قد بلغ السادسة بعد الأربعين ، واشتعل الشيب فى رأسه .

وأعدت أخيرا للرحلة ثلاث سفن ، وفى مقدمتها السفينة سانتا ماريا للقيادة ، وكانت حمولتها مائة طن ، وبها ما يشبه القلعة فى المؤخرة وجزء مرتفع فى المقدمة ، وكان من الصعب إغراء الملاحين بالاشتراك فى الرحلة ، لأن بعضهم لم يكن لهم ثقة بهذا المغامر القادم من جنوا ، وكانت السفينة الثانية بنتا أقل حجما وحمولة من السفينة الأولى ، والسفينة الثالثة هى السفينة نينا ، وكانت حمولتها لا تتجاوز أربعين طنا .

وفى اليوم الثالث من أغسطس سنة ١٤٩٢ أبحرت السفن الثلاث فى هذه المغامرة غير المسبوقة ، والتى كانت السفن تشق فيها عباب البحر بعيدا عن رؤية الشاطىء ، واتجهت السفن الثلاث إلى جزائر كنارى وأبحرت منها موغلة فى أحشاء المحيط الأطلسى ، وبعد مرور دون أن تظهر لهم الأرض أخذ يستولى الرعب على نفوس البحارة ، وبدأت تتضاءل ثقتهم بخرستوف ويضعف أملهم فى النجاة ، ورأوا بجعتين محلقتين فى السماء مما يدل على الاقتراب من الأرض ، ولكن مرت أيام ، وازدادت أخلاق الملاحين سوءًا ، واشتد تذمرهم ، وفى اليوم التاسع من شهر أكتوبر تجدد الأمل فى القلوب ، فقد سمعوا حفيف أجنحة الطيور فى هدأة الليل وسكون الرياح .

وفى مساء اليوم الحادى عشر رأوا ضوءًا يشع من بعيد ، ويمكن رؤيته من الجزء الأعلى فى ظهر السفينة سانتا ماريا ، ولما أشرقت الشمس ظهر الشاطىء على مسافة بضعة أميال جليا واضحا ، فشرع الملاحون يتغنون بالأناشيد الدينية ، والكثيرون منهم مسحوا دموعهم ، ونزل خرستوف ومعه ينزون وشقيقه فى مركب شراعية صغيرة وجذفوا إلى الشاطىء ، وحمل خرستوف السلاح تحت عباءته الأرجوانية ، ووثب إلى الشاطىء ، ولكن سكان الجزيرة حينما رأوا هؤلاء الغرباء لاذوا بالفرار وهم عرايا ، ونشر خرستوف العلم الإسبانى المطوى ، وأقام صليبا كبيرا ، وسجد شكرا لله الذى توج رحلته بالنجاح ، وأسمى الجزيرة سان سلفادور وهى إحدى جزر البهاما وتعرف الآن باسم جزيرة وتلنج .

وخال خرستوف أنه قد وصل إلى جزائر الهند ، وأنه قد وجد طريقا من المغرب إلى كاثاى التى وصل إليها الرحالة ماركو بولو من الشرق ، ولم يدر أنه قد كشف قارة جديدة ، وقد طوى بالسفن الثلاث أكثر من ثلاثة آلاف من الأميال دون أن يرى الأرض ، وهى محاولة غير مسبوقة فى تاريخ الرحلات الكشفية وغير الكشفية .

ورأى أن أهل الجزيرة يشبهون سكان جزائر الكنارى ، وأنه من السهل حملهم على الدخول فى الديانة المسيحية ، ونوى أن يحمل معه فى عودته إلى إسبانيا ستة منهم ليعلمهم اللغة الإسبانية وأنهم سيكونون عبيدا صالحين .

وأخذ ينتقل من جزيرة إلى جزيرة باحثا عن الذهب ، ومؤملا أن يجد كاثاى ، فقد حمل رسالة من الملك فرديناند إلى الخان الأعظم ، وكان جمال المناظر الطبيعية فى تلك الجزر من بواعث الابتهاج والغبطة فى نفس خرستوف وصحابته ، ومن أقواله « تغريد الطيور فى تلك الجزائر يجعل الإنسان غير راغب فى الارتحال عنها ، وأسراب الببغاوات تكاد تحجب ضوء الشمس » . وبدا له أن جزيرة كوبا هى الجنة التى وعد بها المتقون ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يغفل عن البحث عن الذهب والتوابل وهو يسرع فى التنقل بين الجزر المتقاربة .

وابتعدت السفينة بنتا Penta التى كان يقودها مارتن ينزون تبحث عن الذهب ، وساء ذلك أمير البحر ، وحدثت كارثة أحزنته ، فقد ارتطمت السفينة سانتا ماريا فى شعاب وصخور على مقربة من جزيرة هيتى ، واضطر خرستوف وسائر البحارة إلى مغادرتها ، ولاذ بالسفينة نينا ، ولكنها كانت صغيرة لا تحمل البحارة جميعهم ، وصنع خرستوف وبحارته حصنا صغيرا فى الجزيرة التى وجد من ملكها ودًّا وترحيبا ، وترك بها مستعمرة صغيرة من الإسبانيين .

وفى أول يناير سنة ١٤٩٣ استعد لرحلة العودة إلى إسبانيا ، وكانت السفينة بنتا قد عادت إليه ، فصحبها معه . ومرت أسابيع والريح رخاء والجو صحو ، ثم تغير الحال ، فثارت الريح ، واشتد هدير البحر ، وعلت غواربه ، ومرت أيام وليال عانت البحارة فيها الشدة ، واختفت السفينة بنتا فجأة ، واشتد عصف الريح وطغيان الموج ، وتعرضت السفينة نينا للخطر الشديد ، ويئس الملاحون من النجاة ، وخشى خرستوف أن تغرق السفينة ولا تصل إلى إسبانيا ، فتناول رقا ، وبذل أقصى

جهده ليسجل فيه موجزا عن رحلته ، والأمواج تتلاعب بالسفينة ، ولف الرق فى قماش مشمع ، ووضعه فى برميل فارغ ، وألقى به فى مياه المحيط ، وأخذ يصلى ويتوسل .

وبدأ الجو يصفو وتهدأ العاصفة ، وفى اليوم الثامن عشر من شهر فبراير وصلت السفينة إلى جزائر ازوريس ، واستراح خرستوف بها قليلا من عناء الرحلة ، ولم يطل الإقامة لأنه كان حريصا على الإسراع فى العودة إلى إسبانيا ليعلن الأنباء السارة . وفى اليوم الثالث من شهر مارس اشتد عصف الريح ، وثارت زوبعة شديدة الوطأة ، واشتد رعب الملاحين ، ولكنهم صبروا وجاهدوا حتى وصلوا إلى مصب نهر تاجة ، وذاعت أخبار وصول خرستوف ، وتاقت الجماهير إلى مشاهدة السفينة الصغيرة التى شقت عباب المحيط الأطلسى وعادت سالمة برغم الأخطار الماحقة والصعاب المتلاحقة ، وجاء الرحالة برتلميو دياز إلى السفينة نينا ، والتقى وجها لوجه الرجلان اللذان قاما بأعظم رحلتين فى القرن الخامس عشر ، ورحبت إسبانيا بأمير البحر العائد من الرحلة الظافرة ، والرجل الذى كشف المجهول وحقق حلمه ، وبعد أن مر فى شوارع مدينة إشبيلية فى موكب سار فيه ستة من سكان الجزر التى كشفها ، وحملت فيه الببغاوات والطيور الغريبة الألوان ، وقد امتطى صهوة جواد يحف به فرسان من الإسبانيين ، وقد أطلت الناس من نوافذ المنازل وأسقفتها ليروا الرحالة العظيم ، وتقدم من إشبيلية حتى برشلونة محفوفا بالإعجاب والإكبار ، وتلقاه الملك والملكة مرحبين معجبين ، ولم تعتقد إسبانيا وحدها بل اعتقد العالم جميعه أن خرستوف كولمبو قد كشف الجزائر القريبة من شاطىء آسيا ، والتى لا تبعد كثيرا عن بلاد الخان الأعظم ، وقد ظلت تلك الجزائر حتى اليوم تحمل اسم جزائر الهند الغربية .

وبعد وصول إسبانيا بستة أشهر بدأ رحلته الثانية ، وكان الأسطول المصاحب له قد أتم استعداده فى سبتمبر سنة ١٤٩٣ وكانت السفن الثلاث الكبيرة تبلغ حمولتها أربعمائة طن ومعها أربعة عشر زورقا - واشترك فى هذه الرحلة الكثيرون من الإسبانيين من أعلى طبقات المجتمع الإسبانى طمعا فى ثروة جزائر الهند ، وصحب خرستوف فى هذه الرحلة أخوه جيمس وراهب بندكتينى اختاره البابا ، وحمل معه

بذور البرتقال والليمون وخيلا وبقرا وأغناما وماعز وصنوفا من الفاكهة والخضروات .

ووصل الأسطول إلى الجزائر الغربية فى اليوم الثالث من شهر نوفمبر ، وكشف جزيرة جديدة أسماها دومنيكا ، ثم اتجه إلى جزيرة هيتى التى ترك بها المستعمرة الإسبانية الصغيرة ، ومر خلال ذلك بجزائر أسماها جواديلوب وسان مرتن وسانتاكروز ، ومر كذلك بجزيرة بورتوريكو ، ولكنه حينما وصل إلى جزيرة هيتى لم يجد أثرا للإسبانيين الذين تركهم بها ، فقد نكبت المستعمرة ، وقتل الأهالى المستعمرين ، واختار خرستوف بقعة أخرى ، وأنشأ مدينة أسماها إيزابلا .

وحدثت خلافات ومشاحنات بنيه وبين أعيان الإسبانيين الذين صحبوه ، ولكنه برغم ذلك حاول القيام برحلة كشفية للاهتداء إلى كاثاى ، ولكنه بدلا من العثور على كاثاى وجد جزيرة جميكا ، وكان لايزال على اعتقاده أنه قريب من بلاد الخان الأعظم ، وكشف شواطىء كوبا دون أن يتبين أنها جزيرة ، وتنقل بين مجموعة الجزائر المتقاربة ، ومرض مرضا شديدا ، فقد أصابته الحمى ، وحمله رجاله إلى مدينة إيزابلا ، وشفى من مرضه ليجد التذمر قد ساد المستعمرة .

وأرسل الإسبانيون أخبار سوء عنه إلى إسبانيا ، فعقد العزم على أن يعود إلى إسبانيا ليدحض أقاويل السوء ، وينفى عن نفسه ما وجه إليه من التهم .

وفى يوليو سنة ١٤٩٦ وجد نفسه فى ميناء قادس ، وتجمعت الناس لتحية الرحالة الكبير ، ولكنه كان فى هذه المرة لا يتقدم بين بحارة قد غمرهم السرور حاملين أسلاب جزائر الهند الغربية ، وإنما كان يسير بين رجال قد نال منهم المرض ، وبدت عليهم مظاهر البؤس ، وسوء الحال .

وبعد أن قضى سنتين فى إسبانيا عاد ليقوم برحلته الثالثة ، وكان معه فى هذه الرحلة ست سفن ، وحاول أن يتجه اتجاها جنوبيا غربيا آملا أن يجد أرضا فى جنوب جزائر الهند الغربية ، ووصل إلى جزيرة ترينيداد المواجهة لشاطىء أمريكا الجنوبية ، ورأى الملاحون شاطىء أمريكا الجنوبية ، فخالوه شاطىء إحدى الجزائر ، وأسرع خرستوف إلى جزيرة هيتى ، وكان قد ترك أخاه حاكما بها فى أثناء غيابه ، ولكن الأحوال لم تكن على ما يرام فى المستعمرة .

ولم تتحسن الأحوال بمجيء خرستوف ، ولم يكن الرجل ممن يحسنون الإدارة ، ويجيدون السياسة . وعمت الشكوى منه ، ووصلت إلى الحكومة الإسبانية ، وأرسلت الحكومة الإسبانية موظفا كبيرا مزودا بالسلطة التامة ، فأمر حين قدومه الجزيرة بوضع خرستوف فى القيد ، وحمله فى سفينة إلى إسبانيا ، وحزنت الملكة إيزابلا حينما رأت الرحالة العظيم الذى جلل الشيب رأسه ماثلا أمامها وقد بدت عليه مظاهر البؤس والشقاء ، فأعلنت رضاءها عنه ، وردت إليه اعتباره ، وأعطت له سفنا ليقوم برحلته الرابعة .

ولكن المحن التى قاساها ، والأهوال التى عاناها نالت من قوته وصلابته ، ولم يكن له من القوة الجسدية ما يمكنه من احتمال متاعب هذه الرحلة الرابعة ، وقد وصل سالما إلى شاطىء هندوراس ، وبحث عن المضايق التى اعتقد أنها لابد أن تكون موجودة ولكنها لم تكشف إلا بعد ثمانية عشر عاما من الرحلة التى قام بها الرحالة الكبير ماجلان ، وأحضر له أهالى المنطقة جوزة الهند التى عرفها الإسبانيون لأول مرة ، كما أحضروا له بضائع من أرض بعيدة تدل صناعتها على حضارة عالية ، فاعتقد خرستوف أنه قد وصل إلى الشرق ، ولو أنه اتجه غربا على مقربة من المكان الكشوف ، ولكنه كان متعبا ، وقد سامته رداءة الطقس ، وضايقته الأمطار التى لم تنقطع والعواصف والبروق والرعود والأمواج الهادرة ، ونفدت المؤونة التى تحملها السفن ، واشتد به المرض حتى بدا أنه قد أشرف على الموت ، وعاد إلى إسبانيا سنة ١٥٠٤ وحمل فى محفة إلى الشاطىء ، وعلم أن الملكة إيزابلا قد توفيت ، وأصبح لا صديق له ولا نصير ولا مال معه ينفق منه ، قال « بعد عشرين سنة من الجهاد ومعاناة الأخطار ، لا أملك فى إسبانيا سقفا يظلنى » .

ولم يزر البلاط بعد وفاة الملكة إيزابلا ، وقد مات بعدها بعامين غامض الشأن ، مجهول المكانة ، وطلب أن تدفن معه القيود التى قيد بها عندما جىء به مقيدا إلى إسبانيا ، وهكذا كانت خاتمة حياة هذا الرحالة العظيم .

ولم يعرف أن الجزائر التى كشفها خرستوف ليست آسيا ولا افريقية إلا بعد موته بسنة ، حينما وصل الملاحون إلى شواطىء فنزويلا الجنوبية ، وقد صحب اميريجو فسبوتشى ، أحد الشبان الاسبانيين الذين اشتركوا مع خرستوف كولمبو فى رحلته

الثانية ، وهذا الشاب هو « هوجيدا » وأعد هذا الشاب حملة فى سنة ١٤٩٩ وصلت إلى أرض أمريكا الجنوبية المواجهة لجزيرة ترينيداد التى كشفها خرستوف ، ولم تعرف أخبار هذه الرحلة إلا بعد موت خرستوف بسنة ، وكتب اميريجو يقول « من المناسب أن تسمى هذه الأرض الدنيا الجديدة ، وقد قال القدماء أنه لا يوجد أرض فى جنوب خط الاستواء ، ولكن هذه الرحلة الأخيرة أثبتت خطأ هذا الزعم ، فقد وجدت بلاد كثيرة السكان والحيوانات ، وسكانها وحيواناتها أكثر مما فى أوروبا أو آسيا أو افريقية » . وظهرت هذه الكلمات مطبوعة سنة ١٥٠٧ ولذا قالت الناس أن أميريجو فسبوتشى قد كشف قارة جديدة ، وأنه استحق أن تسمى هذه القارة الجديدة باسمه ، وهكذا مات خرستوف كولمبو دون أن يعرف أنه مهد السبيل لكشف قارة جديدة ، وأنه كان يفصله عن بلاد الخان الأكبر محيط واسع المدى بعيد الأعماق .

سرفنتس – مؤلف دون كيشوت

كثير من عظماء الرجال وأفذاذ الإنسانية لم تقدر عبقريتهم ويعترف بفضلهم فى أثناء حياتهم ، وقد يظفرُ بعضهم بعطف قلة من معاصريهم ، ويحظى بتشجيعهم ، ولكن أعمالهم برغم ذلك عرضة للشك ، ومثار جدل وخلاف حتى تنقضى حقبة من الزمان يختفى فيها من الميدان الرجال الأقل قيمة والأدنى منزلة ، الذين نالوا مكانة لم يكونوا بها جديرين ، وأصابوا من الإعجاب والتقدير مالا يستحقون ، ويظهر حينذاك فضل هؤلاء الذين عقهم عصرهم ، وغمطهم حقهم ، وكثيرا مايحدث أن هؤلاء الذين ملأوا عصرا من العصور ضجة ودويا ، ووصلوا بين معاصريهم إلى المكانة الشماء ، يجر عليهم النسيان أذياله ، ويطويهم الزمن فى غياهبه ، فلا تحفل الأجيال التالية بآثارهم ، وتعرض حتى عن ذكر أسمائهم ،.فى حين أن الرجال العظماء حقا يعيشون فى أعمالهم الخالدة ، ويبقى ذكرهم مابقيت الإنسانية ، ومنهم من ذاق مرارة الإخفاق ، وعرف آلام الحرمان .

ورواية دون كيشوت من أشهر الروايات العالمية ، وإحدى الطرف الأدبية المعدودة ، وقد اشتهرت مغامرات بطلها أو بالأحرى حماقاته المسلية ، وكيف كان يسير مع تابعه سانكوبانزا ، ويثبت إقدامه وشجاعته وميله إلى الأخذ بيد الضعفاء ومناصرة المظلومين بأساليب مختلفة تدل على الغفلة والسذاجة المقترنة بطيبة القلب والمثالية العمياء ، ولا يعد هذا الكتاب الذى سجل مغامرات هذا الفارس المغوار وتابعه المسكين مجرد قصة ، وإنما هو صورة لإسبانيا فى عصره وحياتها من شتى نواحيها فى القرن السادس عشر ، فهى تمثل أفكار الشعب ، وتصور مشاعره تصويرا لا يستطيعه سوى فنان عبقرى موهوب حاد الفطنة نافذ البصيرة .

وحينما ظهر الكتاب فى إسبانيا سنة ١٦٠٥ لم يكن أحد يدرى أنه سيكون من الكتب العظيمة الخالدة ، وأنه سيترجم إلى لغات العالم جميعها ومنها لغتنا العربية ، ولم يعن أحد بمعرفة مؤلفه أو بذكره بعد موته ، ولكن حينما عرف مواطنوه

الإسبانيون أنه أصبح له شهرة عالمية أخذوا فى بحث سيرته ، وتحرى أخبار حياته ، ووجدوا أنه يستحق الشهرة الواسعة بوصفه إنسانا فضلا عما يستحقه من الشهرة بوصفه أحد كتاب العالم المعدودين .

كان سرفنتس جنديا ، وليس من دعاة الجنود أن يشغلوا بكتابة القصص ، ولكنه لم يكن جنديا فى جيش منظم يتلقى التدريب كل يوم فى الثكنات ، وإنما كان جنديا آثر أن يذهب إلى الحرب ، ويخوض غمارها ، ويستهدف أخطارها ، ويحتمل فى صبر وجلد مشقاتها ، وقد أفاد من ذلك معرفة ، واكتسب خبرة بالحياة والمجتمع ، أعانها خياله الخصب وشاعريته وقدرته الفنية .

وقد ولد سرفنتس فى سنة ١٥٤٧ وكان أبوه بيطارا بمدينة قلعة اينارس ، وكانت هذه المدينة حينذاك مركزا هاما من مراكز العلم المسيحى ، فقد أوجد فيها الكاردينال اكزيمنيس جامعة فى سنة ١٥٠٨ ، ولكن سرفنتس لم يلتحق بهذه الجامعة ، لأن أهله كانوا فقراء ، ولكنه عمل على أن يتلقى من اللاتينى ما يمكنه من قراءة الآثار اللاتينية الأدبية ، وقد استدل الذين ترجموا له على فرط ميله إلى القراءة من قوله أنه كان يقرأ كل مايقع فى يده حتى قصاصات الورق التى يلتقطها من الطريق ، وقد استعاض عن الدراسة المنظمة بمعرفة الناس والحياة معرفة يغبطه عليها الدارسون والعلماء .

وقد حاول الكتابة مبكرا ، ونظم قصيدة وهو فى العشرين من عمره بمناسبة وفاة ملكة إسبانيا وأثنى على القصيدة أستاذه ، ومرت سنوات قبل أن يستطيع أن يفرغ للأدب ومعالجة الكتابة والتأليف ، وكان يشعر بأنه يملك الموهبة ، ولكن ظروف الحياة القاسية لم تتح له الفرصة لاختبار قدرته وشحذ ملكته ، وكان مطبوعا على حب المغامرة ، فاغتنم أول فرصة لاحت له لممارسة الحياة ومعاناة التجارب ، فقد التحق بخدمة القس الإيطالى الشاب أكوافيفا بوصفه رئيسا للخدم .

وكان البابا قد أرسل هذا القس إلى الملك الإسبانى فيليب الثانى ، وغضب الملك عليه ، وأمره بمغادرة إسبانيا خلال شهرين ، وقد انتقل معه سرفنتس إلى إيطاليا عند عودته إليها ، ولكن سرفنتس لم يرض عن الحياة المملة الخالية من الحوادث الشائقة فى ظل رعاية القسيس ، ولم يكن ممن يحسنون الملق والمداهنة

والدس ، ولذلك استقال من عمله ، والتحق بالجندية فى الفرقة الإسبانية التى تكونت فى إيطاليا ، وكان البابا بيوس الخامس ينظم حينذاك حلفا مقدسا لوقف تقدم الأتراك العثمانيين فى أوروبا ، وكانت فتوحاتهم العظيمة وانتصاراتهم الباهرة قد أدخلت الرعب فى قلوب الحكومات الأوربية ، ولكن كانت هناك صعوبة فى توحيد الكلمة وجمع الصفوف والاتفاق على خطة لصد تيار الهجوم التركى ، وكانت المنافسات بين الدول الأوربية لا تمكن من عقد الاتفاق والتغلب على أسباب الخلاف والشقاق ، وأخيرا وبعد إبطاء طويل قضاه سرفنتس فى نابولى تكوّن الحلف من البابا والبندقية وإسبانيا تحت قيادة دون جيوان النمساوى ، وكان قائدا بارعا ، وهو أخو فيليب الثانى ، وكان أسطول هذه الدول الثلاث يعد أعظم أسطول يحمل علم المسيحية ، وكان فيه سفن يجذف بها عدد من البحارة كلهم من المجرمين المحكوم عليهم ، وفى سفن الأتراك كانت البحارة من الجنود الانكشارية ، وكان هدف المتحالفين استرداد جزيرة قبرص من الأتراك ، ولكن قبل وصول الحلفاء إلى الجزيرة نشبت معركة رهيبة عند خليج ليبانتو الواقعة عند مدخل خليج كورنت انتصر فيها الحلفاء بعد جهد شديد .

وبرغم أن سرفنتس كان يعمل جنديا بسيطا فقد أظهر شجاعة استرعت الأنظار ، وحازت التقدير ، وكان مصابا بالحمى فى نابولى ، ولكنه أصر على الاشتراك فى المعركة برغم مرضه ، واختار مكانا معرضا للهجوم الشديد من السفن المعادية ، وقد أصيب فى المعركة بثلاث قذائف ، اثنتين فى الصدر والثالثة فى يده اليسرى ، وقد ظلت يده مشلولة طوال حياته ، وقد أكسبه موقفه البطولى إعجاب زملائه ، وظل هو نفسه يرى أن هذا الموقف هو أنبل مواقف حياته وأحقها بأن يفخر به .

وقتل من الأتراك فى هذه المعركة الدامية قرابة عشرين ألفا ، وفقدوا مائة وسبعين سفينة ، ولم تقض هذه المعركة على قوة الأتراك ، ولكنها أوقفت تقدمهم ، وأقنعت الحلفاء بأن الأتراك يمكن هزيمتهم ، وكانت انتصارات الأتراك المتلاحقة قد جعلت الأوربيين يشكون فى قدرتهم على إيقاع الهزيمة بالأتراك وردهم على أعقابهم .

وهبت عاصفة فى أثر المعركة ، وأبحر دون جيوان النمساوى إلى مسينا ومعه

جرحى المعركة ، وكان من بينهم سرفنتس الذى كان جرحه بالغا ، وأعطيت له هبة من المال لقاء شجاعته ، ولكنه كان شديد التوق إلى العودة إلى ميدان القتال ، ولم يمض زمن طويل حتى عاد إلى الانضمام للجيش ، واشترك فى محاولة دون جيوان الثانية للتغلب على الأسطول التركى ولكن هذه المحاولة لم تنجح .

وتلا ذلك هجوم على إفريقية ، واستيلاء على تونس ، ولكن سرعان ما استردها الأتراك ، واستغرقت هذه المحاولات والمغامرات أربع سنوات عانى سرفنتس فى خلالها شدائد الحرب ، وتعاورته محنها ، وذاق لذة الانتصار ، وتجرع مرارة الهزيمة ، وقد صار بعد هذه التجارب المرة جنديا مريضا مبتور اليد ، وعرف ما يعرض لحياة الجندى من الأعمال العظيمة ، ولكنه عرف كذلك الإخفاق وخيبة الرجاء .

ولما كان قد غاب عن بلاده ست سنوات فقد التمس العودة إليها ، ومنح هذا الحق ، وترك نابولى فى سفينة قاصدة إلى إسبانيا ، وكان يحمل رسالتين تشيدان ببطولته وحسن بلائه ، إحداهما من دون جيوان نفسه والأخرى من دوق سيسًا لفيليب الثانى ، وكانت هاتان الرسالتان من أسباب نكبته ، فقد هاجمت السفينة التى تحمله سفن القراصنة من الجزائريين فى الريفييرا الفرنسية ، وأخذته أسيرا مع جماعة من الاسبانيين ، ولما وجد القراصنة الرسالتين معه ظنوا أنه من علية القوم ، وأن له شأنا ، وغالوا فى طلب الفدية ، وقد حمل سرفنتس مع سائر الأسرى إلى الجزائر ، ووضع تحت حراسة رجل من أصل يونانى اعتنق الإسلام ، وكان فظا غليظ القلب .

وأظهر سرفنتس فى أثناء أسره الذى استمر خمس سنوات شجاعة نادرة ، وأظهرت الأحداث التى توالت عليه ما تنطوى عليه نفسه من نبل وسماحة ، ودبر خططا للهرب من الأسر ، ولم يمنعه إخفاق إحدى الخطط من محاولة تدبير خطة أخرى ، وفى أول محاولة أفسد الخطة أحد المغاربة ، وكان قد اتخذه دليلا فأفشى سر المحاولة فى اللحظة الأخيرة ، واضطر الهاربون مع سرفنتس إلى العودة للجزائر ، واحتمل هو التبعة ، وعوقب من أجل ذلك عقابا شديدا ، وفى السنة التالية أرسل والداه مبلغا من المال لافتدائه ، ولكن المبلغ المرسل لم يكن كافيا ، وأطلق سراح أخيه رودريجو ، فعاد إلى إسبانيا ومعه طلب من سرفنتس يوصى فيه

بإعداد سفينة وإرسالها للجزائر لتمكنه من الهرب مع زملائه من الأسرى ، وأعد العدة للهرب ، وخبأ نحو خمسين من الأسرى الإسبانيين فى كهف خارج المدينة ، وظل يقدم لهم الطعام مدة ستة أشهر ، وأخيرا جاءت السفينة المنتظرة ، واستعد هو ورفقاؤه للهرب والإبحار عليها ، ولكن شاء سوء الحظ أن يكشف أمرهم فى اللحظة الأخيرة ، وأحاطت بهم قوة مسلحة من الجند الأتراك ، وأبى سرفنتس إلا أن يحمل الوزر كله وحده ، وبرغم تهديده بالتعذيب والموت فإنه رفض إلقاء التبعة على أحد من رفاقه ، ولم يكن الحاكم التركى الذى مثل سرفنتس بين يديه يتردد فى إصدار الحكم بالإعدام فى مثل هذه الحالة ، ولكن يبدو أن ثبات سرفنتس وإصراره على الانفراد باحتمال التبعة أثرا فى نفسه وحملاه على الظن بأن هذا الإسبانى الجرىء لابد أن يكون له شأن خاص ، وربما أمكن الحصول على فدية ضخمة من وراء الإبقاء على حياته .

واتفق تاجران إسبانيان على تجهيز سفينة مسلحة تتسع لستين من الأسرى ، ولكن راهبا إسبانيا كان يكره سرفنتس لأسباب مجهولة أفشى سر المحاولة ، وكان فى استطاعة سرفنتس أن يهرب فى سهولة ويتخلص من حياة الأسر الشاقة لو أنه وافق التاجرين على أن يهرب بمفرده ، ولكنه أبى أن يهرب ويترك رفقاءه فى الأسر ، ولكى يجنبهم التبعة قدم نفسه للحاكم ، وقد سيق له وحول عنقه حبل ، وأظهر شجاعة كعادته أمام الحاكم ، وكان المنظور هذه المرة أن يحكم عليه بالشنق أو على الأقل بجدع أنفه أو بقطع أذنه ، ولكن الحاكم اكتفى هذه المرة بحبس الإسبانى المقطوع اليد مقيدا بالأغلال لمدة خمسة أشهر .

وقامت محاولات فى إسبانيا لافتدائه ، وكان والده قد توفى ، ولكن والدته وإخوته عملوا على جمع ما يستطيعون من المال ، وقدم الملك إعانة لوالدة سرفنتس لقاء خدمته فى الجيش كما أمدتها بعض المؤسسات الخيرية بمبلغ من المال ، وأرسل راهب إسبانى إلى قرصان الجزائر للمساومة فى إطلاق سراحه ، ويروى أنه لو تأخر الراهب قليلا لكان سرفانتس قد نقل إلى القسطنطينية ليباع بها فى سوق الرقيق العام .

ولما عاد سرفنتس إلى إسبانيا ترك الجندية للاشتغال بالأدب ، ونظم شعرا ،

وكتب تمثيليات وروايات ونقدا أدبيا ، ولكنه لم يوفق فى ذلك كله . وكان يعانى الضيق ، وقد أنفقت الأسرة ماعندها ليستعيد حريته ، ولو عاش مثل هذا الرجل فى عهد انتشار الصحافة لاشتهرت مغامراته فى الخافقين وعد من أبطال العصر وشخصياته اللامعة ، وكان راعيه دون جيوان قد مات حين وصوله إلى إسبانيا ، فلم يجد أحدا يقدر ماضيه وحسن بلائه ، ويقول عنه كلمة طيبة تقربه من أصحاب السلطة والنفوذ . وكانت إسبانيا حينما عاد إليها فى سنة ١٥٨٠ قد بلغت الذروة فى المكانة بين الدول الأوربية ، وكان ملكها فيليب الثانى لا يحكم إسبانيا وحدها ، وإنما يحكم معها كذلك البرتغال والأراضى المنخفضة وجزءًا كبيرا من إيطاليا وجزءًا من شاطىء افريقية الواقع على البحر الأبيض المتوسط والدنيا الجديدة من شيلى إلى فلوريدا أو قرابة ثلاثة أرباع القارة الجديدة .

وكانت إسبانيا مسيطرة فى البر والبحر مما أثار المنافسة الشديدة بينها وبين الدول الطامعة فى توسيع رقعتها وبسط نفوذها ، ولكن هذه العظمة كانت قائمة على اتساع الحجم وترامى الحدود ، فى حين أن الفساد كان متغلغلا فى صميم الدولة ، فقد ملكت شهوة جمع الذهب والطمع فى التوسع النفوس مما يوضح لنا أن عبادة القوة وشره حب الأمتلاك يؤديان إلى السقوط والخراب ، فقد شرعت الناس تفخر بما تملك من الأميال المربعة ، وما تسيطر عليه من النفوس ، وشغل تفكيرها بالأهداف المادية المحضة ، واتخذت الدولة سياسة العدوان والتوسع فى بسط السلطان ، وأهملت الحاجة إلى الإصلاح الاجتماعى والإصلاح الاقتصادى ، ولم تعن بأحوال الطبقة الفقيرة ، بل حاولت أن تستغلها ، وأثارت الكثير من الحروب ، ولم يكن عجيبا إغفال أمر الجندى الباسل الفقير المغمور سرفنتس فى مثل هذه الأحوال .

وقد ألف رواية أسماها « جالتيا » ضمنت له الشهرة ، ولكنها لم تدرّ عليه من المال مايكفى للإقبال على التأليف والإفادة من مواهبه الأدبية . وتزوج سرفنتس فى السابعة والثلاثين من عمره ، من سيدة تسمى كاتالينا حملت معها له بائنة مكونة من أربع خلايا نحل ، وملاءتين من الكتان وثلاث ملايات من القطن وبطانية جيدة وأخرى مستعملة ، وأربعين دجاجة وملكية مزرعة كروم صغيرة ، وعجب جيرانه

من أمر هذه السيدة التى تقبل الزواج من مثل هذا الجندى المقطوع اليد الذى لا يملك شروى نقير ، ويكبرها بسنوات كثيرة .

وأقبل سرفنتس على الكتابة والتأليف ويذل جهده ، ولكنه عجز عن منافسة معاصره المؤلف الدرامى الشهير لوب دى فيجا ، فقد كان ذائع الصيت ، كثير الأنصار والمعجبين ، وكانت له قدرة لا تبارى على الابتكار ، ويروى أنه ألف ألفا وثمانمائة مسرحية غير الأشعار التى نظمها والقصص التى كتبها ، ولم يبق من آثاره سوى القليل ، وقد كانت الدرامات الإسبانية هى الأمثلة التى احتذاها كتاب الدراما فى انجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول الأوربية .

واضطر سرفنتس إلى البحث عن عمل آخر ليعيش منه ويعيل أسرته ، وكانت الحكومة الإسبانية حينذاك تعد أسطولها الارمادا لمهاجمة انجلترا ، واستطاع سرفنتس أن يحصل على وظيفة متعهد لتوريد الأغذية والأخشاب وما إليهما وبيعها للأسطول ، وكان هذا العمل مما يضيق عنه ذرعه ، وعين بعد ذلك فى الوظيفة المتواضعة وظيفة جابى الضرائب ، وسرعان ما أبغض هذه الوظيفة وعانى مشكلاتها ، والتمس من الحكومة أن تعينه فى وظيفة أخرى ، ولكن التماسه أهمل ، وظل فى الوظيفة الكريهة ، وعصره الفقر حتى كان يجد صعوبة فى الحصول على الملبس ، وأثار عجزه فى المسائل العملية الشبهة فى أمانته ، وحبس فى إشبيلية لوجود عجز فى عهدته ، ولم يعطف فيليب الثانى على هذا الجندى القديم والكاتب المكافح ، وحينما مات فيليب الثانى ، وخلفه ابنه فيليب الثالث أغفل هو كذلك شأن سرفنتس ، ولم يعمل على إنصافه وتفريج أزماته .

وفى غمرة هذا الشقاء وخلال هذه المثبطات ومواجهة هذه الصعاب شرع سرفنتس فى تأليف كتابه العظيم وروايته الخالدة ، وفى سنة ١٦٠٥ ظهر الجزء الأول منها ، وبرغم النجاح الذى لقيته وإقبال القراء على قراءتها والإعجاب بها فإن الكنيسة لم ترض عنها ، وكتب لوب دى فيجا المؤلف الموفق الناجح يقول عن معاصره التعس الحظ « ليس هناك شاعر أسوأ من سرفنتس ولا شىء أسخف من امتداح دون كيشوت » .

وكانت الناس فى ذلك العصر تقرأ روايات الفروسية التى تروى مغامرات

مشحونة بالمبالغات التى لا يقبلها العقل عن الفرسان وجولاتهم لاجتذاب الأميرات الحسان واستنزالهن من القلاع والحصون ، وقد أراد سرفنتس أن يسخر بهذا النوع من البطولة الزائفة ويكشف ما تنطوى عليه من سخافات وحماقات وتهويلات ومبالغات ، ومكنه خياله الخصب وتجاربه المنوعة من أن يقدم لنا فى كتابه صورة شاملة للحياة الإسبانية فى عصره من خلال تصويره لبطله الذى أفسد عليه تفكيره إمعانه فى الاطلاع على أقاصيص البطولة وتابعه الذى كان يحاول عبثا أن يبصره بالواقع .

ودون كيشوت نفسه برغم أنه شخصية تثير الضحك ، ولكنه مع ذلك سيد كريم النفس ، نبيل الخلق ، مطبوع على الرفق والعطف ، وكلمة « الدون كيشوتية » أصبحت فى شتى لغات العالم تحمل المعنى الذى مثلته أخلاق هذا الفارس المغوار حامى الضعفاء ، ونصير المظلومين ، وطالب المثل الأعلى ، وباغى الإصلاح والسمو بالإنسانية، والذى يؤمل فيها خيرا ، ويتطلع إلى الكمال وتحقيق أحلام الفلاسفة ، ولم يكن تأليف عالم متمكن واسع الاطلاع غزير المعونة ، وإنما هو ثمرة عبقريته استخلصته من تجارب الحياة وواقع المجتمع ، وقد صدق فيه قولهم « إن الأطفال الصغار يقلبون صفحاته ، والشبان يقبلون على قراءته ، والكهول يفهمونه ، والشيوخ يمتدحونه » .

وللجزء الثانى من الكتاب قصة طريفة ، فبينما كان سرفنتس ماضيا فى كتابته كتب إنسان أسمى نفسه افيلانيدل كتابا ادعى فيه أنه الجزء الثانى من رواية دون كيشوت ، وقدمه للطبع . وظهر الكتاب ، وكان محاكاة للأصل بارعة ، ولكن بطبيعة الحال تنقصها الأصالة والمزايا الموفورة فى الأصل ، وقد حمل مؤلف هذا الجزء على سرفنتس فى مقدمة كتابه ، ووصفه بأنه طريد السجون ، وكافر النعمة ، وعيَّره بيده المقطوعة ، قائلا إن لسانه من يده ، وأغضبت هذه الحملة الظالمة سرفنتس وحفزته إلى الإسراع بإتمام الجزء الثانى من القصة .

وقد كتب الكتاب جميعه ومؤلفه يجاهد جهادا شاقا للحصول على الخبز ، ولكن الكتاب مع ذلك لا أثر فيه لمرارة النفس أو الحقد على المجتمع ، وقد أتم الجزء الثانى وهو مشرف على السبعين من عمره الحافل بالمتاعب والإخفاق

والحرمان ، ولكن بشاشته وما طبع عليه من الميل إلى المرح لم يفارقاه ، وقد كان أسقف طليلطة أحد الأفراد القلائل الذين صادقوه ، وحينما سأله عنه بعض زواره من الفرنسيين قال « إنه كان شيخا وجنديا وجنتلمانا وفقيرا » وقد أجابه أحد هؤلاء الزوار قائلا : « إذا كانت الضرورة هى التى ترغمه على الكتابة فنرجو الله أن لا يوسع عليه حتى يستطيع بفقره أن يجعل الدنيا غنية » .

وقد عاش سرفنتس بضع سنوات فى أحد الأحياء الفقيرة بمدينة فالاروليد – بلد الوليد – وقد كان فيليب الثالث جعل منها عاصمته ، وكان يعيل أسرة مكونة من زوجته وابنته وشقيقته واثنتين من قريباته ، ولكن فقره المدقع لم يفسد ملكته ولا طباعه ، ولو لم يكتب روايته المشهورة « دون كيشوت » لكانت مجموعته « القصص المثالية » كفيلة بتخليد اسمه ، وقد أثر كتابه وقصصه فى الأدب الأوربى جميعه ، وكتَّاب الرواية فى انجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول الأوربية جميعهم مدينون لهذا الرجل العبقرى الفذ .

وقد مات سرفنتس فى ١٩ أبريل سنة ١٦١٦ فى مدريد ، ودفن بدون احتفال ، ولم يميز قبره أى نصب تذكارى ، ولذلك لا يعرف قبره الآن ، ولم يظفر سرفنتس بالتقدير اللائق بمكانته ، ولكنه أرضى نزعته الفنية ، وحقق مثله الأعلى ، وقد ترك للإنسانية ذخيرة باقية كافية لوضع اسمه فى سجل الخالدين .

وقد مات فى السنة نفسها التى مات نظيره فى الأدب الإنجليزى وليام شيكسبير ، وفى بعض الروايات أنهما ماتا فى اليوم نفسه .

برونو
(١٥٤٨ - ١٦٠٠)

كلما أمعن العالم فى القدم ترامت حدود المعرفة الإنسانية ، واتسعت آفاقها ، وتجددت الحاجة من الحين إلى الحين إلى تنقيح الآراء والمعتقدات السائدة وتصحيحها ، أو تبنها والأخذ بآراء ومعتقدات مستحدثة تلائم المعرفة المتطورة والعلم الجديد ، وما كان يبدو فى عصر من العصور من الحقائق المسلم بصحتها قد يراه عصر آخر من قبيل الأوهام والأضاليل ، ولكن الإنسان شديد التعلق بالآراء التى نشأ عليها ، والمعتقدات التى ألفها ، ومن ثم يكون ضيق بالمصلحين والمجددين والكاشفين والمخترعين الذين يأتون له بالآراء الجديدة ، ويعملون على تغيير المعتقدات السالفة ، وحتى اليوم قد يكون نصيب من يقوم بمثل هذه المحاولة السخرية والانتقاص ، أما فى العصر الوسيط فكان نصيبه الهوان والشقاء والنفى والتشريد ، وفى بعض الأحايين كان يلحق صاحب الرأى الجديد بطائفة المجرمين الآثمين الذين لا يجد المجتمع أمنه وراحته إلا فى الخلاص منهم والقضاء عليهم .

وقد نعجب بالأبطال الذين أبلوا بلاء حسنا وأظهروا شجاعة نادرة فى ساحات القتال ، ولكن الرجال الذين تصدوا لتفنيد الأباطيل الذائعة ، ونقض الأفكار الخاطئة الشائعة قد لعبوا من غير شك دورا هاما فى تاريخ الإنسانية ، وأناروا لنا السبيل ، وإن لم يظفروا من الشهرة بنصيب كالذى ظفر به مساعير الحروب وأبطال الميادين ، وإظهار الشجاعة الأدبية فى أغلب الأوقات يجعل الإنسان مكروها قليل الأنصار والأصدقاء ، وقد يجر عليه من المتاعب مالا قبل له بدفعه ، ومن الآلام مالا طاقة له باحتماله . والسير مع القطيع لا يكلف الإنسان جهدا ، ولا يحمله مشقة ولا تبعة . أما الذى يجدف ضد التيار فلن يكون فى مأموله أن يجد الكثيرين فى رفقته .

وقد أثارت الكشوف الفلكية العظيمة فى عهد الإحياء خواطر الناس ، وأحدثت اضطرابا فى تفكيرهم ، وحينما قال بيتاجوراس قديما أن الأرض مستديرة وليست

مسطحة سخر منه قومه ، وأنكروا عليه قوله ، فما نظنك بمن قال فى العصر الوسيط بأن الأرض ليست مركز الكون الذى تدور حوله الشمس والقمر والكواكب ؟

لقد كان هذا هو الاعتقاد الشائع السائد حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، وحينما أعلن كوبرنيكاس في كتابه بين سنة ١٥٠٦ وسنة ١٥١٢ نظريته فى أن الشمس هى مركز الكون الذى تدور حوله الأرض وغيرها من الكواكب لم ينظروا إليه نظرة جدية ، ولكن الشىء الخطير أن هذه النظرية كانت تتعارض ، لا مع الدين ، ولكن مع ما ظن رجال الدين أن التفسير الصحيح للكتب المقدسة .

وفى القرن السادس عشر الميلادى كان لايمكن احتمال أى رأى يخالف ما اصطلح على تقريره رجال الدين أو الصبر عليه ، وكان نصيب من يجترىء على إعلان مخالفته التعرض للعنف البالغ والعقوبة الشديدة ، وقد تمثلت هذه النزعة فى صورة واضحة فى حياة كبير فلاسفة عصره وأحد أفذاذ المفكرين العالميين الفيلسوف الشاعر الإيطالى برونو .

وفى يوم ٧ فبراير سنة ١٦٠٠ اجتمع جمع كبير حاشد من الناس فى ميدان كامبو دى فيورى (ميدان الأزهار) أوسع ميادين روما ، وفى وسط الميدان وضعت أكداس ضخمة من الحطب ، ونصبت فى وسط الكتل الخشبية فروع الأشجار القائمة التى يشد إليها من حكم عليهم بالإعدام حرقا .

وكان يبدو على وجوه الكثيرين من أفراد هذا الجمع الغفير معنى الانتصار المتشفى ، فقد كانت الكنيسة ستحل النقمة وتنزل المكروه بأحد الخارجين على أوامرها ونواهيها والمخالفين لتعاليمها والمنشقين على سلطانها ، وكان هذا المتهم بالمروق ممن يقولون بأن الأرض تدور حول الشمس .

وأخذ الجند يخلون الطريق ليتقدم الموكب فى جلال ووقار إلى المكان المقصود ، وكان يقاد إلى القائمة رجل صغير الجرم ، بادى الهزال ، أسود اللحية ، قد ألبس رداء الذين صدر عليهم حكم مجلس التفتيش ، وهو حلة صفراء اللون قد رسمت عليها صور اللهب المشتعل والشياطين ، وكان القساوسة حتى تلك اللحظة الأخيرة يحاولون أن يجاذبوه أطراف الحديث ويجادلوه ليعلن اعترافه بالخطأ ، ويلتمس العفو والمغفرة ، ولكنه كان يرمقهم بنظرة يبدو فيها الحزن ، ولكنها تنم

على العزم الذى لا تلين قناته ، ويرفض أن يستمع إليهم ، أو أن يقبل أى عزاء منهم ، ويبدى الجمع الحاشد السخرية والاستهزاء بهذه الضحية من ضحايا حرية الفكر واستقلال الرأى . ويتقدم الرجل بخطوات ثابتة إلى القائمة المنصوبة ، ويشد وثاقه ، فهل يقول الكلمة التى تجنبه هذا المصير الفاجع والخاتمة الأليمة ؟ وهل يخر جاثيا على ركبتيه ويلتمس الرحمة ؟ لقد انتظروا لحظة ، ولكنه ظل صامتا هادئا متماسكا بادى الصلابة والإصرار ، وتشعل الأكداس المتعالية ، ويتواثب اللهب ، ويتلوى الفريسة من الألم ، ولكنه لا يطلق صيحة واحدة ، ويلفه الدخان بين صيحات الجماهير الغفيرة المتعالية ، ولا يبقى منه بعد لحظات سوى كوم من الرماد تذروه الرياح .

وهكذا كانت نهاية حياة الفيلسوف الشاعر جيوردانو برونو الذى رفض أن يؤمن بما رآه باطلا ، وأبى أن يرجع عما اعتقد أنه الحق .

وقد ولد برونو فى مدينة نولا على مقربة من جبل بركان فيزوف ، وللبيئة الجغرافية التى ينشأ بها الإنسان أثرها المعهود فى أخلاقه وتكوين شخصيته ، وتذكرنى هذه البيئة بقول المرحوم الأستاذ العقاد فى أهل أسوان :

بنو الشمس أهلوها إذا اشتد قيظها ... وجاش على الصحراء فاتقدت جمرا
لقد نفثت فينا الحياة ضرامها ... فأنفسنا من حرها شعلة حرى

وكان ميلاده فى سنة ١٥٤٨ ، وكان أبوه جنديا ، ومعلوماتنا عن طفولته ونشأته قليلة ، ولكن يبدو أنه تلقى دراسة صالحة ، وكان من باكورة حياته شغوفا بالمعرفة ، وكانت معرفته بالعلم والرياضة والأدب المدرسى والشعر والموسيقى تثير الدهشة حتى وهو فى مقتبل السن . وعلاوة على معرفته بالإيطالية كان يجيد اللاتينية واللغة الإسبانية ، وله إلمام باللغة اليونانية ، وبرغم حدة مزاجه وطبيعته الحارة النارية أو بسببها كانت أولى الخطوات الحاسمة فى حياته التحاقه بدير الرهبان الدومينيكيين وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، وقضى فى عزلة الدير ثلاث عشرة سنة ، رقى فيها فى المراتب الكهنوتية حتى صار قسيسا ، وتابع دراساته خلال ذلك فى حماسة ملحوظة واهتمام متواصل ، وحصل المعلومات الجمة التى صارت فيما بعد الأساس الذى قام عليه استقلال تفكيره وسعة معرفته وغزارة مؤلفاته .

ولم يكن من المنتظر من رجل متدفق الحيوية ، كثير النشاط ، دائم التطلع مثل برونو أن يظل قابعا فى صومعته ، قانعا بحياة التأمل الخالص والاسترسال فى التفكير العميق ، ولم تكن حالة الكنيسة فى عصره ترضى رجلا مثله موفور الحظ من الذكاء والمعرفة ، وسرعان ما دفعته وثباته الفكرية إلى الخلاف مع رؤسائه فى الدير ، وكان هذا الخلاف الأول من سلسلة الخلافات غير المتناهية التى كان يثيرها برونو أينما حل طوال حياته ، وقد اتهم بوهن العقيدة لأن بعض الآراء التى أبداها كانت تتعارض مع آراء كبار رجال الكنيسة .

وتحرج موقفه وصار غير محتمل ، ولذلك لاذ بالفرار إلى نواحى جنوا ، وظل بها بضعة أشهر يعيش على ما يحصل عليه من تعليم الأجرومية لبعض صغار الأطفال ، ويقضى سائر أوقاته فى دراسة الفلك ، وقد قبل الآراء التى أعلنها كوبرنيكاس ، وقال إن الأرض تدور حول محورها وتتحرك حول الشمس ، وكان هذا الرأى فى عصره يعد من الآراء الخطرة لأنه يناقض ما ذكره أرسطو وما كانت تراه الكنيسة ، وقد ذهب برونو أبعد من ذلك ، فقال إن هناك عوالم أخرى مسكونة .

وإحياء العلوم الذى حدث فى المائة سنة السابقة شجع المثقفين والمتعلمين على أن يتابعوا دراساتهم ، ويعبروا عن آرائهم وما يخطر لهم من الأفكار الطريفة ، ولكنه من ناحية أخرى جعل الغالبية لا تطمئن إلى التجديد ، وتخشى الإصلاح ، وتأبى التطيير ، وبطبيعة الحال تغلبت الأفكار الحديثة ،ولكن بعد صراع شديد ، ومعركة حامية .

ومنذ خلعه ثياب الكهنوت وفراره من روما لم يطل مكثه فى مكان ما ، وظل ينتقل من مكان إلى مكان ، روحا ثائرة متمردة متحدية ، لاتنفك تخوض غمار المناقشات ، وتثير الجدل ، وتتحدى المخالفين . فإذا نبت به مدينة من المدن انتقل إلى غيرها دون أن يتراجع عن خطته فى محاولة إيقاظ التفكير ، وحمل على التعصب الذى يشل المواهب ، ويجعل الناس أفظاظا غلاظ القلوب ، وكانت جينيف وليون وباريس ولندن وأكسفورد ووتنبرج وهالشتدت والبندقية بعض البلاد التى زارها ولقى فيها قادة الفكر المعاصرين له .

وقد عارض برونو رجال الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الذين قبل فى مطلع شبابه

أن يدخل فى زمرتهم ، ولم يعجبه كذلك شدة تعصب أنصار كالفن المصلح الدينى ، ولا المصلحين الدينيين الفرنسيين ، لأنهم كانوا جميعا يعاملون مخالفيهم معاملة بالغة القسوة ، كذلك لم يرقه الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت ، ولم يرض عن الخلاف بين أنصار لوثر وأنصار كالفن ، وكان كالفن يغرى بمجافاة الرحمة والإسراف فى التعصب ، ولذلك لم يطل به المقام فى جنيف ، وكانت مستقر أنصار كالفن . وحينما زار وتنبرج قوبل بالترحيب ، ولكنه برغم إعجابه بمارتن لوثر لم يرض عن تعاليم البروتستانتية . وحينما مثل أمام مجلس التفتيش فى البندقية أشار إلى المصلحين الألمانيين قائلا « إنى أعدهم أجهل منى ، وأحتقرهم ، وأحتقر مذهبهم ، وهم غير جديرين بأن يطلق عليهم اسم رجال الدين ، فهم أدعياء متحذلقون » .

ولم يكن برونو ملحدا كما اتهمه أعداؤه ، ولم يكن قصده أن يجرح الشعور الدينى فى البلاد التى زارها ، ولم يكن الرجل من جهلة المتشككين الذين يتعمدون أن يسخروا من المعتقدات الدينية ، ولم يكن من غواة النقد الهدام ، ومحبى إثارة الشغب والاندفاع فى المهاترة والسباب ، وإنما كان فيلسوفا روحى النزعة ، مؤمنا بمذهب الحلول ، فهو يرى الله فى كل مكان وفى كل شىء ، وكانت آفاق تفكيره تشمل العالم جميعه ، وقد رأى أن جوهر الكمال الإلهى موجود فى الإنسان ، ولكنه كان يمقت الأسباب الكثيرة التي تعوق ظهور هذا الجوهر ، وكان يريد تحرير عقل الإنسان من قيود التعصب والتعاليم الفاسدة ، وكان يطلب الحرية لنفسه ، ويصر على أن كل المشكلات يجب أن تطرح على بساط البحث الحر ، كان أشد ما ينعاه على رجال الدين فى عصره وأصحاب الفرق المختلفة ما يثيرونه من الأحقاد والخصومات ، وميلهم إلى اضطهاد مخالفيهم والتنكيل بهم ، وكان يؤمن بأن تقدم الانسانية لا يكون إلا عن طريق الحرية والاستنارة لا عن طريق الخضوع والجهل ، ولكن من بواعث الأسف أن الأغلبية الساحقة من معاصريه كانت نزاعة إلى التعصب ومجافاة التسامح فى المسائل المتصلة بالعقيدة الدينية .

ولم يكن برونو مجرد قارئ كتب ، ولم يكن تفكيره مقصورا على مشكلات الفلسفة والدين ، فقد كان يعلم ويلقى محاضرات ويتحدث فى بلاغة وتدفق وحسن

بيان ، ويجيد الكتابة ، ويحسن عرض الموضوعات التى يتناولها ، وكان فرط تحمسه فى التعبير عن آرائه ووجهات نظره مما يلفت النظر ، وكانت آراؤه تثير الدهشة ، وتدعو إلى إعمال الفكر لطرافتها وأصالتها وجرأتها . وموجز القول أنه كان من هؤلاء المفكرين الذين لا يمكن تجاهلهم ، فهم لابد أن يشغلوا بال معاصريهم سواء رضى عنهم المعاصرون أو نقموا عليهم .

ويجمع كتاب سيرته ورواة أخباره على أنه كان فى التصريح بآرائه والمجاهرة بدعوته لا يصطنع التقية ، ولا يلجأ إلى الحذر ، ولا يمارى أو يوارى ، فغير عجيب أن تقوم فى طريقه العقبات ، ويصادف الخصومات والعداوات أينما حل ، فتحرمه الكنيسة ، وتطرده الجامعة ، ويصدق فيه قول المتنبى عن نفسه :

يخيل لى أن البلاد مسامعى وأنى فيها ما تقول العواذل

وقد ظل برونو يعانى آلام هذا التشريد ست عشرة سنة ، وكان السفر فى عصره كثير المشاق ، وكانت الكتب تطبع ولكن توزيعها كان شديد البطء ، وكانت شهرة الأساتذة تقوم على عقد المناظرات وإلقاء المحاضرات ، وقد استطاع برونو برغم ذلك أن يقدم للطبع كتبا عدة فى أكثر المدن التى زارها وحاضر بها ، وقد فقد بعض تلك الكتب ، ولكن معظم كتاباته الفلسفية وأشعاره قد جمعت وحفظت ، وكان لها تأثيرها المباشر فى فلسفة إسـبينوزا وليبنتز والفلسفة الألمانية فى القرن التاسع عشر .

وحينما زار فرنسا وجد الخلاف الداخلى بين الهيجونوت البروتستانت والكاثوليك على أشده ، وقبل قدومه بثمانى سنوات ، فى سنة ١٥٧٢ وقعت مذبحة سان برتلمى فى عهد الملك شارل التاسع ، وقد أظهر ذلك برونو إلى أى حد من الاجرام قد يدفع الإمعان فى التعصب . وقد زار تولوز ، وألقى بها دروسا فى الفلك والفلسفة ، ثم انتقل منها إلى باريس ، وعمل على أن يكون استاذا فى جامعتها ، وأمل أن يوفق فى ذلك لعلاقته الحسنة بملك فرنسا فى هذه الفترة ، وهو هنرى الثالث ، الذى أعجب به ، وقد أثنى عليه برونو فى كتبه ، وكان مما أخذته عليه محكمة التفتيش فى البندقية أنه مدح أحد الملوك الخارجين على العقيدة .

وكان برونو نسيج وحده فى إلقاء محاضراته ، فقد كان يعنى أشد عناية بأن تصل معانيه إلى أفهام سامعيه ، فهو يسلك كل الطرق التى تعين على ذلك ، فهو يجدّ ويلين ، وينذر وبسر ، وكتاباته كذلك تبين الحالات النفسية التى كانت تتوالى عليه من الجد إلى الهزل .

ولقد كان الرجل فيلسوفا شاعرا ، وعالما متصوفا ، ومع سعة معلوماته وقوة تفكيره كان يعتمد كذلك على الحدس والإلهام ،ويرى بعض نقاده أن الشاعر الوثاب الخيال كان فى نفسه أقوى من الأديب الدارس العالم ، وبعض حكماء الفلاسفة الذين جاءوا بعده مدينين له بالكثير من الخواطر اللامعة ، والأفكار الموحية .

وفى سنة ١٥٨٣ قدم لندن حاملا رسائل توصية من ملك فرنسا إلى سفيرها ، وظفر بعطف الملكة إليزابث ، وكانت كثيرة العطف على الأجانب من زوار بلاطها ، وكانت تجيد التحدث بالإيطالية . وقد أحسن ضيافته السفير الفرنسى المثقف الحر الفكر كاستلنو دى موفسيير ، وكان قد حضر إلى انجلترا للتفاوض فى عقد الزواج بين الملكة اليزابث ودوق انجو ، وقد اغتنم برونو فرصة الرعاية التى أظله بها السفير ، والعناية التى شملته بها الملكة ليفرغ للتأليف ، فكتب عدة مؤلفات فى أثناء إقامته بلندن ، وأهداها للسفير الفرنسى منوها بعطفه عليه ورعايته له ، ولولا عطف البلاط الملكى واهتمام السفير الفرنسى بأمر برونو لما استطاع أن يطيل الإقامة فى لندن أو أن يباشر التأليف ، فقد كانت بلاد الإنجليز مثل سائر أنحاء أوروبا لا يجد فيها الفلاسفة الحياة سهلة ميسرة .

وحينما وصل برونو إلى لندن أرسل إلى جامعة أكسفورد رسالة تحد عنوانها « الموقظ » قال فيها عن نفسه « دكتور فى اللاهوت الوافى ، وأستاذ الحكمة الخالصة البريئة المنزهة ، فيلسوف معروف قد اعترفت به وشرفته أرقى المجامع العلمية الأوربية ، لا يجهله سوى الهمج الجفاة ، وهو موقظ الأرواح من رقادها ، وكاسر شوكة الجهل العنيد المتغطرس » .

وحينما تقدم لجامعة السوربون فى باريس وجامعة وتنبرج بألمانيا كان أكثر تواضعا ، والظاهر أنه لم ينظر إلى جامعة أكسفورد نظرة جدية ، والواقع أن مستواها الفكرى لم يكن حينذاك رفيعا ، وقد قال برونو عن أساتذتها الذين كانوا فى رأيه

يعنون بملابسهم وهندامهم أكثر من عنايتهم بعقولهم : « إنهم يعلمون عن الجعة أكثر بكثير مما يعرفون عن اللغة اليونانية ». وقد قبل أن يلقى بها سلسلة من المحاضرات ، كما وافق على إقامة مناظرة فى حضرة رئيس مشرف الجامعة وأحد كبار الزائرين الأجانب ، وقد أثار فى تلك المناظرة غضب مدرس الجامعة ، وهزم منافسه فى المناظرة وأفحمه، فلم يجد له حيلة سوى اللجوء إلى السب والشتم ، وكان برونو يحمل على آراء أرسطو، والمناظرون له يحاولون رد هجماته ويعدونه رجلا غريب الأطوار لعدم استطاعتهم فهم أفكاره الجديدة التى كانت تحير عقولهم ، وتبعث نقمتهم وسخطهم عليه ، واضطر برونو إلى إيقاف سلسلة محاضراته بعد ثلاثة أشهر ، وعاد من أكسفورد إلى لندن ، وصادق بعض المستنيرين من الإنجليز أمثال السير فيليب سدنى الأديب الشاعر العالم ، وهو من الشخصيات البارزة فى عهد الملكة إليزابث ، والحائزين على تقديرها وثقتها ، وغيره من أعيان الإنجليز ، وقد أشاد برونو فى إحدى قصائده بفضل الملكة إليزابث ، وغالى بقيمتها ، وكان مدحه لها وهى ملكة تدين بالمذهب البروتستانتى مما حاسبه عليه قضاة محكمة التفتيش .

وبعد أن أمضى سنتين فى إنجلترا عاد إلى باريس مع السفير الفرنسى الذى قال عنه : « إنه أنقذه من أدعياء أكسفورد ومن الجوع » . ولكنه لم يطل الإقامة فى باريس بسبب الشغب واضطراب الأحوال ، واستأنف حياة التنقل والتشرد ، فمضى إلى ألمانيا ، ورفض مدير جامعة ماربورج أن يسمح له بعقد مناظرة عامة عن الفلسفة ، وقال المدير عن برونو « لقد ثارت ثائرته ، وأهاننى فى عقر دارى » . ولم يكن برونو ممن يميلون إلى الحلم مع من يعترض سبيلهم ، وبرغم المحن التى تعاورته ، والشدائد التى تكاثرت عليه فإنه كان لا يعطى الليان لمعارضيه ، ولا يريح بال منافسيه ، وفى جامعة وتنبرج سمح بدرج اسمه فى قائمة الأساتذة ، ورخص له فى إلقاء محاضرات خاصة ، وقد قال برونو « إن الأساتذة فى جامعة تولوز وجامعة باريس وجامعة أكسفورد تلقوه متجهمين عابسين ، وقد رفعوا أنوفهم ، ونفخوا أوداجهم ، وأخذوا يخبطون مكاتبهم خبطات مدوية » ولكن أساتذة وتنبرج أحسنوا لقاءه ، وتركوه فى هدوء وسلام، وقد أمضى بها سنتين ، وحدث فى المدينة شقاق

بين أنصار لوثر وأنصار كالفن ، فلم يجد برونو ندحة عن مغادرة المدينة ، وألقى قبيل مبارحته للمدينة خطبة حنافية امتدح فيها الحكمة ، وقال عنها الحاقدون عليه : « إنها تمجيد للشيطان » .

وتوقف فى براج ، وتلقاه بها الإمبراطور رودلف الثانى ، وكان نصيرا للأدب والعلم ، وقد أظل برعايته العالمين الفلكيين كبلر ويراهى ، وكان ميالا إلى دراسة الفلسفة والفلك ، وقد أهدى له برونو أحد كتبه الموجزة ، وردد فى هذا الكتاب قوله : إن رسالته هى تحرير العقول ، والانتصار على الجهل ، وحمل على الصراع المجرد من الرحمة بين الطوائف الدينية المختلفة ، وقال : إن البر والمحبة هما وحدهما الدين الحق ، ولما لم يجد عونا ولا عطفا من سكان براج انتقل منها إلى هلمشتدت ، وعهد إليه فيها دوق برنزوك بالإشراف على تربية نجله ، ولكن وقع هناك خلاف بينه وبين السلطات كما كان متوقعا ، وصدر عليه حكم بالحرم ، فدافع عن نفسه ، وهاجم راعى الكنيسة ومدير الجامعة فى رسالة لاذعة ، ولم تطب له الإقامة بعد ذلك فى المدينة ، فقصد فرانكفورت ، وكانت مركزا هاما لتجارة الكتب فى ألمانيا ، وطبع بها برونو عدة كتب ، وكان المنظور أن يلقى بها العصا ، ويستقر به النوى ، ويفرغ للكتابة والتأليف ، ولكن عمدة المدينة رفض أن يسمح له بالإقامة مع صاحب المطبعة التى تولت طبع مؤلفاته ، فاضطر إلى أن يلجأ إلى دير طائفة الكرمليين ، وكان يقضى معظم وقته فى التأليف والتفكير والبحث والتنقيب .

والعجيب من أمره بعد ذلك أنه أمكن استدراجه إلى العودة إلى إيطاليا ، وهو يعلم جيد العلم ما تنطوى عليه هذه العودة من الخطر على حياته ، ويبدو أنه جال بظنه أنه من الممكن أن يسوى الخلاف القائم بينه وبين الكنيسة مع احتفاظه بحرية رأيه ، ومما لا شك فيه أن حبه لبلاده كان له أثره فى إيثاره العودة إلى إيطاليا ، وكان برغم ذلك يقدر أن عودته مغامرة ربما تودى بحياته ، ومن أقواله قبل مبارحته لفرانكفورت : « العاقل لايخاف الموت ، بل هناك أوقات يؤثر فيها لقاءه بشجاعة » .

وقد عرف برونو فى تلك الفترة هذا الفتى الخائن الذى سعى لتسليمه إلى محكمة التفتيش ، وهو جيوفانى موسينجو ، أحد أبناء الأسر العريقة فى البندقية ،

وقد اطلع على بعض مؤلفات برونو ، وجال بفكره أن له دراية بالسحر والأسرار الخطية وكشف المحجوب، فكتب السيد يدعوه إلى زيارته فى البندقية والإقامة عنده ، وقبل الفيلسوف هذه الدعوة ، وسبقته إلى البندقية شهرته بالفطنة الحادة ، والبصيرة النفاذة ، والأحاديث الشائقة الطلية وبوادر الأفكار اللامعة ، ورحبت به عند قدومه الأوساط الأدبية ، ولكن موسينجو سرعان ما ضاق بأستاذه ، فإنه لم يستطع أن يفهم أفكاره ، ويجاريه فى سبحاته ، ولم يجد عنده ما كان يريده من علم لكشف الأستار ومعرفة خفى الأسرار ، وصارحه بأنه لم يفد منه ما يعادل سوابغ كرمه ، ونفقات ضيافته ، وحاول برونو فى بادئ الأمر أن يناقشه بالحسنى ، ولكن الفتى كان ضيق العقل مطموس البصيرة ، وأغضب ذلك برونو الذى كان قليل الصبر مع الأغبياء ، فطلب منه أن يخلى سبيله ليعود إلى فرانكفورت ، فصمم موسينجو على أن يخون أستاذه ويوجه إليه تهمة التجديف والاستهانة بالأمور الدينية ، والمروق من العقيدة المسيحية ، واستشار فى الأمر القس الذى كان يوافيه باعترافاته ، وأبلغ بعد ذلك الأمر إلى رئيس مجلس التفتيش فى البندقية ، واصفا برونو بأنه رجل شرير ، وخارج على الدين ، وصحب خادما له ومعه خمسة رجال من الملاحين الأشداء ، واقتحم على برونو غرفته ، وهو راقد فى فراشه ، وأمرهم بسحبه إلى علية فى منزله اعتقله بها ، وفى يوم الثلاثاء فى السادس والعشرين من شهر مايو سنة ١٥٩٢ حضر رجال مجلس التفتيش إلى منزل موسينجو ، وألقوا القبض على برونو، وبدأت محاكمته ، ووجهت إليه تهمة نقد الكنيسة وأساليبها ، وأنه من دعاة الإصلاح ، وأنه يصادق الخارجين عليها ، ويعارض تعاليمها ، ويعلن آراء ومبادئ لا ترضى عنها الكنيسة ولا تقرها ، وقدم المتهم للمجلس خلاصة وافية عن نشأته وحياته ، وأنه يبدى أسفه على ما تورط فيه من خطأ ، وأنه مستعد للتكفير عن كل ذنب ارتكبه فيما مضى ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يرجع عن معتقداته .

وقد بدأ نظام محكمة التفتيش فى أوائل القرن الثالث عشر ، وكان موجده الراهب الإسبانى دومنجو دى جوزمان ، ولم يرض البابوات فى بادئ الأمر عن هذا النظام ، ولم يسمح للأساقفة بالمشاركة فى إجراءاته ، ولكن فى أواخر القرن الخامس عشر أعيد تأسيسه على قاعدة علمية أوسع نطاقا وأكثر نشاطا تحت زعامة

الرئيس الأكبر توركمادا الذى نظم أشد ضروب القسوة ، وكان الهدف الذى يرمى إليه مجلس التفتيش هو مقاومة الخروج على العقيدة ، أو بمعنى آخر إرغام الناس على قبول آراء الكنيسة الرومانية ، فإذا رفضوا ذلك أحل قتلهم ، أو جعل حياتهم غير محتملة ، وكان أيسر العقوبات هو التوبة العلنية ، وهى تتضمن أن يصبح الإنسان طريد المجتمع ، ويوضع تحت رقابة إكليروسية شديدة ، ويدفع غرامة فادحة ، وكانت هناك ضروب مختلفة من التعذيب ، فبعض الناس كانوا يقذف بهم فى السجن مدى الحياة ، والبعض كان يحرق حيا ، وقد يسمح بخنق بعضهم قبل الحرق من قبيل التفضل والرعاية ، وكان حرق الخارجين على العقيدة من المشاهد التى تحضرها الجموع الحاشدة ، وتجتذب أنظار الجماهير ، وكان فى طليعة ضحايا هذه المحاكمات مسلمو الأندلس ، وقد ظل توركمادا رئيسا لمحكمة التفتيش مدة ثمانية عشر عاما تجاوز فى خلالها عدد المحروقين أحياء عشرة آلاف ، وكانت المحاكمات التفتيشية فى إسبانيا أكثر وأشد قسوة منها فى إيطاليا حيث كان أكثر ضحاياها من البروتستانت ، ولكن أحد المقيمين فى روما سنة ١٥٨٦ كتب يقول : بعض الناس يحرقون يوميا ، وبعضهم الآخر يشنقون أو تقطع رؤوسهم ، وقد امتلأت السجون والمعتقلات ، وقد اضطروا إلى بناء سجون ومعتقلات جديدة ، وكان لمجلس التفتيش نفوذ ضخم ، وسلطة واسعة رهيبة ، ولا نزاع فى أن قصة محكمة التفتيش والفظائع التى ارتكبتها من أسود الصفحات فى تاريخ البشرية .

وكانت البندقية فى ذلك العهد جمهورية مستقلة ، وكانت ملاذا للمنفيين من سائر أنحاء إيطاليا ، وكانت روما تنفس عليها هذه المكانة ، وطالب البابا بأن كل الذين يجرمون فى حق الدين لا بد من تسليمهم له ، وعارضت السلطات فى جمهورية البندقية فى ذلك ، ولكنها اضطرت فى النهاية إلى النزول على أمر البابا ، وقال أحد المحامين الذين استشيروا فى خلال هذا الخلاف : « إن أخطاء برونو جد خطيرة ، ولكنه من ذوى العقول الباهرة النادرة ، والعلم الغزير والحكمة » .

وحينما وصل إلى روما ألقى فى غيابة السجن ، وظن البابا أن حبسه سيوهن عزمه ويفل قواه ، وينال من ثباته وتماسكه ، وقد ظل برونو فى السجن ست سنوات ، وانقطعت أخباره عن العالم ، ولا يعرف أحد شيئا عما عاناه هذا

الفيلسوف فى ظلمات السجن ، وماذا كانت الأساليب التى استعملت للتغلب على مقاومته ، ويبدو أنه مهما تكن هذه الأساليب فإنها لم تحقق الغرض المقصود فحينما زاره رجال المحكمة فى سنة ١٥٩٩ قال : « إنه لا يرجع ولن يرجع عن رأيه ، وأن ليس عنده شىء يتبرأ منه ويرجع عنه ، وأنه ليس ثمة أى داع لرجوعه عن آرائه ، وأنه لا يدرى ما هى هذه الآراء التى يجب عليه أن يرجع عنها » .

وكان من رأيه أن الرجل العاقل الحكيم السائر فى طريق الفضيلة لا يخشى الألم ، وأن الرجل السعيد هو الذى ينظر إلى الأشياء بعين الطفل .

وأخيرا صدر الحكم بإعدامه حرقا ، وكانت كلماته للذين تولوا محاكمته قوله : « ربما كنتم وأنتم تصدرون هذا الحكم أكثر خوفا منى » وقد أخرج من السجن وسلم لحاكم المدينة ، وظل فى غرفة مقفلة يوما أو يومين حتى جاءت النهاية .

وبعد مرور قرابة ثلاثمائة سنة على مصرع هذا الفيلسوف الكبير أقيم له فى سنة ١٨٨٩ تمثال فى ميدان كامبو دى فيورى – ميدان الأزهار – فى روما ، وهو نفس المكان الذى أحرق فيه ، ولم تذهب تضحية برونو عبثا ، فقد كان بهذه التضحية من الذين علموا العالم احترام حرية التفكير ، والإعجاب بالصدق والإخلاص ، وكراهة الاضطهاد والعنف ، وإيثار التسامح مع المخالطين ، والاعتماد على العقل فى الإقناع لا على الحديد والنار .

جاليليو

العالم الإيطالى جاليليو (١٥٦٤-١٦٤٢) فى طليعة العلماء الرواد ، وأحد العبقريين المعدودين الذين كان لهم الفضل فى إخراج العالم الغربى من ظلمات العصر الوسيط ، وتبديد الكثير من الخرافات والأضاليل التى رانت على العقول ، ووقفت حجر عثرة فى سبيل تقدم العلم وتطور الفكر ، وميزته العظيمة قدرته على الجمع بين البراعة التجريبية والكفاية الأدبية والقدرة على تضمين آرائه صيغا رياضية وقوانين علمية ، وقد ختم برتراند رسل حديثه عنه فى كتابه « وجهة النظر العلمية » بقوله : « جرت العادة عند مدرسة خاصة من مدارس علم الاجتماع أن تقلل من أهمية الذكاء ، وأن تعزو الحوادث العظيمة جميعها إلى أسباب غير شخصية ، وأعتقد أن هذا وهم باطل البطلان كان ، وأرى أنه لو كان قتل مائة من رجال القرن السابع عشر فى طفولتهم لما وجد العالم الحديث ، وجاليليو عميد هؤلاء المائة » وفى تقديرى أن الإجماع يكاد يكون منعقدا على وضع جاليليو فى هذه المكانة العالية .

والمعروف أن جاليليو هو واضع أساس دراسة الديناميكيات أو القوانين المسيطرة على حركة الأجسام ، وقد درس اليونانيون قوانين القوى المتوازنة أو الأجسام وهى فى حالة السكون ، وأخطأوا الخطأ كله فى فهم قوانين حركة الأجسام وبخاصة الحركة المختلفة السرعة ، وتابعهم فى الخطأ رجال القرن السادس عشر ، وكان المظنون أن الجسم يتوقف عن الحركة إذا ترك لنفسه . فى حين أن جاليليو أثبت أن الجسم يستمر متحركا فى خط مستقيم بسرعة مضطردة إذا لم يتعرض إلى مؤثر خارجى ، وكان هذا الكشف هو الخطوة الأساسية فى علم حركة الأجسام الساقطة .

فقد ذهب أرسطو إلى أن سرعة الجسم الساقط مناسبة لوزنه ، فإذا أسقطنا جسمين أحدهما وزنه عشرة أرطال والجسم الآخر وزنه رطل واحد فإن الجسم الذى

لم يتجاوز الرطل يستغرق سقوطه عشرة أضعاف الزمن الذى يستلزمه سقوط الجسم البالغ وزنه عشرة أرطال .

وحينما كان جاليليو أستاذا فى مدينة بيزا كان يصعد إلى أعالى البرج المائل ، ويلقى بالأثقال ليدعم رأيه بالتجربة العلمية ، ويكشف خطأ ذلك الرأى القديم لزملائه الأساتذة ، ويريهم أن الأجسام مهما اختلفت أوزانها تسقط فى زمن واحد والعجيب أن هذه التجربة لم تقنعهم ، وإنما أثارت غضبهم على زميلهم الذى اجترأ على مخالفة الوارد فى الكتب القديمة ، وقد بذل جاليليو جهده ليظهر بطريقة درامية كيف كان من السهل أن يظل الخطأ ينتقل من جيل إلى جيل خلال ألفى سنة من عهد أرسطو إلى عهد جاليليو ، برغم أن أبسط محاولة أو أهون تجربة كانت كافية لإظهار هذا الخطأ ، والقضاء على آثاره .

وقد ضايق كشفه لقانون الأجسام الساقطة بطبيعة الحال المتضلعين فى العلم ، ولكن لم يكن هناك مجال لتدخل ديوان التفتيش، وكان المنظار هو الذى عرض جاليليو لوقوع الخلاف بينه وبين هذا الديوان الذى اضطهد الكثيرين من المفكرين ، وقضى على حياتهم .

فقد كان جاليليو قد سمع أن أحد الهولنديين قد اخترع هذه الآلة، فقام بإعادة هذا الاختراع ، وسرعان ما كشف به الكثير من الحقائق الفلكية ، وكان أهمها فى رأيه وجود النجيمات الدائرة فى فلك كوكب المشترى ، وكانت أهمية هذا الكشف هى أن صورة مصغرة للنظام الشمسى حسب نظرية العالم البولندى كوبرنيكاس ، وكان كوبرنيكاس قد درس فى جامعة كراكو ، ثم ذهب إلى إيطاليا وهو شاب ، وقام بتدريس الرياضة فى روما ، ولكنه عاد بعد ثلاث سنوات إلى بولنده ، وقضى الفترة الممتدة من سنة ١٥٠٧ إلى سنة ١٥٣٠ فى تأليف كتابه عن دورات الأجسام السماوية ، ولم يظهر هذا الكتاب مطبوعا إلا فى سنة ١٥٤٣ قبيل وفاته ، وقد ذهب فى كتابه إلى أن الكواكب تطوف حول الشمس بحركة دائرية ، وقد كان كوبرنيكاس يعلم أن أرستارخاس الفلكى اليونانى الذى عاش على وجه التقريب من سنة ٣١٠ إلى سنة ٢٣٠ ق.م. قد قال بهذا الغرض مما شجعه على المجاهرة بإبدائه ، وقد تريث طويلا فى تقديم كتابه للطبع خشية إغضاب رجال الدين . ولما كان هو نفسه

من رجال الدين فقد أهدى كتابه إلى البابا ، وقال ناشر الكتاب : إن نظرية دوران الأرض قد عرضت فى الكتاب بوصفها فرضا من الفروض لا بوصفها حقيقة مؤكدة ، وكانت هذه الطريقة كافية للسكوت عن هذا الرأى الجديد حينا من الزمن .

ولكن حينما تناول جاليليو النظرية بطريقة أكثر تحديا ، وأدق أسلوبا ، وأقوى حجة ، بدأت المقاومة الرسمية الجديدة للنظرية ، وقاومها الكاثوليك والبروتستانت معا ، واستنكرها مارتن لوثر المصلح الدينى الشهير ، وعارضها كذلك صاحبه القس ميلانكتون والزعيم الدينى كالفن ، ورفض أنصار أرسطو النظر فى المنظار ، وكابروا قائلين : إن نجيمات كوكب المشترى ليست سوى وهم من الأوهام ، واستدل من المنظار على أن القمر به جبال : بل الذى بدا لمعارضى نظرية دوران الأرض جد فظيع هو وجود كلف بالشمس ، فقد عد هذا نوعا من التجديف ، إذ معناه إظهار عيوب فى صنع الخالق ، ولذلك حرم على الأساتذة فى الجامعات الكاثوليكية أن يشيروا إلى وجود الكلف فى الشمس .

وأثار تأييد جاليليو لنظرية كوبرنيكاس فى دوران الأرض حول الشمس وتأكيده لها ثائرة المحكمة المدنية المعروفة بديوان التفتيش ، فقرر الديوان أن الرأى القائل بأن الشمس هى المركز ، وأنها لا تدور حول الأرض رأى سخيف وباطل ، وفيه خروج على العقيدة الدينية ، لأنه مناقض لما جاء فى الكتب المقدسة ، وتبع ذلك صدور أمر من البابا باستدعاء جاليليو إلى المثول أمام ديوان التفتيش للتنصل من ذنبه ، والرجوع عن خطئه ، وذلك فى يوم ٢٦ فبراير سنة ١٦١٦ ، وقد استكان جاليليو للعاصفة ، ونزل عن رأيه ، ووعد جادا بأنه لن يؤيد رأى كوبرنيكاس ، وأنه سيمتنع عن تدريسه سواء بقلمه أو بلسانه ، ولم يكن قد مضى على حرق الفيلسوف جيوردانو برونو فى روما بأمر ديوان التفتيش أكثر من ستة عشر عاما .

وأمر البابا بأن توضع فى قائمة الكتب المحرمة جميع الكتب التى ذكر فيها أن الأرض تتحرك حول الشمس ، وعاد جاليليو إلى فلورنسا ، وعاش حينا من الزمن فى هدوء وعزلة متحاشيا الإساءة إلى خصومه المنتصرين .

ويقول برتراند رسل : إن جاليليو كان متفائلا بطبيعته ، وكان فيه ميل إلى استعمال ذكائه فى السخرية من الأغبياء .

وفى سنة ١٦٢٣ صار صديقة الكاردينال باربرينى بابا ، ولقب أربان الثامن ، وبعث ذلك نوعا من الطمأنينة فى نفس جاليليو ، ولكن الأيام أثبتت أن هذا الشعور لم يكن قائما على أساس وثيق ، وأقبل جاليليو على تأليف كتابه « محاورات عن أعظم نظامين فى الدنيا » وأتم الكتاب فى سنة ١٦٣٠ ، وطبع الكتاب فى سنة ١٦٣٢ ، وحاول فى هذا الكتاب أن يعرض نظرية كوبرنيكاس ونظرية بطليموس القديمة متظاهرا بترك ترجيح إحدى النظريتين على الأخرى ، ولكن الكتاب كان فى الواقع ينطوى على تقديم حجج قوية لترجيح مذهب كوبرنيكاس ، وأرضى الكتاب العلماء الباحثين ، ولكنه أثار ثائرة رجال الدين المتشددين ، وفى خلال الفترة التى ألتزم فيها جاليليو الهدوء ، ولاذ بالصمت ، اغتنم خصومه الفرصة للإكثار من الحجج المناقضة لرأى كوبرنيكاس ، زاعمين أن القول بدوران الأرض من أكبر الكبائر ، وأنه يبعث على الشك فى خلود الروح ووجود الله ، وكان جاليليو عند ظهور الكتاب قد أنهكه المرض ونال منه ، ولكن خصومه لم يترفقوا به ، وقد اجترأ جاليليو فى كتابه على أن يجرى بعض ملاحظات أبداها البابا على لسان المدعو سمبلسيوس، أحد المتحاورين فى كتابه ، مما أغضب البابا الذى كان قبل ذلك يعطف على جاليليو .

وكانت تربط جاليليو علاقة بدوق فلورنسا ، فلما استدعاه ديوان التفتيش للحضور إلى روما هدد الديوان الدوق بأنه سيتزل به العقوبة إذا أصر على حماية جاليليو ، وكان جاليليو حينذاك قد بلغ السبعين من عمره ، وقد اشتد به المرض ، وكف بصره ، فأرسل شهادة طبية أظهر فيه أنه لا يستطيع احتمال مشاق السفر من فلورنسا، فهدد البابا طبيبه الخاص لفحص حالة مرتكب الإثم وإحضاره إلى روما مكبلا بالقيود إذا ثبت أن مرضه لا يبعث على اليأس من حالته .

وكان البابا أربان الثامن قد أصبح من أشد خصومه وأعدى أعدائه ، وقد بعث ذلك جاليليو على أن يبادر إلى معاناة الرحلة دون أن ينتظر حكم مندوب عدوه الصحى ، وحينما وصل إلى روما زج به فى سجون ديوان التفتيش ، وهدد بالتعذيب إذا لم يرتد عن آرائه ، وقرر الديوان إعفاء جاليليو من العقوبات المعدة للهراطقة إذا تاب توبة نصوحا ، وأعلن جاليليو على رؤوس الأشهاد بنية خالصة وضمير سليم

كراهته وندمه على ما تورط فيه من خطأ ، وأبدى سخطه على تلك الهرطقة ، وأصدر الديوان مرسوما بتحريم الكتاب ومنعه من الذيوع ، وقضى الديوان أنه فى حالة توبته وتنكره لآرائه فإنه سيحكم عليه بالسجن مدة يقدرها الديوان حسب ما يروق ويتراءى له ، ولكى تكون التوبة خالصة لا رجعة فيها فإن عليه فى السنوات التالية أن يرتل مرة كل أسبوع الأناشيد السبعة الخاصة بالتوبة .

واضطر جاليليو أن يلقى وهو جاث على ركبتيه ، علنا ، البيان الذى أعده له ديوان التفتيش ، وهو يتضمن اعترافه بالخطأ وتورطه فى الهرطقة ، وقسمه بأنه لن يعود فى المستقبل إلى اجتراح هذا الإثم سواء بالحديث أو بالكتابة ، ووعد بأنه لن يقصر فى المستقبل فى التبليغ عن الهراطقة الذين لا يزالون يقولون بدوران الأرض ، واعتقد رجال ديوان محكمة التفتيش أنهم قد أرضوا الدين والأخلاق بإرغامهم هذا الرجل العظيم على نبذ معتقداته ، وتطليق الراجح من آرائه ، وسمحوا له بأن يقضى الأيام الباقية من حياته فى عزلة وصمت ، وحقيقة أنه لم يدفع به إلى غيابة السجن ، ولكن تحركاته كانت خاضعة للرقابة ، وكان محرما عليه لقاء أسرته أو أصدقائه وقد فقد الإبصار فقدانا تاما سنة ١٦٣٧ ومات فى سنة ١٦٤٢ ، وفى بعض الروايات أنه قال بعد رجوعه عن رأيه فى دوران الأرض حول الشمس وقد تملكته الرغبة فى التصريح بما يعتقد أنه الحق ، قال : « ولكنها تدور » ولكن هذه الرواية ليست صحيحة ، والدنيا هى التى رددت ذلك وأيدته لا جاليليو كما قال برتراند رسل .

وكثيرا ما يذكر هذا الخلاف بين العالم الكبير جاليليو وبين المتشددين من رجال الدين وديوان التفتيش ، على أنه صراع بين العلم والدين ، ولكنه فى الواقع صراع بين العلم والتقاليد الغالبة ، لأن الدين فى جوهره لا اعتراض له على الاتجاهات العلمية التى تنير للبشر طرائق الحياة ، وتعينهم على احتمال تكاليفها ، وتوسع آفاقهم الفكرية ، وكثيرا ما ينسى أن بعض ذوى العقول الراجحة ، والنفوس النبيلة قد أدركوا ذلك فى الماضى ، وقد مكنهم هذا الإدراك من احتمال الآلام والأحزان التى لولا هذا الإدراك لوجدوها من وراء احتمالهم وفوق طاقتهم .

ومن الوقائع البارزة فى حياة جاليليو ، أنه لا الجهل الذى أظهره مضطهدوه ومعارضو آرائه ولا الآلام والكوارث التى ألمت به أضعفت ولاءه للكنيسة التى ظل

طوال حياته مخلصا لها ، ولامست عقيدته الدينية واعتقاده فى وجود الله ، وكان من بواعث إثارة الألم فى نفسه أن يجد أن الآراء التى آمن بصحتها وصدقها من الناحية العلمية قد استلزمت وقوع خلاف بينه وبين رجال الدين المعاصرين له ، ولم يكن العلماء القائلون بدوران الأرض من الملاحدة ، وإنما كانوا من الحريصين على دينهم ، وكوبرنيكاس نفسه كان رجلا من رجال الدين .

وقد كشفت عن الآلام التى كان يعانيها جاليليو من جراء الخلاف بينه وبين ديوان التفتيش علاقته بابنته الصالحة الورعة مارى سيلست ، ففى خريف سنة ١٦٣١ انتقل جاليليو من بيلو سجواردو الواقعة فى الجانب الآخر من مدينة فلورنسا لكى يكون قريبا منها ، وفى إبريل سنة ١٦٣٤ بعد عودته من المحاكمة فى روما سلبه الموت هذه الابنة العزيزة ، فكتب إلى صديقه ديوداتى فى ٢٨ يوليو بعد موتها يقول : « لقد مكثت خمسة أشهر فى منزل كبير الأساقفة فى سينا ، وبعد ذلك تغير سجنى إلى الاعتقال فى منزلى ، وهو ذلك الجوسق الواقع على مسافة ميل من فلورنسا ، مع تنبيهات مشددة بأن أمتنع عن الترحيب بالأصدقاء أو أن أسمح باجتماع الكثيرين فى وقت واحد ، وأنا أعيش هنا فى هدوء تام ، وأتردد من الحين إلى الحين على الدير المجاور ، ولى فيه ابنتان عزيزتان على ، والكبرى منهما بوجه خاص قليلة النظير فى الصلاح وطيبة النفس ، وهى شديدة التعلق بى ، وهى امرأة سامية المدارك ، وقد عانت الكثير من سوء الصحة ، ومما انتابها من الحزن فى أثناء غيابى ، فقد كانت تشعر بالخطر الذى يتهددنى ، ولم تعر نفسها التفاتا يذكر وأخيرا أصابها الإسهال الشديد « الدوسنطاريا » وماتت بعد ستة أيام من المرض وتركتنى فى حزن عميق » .

وهذه الكلمات البسيطة القليلة تكشف عن لواعج الأسى التى كان يعانيها جاليليو بعد فقد هذه الابنة البارة الوفية ، والكثير من الرسائل التى كانت تبعث بها إلى أبيها قد نجت من الضياع ، وحفظت بين أوراقه ، وكان له من الأولاد ثلاثة ، وهم بالسنا وفرجينيا وفنشينزو ، ولم يكونوا ثمرة زواج شرعى ، ولكن كون ماريا جامبا لم تكن زوجة شرعية لم يكن يضر بسمعته حسب تفكير ذلك العصر ، فقد كانت أمثال هذه الحالة مألوفة كثيرة الشيوع ، وكانت ماريا من مدينة بادوا التى سبق

أن درس بها وألقى محاضرات فيها ، ولكنها لم تصحبه إلى فلورنسا ، ولما كانت المحاكمات التى تعرض لها وتقلبات الحظ التى عاناها لا تجعل منزله مناسبا لبنتيه الشابتين فقد آثر أن يضمهما فى دير له كترى ، ويحتفظ بابنه معه فى المنزل الذى يقيم به فى بيلوسجواردو .

وبالسينا أو مارى سيلست كما كانت تعرف فى الدير ، ولدت سنة ١٦٠٢ وفرجينيا أو أركانجيلا ولدت سنة ١٦٠٤ وفنشينزو ولد سنة ١٦٠٦ وكان جاليليو فى الثامنة بعد الثلاثين حينما ولدت له ابنته الكبرى ، وكان الرجل شديد العناية بأولاده ، دائم التفكير فيما فيه الخير لهم ، وكانت أركانجيلا تمتحن صبره بشراسة أخلاقها وسوء طباعها ، كما كان يضايقه فنشينزو بتهاونه وإهماله ، أما ماريا سيلست فقد ملكت عليه لبه ، واستأثرت بحبه وعطفه ، لعذوبة أخلاقها النادرة التى تكشف عنها رسائلها إليه ، وبرغم أن هذه الرسائل توضح أن حبها لوالدها كان مصدر سرور عظيم لها إلا أنه تبين أن هذا السرور كان يشوبه الألم ، لأنها كانت شديدة التعلق بالكنيسة ، ولا يخالجها شك فى القرارات التى تصدرها ، ولكن الرجل الذى كانت تراه أرجح الناس عقلا ، وأنبلهم نفسا ، كان دائما معارضا لتلك القرارات ، وكان لا بد أن يسبب لها هذا الموقف الكثير من الآلام المبرحة ، وكانت هذه الآلام الشديدة من الأسباب التى ساعدت على التعجيل بموتها فى غضاضة السن ، ونضارة الشباب ، إذ لم تكن قد جاوزت الثانية بعد الثلاثين حينما مضى بها الموت ، واحتواها القبر .

ولم يجد جاليليو فى منزله ما يؤنس نفسه ويزيل وحشته ، وكان من بواعث ألمها عجزها عن مساعدته ، ولكن التاريخ قد أفاد من ابتعاده عنها ، فإنه لولا الرسائل التى كانت ترسلها إليه لما عرفنا شيئا عن حياته العائلية ، ومما يدعو إلى الأسف أن الرسائل التى كان يبعث بها إليها ردا على رسائلها إليه قد فقدت ، وربما كان سبب ذلك خوفها من أن يلحقه أذى من جرائها ، ويبدو من رسائلها إليه أنها كانت موضع ثقته التامة ، وتدل رسائلها على أن تدينها العميق وتقواها الخالصة لم يقللا من عطفها الإنسانى ، فقد كانت لا تنفك تذكر لوالدها فرط ولائها له ، وشدة حرصها على سلامته ، وبذل الجهد فى العمل على توفير أسباب الراحة له ، وتقديمها له كل ما تستطيعه من الخدمات والمساعدات .

وكانت كل راهبة من زميلاتها الراهبات تحتفظ بصورة قديس تناجيه بأفراحها وأحزانها ، أما هى فكانت تحتفظ بصورة والدها ، وكان هو كذلك من ناحيته شديد العناية بها ، ولا يدخر وسعا فى مساعدتها .

وفى الرسائل التى كانت توافيه بها إشارات كثيرة إلى ما كانت تقوم به له من الخدمات ، وما كان يقدمه لها من المساعدات المالية وغير المالية .

وكانت شقيقتها أركانجيلا مصدر متاعب لها لا تنتهى وكان يحزنها تهاون شقيقها وعدم اكتراثه بوالده برغم ما صنعه من أجله وبذل الجهد فى تهذيبه ، والعمل على تقويم أخلاقه ، ويفهم من بعض إشارات فى رسائلها أنه كان مصدر ألم لها ولأبيه .

وفى إحدى هذه الرسائل تواسى أباها قائلة : « لا أحب الأولاد ولا الميل إلى المسرات والحرص على المال والثراء يمكن أن تهب لنا السعادة الحقة ، ونحن لا نجد الراحة الصادقة إلا فى رحاب الله الغفور الرحيم ، ويبدو لى الآن أنك يا سيدى العزيز ووالدى تسير فى الطريق السوى لأنك تنتهز كل فرصة تلوح لك لتغمر بالهبات والعطايا المتتابعة كل من يقابل صنائعك بالجحود والنكران ، وهذا العمل أكثر فضيلة وكمالا ، لأنه أشق من غيره ، وهذه الفضيلة تدنيك من الله لأنه جل شأنه لا يزال يجود علينا بالخير والبركات برغم إساءتنا إليه » .

ولكن لا عيوب فنشينزو ومساوئه ولا شراسة أخلاق أركانجيلا كانت سبب مأساة حياتها ، وإنما كان يزعجها ويكدر خاطرها خوفها على سلامة والدها المحبوب وحزنها لما يلقى من شقاء ، وحيرتها بين الولاء له وحب الخير له وولائها للكنيسة واحترامها لقراراتها ، وكان مما شرح صدرها ، وبعث فى نفسها الطمأنينة اختيار البابا أربان فى سنة ١٦٢٣ ، فقد كانت تربطه بوالدها علاقة صداقة فى الماضى ، واعتقدت أن اختياره سيكون ابتداء تبلج عصر مشرق لوالدها ، وكتبت لوالدها تسأله أن يسمح لها بالاطلاع على رسالة التهنئة التى لا بد أن يكون قد وجهها إلى نيافة البابا فى هذه المناسبة، ولكن رده عليها خيب ظنها ، وكانت صدمة شديدة لها ، فقد كتب إليها يقول : « لقد تبينت جيدا من رسالتك المحبوبة معرفتى القليلة بأحوال الدنيا التى جعلتنى أظن هذا الظن الذى جال بفكرى وهو أن تكتبى مباشرة إلى مثل صاحب هذه الشخصية البارزة الذى أصبح فى الواقع رئيس المسيحية

الأكبر ، ولذلك أشكر لك الإشارة التى استرعيت نظرى بها ، وأشعر شعورا أكيدا أن حبك لى سيميل بك إلى الصفح عن جهلى ، وغير ذلك من الأخطاء التى أقع فيها ، وإنى على ثقة من أن تحذيرك الدائم لى وتوجيه اللوم إلى سيكسباننى معرفة وحكمة ، ولما لم يكن فى وسعى بسبب الوعكة التى لا أزال أعانى عقابيلها أن أراك فعلينا أن نستسلم صابرين لإرادة الله الذى يوجه الأشياء جميعها لما فيه الخير لنا ، وإنى أحتفظ فى عناية شديدة بالرسائل التى ترد إلى منك يوميا ، وحينما لا أكون مشغولا بأداء واجباتى أعيد قراءتها ، وهذا هو ما أملك من أسباب السرور» .

وفى رسالة تاريخها ١٢ أغسطس سنة ١٦٢١ أخبرته أن دارا قريبة من الدير خالية ، وأنها ترغب فى أن يكون على مقربة منها ، وسرعان ما تم ذلك ، ولكن سرورها العظيم لم يدم طويلا ، وقد أشار عليه بعض أصدقائه بالامتناع عن تقديم كتابه عن المحاورات بين مذهب بطليموس ومذهب كوبرنيكاس للطبع ، ولكنه رفض هذه النصيحة ، وظهر الكتاب فى يناير سنة ١٦٣٢ ، وكان المتحاورون فيه ثلاثة ، سالفيات وهو الذى كان يعبر عن آراء جاليليو ، وساجريدو وهو مستمع موفور الحظ من الذكاء ويستطيع متابعة النقاط الهامة المثارة خلال المحاوران ، وسمبلسيو وهو إنسان بطىء الفهم يجد صعوبة فى إدراك دقائق الحوار ، وقد أقنع أعداء جاليليو البابا أنه المقصود بتصوير هذه الشخصية الخيالية ، مما أثار غضبه ، وزاد فى اعتقاده أن الكتاب جمعيه ضرب من ضروب الهرطقة ، وأنه لا بد من تقديم مؤلفه للمحاكمة أمام ديوان التفتيش ، وأصر على حضوره إلى روما برغم شفاعة دوق تسكانيا وممثله فى البلاط البابوى المركيز نيكو أرينى ، ولم يفهم جاليليو لماذا يحل به الاضطهاد ، فهو من ناحية يؤمن بحركة العلم التقدمية ، وفى الوقت نفسه لم يتزعزع إيمانه بالله صانع الكون ، ولم ينقص إكباره للكنيسة ، وقد كان سبق له أن حدد موقفه فى هذا الصدد ضمن رسالة أرسلها إلى الأستاذ كاستلى ، أحد أساتذة جامعة بيزا فى سنة ١٦١٣ وفيها يقول : « لقد أحسنت فى قولك أن الكتب المقدسة لا يمكن أن تخطىء وأن ما بها من الأحكام صادق ولا ينقض ، ولكن لو كنت مكانك لأضفت إلى ذلك أن الكتب المقدسة ولو أنها لا تخطىء فإن شراحها ومفسريها عرضة للخطأ فى طرق كثيرة ، وغلطة واحدة بوجه خاص ستكون شديدة الخطورة

وكثيرة التكرار إذا وقفنا دائما عند التفسير الحرفى للكلمات والتقينا به ، وفى هذه الحالة لا تظهر متناقضات كثيرة فحسب بل ستظهر كذلك ضلالات دينية جسيمة وكفريات ، ومن ألزم ما يلزم للشراح الحكماء أن يأتوا بالتفسير الحق والمعنى الحقيقى ، وأن يبينوا الأسباب التى دعت إلى صياغتها فى هذه النصوص . . . وقد لا يكون كل المفسرين من الموهوبين الموصى إليهم ، وأرى أنه من حسن الفطن إمساك الناس عن استعمال بعض فقرات من الكتب المقدسة يفرض مساندة ما يناقض حواسنا أو البراهين الثابتة » .

ويبدو من هذه الرسائل القليلة التى سلمت من الضياع أن جاليليو كان لا يرى تعارضا بين العلم والدين ، وأن الدين لا يحتم عليه الاكتفاء باستمداد المعلومات الفلكية من الكتب المقدسة ، وقد حاول نيكولينى الذى كان يعطف على جاليليو إقناعه بأن جو العصر لا يسمح بإذاعة مثل هذه الأفكار ، فقد كتب إلى صديق له فى ٩ إبريل سنة ١٦٣٣ رسالة يقول فيها : « لقد نصحته بأن ينهى هذا الموضوع بأسرع ما يمكن ، وأن لا يعنى بتأييد نظرياته ، وأن يخضع لكل ما يطلبونه منه حتى ولو كان يتمسك بنظرية فى حركة الأرض ويعتقد بصدقها ، وقد آلمته نصيحتى إيلاما شديدا ، وكلانا هنا نحبه أشد الحب » .

وكان هذا السفير وزوجته شديدى العطف على جاليليو ، ولكنه أخذ من منزلهما إلى السجن ، وبلغت هذه الأنباء ابنته فكتبت إليه فى ٢٠ أبريل : « لقد علمت فى التو واللحظة أنك سجنت فى الإدارة المقدسة وقد أحزننى هذا كثيرا لشعورى بأنك قلق البال ، مضطرب النفس . وربما تكون متعب الجسم ، ولكنى حينما أضع فى حسابى الرفق الذى عوملت به ، وعدالة قضيتك قبل كل شىء ، وبراءتك أشعر بالارتياح ، وآمل بعون الله جل شأنه الذى لا أنقطع عن التوسل إليه أن تكون النتيجة خيرا وتوفيقا » .

وبدا لها أن ثقتها برفق السلطات الدينية قد تحققت حينما سمعت أنه قد سمح له بالعودة إلى منزل السفير ، ولكن سرورها لم يطل أمده ، فقد بلغها من أحد أصدقاء أبيها المقربين الثمن الغالى الذى دفعه للخلاص ، وأنه اضطر إلى الارتداد عن رأيه جاثيا على ركبتيه فى حركة الأرض ، وأن كتابه قد وضع فى قائمة الكتب المحرمة ، وأنه لن يسمح له بالعودة إلى داره ، فكتبت إليه تحاول مواساته :

« أخبار متاعبك الجديدة ملأت نفسى حزنا ، ومما زاد فى ألم وقعها أنها جاءتنى على غير انتظار ، ولما لم يصلنى منك خطاب فى هذا الأسبوع فقد خشيت أن يكون لا بد من حدوث شىء ، وألححت على السيد جرى Geri أن يخبرنى ، وما سمعته عن القرار الذى اتخذوه لإدانتك وإدانة كتابك آلمنى أشد الألم ، فلم أكن أنتظر مثل هذه النتيجة ، فيا سيدى العزيز ويا والدى إن هذا هو الوقت الذى تعتمد فيه على ممارسة حكمتك التى اختصك الله بها ، وبذلك تحتمل هذه الصدمات بثبات الروح الذى يتطلبه دينك وسنك ومهنتك » .

وكان موقفها حرجا محزنا ، فالبابا لا بد أن يكون محقا ، ووالدها لا يمكن أن يكون مبطلا ، وكانت سلواها الوحيدة هى أنه فى يوم ما سيحدث وفاق بين الرأيين ، ويصبح الحق واضحا ، وثقتها بهذا الأمل هى التى جعلتها تحاول مواساته حينما كتب إليها من منفاه وقد برح به الحزن : « إن اسمه قد محى من كتاب الأحياء » . وأخبرته أن اسمه لم ينس لا فى البلاد الأجنبية ، ولا فى بلاده ، وأن السحب ستمر وتنقشع ، ويعود إليه السرور والابتهاج ، وتذكره بأن البرج الذى كان يقوم فيه بتجاربه ، ويسجل ملاحظاته يئس لطول غيابه عنه ، وقد كان لكلماتها أجمل وقع فى نفسه ، فعاد إلى اهتمامه بشؤون حياته اليومية .

وفى ديسمبر سنة ١٦٣٢ سمح له بالعودة على شريطة أن لا يدخل فلورنسا ، وأن لا يقابل فى داره أكثر من صديق أو صديقين ، وأن لا يتحدث عن نظرياته البغيضة ، ولكنهم لم يطلبوا منه الشىء الوحيد الذى كان لا يستطيع احتماله ، وهو أن يضع حدا لزيارته لابنته ، وسروره بأنه سيحظى بقربها ، وتقر عيناه برؤيتها هون عليه فقد الكثير ، فلو أنها عاشت لكانت النقطة اللامعة المضيئة فى سماء حياته المظلمة ، وغير عجيب أن الموت اغتالها فى السنة التالية ، فإن حزنها من أجله أضعف صحتها ، وحملها من الصراع الفكرى الدائم ما حرمها من الراحة ، وما لم تجد بنيتها لها طاقة على احتماله، وكان اعتقاده أنه سيلحق بها إلى القبر فقد خذله بصره ورابه بعد علة ، وصارت آلامه الجسدية مما يعز احتماله ، وبرغم ذلك كله واعتقاده بأنه ما يزال معرضا لألوان أخرى من الاضطهاد فإن عقله لم يمتنع عن التفكير .

وفى سنة ١٦٣٨ زاره الشاعر الإنجليزى الكبير ملتن ، وآلمه أشد الألم ما يعانيه العالم الكبير من الآلام والأوصاب ، وأثار غضبه، وجعله يحمد الله لأنه ولد فى مكان حرية الفكر فيه مكفولة .

وبعد وفاة ابنته مارى سيلست أظهر نجله فنشينزو اهتماما بحالة أبيه وعطفا عليه ، فطلب جاليليو من قاضى محكمة التفتيش فى فلورنسا أن يسمح له بالانتقال إلى دار نجله ، فزاره القاضى ليشاهد بنفسه أحواله ، وفاجأه بالزيارة على غير انتظار ومعه طبيب أجنبى ، فوجده كفيف البصر ، وكان يأمل أن يسترد بصره ، ولكن طبيبه كان يرى أن كبر السن يحول دون ذلك ، وعلاوة على فقدان البصر كان يعانى ألما شديدا من فتق ، ويشكو من الأرق الذى لا يمكنه من أن ينام ساعة واحدة نوما كاملا فى الأربع والعشرين ساعة ، وتكاد تكون صورته أقرب إلى جثة الميت منها إلى الإنسان الحى ، وكانت الدار التى يقيم بها بعيدة عن المدينة بحيث يصعب على الطبيب زيارته فضلا عما تكلفه هذه الزيارة من نفقات ، وحرمه فقدان البصر من مواصلة البحث والدراسة ، وكان من الحين إلى الحين يجد من يقرأ له ، وقللت الناس من زيارته ، لأن سوء صحته جعله دائم الشكوى من الآلام التى يعانيها والتحدث عن أعراض مرضه ، واقترح قاضى التفتيش على ديوان التفتيش أن يقر طلبه ، ويسمح له بالانتقال إلى دار نجله فى فلورنسا ، وأنه لا يخشى من اجتماع الكثيرين فى داره ، وأنه إذا حدث ذلك فإن أى نوع من الإنذار يكفى لإرغامه على التزام حدوده ، ووافق الديوان على انتقاله مشترطا عليه أن يتحاشى الحديث عن دورة الأرض ، وكان المنزل الذى يقيم به مع نجله فى ناحية بعيدة من المدينة تكاد تكون منعزلة عنها لبعدها عن المنازل المجاورة، وأمر ابنه بأن لا يسمح لأى إنسان يشتبه فى أمره بزيارة أبيه ، وأن يوصى زائريه بعدم إطالة الزيارة ، وأكد قاضى التفتيش أنه سيراقب الحالة من بعيد بنفسه ، ولا يسمح بأية مخالفة .

ويرغم هذا الاضطهاد الذى تعرض له جاليليو من ناحية رجال الدين فإنه ظل شديد التعلق بعقيدته ، محتفظا بصدق إيمانه بالله ، فقد كتب فى فبراير سنة ١٦٣٦ يقول : « عندنا منبعان لا ينضبان للراحة الدائمة ، أولا أنه فى كل ما كتبته لا توجد أدنى أشارة إلى عدم احترامى للكنيسة المقدسة ، وثانيا شهادة ضميرى التى أعرفها

معرفة جيدة بعد الله فى سماواته ، والله يعلم أننى فى هذه القضية التى أشقى من أجلها برغم أن الكثيرين من الرجال كان يمكن أن يتحدثوا عنها بمعرفة أوسع من معرفتى فإنه حتى الآباء القدامى لم يتحدثوا عنها بتقوى أكثر من تقواى أو بحماسة للكنيسة المقدسة أكثر من حماستي».

ومما جعله يحتمل حالته ، ويصبر لما حل به اعتقاده أن رجال الدين لم يشتدوا فى معاملته بدافع القسوة ، وإنما لاعتقادهم بأن ما ورد فى الكتب المقدسة هو الحق الذى لا مرية فيه ، وأنه سيأتى اليوم الذى تستنير فيه بصيرتهم ، ويعرفون خطأهم .

ولكن الأجل لم يمهله ليرى ذلك الزمن ، ولما أحس اقتراب الموت طلب أن يزوره قس الأبرشية ، وسمح للقس بزيارته ، ولكن حينما كان يسلم الروح فى يناير سنة ١٦٤٢ وطلب أن يدفن فى كنيسة سانت كرونشه أجيب بأن هذه الرعاية لا يظفر بها أحد من الهراطقة الخطرين ، ودفن من أجل ذلك فى قبر فى آخر الممشى الموصل إلى غرفة الأشياء المقدسة وملابس الكهنة ، ومع ذلك فإن المصالحة بينه وبين الكنيسة التى كانت تتطلع إليها ابنته الورعة التقية مارى سيلست والتى كان هو يرجوها جاءت بعد ذلك ، ففى سنة ١٧٣٥ رفعت أسماء كتبه من قائمة الكتب المحرمة ، وبعد ذلك بعامين أقيم له نصب تذكارى فى صحن الكنيسة ووضع تحته التابوت الذى يحمل تجاليده ، ومن الناس من يلومون جاليليو ، ويأخذون عليه خضوعه للسلطة ، ولكن التقدير العادل لهذا الرجل العبقرى يرى فيه إنسانا أمينا مخلصا كانت مأساته أنه سبق عصره إلى استطلاع حقائق لم يكن عصره قد نضج بعد النضج الكافى لإدراكها وتقدير أهميتها .

بطرس الأكبر ومكانته فى تاريخ روسيا

بيت من الشعر الروسى القديم يقول : « كانت روسيا ملفوفة فى غياهب الظلام لمدة سنوات عدة ، وقال الله : ليكن بطرس ، فكان الضوء فى روسيا » .

ويقول الروائى المؤرخ الروسى كارامزين (١٧٦٦ - ١٨٢٦) « اختيار أحسن الأشياء عمل العقل المثقف ، وقد أراد بطرس الأكبر أن يثقف العقل فى كل ناحية من النواحى ، وقد أعلن هذا العاهل الحرب على تقاليدنا القديمة ، لأنها كانت قبل كل شيء فجة ، وغير ملائمة للعصر ، وثانيا لأنها كانت تعوق استحداث تقاليد أخرى وتجديدات أجنبية أكثر فائدة ، وكان لا بد من القضاء على العناد الروسى العتيد وكسر شوكته لجعل الروسيين أكثر مرونة وقابلية للتعليم والاستيعاب . أن التباكى على تطيير الخلق الروسى وفقدان روسيا السمات الأدبية التى كانت ليس سوى لون من ألوان الهزال ، أو نتيجة لنقص التفكير السليم » .

وقد اختلفت الآراء فى تقويم عمل بطرس الأكبر ، وتقدير رسالته لروسيا ، وهى سنة جرى عليها الناس فى تقدير أعمال العظماء ، وربما كان هذا الاختلاف فى الوزن والتقدير من الدلائل الواضحة على عظمة الشخصية ، وضخامة مكانتها التاريخية .

فبعض نقاد بطرس الأكبر يقولون : إن الإصلاحات التى فرضها على قومه ، وأرغمهم على قبولها بدأت من الأعلى لا من الأسفل ، أى أن البناء الذى قام به لم يكن له أساس وطيد ، وإنه طلاء خارجى ومظهر خلاب ، وإنه لم يحمل الروسيين على التشبع بالروح الأوروبية الخالصة وإنما شوه القومية الروسية وقص أجنحة العبقرية القومية ، وعاقها عن السير فى طريق التقدم التدريجى ، والتطور الطبيعى .

ويرى الناقد الروسى الشهير بلنسكى : « إن عناية بطرس الأكبر بالمظاهر الخارجية مثل تغيير الملابس وحلق اللحى وبناء مدينة بطرسبرج كان ضروريا ، وأن النزعة الأوروبية التى أدخلها وشجع الروسيين عليها لم تغير من طبيعة القومية

الروسية ، ولم تنحرف بها عن الطريق السوى ، وأنها أمدتها بالقوة وأسباب الحياة ، وأنه لم يهدم الروح القومية ، وإنما طورها ، بل إن ظهوره نفسه يعد مفخرة للقومية الروسية ، لأن الشعب العملاق هو الذى يخرج أمثاله من العمالقة ، فالشعب الروسى من حقه أن ينظر إلى نفسه بالاحترام والإجلال لأنه أخرج مثل بطرس الأكبر ، وقد مهد بطرس السبيل لأفكار جديدة ، وأعمال جديدة ، واستنقذ روسيا من التخلف الآسيوي، والهمجية التترية ، وكانت هناك طقوس وعادات فى الزواج تهبط بالكرامة الإنسانية ذائعة لا فى الطبقات العادية فحسب بل فى أسمى الأوساط فعمل على إلغائها ، وكان الرجال يتزوجون دون أن يعرفوا زوجاتهم ، ويضربون زوجاتهم ضربا مبرحا ليجعلوا منهن ملائكة عفيفات الذيل ، وإذا لم يوفقوا فى ذلك دسوا لهن السم القاتل ، ويسرفون فى الطعام والشراب ، وكان هذا جميعه من تأثير الحكم التترى ، وحالما فتح بطرس الأكبر أبواب روسيا لمؤثرات الغرب أخذ ينقشع ظلام الجهل ، ولم يعط الشعب الروسى الليان لغيره ، وأصبح شيئا لم يكنه قبل عهد بطرس الأكبر ، ولقد كان هناك حائط يفصل روسيا عن أوربا ، وهذا الحائط لم يكن يقوى على هدمه سوى شمشون ، وقد ظهر شمشون فى شخص بطرس الأكبر ، والأمم غير المتحضرة تصبح متحضرة بمحاكاتها بدون تحفظ الأمم المتحضرة ، وأوروبا نفسها تثبت ذلك ، وقد كانت إيطاليا تصف سائر الأوربيين بأنهم همج ، وهؤلاء الهمج أخذوا يحاكونها فى كل شىء حتى فى عيوبها ، فهل كان على روسيا أن تبدأ من البداية وهى ترى النهاية ؟ لقد كان لنابليون نظير فى العهد القديم ، وهو يوليوس قيصر ، ولكن بطرس الأكبر ليس له نظير ولا شبيه منذ خلق الدنيا ، وهو لا يشبه أحدا غير نفسه ، ولا يساوى أحدا غير ذاته » .

ويسترسل بلسنكى قائلا : « إن بناء بطرسبرج قد عابه الكثيرون على موجدها العظيم ، فقد أقامها فوق مستنقعات ، وفى جو قاس ، وضحى بحيوات كثيرة ، وأرغم الكثيرين ضد رغباتهم على أن يبنوا بها مساكنهم ، وفى كل هذا أساس من الصحة ،ولكن المشكلة هى هل كان هذا العمل ضروريا ؟ وهل كان يمكن تجنبه ؟ لقد كان على بطرس أن يهجر موسكو وينشىء مكانا أمينا تسود فيه النزعة الأوربية ، ويطمئن فيه الوافد الأوروبى ، ويعل على تبديد الجهل ، ومقاومة التعصب ،

وإيجاد هذا الملاذ الأمين كان يقتضى تهيئة بيئة مستحدثة لا يجد فيها الروسيون مندوحة عن نبذ عاداتهم القديمة ، وتقاليدهم البالية ، وتتوثق العلاقات التجارية والاجتماعية فيها بين الروسيين والوافدين من الأجانب . وقبيل معركة لسنايا أقام فى مؤخرة جيوشه جماعات من القوزاق والكلمك ، وأصدر أوامر مشددة بأن يقاتلوا بغير رحمة كل من يحاول الفرار من ميدان المعركة ولو كان هذا الفار هو نفسه ، وكذلك كان شأنه فى محاربة الجهل والتخلف ، فقد نظم صفوف الأمة الروسية جميعها لمقاومته ، وسد فى وجهه كل منافذ التراجع والهرب ، أما النفوس التى ذهبت ضحايا جهوده ومشروعاته فسبب ذلك أن بطرس كان يصنع تاريخا ولا يكتب رواية مسلية ، وكان ملكا يسوس دولة لا رب أسرة ، وكانت التجربة من مختلف جوانبها اختبارا لقوة روسيا وقدرتها على النهوض ، وأمثال هذه الانتفاضات لا تتم بغير الضحايا وأحداث مضايقات شتى للكثيرين من المعاصرين ، وبطرس الأكبر كان لا يعترف بنواحى الضعف فى الطبيعة الإنسانية ، ولم يتأكد أنه من الفانين إلا وهو على فراش الموت ، فقد قال وهو يعانى الألم فى اللحظات الأخيرة من حياته : « الآن يمكن أن يدرك الناس من حالتى هذه أى مخلوق ضعيف هذا الإنسان ! » .

ويروى بلنسكى أن أحد الجنود القدامى ، واسمه كيريلوف ، كان يملك صورة صغيرة مطلية بالميناء لبطرس الأكبر ، وكان يضعها بين أيقوناته ، ويشعل شمعة قبالتها ويصلى . ونقل ذلك إلى أسقف نجنى نفجورود ، وكان يعيش فى بيته ، فقام الأسقف بتفتيش الحجرة الصغيرة التى يشغلها الجندى ، وأشار إلى صورة بطرس الأكبر وقال للجندى : « أيها الشيخ أهذه صورة بطرس الأكبر الموضوعة بين الأيقونات ؟ » فأجاب الجندى قائلا : « نعم يا سيدي، إنها صورة أبينا » . فقال له الأسقف : « إنه كان ملكا عظيما وتقيا وجديرا بكل ولاء ، ولكن الكنيسة المقدسة لم تضع اسمه فى قائمة القديسين ، ولذلك يجب أن لا تضع صورته بين أيقونات القديسين المباركة ، وتشعل الشمعة ، وتقيم الصلاة » . فاعترض الجندى قائلا فى لهجة غاضبة : « لا أقيم له الصلاة تقول يجب أن لا أفعل ذلك ؟ إنك لا تعرفه ، ولكنى عرفته ، لقد كان ملاكنا الحارس ، كان يحمينا، ويحافظ علينا جميعا وعلى

بلادنا من الأعداء ، وكان يقاسمنا متاعبنا فى السير إلى الحرب ، ويأكل معنا من الثريد نفسه الذى نأكله ، ويعاملنا كأنه واحد منا ، وكأنه والد لنا ، وقد كرمه الله بالانتصارات، ولم يسمح للموت أن يناله أو لسوء أن يمسه ، وأنت تقول إنه يجب على أن لا أصلى أمام صورته » وكانت الدموع تسيل من عينيه وهو يقول ذلك .

وقد يكون فى تقدير الناقد الكبير بلنسكى لمكانة بطرس الأكبر فى تاريخ روسيا شىء من الإسراف والمغالاة ، باعثه فرط إعجابه بالجهد الذى بذله بطرس فى حمل روسيا على الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، وربما كان الطريق الأقرب إلى التقدير الأدق أن نضع بطرس الأكبر فى إطار تاريخ روسيا منذ ابتداء هذا التاريخ إلى عصر بطرس ، والواقع أننا لا نستطيع أن نتبين موقف بطرس الأكبر فى وضوح إلا إذا ألممنا بعض الإلمام بالتقاليد التى كانت تسيطر على الأمة الروسية ، وأثر الأحداث التاريخية فى التمهيد لخلق هذه التقاليد وتكوين العادات التى وجه بطرس جانبا كبيرا من عنايته إلى أن يستبدل بها غيرها ، وقد كان للعادات والتقاليد بوجه خاص فى روسيا أثرها البعيد المدى والذى ظل ساريا حتى قيام ثورة البلاشفة ، برغم ما بذل بطرس من جهد ضخم ، وما أحدث من إصلاحات ، وما أدخل من تغييرات .

والأحداث التى كونت تاريخ كان مجالها ذلك السهل الشاسع الأرجاء الممتد من شرق أوروبا إلى أواسط سيبريا ، ويحده فى الشمال والشمال الشرقى البحر الأبيض والمحيط المتجمد الشمالى ، ويحده فى الجنوب البحر الأسود وبحر قزوين وجبال القفقاز ، وجبال أورال ليست فى الواقع حاجزا بين أوروبا وآسيا ، وارتفاعها لا يتجاوز ستة آلاف قدم ، وبها كثير من الأودية والممرات التى تجعل الانتقال من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق سهلا ميسورا ، وقد جعل هذا الوضع الجغرافيين لا يستطيعون البت فى مسألة أين تنتهى أوروبا وأين تبدأ آسيا . وساعد عدم البت هذا على خلق المشكلة الدائمة وهى مشكلة هل تعد روسيا جزءا من أوروبا أو تعد جزءا من آسيا ، ورأى البعض الخروج من هذا الشكل باعتبار روسيا عالما قائما بذاته ، له خصائصه وسماته .

ومهما يكن من الأمر فإن القبائل السلافية بدأت تغشى هذه المنطقة المترامية فى القرن السادس الميلادى والقرن السابع ، واستقرت فى السهول الروسية ، ولم تكن

هذه القبائل السلافية أول الأقوام التى أقامت فى هذه النواحى ، فقد عاشت فيها قبلهم قبائل بدوية خالصة وقبائل أخرى تغلب عليها البداوة ، مثل الحيثيين والقوط والهون والأفار والخزر .

وقد بدأ تحرك القبائل السلافية إلى الشرق من جبال الكربات فى خلال هجرة الشعوب العظيمة فى القرن السادس ، وساعد على ذلك موت أتيلا ملك الهون فى سنة ٤٥٣ ميلادية وتصدع دولة الهون بعد وفاته ، وقد تدفقت القبائل السلافية فى ثلاث شعب ، شعبة اتجهت إلى نواحى نهر الألب والأودر والفستولا الأدنى وهم أسلاف التشيك والسلوفاك والبولنديين ، وشعبة ذهبت إلى شبه جزيرة البلقان وهم أسلاف البلغار والسربيين والكرواتيين ، وشعبة أمت نواحى نهر الدينبر وأعلى الفلجا وشواطئ بحيرة المن وهم السلاف الروسيون .

وكان الخزر هم جيران الروسيين ، وكانوا كثيرا ما يشنون عليهم الغارات ، وكان هؤلاء الخزر من أصل تركى ، ودخلوا فى الديانة اليهودية ، وكانت غزواتهم محتملة ، إذ كانوا يكتفون بتحصيل الجزية ، وكانت مملكتهم تكون مثلثا قاعدته ممتدة من بحر قزوين إلى بحر أزوف وضلعاه الفولجا ونهر الدون وكانت تمتاز هذه المنطقة السلافية الروسية بكثرة المدن المشتغلة بالتجارة ، وفى أثناء القرن التاسع الميلادى حاولت كل مدينة من هذه المدن أن تستولى على ما حولها من الأرض ، وأدى ذلك إلى وقوع النزاع واشتداد الخلاف بين هذه المدن ، وكانت ضحايا هذا النزاع تحمل إلى سوق الرقيق فى القسطنطينية وتباع بها ، وعجز السلافيون عن القضاء على دواعى الفرقة والخلاف وحسم الفوضى الناتجة من هذا الصراع ، وتقول حوليات هذا العصر أنهم فزعوا إلى زعيم الفيكنج الوافدين من شبه جزيرة إسكنديناوة ، وسألوه إنقاذهم من عناء الفوضى المستحكمة قائلين له : « أرضنا عظيمة وغنية ولكنها تعانى فقدان النظام ، فليكن منكم أمراء يحكموننا » .

وفى سنة ٨٦٢ استولى روريك أمير الفيكنج على مدينة نوفجورود العظيمة ، وكانت من أهم المدن المدن السلافية ، ومات روريك سنة ٨٧٩ وخلفه أوليج ، وقد قاد حملة إلى الجنوب فى الطريق المفضى إلى بيزنطة ، واستولى على مدينة سمولنسك ، وفى سنة ٨٨٢ استولى على مدينة كيف ، وحصنها وجعلها عاصمة ملكه .

وكان هؤلاء الفيكنج يجمعون بين التجارة والقرصنة ، ويغيرون على شواطئ فرنسا وإنجلترا وأيرلندة ، وحوالى سنة ١٠٠٠ وصلوا فى مغامراتهم إلى شواطئ أمريكا الشمالية .

ولم يمض أكثر من قرن حتى صار هؤلاء الأمراء من الفيكنج جزء من الأمة الروسية ، ومن أمثلة ذلك أن إيجور الذى خلف أوليج أسمى نفسه بأحد الأسماء السلافية وهو سفاتوسلاف .

وكانت عناية أمراء كيف متجهة إلى جعل طرق التجارة ممهدة، وفى ٩٠٧ قام أوليج بحملة على بيزنطة ، ونجح فى الحصول على معاهدة تجارية من بيزنطة فى مصلحة كيف ، وكان لهذه المعاهدة أثرها فى تقوية العلاقات التجارية والثقافية بين كيف وبيزنطة ، وتمكن سفاتوسلاف من بسط نفوذه فى حوض نهر الفلجا ، وفتح بذلك الطريق للتجارة مع الشرق ، وتغلغل بجموعه وحشوده حتى بحر أزوف .

وفى نصف القرن التالى ازدهرت حياة مدينة كيف الثقافية ، وسمت مكانتها فى أوروبا ، ومما ساعد على ذلك أن فلاديمير الأول بعد أن استعرض الديانة اليهودية والدين الإسلامى والكاثوليكية الرومانية استقر رأيه على اعتناق المذهب الأرثوذكسى ، ولم يجد صعوبة فى فرض هذا المذهب على رعيته ، وزاد ذلك فى العلاقات بين بيزنطة وكيف توثقا ، وقد تم ذلك فى سنة ٩٨٨ ، وقد امتد حكم فلاديمير من سنة ٩٨٠ إلى سنة ١٠١٥ وقد تزوج فلاديمير أميرة بيزنطية ، وهى الأميرة آن وكثر تدفق الرهبان اليونانيون والصناع إلى كيف حتى أصبحت حافلة بالمبانى الفاخرة والكنائس الفخمة ، وكثرت الكتب المترجمة من اليونانية ، وأكثرها تحتوى مواعظ وأناشيد وأدعية دينية وأخبار عن سير القديسين وكراماتهم ، وكان لذلك كله تأثيره الملحوظ فى الحضارة الروسية .

وتبع مجيء المسيحية الأرثوذكسية ظهور الكنيسة المنظمة تحت زعامة بطريق تختاره القسطنطينية وكان هذا البطريق فى أغلب الأوقات يونانيا ، وكانت الكنائس تنشأ على الطراز البيزنطى ، وحينما حدث الخلاف بين المسيحية الغربية والمسيحية الشرقية سنة ١٠٥٤ لم يؤد ذلك إلى انفصال كيف عن الغرب أو عن أوروبا الوسطى ، وليس أدل على ذلك من علاقات النسب بين ياروسلاف حاكم كيف فى

الربع الثانى من القرن الحادى عشر وملك السويد ، فقد تزوج ابنته كما تزوج أبناؤه من أميرات ألمانيات وبولنديات ، وتزوج ثلاثة من بناته وهن أنا وإليزابث وأنستازيا من ملوك فرنسا والنرويج والمجر ، وقد استطاعت أنا زوجة هنرى الأول ملك فرنسا أن توقع باسمها فى حين أن زوجها الفرنسى كان أميا .

ولكن هذه العلاقات لم تمنع الاختلاف الشديد بين روسيا البيزنطية والمسيحية الغربية ، واتخاذ اللغة السلافية وسيلة للتفاهم جعل الروسيين أقل مشاركة فى الثقافة الأوربية المستمدة من اللغتين ، اللغة اليونانية واللغة اللاتينية ، وقد عنيت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية بالتقوى والتدين أكثر من عنايتها بتوسيع نطاق المعرفة حتى صارت نزعتها معادية للتفكير ، ومما أخذ عليها أنها وثقت علاقتها بالدولة توثيقا أقوى وأشد من العلاقة التى كانت بين الدولة والكنيسة فى معظم الدول الغربية ، وحينما جاء المغول وأسهموا فى تقوية الدولة المسكوفية كانت نتيجة ذلك كله تقوية الروح الجماعية على حساب الفرد .

وقد أراد ياروسلاف فى القرن الحادى عشر أن يجعل من كيف القسطنطينية السلافية ، ويروى أحد زائريها فى تلك الفترة أن عدد الكنائس بها لم يقل عن أربعمائة كنيسة .

وقد مات ياروسلاف سنة ١٠٥٤ وبموته بدأ يدب الفساد فى حكومة كيف ، وكانت بوادر الضعف فى هذه الدولة الروسية الأولى ظاهرة ، فقد عرض نظام الحكم الذى آثره ياروسلاف وحدة الدولة وتماسكها للخطر ، فقد كان المبدأ الذى قرره وهو على فراش الموت أن يشترك فى حكم روسيا أولاده وحفدته جميعا ، وارتقى أكبر أبنائه سنا عرش كيف ، وتلقب بلقب الأمير الكبير ، وتقلد إخوته الحكم فى البلاد الأقل أهمية ، وكان حتما مقضيا أن يصبح هذا النظام باعثا على توسيع شقة الخلاف بين أفراد الأسرة الحاكمة ، وإفساد علاقتهم بعضهم ببعض ، وقد جعل هذا النظام الدولة الروسية عاجزة عن مقاومة قبائل البدو الهمجية القادمة من الشرق ، كما أن تقدم التجارة بين الغرب والشرق عن طريق البحر الأبيض المتوسط أضعف مكانة كيف التجارية ، وما كسبته فى هذا السبيل جنوا والبندقية خسرته كيف، وكان الاستيلاء على القسطنطينية فى الحملة الصليبية الرابعة ضربة شديدة الوقع أصابت تجارة كيف الخارجية فى الصميم .

وحينما غزا المغول الدولة الروسية فيما بين سنة ١٢٣٧ وسنة ١٢٤٠ كانت الدولة مفككة الأوصال ، مصدوعة الوحدة ، وقضى هذا الغزو على اتصال السلافيين بأوروبا ، ولم تستطع كيف أن تستعيد جانبا من مكانتها وأهميتها إلا فى القرن السادس عشر والسابع عشر ، وفى خلال سيطرة المغول على روسيا أخذت ولاية موسكو تثبت وجودها ، وتؤكد أهميتها حتى أصبحت نواة للدولة الروسية المقبلة ، ولم يحاول خانات المغول التدخل فى شؤون السلاف الداخلية إلا حينما كان يحدث ما يعرض سياستهم للخطر ، وكانوا يكتفون بتحصيل الجزية والاحتفاظ بحق تنصيب أمراء الولايات ، وكانت جيوش المغول تقيم فى المدن الرئيسية ، وتخمد بقسوة أى محاولة للثورة ، وقد جعل الحكم المغولى روسيا متخلفة من الناحية الثقافية ، وعزلها عزلة تامة عن أوروبا ، وقد استمر هذا التخلف حتى بعد أن انهار الحكم المغولى .

وكان تاريخ روسيا بعد ذلك محاولة دائبة لمعاودة الاتصال بالغرب ، وكان للحكم المغولى أثره فى توجيه روسيا إلى الأخذ بنظم الحكم المطلق والأوضاع الأوتقراطية ، وقد ظلت روسيا تعانى الطغيان المغولى من القرن الثالث عشر إلى منتصف القرن الخامس عشر ، وقد تركزت حركة محاولة الخلاص من الحكم المغولى فى منطقة موسكو وما حولها ، وكان موقع منطقة موسكو الجغرافى يجعلها صالحة لانبعاث هذه الحركة ، وكان أمراء موسكو من سلالة روريك يصانعون المغول ، ويتقربون إليهم بمختلف الوسائل ، ولم يظهروا العداء للمغول إلا بعد أن توطدت مكانتهم وثبتت أقدامهم ، وظهرت بوادر الضعف والانقسام فى الدولة المغولية .

وقد حكم إيفان الثالث الملقب بإيفان العظيم من سنة ١٤٦٢ إلى سنة ١٥٠٥ وهو أول شخصية ظاهرة السمات تبرز من بين أمراء موسكو ودوقاتها الكبار ، والمعروف عنه أنه كان يؤثر اصطناع الحيلة واتباع الأساليب الدبلوماسية فى معالجة المشكلات قبل أن يلجأ إلى استعمال القوة فى تحقيق أهدافه ، وهو يعد فى طليعة من أسهموا فى بناء الدولة الروسية المقبلة ، ويعد مقياس نجاحه أن المغول فى آخر حكمه زال خطرهم على الدولة الروسية ، بل أصبحوا فى موقف المدافع بعد أن

كانوا من قبل فى موقف المعتدى المهاجم ، كما ظهرت فى عصره طبقة الملاك المحاربين التى كان لها أثرها فى تاريخ روسيا السياسى والاقتصادى .

وقد كانت العلاقة بين الكنيسة والدولة منذ القرن الرابع عشر فى روسيا وثيقة وأقوى مما كانت عليه العلاقة بين الكنيسة والدولة فى غرب أوروبا ، وازدادت هذه العلاقة قوة فى القرن السادس عشر حتى أصبح القيصر شخصية لها قداستها وسلطتها المطلقة ، وصار القيصر يعد ممثلا لله فى الأرض ، وكان القيصر يجمع بين السلطة السياسية التى لا يشاركه فيها أحد والسلطة الاقتصادية بوصفه مدعيا لملكية الأرض جميعها ، والسلطة الحربية بوصفه القائد الأعلى فى الحرب ، والسلطة الدينية لأنه يحكم بالحق الإلهى ، ولأنه المتكفل بالدفاع عن حقوق العقيدة الأرثوذكسية ، ويمكننا أن نتبين فى ذلك تأثير نظام الحكم فى الدولة الروسية بالحكم المغولى من ناحية والحكم البيزنطى من ناحية أخرى ، وقد ساعد على ذلك زواج إيفان فى سنة ١٤٧٢ بالأميرة زوى المعروفة فى روسيا باسم صوفيا ، وهى من أسرة باليولوج البيزنطية التى انتهى حكمها سنة ١٤٥٣ حينما سقطت القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين .

وجاء بعد إيفان الثالث ابنه فاسيلى الثالث وحفيده إيفان الرهيب، ويعرف عصرهما فى التاريخ الروسى بعصر المتاعب ، وكانت المشكلة الكبيرة التى تواجهها روسيا هى أن تتخلص من التخلف الذى أحدثه الحكم المغولى ، وتؤكد صلاتها بالحضارة الغربية الأكثر تقدما ورقيا ، وحينما مات فاسيلى الثالث كان ابنه إيفان فى الثالثة من عمره ، وكانت الطبقة المعروفة فى تاريخ روسيا باسم « البويار » ، وهم طبقة أرستقراطية مكونة من ملاك الأرض ناقمة على القيصر فاسيلى الثالث ، ونزاعة إلى المشاركة فى الحكم ، واشتدت المنافسة على السلطة بين أفراد الأسر المكونة منهم هذه الطبقة مما جعل إيفان الرهيب منذ نشأته يضمر لها الكراهة ، وقد توج إيفان قيصرا فى سنة ١٥٤٧ وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وقد اختار زوجة له أنستازيا زاكارين ، وكانت متصلة بأسرة رومانوف ، وقد مهد ذلك السبيل لمجىء هذه إلى عرش روسيا ، وقد سن إيفان قوانين تحد من نفوذ طبقة البويار ، وقد عمل على إيجاد طبقة تدين له بالولاء ليقاوم بها قوة طبقة البويار .

وقد انتهى فرع أسرة روريك فى موسكو فى نهاية حكم تيودور ابن إيفان الرهيب ، وقد توج تيودور سنة ١٥٨٤ وهو فى السابعة بعد العشرين ، ولم يكن له قدرة على مواجهة الموقف الذى خلقه له والده ومعالجة مشكلاته ، وبخاصة صراع طبقة البويار لاسترداد نفوذها ، واستدعى الموقف اختيار خاله تيكنين رومانوف ليكون نائبا عنه فى حمل أمانة الحكم ، ولكنه توفى سنة ١٥٨٦ وحل بوريس جودينوف وهو من الشخصيات الغامضة فى تاريخ روسيا السياسى ، وأصله من أسرة مغولية ، وأدى تقلده السلطة إلى حدوث مؤامرات كثيرة ، وفتن متلاحقة اضطر إلى اللجوء إلى العنف لإخمادها ، وزاد الأمور تعقيدا موت تيودور فى سنة ١٥٩٨ واختير جودينوف بعده لعرش القياصرة ، ولكنه لقى معارضة شديدة من طبقة البويار ، كما حاول الانتقام من أسرة رومانوف أصهار إيفان الرهيب .

وحدثت مجاعة شديدة وقحط عام زلزل أركان حكمه وأدى إلى ظهور ديمترى الزائف الذى ادعى أنه ولد إيفان الرهيب ، وقد تكرر فى تاريخ روسيا ظهور أدعياء العرش المزيفين ، واتفق أن مات جودينوف فجأة فى سنة ١٦٠٥ ، ويسّر موته دخول ديمترى الدعى إلى موسكو ، وتوج قيصرا فى آخر شهر يوليو سنة ١٦٠٥ ولكنه لم يمكث فى الحكم سوى أقل من عام ، وكانت طبقة البويار فى طليعة العاملين على تقويض عرشه وقتله وإحراق جثته .

وأقام فاسيلى شويسكى أحد زعماء البويار نفسه قيصرا ، ولم يستطع شويسكى حسم الفوضى السائدة ، وظهرت مخاباته لطبقة البويار التى جاء منها ، وأسفرت الاضطرابات المتوالية والثورات المتلاحقة عن اختيار ميخائيل رومانوف أحد أفرد أسرة من أشهر الأسرات المنتمية إلى طبقة البويار ، ولكنها اعتزلت الخوض فى الأحداث الدامية التى وقعت فى عهد المتاعب ، ولم يكن فى هذا الاختيار ما يعد خروجا على التقاليد المرعية من كل النواحى للصلة التى كانت تربط أناستازيا زوجة إيفان الرهيب بأسرة رومانوف ، وكان هذا الاختيار سنة ١٦١٣ .

ولم يضع اختيار ميخائيل رومانوف حدا للمتاعب ، فقد كان البولنديون والسويديون لا يزالون محتلين بعض أجزاء ولاية موسكو، وكانت خزينة الدولة خاوية ، وعصابات اللصوص ماتنفك تهاجم المدن ، وفى مثل هذه الظروف

الحرجة والمواقف المتأزمة بدأت أسرة رومانوف حكمها ، ولم تتحسن أحوال صغار المزارعين فى عهد قياصرة هذه الأسرة ، وقد وجه قياصرتها عنايتهم إلى تنظيم الجيش ، واستعانوا فى تنظيمه بضباط من الجنود المرتزقة الأجانب ، وأوجدوا الفرقة المعروفة باسم فرقة سترلتزى ، وهى فرقة مكونة من جنود يباشرون مهنهم العادية فى المدن الشهيرة ويستدعون على عجل للانتظام فى الجيش حينما تقع الحرب ، وكان أفراد هذه الفرقة يتلقون أجرا سنويا لقاء ذلك ، وارتباطهم بالعرش جعل لهم أهمية خاصة فى تاريخ روسيا .

وقد خلف القيصر ميخائيل رومانوف ابنه ألكسيس ، وفى عهده بدأت مؤثرات الحضارة الغربية تتسرب إلى روسيا ، وكان من أوضح أساليب التجديد إنشاء مسرح فى إحدى القرى الروسية ، وكان تمثيل أول مسرحية فى موسكو سنة ١٦٧٢ وكانت مستمدة من الكتاب المقدس ، ولم تظهر النساء على المسرح إلا بعد مرور قرن من الزمن ، وكان موقف ألكسيس من التجديدات الأوروبية الغربية مترددا بين الإقدام والإحجام ، ولذلك حدث رد فعل رجعى بعد وفاته سنة ١٦٧٦ ولم يمنع ذلك بعض أفراد طبقة البويار من الإقبال على الثقافة الغربية ، واقتناء المؤلفات الأدبية المعاصرة فى غرب أوروبا .

ولم تكن الهندسة الإقليديسية معروفة فى روسيا ولا نظريات جاليليو وكيبلر وكوبرنيكس الفلكية ، وكان الأدب كذلك متخلفا ، ولكن برغم ذلك كان هناك شعور يخالج النفوس بشدة الحاجة إلى طلب الاستنارة والاستعانة بعلم الغرب وأدبه وثقافته .

وقد خلف القيصر ألكسيس ابنه تيودور ، وكان ألمسيشس قد تزوج مرتين ، وكانت زوجته الأولى ماريا ميلوسلافسكى ، والزوجة الثانية ناتاليا نارشكين ، فلما مات فى سنة ١٦٧٦ وجاء على العرش الروسى ابنه تيودور – وهو واحد من أطفاله البالغ عددهم ثلاثة عشر – وهو من زوجته ماريا ، أبعد عن مجال النفوذ ابنه بطرس البالغ من العمر أربع سنوات وكان أكبر أولاده من ناتليا نارشكين ، ومات تيودور فى سنة ١٦٨٢ دون أن يترك عقبا ، وكان بطرس فى العاشرة من عمره ، وأهمل حق أخيه لأبيه المدعو إيفان ، وكان مصابا بالصرع ويكاد يكون كفيف البصر ، واعتلى

بطرس العرش ، ولكنه لم يمر على اعتلائه العرش سوى قرابة أسبوعين حتى هاجمت طائفة الجند المعروفة باسم طائفة الإستلتزى قصر الكرملين ، ومثلوا بالكثيرين من أفراد أسرة نارشكين ،وكان بطرس ينظر إلى هذه المجزرة وهو ملتزم الصمت لا يحرك ساكنا ، وكانت عقبى هذا التهجم الدامى إعلان اختيار أخيه إيفان مشاركا له فى العرش وإقامة أخته لأبيه صوفيا وصية على العرش ، ولم يستطع بطرس الانفراد بالسلطة إلا فى سنة ١٦٩٦ وذلك فى أعقاب عزل صوفيا وموت والدة بطرس وأخيه إيفان .

والأحداث التى شاهدها بطرس فى مطالع حداثته وعزة شبابه وما أولى من فطنة حادة وبصيرة نفاذة وعزيمة قوية جعلته يمقت الأحوال الراهنة والفوضى السائدة والجهل الفاشى والتخلف الملحوظ فى شتى النواحى ، فكان أشد القياصرة جرأة وأمضاهم عزيمة فى طلب التغيير ، وقد جعل هدفه أن يخلق روسيا خلقا جديدا ، ويسمو بها إلى مستوى الدول الأوروبية الراقية ، ومن أجل ذلك كان نصيبه من كراهة الشعب له فى أثناء حياته أكثر من نصيب سائر القياصرة، وقد لحقه نصيب من تلك الكراهة بعد موته فلم يعده بعض الروسيين منقذا أو مخلصا بل اعتبروه نكبة على بلاده لأنه أحدث صدعا لم يشعب فى الثقافة الروسية ، وأوجد تفرقة بين الآخذين بموازين الثقافة الغربية من الطبقة العليا وجماهير المزارعين الفقراء المتخلفين .

وقد ولد بطرس فى الكرملين سنة ١٦٧٢ وفى الخامسة من عمره تلقى التعليم المألوف حينذاك لأبناء القياصرة ، وكان يشمل مبادئ القراءة والكتابة والحساب والكتاب المقدس ، وفى سنة ١٦٨٢ أرغم على مبارحة الكرملين مع والدته إلى إحدى القرى الريفية ، وبدأ فى الريف يمارس من الألعاب ما كان ينم على اتجاه تفكيره ، ومنحى ميوله ، وبخاصة فرط ولوعه بالألعاب الحربية مثل الأقواس والأسهم والمدافع والجنود الخشبية ، وتبع ذلك ألعاب أكثر جدية ، إذ كان ينظم رفقاءه كتائب وفرقا ، ويقوم بمناورات حول حصن قائم على نهر يوزا القريب من موسكو ، وكون بعد ذلك لنفسه فرقتين منظمتين ضباطهما من الأجانب ، وأظهر اهتماما مبكرا بالمسائل البحرية ، وقد وجد فى إحدى القرى سفينة شراعية قديمة ،

وقد قال عنها فيما بعد إنها والدة الأسطول الروسى ، واستعان بعد ذلك بالبحارة الهولنديين على إنشاء السفن ، وتلقى فنون الملاحة ، وقد تعلم أشياء كثيرة فى تلك السنوات التى قضاها بعيدا عن جو موسكو الحافل بالدسائس والمؤامرات ، إذ مارس عمل الآجر والتعدين واستعمال حروف الطباعة ، كما تدرب على استعمال الفأس والبلطة ، وصار يتقن التجارة ، وتلقى دروسا فى الرياضيات والهندسة وعلم حركة القذائف وفن التحصين واستعمال الإسطرلاب ، وكان اختلاطه بالأجانب الوافدين إلى روسيا لممارسة مختلف المهن والصناعات أكثر من اختلاطه بمواطنيه الروسيين .

ولم يكتف بطرس بذلك ، واعتزم فى سنة ١٦٩٧ القيام برحلة ليستزيد من الخبرة والمعرفة وصحب حاشية كان عدد رجالها مائتين وخمسين رجلا ، وقد رمى بذلك إلى الوقوف على أحدث الأساليب فى بناء السفن ولقاء المتخصصين فى المسائل البحرية والشؤون الحربية، وحاول أن يكون حلفا لمقاومة الأتراك ، ولكنه أخفق فى ذلك لتقاعد دول الغرب عن المضى فى هذا السبيل .

وكان بطرس يعمل فى أمستردام مع زملائه فى الرصيف الذى ترسوا عليه السفن مع رفقائه ، وفى أوقات فراغه كان يزور المستشفيات والمصانع على اختلاف أنواعها والمدارس ومراكز الأسطول والأسلحة الحربية ، وبعد أن قضى أربعة أشهر فى هولندة ذهب إلى إنجلترا ، وأبحر إليها فى يخت أهداه إليه وليام الثالث ، ودرس فى إنجلترا أحدث أساليب بناء السفن ، وزار كذلك أكسفورد ولندن والبرج ودار حزب النقود والترسانة والأسطول ، وكان يسجل مشاهداته فى يوميات يكتبها .

وبعد قضاء أربعة أشهر فى إنجلترا ارتحل إلى فينا عن طريق هولندة ، ووافته بها رسالة من حاكم موسكو يوصيه بضرورة المبادرة إلى العودة لأن طائفة الإسترلتزى قامت بثورة ، وقد ساء هذه الطائفة نفى رجالها إلى أزوف والحدود الجنوبية الشرقية ، وأغرتهم إشاعة كاذبة بأن بطرس مات فى الخارج بأن يفكروا فى إعادة صوفيا إلى الحكم ، فعاد بطرس فجأة ، ونكل بهم تنكيلا شديدا، وقد تولى بنفسه الإطاحة برؤوس بعض رجال هذه الطائفة ، وفى اليوم التالى لعودته من الغرب قام بنفسه بحلق لحى زعماء طائفة البويار ، وأرغمهم على ارتداء الملابس الألمانية

والنمساوية وفرض غرامة على من يخالف ذلك ، وقد لقيت هذه الحركة معارضة من الروسيين الذين كان الكثيرون منهم يؤثرون دفع الغرامة على فقدان اللحية .

وشرع بعد عودته من الغرب فى إصلاح الحكم المحلى والنظام المالى ، وأعاد تنظيم الضرائب المباشرة والضرائب غير المباشرة ، وعنى بتقوية الأسطول ، وأعاد تنظيم الجيش مستعينا بخبراء أجانب ، وكانت سياسته الخارجية قائمة على إيجاد مخارج بحرية لروسيا .

وكانت السياسة الخارجية الروسية فى أواخر القرن السابع عشر قد أخذت تجاهد للوصول إلى بحر آزوف والبحر الأسود وشواطئ بحر قزوين علاوة على سابق محاولاتها للوصول إلى بحر البلطيق ، وقد استطاع بطرس الظفر بآزوف فى سنة ١٧٠٠ وكانت السويد فى عهد بطرس تعد من الدول القوية فى شمال أوروبا ، وأراد بطرس أن يتحدى نفوذها ، ولكن الجيوش السويدية التى كان يقودها ملك السويد شارل الثانى عشر أوقعت بالروسيين هزيمة ساحقة فى معركة نارفا ، ولكن هذه الهزيمة لم تفل عزيمة بطرس ، وبعثته على أن يقول كلمته المأثورة : « لقد غلبنا السويديون ، ولكننا سنتعلم منهم كيف نهزمهم » وأعاد بطرس تنظيم جيشه وتدريبه وتزويده بالأسلحة المستحدثة ، واستدعى طائفة من الخبراء المتخصصين فى الشؤون الحربية .

وفى سنة ١٧٠٢ أصدر منشورا يدعو فيه الأجانب إلى روسيا، ويعدهم بالمحافظة على حريتهم الدينية ، وأنه سيعاملهم حسب القوانين المتبعة فى بلادهم .

وصادر ما تحصله الكنيسة من ريع الأراضى التابعة لها ليستعين به فى تمويل جيشه ، وأنشأ مدينة بطرسبرج سنة ١٧٠٣ وبنى حصن كرونشتادت لحمايتها من ناحية البحر ، وقد استطاع بطرس أن يهزم شارل الثانى عشر فى بلتافا سنة ١٧٠٩ واضطر شارل الثانى عشر إلى الهرب إلى تركيا ، وكان معنى هذا الانتصار أن مدينة بطرسبرج قد توطدت مكانتها واستقر بنيانها ، وقد أراد بطرس بعد معركة بلتافا بعامين أن يمد حدوده فى الجنوب ، واشتبك فى معركة مع الجيش التركى أسفرت عن هزيمته ، واسترداد الأتراك لمدينة آزوف ، وقد استطاع أن يمد حدوده فى شمال آسيا حتى مدينة كامشاتكا .

ولم يحجم بطرس الأكبر عن اتخاذ الأساليب الكفيلة بتحقيق أهدافه ، غير عابئ بالمعارضة ، ولكى يدفع أمته فى سبيل التقدم لم يتورع عن الاستعانة بالتجسس والمخابرات السرية علاوة على الأخذ بالشدة وإنزال العقوبة الصارمة بالمعارضين والمخالفين ، وأرهق الفلاحين بالضرائب ، وقد اتبع سياسة أسلافه فى النهوض بالصناعة، ولكنه وجه الجانب الأكبر من عنايته إلى صنع الأسلحة والذخائر والمنسوجات التى تصنع منها ملابس الجند وصنع الورق اللازم للحكومات البيروقراطية ، وتقدم فى عهده حفر المناجم وصناعة المعادن ، وجعل أملاك الكنيسة تابعة لمجلس رؤساء الطوائف الدينية ، وكان هذا المجلس فى عهده خاضعا لسيطرة الدولة ، وأنشأ فى موسكو وبطرسبرج عددا من المدارس لتخريج الضباط ، وكان البرنامج مقصورا على الرياضيات والملاحة والهندسة الحربية واستعمال المدافع ، وأوجد أول جريدة روسية ، وشجع ترجمة المؤلفات الأجنبية ، وبخاصة المؤلفات التكنولوجية ، وأرغم النساء على ترك الاحتجاب ، وقد قام بطرس الأكبر بحركته الإصلاحية برغم مقاومة الفلاحين والسادة الأشراف ورجال الكنيسة ومعارضة ابنه الذى اضطر – فى أغلب الروايات – إلى قتله ، ونجح فى جعل روسيا دولة لها أهميتها بين الدول الأوروبية ، ولكنها ظلت مع ذلك تحمل الطابع البيزنطى ، والإصلاحات التى قام بها زادت الدولة قوة، ولكنها لم توفر للشعب الرفاهة ، وقد كان يحب الفلاحين ولكنه لم يصنع لهم شيئا ، بل زاد أعباءهم ثقلا بجيش ضخم ، ووسع الهاوية بينهم وبين الطبقة الحاكمة ، وقد ركن إلى العنف فى حمل الروسيين على اقتباس أساليب الغرب ، ومحاربته للتقاليد القومية ساعدت على خلق طبقة تعطف على هذه التقاليد ، وتعادى الثقافة الغربية ، ومن الملحوظ أن عنايته بالمسائل العملية والمعرفة التجريبية كانت أكثر من عنايته بالاستنارة الثقافية .

وقد مات بطرس الأكبر سنة ١٧٢٥ وقالت عنه إحدى النساء المعاصرات له : « لقد كان رجلا طيبا إلى أقصى حد وشريرا كذلك إلى أقصى حد » .

ولكن الأمر الذى لا افتراء فيه هو أنه كان رجلا عظيما ومن الرجال الأفذاذ النوادر .

جان جاك روسو

جان جاك روسو أحد نوادر الرجال العجيبى الشأن فى تاريخ الإنسانية الذين شغلوا بال معاصريهم فى أثناء حياتهم ، وظلوا يشغلون بال العالم بعد مماتهم ، ومكانته فى التاريخ الحضارى بارزة غير منكورة .

والثورة الفرنسية التى تبعها ميلاد الحضارة الغربية الحديثة قامت فى نفسه قبل وقوعها على مسرح التاريخ ، ويؤكد هذا الكثيرون من دارسى عصره والعارفين بسيرته وأفكاره .

وبرغم ما يغشى بعض أفكاره السياسية من الغموض ، وما ينقصها من التحديد ، فإنه يعد من غير شك فى طليعة من كتبوا فى طبيعة الدولة ، وتناولوا نظم الحكم منذ عهد أفلاطون .

وهو الذى جعل للعواطف قيمة فى استيحاء الأفكار ، وأكد جانبها ، وقد كان لطريقته فى رواية تأملاته ، وتسجيل انطباعاته تأثير قوى فى الحركة الرومانسية فى الأدب والفن ، تلك الحركة التى بدأت فى أواخر القرن الثامن عشر ، وازدهرت بظهور كبار ممثليها من الشعراء والكتاب والمؤرخين فى أوائل القرن التاسع عشر .

وغير غريب فى رجل من طراز روسو أن تختلف فيه الآراء، فيرى بعض الناس أنه قد نفذ ببصره إلى طبيعة الإيمان وجوهر الدين أكثر من حياة العقائد والممسكين بالدين ، ويرى بعضهم الآخر أنه باعث الحركة المناهضة للدين والداعية إلى التفريط فيه والخروج على العقائد ، ويذهب قوم إلى أنه رسول الفوضى التى سلبت العالم العقلى التوازن والانسجام ، وباعث النزعة الفردية المتطرفة ، ويرى آخرون أنه نصير المذاهب الجماعية وتقوية الدولة على حساب الأفراد ، ويمكن أن نستخلص من هذه الآراء المختلفة أن روسو قد أثر فى الدين والسياسة والفن والأدب والتربية ، وخلف فى كل ناحية من هذه النواحى أثراً لا يزول ، وهو من أجل ذلك يعد بحق أحد الأفراد القلائل الذين أثروا فى تاريخ العالم .

وقد بذل كثيرون من الباحثين جهودهم فى البحث عن المراجع التى استمد منها آراءه ونظرياته سواء فى السياسة أو الدين أو التربية ، وفى بعض الأحيان اتهموه فى أصالته ، وقيل : إن آراءه تنقصها الطرافة ، وأنه مدين بالكثير لأفلاطون وهوبز ولوك ومنتسكييه وديدرو ، وحقيقة أن روسو كان أوسع اطلاعا مما يبدو ، وقد نمت على ذلك المذكرات والمدونات الكثيرة التى تركها ، وكانت له قدرة على الاستفادة من آراء الغير واستيعابها ، ولكن طرافته برغم ذلك لا شك فيها ، فقد كان الرجل عميق الوجدان صادق العبقرية ، وكانت جميع العناصر والمواد التى استمدها من غيره تمتزج بنفسه وتطبع بطابعه ويلونها خياله وتبدو عليها سمة شخصية شأن العظماء المحددين سواء فى الشعر أو الفلسفة أو الدين أو الاجتماع ، وقد عظم نصيب روسو من الأصالة حتى كادت مؤلفاته أن تكون صورة واضحة لحياته ، أو ترجمة ذاتية لعواطفه وأفكاره وما دار فى نفسه من الخواطر السامية النبيلة والهواجس القذرة الرديئة ، وذلك كان فى صراحة بالغة وإخلاص ربما كان نادرا .

وقد ولد روسو فى سنة ١٧١٢ وعاش ستا وستين سنة ، فقد توفى فى سنة ١٧٧٨ أى قبل الثورة الفرنسية بإحدى عشرة سنة ، أى أن روسو ولد وعاش فى العالم القديم ، عالم الإقطاع وبقايا العصر الوسيط والسلطة السياسية الملكية والسلطة الدينية وامتيازات النبلاء ، وكانت بوادر انهيار هذا العالم البالى الفاسد بادية للعيان ، ولكنه مع ذلك كان لا يزال قوى الدعائم ثابت البنيان ، حتى تلقى من الثورة الفرنسية الضربة القاضية ، ففى سنة ١٧٨٩ ولد العالم الحديث ، وأصبحت الروح الحديثة شاعرة بنفسها ، وكان لرسو الذى قاسى شدائد العصر القديم وتمرس بأحداثه تأثير واضح فى تقويض أركان النظام القديم وهدم بنيانه ، ولئن كان قد ابتلى بالعيش تحت سيطرة النظام القديم فقد ابتلى النظام القديم كذلك بوجود روسو الذى كان من غير شك فى طليعة العاملين على هدمه والتعفية على آثاره .

وقد حفلت فرنسا فى ذلك الوقت بطائفة من نوابغ الرجال وأفذاذ المفكرين سواء فى عالم الأدب والفلسفة أو فى عالم الاقتصاد والنواحى العلمية ، وكان فى مستطاع الملك لويس الخامس عشر الذى كان جالسا على عرش فرنسا فى هذه الفترة أن يسترشد بهؤلاء الأعلام فى سياسة الدولة وتصريف الأمور ، ويخفف من

أعباء الضرائب التى كانت تثقل كاهل المزارعين الفقراء وذوى الدخل المحدود ، وأن يقلل من الامتيازات الممنوحة للطغاة من النبلاء ، ويقرب الفوارق بين الطبقات ، ولو أنه فعل ذلك لما قامت الثورة الفرنسية ، ولجنب بلاده الهزات العنيفة وإراقة الدماء ، ولكن حملة التيجان فى كثير من الأحيان لا ينظرون إلى أبعد من أنوفهم ويسببون بذلك الويلات لأنفسهم وبلادهم ويكونون نقمة على كل شىء له قيمة فى الحياة .

وكان روسو ابن رجل سويسرى صانع ساعات ، وكان الرجل شديد الشغف بزوجته والدة روسو ، وقد ماتت بعد مولد روسو بأيام قلائل بحمى النفاس ، وبعد مرور سنوات على وفاتها كان أبوه إسحاق روسو يقول له فى بعض الأوقات : « لنتحدث عن والدتك » فيجيبه جان جاك قائلا : « معنى ذلك أننا نبدأ الاسترسال فى البكاء». وكان الطفل وأبوه يقضيان الليل فى قراءة الروايات حتى مطلع الفجر، فيخجل أبوه من نفسه ويقول لولده معتذرا : « إننى طفل أكبر منك » .

وتزوج الأب بعد ذلك امرأة أخرى ، ورأى أن من الخير لابنه أن يترك سويسرة ، ويمكن أن نلمح فى المقارنة بين ما كان يحظى به روسو فى مطلع نشأته من الحرية فى ظل والده وبين الشدة التى لقيها من القسيس لامبرسييه الذى أرسله إليه أبوه ليتلقى عليه التعليم والتثقيف ، يمكن أن نلمح سبب ضيقه بالسلطة التى تفرض فرضا ، ونفوره من الطغيان ، وميله الشديد إلى الحرية والاستقلال .

وقد عهد به والده إلى حفار ليلقنه صناعة الحفر ، وكان الرجل فظا غليظ القلب ، فعنف به وأساء معاملته حتى اضطر روسو إلى الهرب فى السادسة عشرة من عمره ، ووقع فى قبضة رجل من رجال الدين أراد أن يحوله من المذهب البروتستانتى الذى كان يعتنقه هو وآباؤه ، ويدخله فى المذهب الكاثوليكى ، وأرسله إلى إيطاليا وهناك تحول إلى المذهب الكاثوليكى .

وخلال الاثنتى عشرة سنة التالية تقلبت على عينه الدنيا ، ومر بتجارب كثيرة ، ورأى الحياة فى أمكنة مختلفة وأوضاع شتى ، وشاهد أحوال الطبقات الاجتماعية العالية والوضيعة ، والتى تستمتع بالثراء العريض والتى تعانى الفقر المدقع ، وجرب حياة المتشردين المتصعلكين جوابى الآفاق ، وكانوا كثيرين فى القرن الثامن عشر ،

واتصل مرة بأحد الدجالين أسمى نفسه أرشمندريت أورشليم ، وطاف معه ليجمع الأموال لتجديد ضريح بيت المقدس ، ولكن لم تطل صحبته ، فقد ألقى القبض على الدجال المحتال ، وعاد روسو إلى احتراف مهنة تعليم الموسيقى ، وعاش على هذا النمط حتى بلغ الثامنة بعد العشرين ، وقام فى خلال ذلك بجولات على قدميه إلى فرنسا وسويسرة ، وكان فى بعض الأحيان يعمل مدرسا خاصا .

وقد قضى المدة بين سنة ١٧٣٨ وسنة ١٧٣١ أى وهو فى نحو السادسة والعشرين من عمره فى منزل بأعماق الريف فى واد جميل ، وكانت تلك الفترة من أهم الفترات فى تاريخ حياته ، لأنه توفر فى تلك العزلة على القراءة والاطلاع ، وقرأ الكثير من الكتب العلمية والفلسفية والدينية ، وفرغ لتكوين آرائه عن الحياة والكون ، تلك الآراء التى استخلصها من تجاربه الكثيرة ومشاهداته العديدة واطلاعه الواسع المنوع ، وقد تكفل روسو فى اعترافاته بوصف سيرته ، وذكر كل شىء عن نفسه ، ولم يحجم عن ذكر الأعمال القذرة التى ارتكبها ، ولم يتردد فى تسجيل الخواطر الكريهة التى طافت بنفسه ، ولم تكن الأعمال القذرة ولا الخواطر الوضيعة قليلة فى حياته الحافلة بالتجارب .

وقد انتقل إلى باريس وهو يعد نفسه مؤلفا موسيقيا ، والعجيب فى أمره أنه قارب الأربعين دون أن يكتب شيئا ، أو يلمع نجمه فى سماء الشهرة ، ولكنه فى خلال ذلك صمم على أن يعيش على الأسلوب الذى آثره لنفسه ، فلم يستطع الفقر ولا غموض الشأن والعجز فى الحياة العملية أن يفقده استقلاله ، فكان فى مختلف حالاته رجلا عاطفيا شديد الحساسية ، يقول فى وضوح ما يناجيه به قلبه ، وما يخطر بفكره ، فى غير مبالاة بالمدح أو القدح ، وقد جعل هكذا معاصريه ينفرون منه ، ويتحاشون لقاءه ، ومنهم جماعة من عظماء الرجال ذوى العقول الحافلة والآداب الراجحة أمثال ديدرو ودالمبير وفولتير ، وبعضهم صادقه حينا من الزمن ، ولكنهم كانوا يثارون من هذه الصراحة العارمة ويقاطعونه مع اعترافهم بما فى كتابته من فحولة وما فى شخصيته من أصالة وقوة ، قال عنه ديدرو الحكيم والأنسيكلوبيدى العظيم : « إن هذا الرجل مجنون » وقال عنه دالمبير : « جان جاك روسو مجنون جد بارع ولا تتجلى براعته إلا وهو محموم ، ولذلك فإن من الخير أن

نتجنب العمل على شفائه وأن نتحاشى الإساءة إليه » ، وقال عنه جرم : « إنه شيطان بائس يعذب نفسه ، ولا يجترئ على الاعتراف بالسبب الحقيقى لشفائه ، وهو رأسه اللعين وكبرياؤه البغيضة » ، وقد لحظ فيه الفيلسوف الكبير جيوم الذى خالطه حينا من الزمن فرط حساسية تجعله أشد شعورا بالألم منه بالمتعة ، وجملة القول إن روسو كان يبدو لمعاصريه غريب الشأن نفورا لا يمكن أن تعقد معه صداقة أو أن تكون بينه وبينهم صلة مودة وتفاهم ، وقد عدّ فى أواخر حياته مجنونا .

وقد أتم كتابة كتبه كلها فى عشر سنوات ، ومن كتبه الشهيرة كتاب « الويز الجديدة » (١٧٦١ م) وهو الكتاب الذى نبه على مكانته ، وأذاع شهرته ، وكان له تأثير كبير فى تطوير كتابة الرواية، وكان حينما كتبه قد قارب الخمسين من عمره ، ثم كتاباه الهامان وهما « العقد الاجتماعى » الذى صار فيما بعد إنجيل الثائرين الفرنسيين ومرجع الديمقراطيين فى القرن التاسع عشر ، وكتاب « إميل » الذى أوضح فيه آراءه فى التربية والدين .

وكتاب « إميل » ساق إليه الشهرة ، ولكنه فى الوقت ذاته جر عليه المصائب والأهوال ، فالكتاب يدور حول التربية ، ويقدم ما رآه روسو طريقة مثالية لتربية الأطفال ، والفكرة الأساسية هى اعتماده على الحرية والسنن الطبيعية فى تربيتهم ، وعنده أن تعويد الأطفال على تلقى الأوامر والخضوع للنظام يجيء إما بالعبيد الأذلاء ، وإما بالطغاة العتاة ، والأسلوب السليم فى التربية هو منح الطفل الحرية الممكنة ليتعلم من التجارب ، ولينمى كفايته الطبيعية .

وفى الكتاب فصل جميل عن الدين ، فقد كان روسو يؤمن بالله، وقد ذكر الأسباب التى حملته على هذا الإيمان ، ولكنه أضاف إلى ذلك ذكر الأسباب التى جعلته لا يثق بالعقائد ويستريب بسلطة الكنيسة، وكان الخوض فى أمثال هذه المسائل قبل الثورة الفرنسية من الأمور الخطيرة المحرم على الكتّاب تناولها ، فصدر الأمر باعتقاله،فهرب من فرنسا ، وظل ست سنوات وهو مطارد فى أنحاء أوروبا يعانى الفقر والمرض وعداوة الحكومة والكنيسة ، وفى سنة ١٧٧٠ عاد إلى باريس ، وعاش السنوات الثمانى الباقية فى حياته فى فقر مدقع وعزلة موحشة ، وكان يحصل على ما يقيم به أوده من كتابة النوتات الموسيقية .

والبحث الذى استهل به روسو دخوله عالم التأليف كان جوابا للسؤال الذى وضعته أكاديمية ديجون عن تقدم العلوم والفنون وهل ساعد على إفساد الآداب أوعمل على إصلاحها وجعلته موضوع جائزة لمن يكتب أحسن بحث فى ذلك الصدد ، وقد أكد روسو فى تناوله لهذا الموضوع أن العلوم والفنون قد أفسدت الآداب والعادات ، وأنها قد ولدت مع الرذائل الإنسانية ، ونمت معها ، وذكر أن البحوث العلمية غير ملائمة لطبيعة العقل الإنسانى ، وأنها تؤدى إلى نتائج لا ترضى تطلعات القلب البشرى ، وأظهر كيف تؤدى الفنون إلى غرور الإنسان وتعلقه بالترف ، وتسهم فى إفساد المجتمع والهبوط بمستوى الأمم ، وقد أشار بوجه خاص إلى سوء تأثير الكتب الخارجة على الآداب والمعادية للدين ، وأشاد بفضائل العصور البدائية التى ساد فيها الجهل والبساطة ، ورسم صورة مظلمة لأحوال العصور التى ازدهر فيها الأدب وعظم فيها شأن الثقافة .

وقد أصاب الحقيقة فى الكثير مما ذكره فى هذه المقالة ، ولكن يمكن أن نلحظ أن روسو قد نظر إلى موضوعه من ناحية واحدة ، واقتصر على إحصاء العيوب والنقائص ، وأغفل ذكر المحاسن والمزايا كأنها غير موجودة على الإطلاق ، فالعلوم والفنون لها جوانبها البغيضة المكروهة ولها جوانبها المشرقة العظيمة ، ولكن طبيعة روسو الثائر على عصره كانت تفرض عليه الاتجاه الذى سلكه، ومهما يكن من الأمر فإن روسو نال جائزة الأكاديمية وعرف اسمه، ولكن ما نعاه على العلوم والفنون لم يمر بلا نقد ، وربما كان من أشد قوارص النقد التى وجهت إليه قول معاصره وضريبه العظيم فولتير : « لو أن الناس اتبعوا قول هذا الصالح لسرهم أن يمشوا على أربع » .

وعرضت بعد ذلك أكاديمية ديجون مسألة أصول عدم المساواة بين الناس ، وهل يقرها القانون الطبيعى ؟ وكان هذا الموضوع ملائما كل الملائمة لمزاج روسو واتجاه تفكيره، فبادر بالإجابة عنه ، وكتب رسالته المشهورة فى هذا الموضوع ، وقد توسع فى شرح موضوعه الأصيل الذى سبق أن تناوله فى رسالته الأولى ، وحمل على الحضارة بوجه عام باعتبارها سبب شقاء الإنسان وفساده ، وصوّر التاريخ على أنه اتجاه إلى التدهور والانحطاط لا إلى التقدم والارتقاء .

وينكر روسو فى هذه الرسالة أن الإنسان فاسد بطبيعته ، ويؤكد أن الطبيعة الإنسانية فى الأصل خيرة ، وإنما أفسدها المجتمع ، ويعرف قراء كتاب « إميل » أن روسو جعل طيبة الإنسان الطبيعية الزاوية فى بناء نظريته فى التربية ، وكذلك هو فى رسالته عن عدم المساواة يجعل لها الأهمية نفسها ، فحالة الإنسان البدائى فى رأيه أحسن من حالة الإنسان فى أى دور من أدوار الثقافة ، والحالة البدائية فى رأى روسو أكثر ملاءمة لحالة الإنسان ، وهى موافقة لتكوينه ، وكان من الخير له أن يظل محتفظا بها ، وقد أبقى عليها زمنا ، ولكن لم يخل الأمر من طروء بعض التغيير ، وحالة الطبيعة نفسها قد عرض لها تقدم خاص بها ، ولها من أجل ذلك مراحل ودرجات .

وفى رأيه أن الإنسان عاش فى أول أمره فى عزلة لا يعرف الكلام ولا يرتدى الثياب ، وليس له أفكار أخلاقية أو دينية ، تقوده حواسه وغرائزه ومطالب جسده وحدها ، وكان الإنسان فى هذه الحالة الحيوانية بريئا سعيدا سليم البنية ، يستطيع إشباع حاجاته القليلة ، ومن حق المتحضرين أن يأسفوا على زوال هذه الحالة ، فلماذا ترك الإنسان البدائى هذه الحالة السعيدة ؟ لم يوضح لنا روسو سبب ذلك ، وقد حدثنا بأن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو قدرة الإنسان التى لا تحد على استكمال النقص ، ولذلك أعرض عن ذكر الأسباب التى جعلت الإنسان فى رأيه يتدهور من الحالة البدائية إلى الحالة الحضارية .

ثم يرينا بعد ذلك كيف تدرج الإنسان فى تكوين المجتمع لتبادل المنافع ، وقد أدى ذلك إلى ابتكار اللغات لأنها لازمة للمجتمع ، وهى اختراع غاية فى الغرابة ، ولم يحاول روسو تفسيره فقد بدا له غير قابل للتفسير ، ومن مظاهر الاجتماع الإنسانى إنشاء الأكواخ ، وتكوين الصلات العائلية وإيجاد قانون الامتلاك الخاص ، وقد أدى ذلك إلى تنويع الوظائف التى يقوم بها الجنسان ، وبدأت حالة عدم المساواة فى الظهور ، وصاحبها ظهور الحب والغيرة والميول التى تقلق راحة الإنسان وتثير شجونه ، وهذه حالة المستوحشين العامة كما رآها روسو فى عصره ، ولها عيوبها من غير شك ، ولكنها فى مجموعها أسمى من حالة الإنسان فى كل مراحل الحضارة .

وباستعمال المعادن وفتح الأرض وزرعها ظهر توزيع العمل ، وصارت الملكية نظاما ثابتا عاما ، وكانت نتيجة ذلك ظهور الحضارة وفساد النوع الإنسانى .

وعند روسو أن الأرض مشاع بين الناس ، ولا يصح أن يملكها فرد ، وإنما هى ملك للجميع ، وأن كل ما يحصل عليه الإنسان فوق ما يقيم أوده هو ضرب من السرقة الاجتماعية ، ويسهب روسو فى وصف النتائج التى جاءت فى آثار هذا الانتهاب وانقسام الناس إلى فقراء وأغنياء ، وظالمين ومظلومين ، وكيف تبع هذا التفاوت انتشار القسوة والشدة ، وضعف نوازع العطف والرحمة ، وخرس صوت العدالة ، واستلزم عظم الشر وفداحة الخطب ضرورة العلاج ، ولم تتحسن الأحوال لأن الأغنياء الماكرين استطاعوا أن يفيدوا من محاولة استلاب نفوذهم ، وابتكروا مشروعا استطاعوا به أن يجعلوا أعداءهم حماتهم المدافعين عنهم ، وأن يوجدوا قوانين تبدو كأنها قوانين طبيعية ، ونجحوا فى ذلك ، فظهرت الحضارة والقوانين التى استعبدت الفقراء وجعلتهم خدما للأغنياء المياسير ، وقضت بذلك على الحرية الطبيعية ، وجعلت الأكثرية عبيدا تشقى وتعانى الأغلال والقيود لتستمتع القلة الطموحة المستعدية .

وقد استلزم توطيد القانون وتثبيت نظام الامتلاك وجود القضاة والحكام ، وكانت سلطتهم فى بادئ الأمر قائمة على الإنابة والتفويض، ولكنها بطبيعة الحال أصبحت سلطة مطلقة ، ووجد الفساد وعدم المساواة ما ساعد على نموها حتى انتهى الأمر بظهور الفرد الذى يملك السلطة المطلقة ويستعبد الناس جميعا ، وهو نهاية عدم المساواة التى ولّدها الفساد والانحطاط ، والعلوم والفنون والآداب ليست سوى طلاء بماء الذهب للقيود التى صفد بها الإنسان فى هذه العبودية والظلم اللذين أطلق عليهما اسم الحضارة .

وثورة روسو على حياة باريس فى عصره وضيعته بما فيها من تقاليد مصطنعة وآداب متكلفة هى التى أمدته بالقوة فى حملته على مساوئ الحضارة ودعوته إلى العودة إلى الطبيعة .

ولا نزاع فى أن روسو سواء كان موفقا أو غير موفق فى كشفه عن مساوئ الحضارة وتحليله لأسباب شقاء الإنسان كان شديد التوقد إلى الخير المثالى ، عميق العطف على الفقراء والمحرومين ، وأقوى شعورا من كتّاب عصره بجمال الأخلاق وروعة الطبيعة ، ولقد كان لا يلتمس الرحمة للفقراء ، وإنما كان يطالب من أجلهم

بالعدالة الاجتماعية باعتبارها حقا من حقوقهم قد غلب عليه الطغاة المستبدون وحرموهم من مزاياه .

ولا خلاف فى أن الإنسان البدائى لم يكن كما صوره روسو ، فقد كانت تغلب عليه ضرورات الحياة القاسية ، ومن ناحية أخرى كانت تملأ عقله الخرافات والأساطير ، وإذا كان لابد من مجيء العصر الذهبى للإنسانية فهو منوط بالمستقبل ، وقد ضاق روسو ذرعا بحاضر عصره ، وتطلع ببصره إلى العصر الذهبى فى غيابات الماضى بدلا من أن يتطلع إليه من ثنايا المستقبل .

وفى سنة ١٧٦٢ بدأ روسو كتابة كتابه الجليل الشأن عن «العقد الاجتماعى» وكان قد عدل آراءه التى بسطها فى الرسالتين السابقتين بعض التعديل ، ورأى أن العقد الحكومى الذى يرتبط به القضاة والحكام إنما هو عقد حقيقى وعهد بين الشعب ورؤسائه ، والجماعة المدنية ليست شرا كما سبق أن رأى ، على شريطة أن يكون المجتمع قائما على حرية الاختيار وليس غير شرعى مثل ما فى سائر حكومات أوروبا ، وأكد روسو فى هذا الكتاب أن الإنسان « لا يذوق حلاوة الفضائل المدنية إلا فى ظل المجتمع المنظم » وهذا التعديل لآرائه جعله بطبيعة الحال ينقل العصر الذهبى الذى ينتظر الإنسانية من الماضى السحيق إلى المستقبل المرجو ، وهو يستهل الفصل الأول من هذا الكتاب بقوله : « يولد الإنسان حرا ، ولكنه فى كل مكان مقيد بالأغلال فكيف حدث هذا التغيير ؟ لست أدرى ، وماذا يجعله مشروعا ؟ أعتقد أننى أستطيع الإجابة على هذا السؤال » .

والمفهوم الرئيسى فى كتاب العقد الاجتماعى مستمد من فلسفة الفيلسوف الإنجليزى توماس هُبز (١٥٨٩ - ١٦٧٩) فروسو مثل هُبز يرى تنظم المجتمع على أساس العقد أو الميثاق الذى يجعل الإرادة الحاكمة أو السلطة صاحبة السيادة غير موزعة وغير مشروطة ولا محدودة ، والفرق بينهما أن هُبز يضع هذه السلطة فى يد فرد أو إرادة فردية ، أما روسو فإنه يرى أن يعهد بها إلى الإرادة الجماعية ، والمثل الأعلى عند هُبز فى كتابه « التنين الجبار » Le Vrathan هو الملكية المطلقة فى حين أن المثل الأعلى الذى صوره روسو فى كتابه « الحكم الديمقراطى المطلق » وكلا المثلين يشوبه عيب رئيسى وهو إناطة السلطة المطلقة بالإرادة البشرية .

وموجز القول أنه لم يستطع أى كاتب من كتاب القرن الثامن عشر أن يقدم للمعتقدات الآتية ما يدعمها بقدر ما فعل روسو فى دعمها ، ورفع نوائها ، وهذه المعتقدات هى :

أن الطبيعة الإنسانية فى أصلها وصميمها خيرة .

وأن العلوم والفنون والآداب ضارة بالأخلاق .

وأن القوانين فى كل زمان ومكان قد صنعت لظلم الفقراء والضعفاء .

وأن الملكية الخاصة غير عادلة ، وأنها جرّت على الإنسانية الشقاء الذى لا حدّ له .

وأن المساواة أهم كثيرا من الحرية .

وأن أساس مجتمع المستقبل يجب أن يكون عقدا تكون السلطة المطلعة بموجبه فى يد المجتمع ، وأن يضحى فى سبيل ذلك باستقلال الأفراد .

وقد أثر روسو بدفاعه الحار عن هذه المعتقدات فى التفكير السياسى والاجتماعى إلى أقصى الحدود ، ووجد الفقراء والضعفاء المظلومون فى روسو أبلغ مدافع عن حقوقهم المسلوبة ، ويمكن أن نقول كذلك دون أن نوجه اللوم إلى روسو أنهم وجدوا فى دعوته كذلك إغرام بفظائع « حكم الإرهاب » .

وقد كان للجانب الشعرى فى كتاباته وقدرته على وصف المناظر الطبيعية أثر بعيد فى إحياء الأدب الرومانسى ، ولا يخطئ الإنسان فى وصفه للجبال والجداول والمراعى الخضر وسجع القمرى وعندلة العندليب الشعور بالعاطفة العميقة والإحساس القوى بتوثيق الصلة بين الإنسان والطبيعة ، وإدراك أننا جزء منها وأنها كذلك جزء منا ، وكان هذا فى القرن الثامن عشر شيئا جديدا . ولم يخلق روسو الحركة الرومانسية ، ولكنه منحها قوة دافعة ومهد لها السبيل بتشجيعه الناحية الذاتية ، والبناء الضخم الذى شيده روسو لا يخلو من المتناقضات ولا يسلم من العيوب ، وليست قيمته فى أنه كشف فى النظم الاجتماعية وجاء فيها بمستحدث الآراء وإنما قيمته فى أن كل ما مس قلبه وجال فى خاطره صار غضا مزدهرا حافلا بالحياة والقسوة .

وروسو بحق فى طليعة من ساعدوا على إيجاد الثورة الفرنسية فى القرن الثامن

عشر والثورات التى تلتها فى القرن التاسع عشر ، ولا أحسبنى مبالغا إذا قلت : إن تأثير روسو ظاهر فى كل الثورات التى حدثت بعد وفاته ، ومهما كانت عيوب روسو ونقائصه والمآخذ التى أخذت عليه فإن الرجل الذى التمس منه العالم العون والتسلية لا بد أن يكون رجلا موفور العظمة ، ولقد كان روسو فى حياته بائسا شقيا ، ولكن شقاءه وبؤسه لم يحولا دون تبليغ رسالته ، وقد عرفت الناس عيوبه وذنوبه لأنه لم يتردد فى إظهارها وإعلانها فى اعترافاته بغير استحياء .

وقد تحدى مفكرى عصره ، وهم عصبة قوية وهو وحيد بغير نصير ، وقد آثر الاضطهاد والاستهداف للأخطار على المعيشة الوادعة المطمئنة واختار الوحدة والمخالفة وفضلها على الموادعة والمحالفة ، وهو من غير شك أحد الأبطال الخالدين فى حياة الإنسانية الفكرية والعاطفية .

فولتير المؤرخ

استهل الكاتب البريطانى المؤرخ النقادة توماس كارلايل مقاله اللامع الشائق عن الكاتب الفرنسى الشهير فولتير بقوله : « لو قدر للطموح أن يختار طريقه ، وللإرادة فى المحاولات الإنسانية أن ترادف الموهبة ، لكان كل الرجال الطامحين حقا من رجال الأدب » .

وفى موضع آخر من المقال نفسه يقول : « إذا استثنينا الراهب لوثر صاحب البروتستانتية فإنه ليس هناك أحد من رجال الفكر فى العصور الحديثة قد صار تأثيره وشهرته أوربيين خالصين مثل فولتير» .

والواقع أن فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) قد بلغ فى عصره من الشهرة الواسعة ، والمكانة المرموقة العالية ما لم يبلغه كاتب قبله أو بعده ، حتى أصبح علما على عصره ، ورمزا له ، وليس فى مستطاع إنسان أن يتصور القرن الثامن عشر بدون فولتير وتأثير فولتير .

وقد كتب عن فولتير من زوايا عدة ، وتناقضت الأحكام فى تقدير أدبه ومنزلته بين كبار المفكرين ، ولم يكن هناك مناص من ذلك ، فقد كان الرجل متعدد الجوانب ، وتناول فى حياته موضوعات شتى ، وكان هو نفسه يكاد يكون خلاصة حياة عصره ، وسأقصر الحديث على ناحية واحدة من نواحى فولتير ، وهى فولتير المؤرخ .

وربما لم تكن هذه الناحية أهم نواحيه ، ولكنها مع ذلك فى طليعة نواحيه الهامة الجديرة بالدرس والتقدير ، وقد كان فولتير بطبيعة ملكاته مؤهلا لأن يكون مؤرخا ممتازا ، فقد كان كاتبا من أقدر الكتاب الذين عرفتهم الدنيا ، وسيدا من حملة الأقلام الذين دانت لهم البلاغة ، وملكوا زمام اللغة ، وكان مفكرا من الطراز الأول قوى العارضة ، متوقد القريحة ، واسع الاطلاع ، غزير المعرفة ، قادرا على جمع المعلومات فى شتى الموضوعات واستقصائها وتلخيصها وتبسيطها وعرضها فى أسلوب سائغ وضوء لامع .

وفضلا عن ذلك كله فإنه عالج فى عصره الشؤون العلمية ، وخالط الناس من مختلف الأوساط ، وعرف الدنيا ، وكان ملوك عصره يستشيرونه فى مشكلاتهم ، ويخطبون وده ويقدرونه ، وهذه العوامل مجتمعة تجعله يبث فى كل موضوع يتناوله حياة ويزيده وضوحا .

وقد وصفه بعض النقاد المؤرخين بقوله : « إنه بحياته مبسطا ومروجا لا نظير له فى العالم » وقد أخذ عليه أنه لم يكن يعنى فى هوامش كتبه التاريخية بذكر المراجع والشواهد ، ولا يؤيدها بالوثائق التى تبين كيف وصل إلى النتائج التى استخلصها ، ولكن فولتير لم يكن الرجل الذى يصلح لمعالجة التاريخ على هذا النمط ، وقوة أسلوبه ووضوح رؤيته ورهافة حسه تجعله فذا فى طريقته ، وتمنحه ميزة أن يقاس بالمقياس الخاص به .

وأول مغامرة لفولتير فى كتابة التاريخ هى الكتاب الذى ألفه فى سنة ١٧٣١ عن شارل الثانى عشر ملك السويد ، وأمضى بعد تأليف هذا الكتاب عشرين سنة وهو مقبل على نظم الشعر والاشتغال بالفلسفة الطبيعية ، ولكنه مع ذلك كان خلال هذه الفترة معنيا بالتاريخ كما يستبين ذلك من خلال « رسائله عن الإنجليز » وبعض الدراسات التاريخية الأخرى التى عرض لها فى أثناء هذه الفترة ، وكانت جميعها بمثابة بذر البذور التى اجتنى ثمرتها فيما بعد .

وفى سنة ١٧٤٤ عين فولتير مؤرخا للملك ، ومن ذلك الحين بدأ يجمع أشتات أفكاره عن التاريخ ليضعها تحت نظر الجمهور ، وفى سنة ١٧٥١ أخذت تتوالى مؤلفاته التاريخية التى أبعدت شهرته . ووطدت مكانته ، وجعلته فى رأى معاصريه أعظم المؤرخين الأحياء، ففى سنة ١٧٥١ ظهر كتابه عن عهد لويس الرابع عشر ، وفى سنة ١٧٥٣ تبعه كتاب حوليات الإمبراطورية منذ عهد شارلمان، وفى سنة ١٧٥٦ ظهر كتابه « مقال عن الأدب وروح الأمم » ، وفى سنة ١٧٥٩ ظهر كتابه « تاريخ الإمبراطورية الروسية فى عهد بطرس الأكبر » ، وظهر فى سنة ١٧٦٩ كتابه عن عهد لويس الرابع عشر وكتاب « تاريخ برلمان باريس » .

ويرى نقاد فولتير أن الكتب الثلاثة التى تقوم عليها شهرة فولتير بوصفه مؤرخا هى كتابه عن عصر لويس الرابع عشر ومقاله عن الأدب وتاريخ شارل الثانى عشر ،

وهذه الكتب الثلاثة فى رأيهم أسمى منزلة من سائر كتاباته التاريخية وأكثرها دلالة على مذهبه فى النظر إلى التاريخ وطريقته فى تسجيل حوادثه وسرد أخباره ، ولكن لا مفر من الرجوع إلى مختلف مؤلفاته التاريخية إذا أردنا أن نكون فكرة عامة عن تصوره للتاريخ .

والذين يؤرخون لفولتير يشيرون بوجه خاص إلى علاقته بالسياسى الفيلسوف الإنجليزى بولنجبروك (١٦٧٨- ١٧٥١م) ويقولون إن تلك الكلمة الجامعة التى أرسلها بولنجبروك وهى قوله : « إن التاريخ فلسفة تعلمنا عن طريق تقديم الأمثلة » كان لها صدى قوى فى نفس تلميذه اللامع فولتير ، ويبدو فى أول الأمر أن هناك تشابها فى نظر الرجلين إلى التاريخ ، فكلاهما كان يزدرى مجرد جمع المعلومات القديمة بغير تحقيق ولا تنسيق ، وكلاهما كان يرى أن المعرفة التاريخية ليست غاية فى نفسها ، وإنما هى وسيله لغاية ، وكلاهما كان يرى أن التاريخ - إذا فهم على الوجه الصحيح - مدرسة لتدريب الرجال على الفضيلة والقومية ، على أن فولتير كان أميل إلى تأكيد الناحية الأدبية فى التاريخ ، وعنده أن مؤلفى المآسى أقدر من غيرهم على جعل التاريخ شائقا ، ولكنه كان مثل بولنجبروك يهدف أول ما يهدف إلى إنقاذ كتابة التاريخ من أيدى جامعى الآثار والعاديات الذين يكتبون التاريخ بطريقة جافة مملة ، وإلى جعل التاريخ دراسة ثقافية مجدية .

والمعلومات التى يوافينا بها التاريخ المكتوب على هذا النمط تكون منوعة وشاملة ، ويمكن أن نستخلص من الحقائق التى يقدمها لنا المؤرخون أسسا نقيم عليها التعميمات والفروض التى نستطيع أن نسترشد بها فى معالجة مشكلات عصرنا ، أو توحى إلينا موازنات بين أحوال عصرنا وأحوال العصور السالفة تعود علينا بالنفع وتحفزنا إلى إصلاح الفاسد وتقويم المعوج ، وقد تعرض علينا هذه الحقائق الجرائم والأخطاء والحماقات التى تورط فيها الأسلاف ، وهى تشمل الجزء الأكبر من التاريخ ، فيكون ذلك مدعاة إلى الوقوع فى هذه الأخطاء وعدم تكرار هذه الجرائم والحماقات ، ويتبع ذلك كله المشاركة الواعية فى الحياة السياسية والاجتماعية .

ودروس التاريخ لا تنفع المواطن فحسب ، وإنما تنفع كذلك من بيدهم زمام الأمور ، وعند فولتير أن دروس التاريخ هى خير ناصح إذا كان التاريخ قد كتب

بنزاهة وإخلاص ، فكل إنسان فى التاريخ مهما علا قدره قد لقى جزاءه ، والشر الذى فعله الناس قد عاش بعدهم ، وأما الخير فإنه لم يدفن فى قبورهم ، والمؤرخ وهو فى منصة حكمه العالية يستطيع أن يحكم بقلمه على الأشرار باللعنة الدائمة ويجللهم بالعار الذى لا يزول ، ويرفع شأن الأخيار ، ويخلع عليهم الشرف الخالد ، وهو يقول فى مقدمة كتابه عن شارل الثانى عشر : « كل صاحب سلطان يقرأ حياة هذا الملك عليه أن يشفى من حماقة حب الغزو والفتح ، وإذا وجد أمير أو وزير حقائق غير مقبولة فى هذا الكتاب فعليه أن يذكر أنه بوصفه رجلا له مكانته وتأثيره فى الحياة العامة فإن عليه أن يقدم حسابا عن أعماله للرأى العام .. وإن التاريخ شاهد عليه غير متملق ولا مداح ، وإن السبيل الوحيد لإرغام الناس على أن يقولوا فيه خيرا هو أن يحسن الصنيع ويفعل الخير » .

ويمكن أن نلمح خلال هذا الرأى أثر الفكرة التى غلبت على مفكرى القرن الثامن عشر ، وهى أن العقل المستنير هو ملاك الأمر فى إبراء الإنسانية من أسقامها ، والسبيل الوحيد لحملها على تجنب الشر وفعل الخير ، وكانت حجة مفكرى ذلك القرن أن الناس هم الناس فى كل زمان ومكان ، فإذا أتحنا الفرصة للعقل وواجهناه بصورة واضحة صادقة لأحداث التاريخ أمكنه أن يستوعب المبادئ التى استخلصها من هذه الصورة ، ومن ثم يميل إلى إقامة نظم أقرب إلى المعقول وأدنى من الكمال ، ومن ناحية أخرى إذا أهملنا دروس التاريخ ، وأعرضنا عنه فإن الإنسانية تصبح معرضة لتكرار حوادث الاضطهاد ومآسى الظلم والطغيان التى طالما أغرقت العالم فى طوفان من الدماء خلال العصور المنصرمة .

وقد أوضح فولتير فى الملحوظات التى مهد بها لمقاله فى الآداب وروح الأمم كيف وجد نفسه مضطرا إلى الخروج على الطريقة التى كان يكتب بها التاريخ فى عهده ، فقد أعلنت صديقته المركيزة دى شاتليه (١٧٠٦ – ١٧٤٩) – وكانت من أرقى نساء عصرها ثقافة واستنارة – ضيقها بكتب التاريخ المكتوبة بالأسلوب الممل الذى كان معهودا حينذاك . فقد كان المؤرخون لا يحسنون فهم الأحوال السائدة فى العصور التى يصفونها ، وكانوا يكتبون عن الزعماء الهمج الجفاة كأنهم نظراء ليوليوس قيصر ، وكانوا لا يميزون بين الحقائق والخرافات ، ويكثرون من التفصيلات المملة والحوادث

التافهة ، ولا يعنون بالمسائل الهامة التى أثرت فى تاريخ الإنسانية مثل تطور القوانين والحكومات والنظم والعادات والأخلاق والمعتقدات والأفكار .

وكل هذا جعل التاريخ فى نظر المركيزة يهبط إلى المستوى الوضيع ، ويصبح ضربا من ضروب الحوليات المسيخة الخالية من الروح والتى لا يحفل بالاطلاع عليها القارئ الجاد .

وقد ثار فولتير على هذه الطريقة فى كتابة التاريخ ، وكان لتشجيع صديقته المركيزة فضل فى حثه على هذا الاتجاه .

وصار فولتير يعتقد أن التاريخ فى جوهره ليس أكثر ولا أقل من تدوين الأفكار ، وإن الحوادث التى شغل المؤرخون قبله بها أنفسهم مثل الحروب والنزاع الحربى والاضطهادات والمجالس الكنسية والثورات والسياسة والدبلوماسية ليست سوى التعبير الخارجى والمظهر البادى للأفكار السائدة فى عصر من العصور .

ومن أقواله فى ذلك : « إن الأفكار قد غيرت العالم ، وكل ما عداها مدد لها ومعين ، ومن ثم علينا أن ندرس نشوء الأفكار » .

وقوله : « القاعدة الرئيسية التى أتبعها هى أن أعرف جهد استطاعتى عادات الأقوام وأدرس الفعل الإنسانى ، وسأعتبر نظام تعاقب الملوك وتوالى الأعوام دليلى ، ولكنه ليس الغرض الذى أرمى إليه فى كتابى » .

وقد يميل بنا ذلك إلى عقد موازنة بين طريقة فولتير وعنايته بالقيم الفكرية وبين النظرية المادية فى تفسير التاريخ التى روجها كارل ماركس فى القرن التاسع عشر ، ولا نزاع فى أن النتائج التى انتهى إليها المفكران الكبيران مختلفة ، ولكنهما يلتقيان فى ناحية واحدة ، وهى أن كلا منهما بدأ من وجهة نظر جديدة .

عند ماركس أن القوة الدافعة التى تشكل سير التاريخ هى القوة الاقتصادية ، وعلاقة الناس بعضهم ببعض باعتبارهم عاملين فى الإنتاج هى التى تحتم البناء الأخلاقى والسياسى والثقافى لأى عصر من العصور .

أما فولتير فعنده أن القوة المسيطرة فى التاريخ هى القوة العقلية ، وأن الأحوال السائدة فى أى وقت من الأوقات هى نتيجة للأفكار التى تؤثر تأثيرها بطريق الأفراد والطبقات والنظم التى هى فى دورها تعبيرات عن الأفكار .

وعند ماركس أن لب لباب التطور التاريخى هو صراع الطبقات المسيطرة ، وهو صراع يجور فيه الذين يملكون على الذين لا يملكون ، وهم أنفسهم يتعرضون للمصير نفسه خلال سير التاريخ .

أما فولتير فيرى التاريخ معركة يحاول فيها الرجال أن يفرضوا أفكارهم وأوهامهم على غيرهم من الناس ليسلطوا عليهم سلطانهم ، وهم كذلك سيتعرضون فى المستقبل لمثل هذا المصير ، ومن كلماته فى هذا الصدد « بناء على هذا التصور نرى فى التاريخ الأخطاء والأحكام المبتسرة يتلو بعضها بعضا على التعاقب ، ونرى البارعين والمحظوظين يستعبدون الحمقى والعاثرى الحظ ، والمحظوظون لعبة فى يد الحظ مثل الطبقات التى حكموها » .

وإذا نظرنا إلى هذين المذهبين فى تفسير التاريخ من ناحية ارتباط السبب بالمسبب نجد أن الفرق بينهما ليس كبيرا ، فتصور ماركس تفسير من الناحية الاقتصادية للفكرة التى تناولها فولتير من الناحية النظرية البحتة ، وبطبيعة الحال لم يكن مستعدا للنظر إلى الموضوع من الناحية الاقتصادية ، فإن الثورة الصناعية التى جاءت بعد عهده هى التى تكفلت بتوجيه الأنظار إلى هذه الناحية وتأكيدها ، ولذلك تصور فولتير التاريخ على أنه صراع بين الأفكار وتطور تقدمى للعقل البشرى .

والصورة التى تصورها فولتير لاتجاه التاريخ الأوربى منذ ظهور المسيحية هى -

أولا : وقبل كل شيء قضاء المسيحية على أديان العالم القديم وتقويضها لأركان السلام الذى استمتعت به الإنسانية فى ظل التسامح الرومانى .

ثم نشوء دولة العصر الوسيط وبابوية العصر الوسيط ، وقد استمر الصراع بينهما مدة ألف سنة ، وأغرق أوروبا فى بحار من الدماء .

وبينما كانت هاتان القوتان تتصارعان من أجل السيادة ظهر الإسلام ، وأقصى المسيحية عن الشرق وإفريقية ، وبذلك أصبح خطرا يهدد المسيحية ، ولم يكن هناك وسيلة لاتقاء هذا الخطر سوى الحرب ، ومن ثم نشبت الحروب الصليبية ، وعاد إغراق العالم فى طوفان الدماء .

ولما دب الفساد فى كنيسة العصر الوسيط صدع الإصلاح الدينى وحدة المسيحية وانشقت بلاد كثيرة على الكنيسة الرومانية ، وظهرت الشيع والطوائف ،

وتضجر الناس من الجدل الممل والنزاع المقيت الذى ثار بينهما حتى استنفذ العالم ظهور الدول ذوات السيادة، وإشراف شمس العقل ، ويوجز فولتير قائلا : « إنها قوة الرأى ، صحيحا أو زائفا ، أرضيا أو سماويا ، هى التى ملأت الأرض بالدم المراق فى خلال قرون عدة » .

ويضاف إلى هذا الاتجاه فى التاريخ العقلى عند فولتير إيثاره للتاريخ الاجتماعى ، وترجيح جانبه على جانب التاريخ السياسى ، وقد حمل على المؤرخين الذين سبقوه ، لا لأنهم لم يفطنوا إلى المعنى المستمر فى الحوادث فحسب ، بل لأنهم كذلك كانوا مثل الطغاة الماثلين فى صفحات كتبهم ، يضحون بالجنس البشرى من أجل إعلاء شأن فرد بعينه ، وهذه العبودية الذليلة والتملق الرخيص وعدم التورع عن تلفيق الأكاذيب وتشويه الحوادث ، جعلتهم لا يجسرون على أن ينظروا فى غير خوف إلى الملوك والقساوسة ؟ ، ويعنون بالأعمال التافهة التى قام بها هؤلاء الذين خلعت عليهم الدنيا لقب العظماء بغير جدارة ولا استحقاق ، ولا يمكن أن يكتب تاريخ جدير باسم التاريخ على هذا النمط ، والتاريخ الحق هو تاريخ الإنسانية ، أى تاريخ تقدم المجتمع ، وبطبيعة الحال لا بد أن تذكر أعمال الملوك ، ولكن المكان الأول يحفظ للعظماء حقا ، وهم هؤلاء الذين أدوا خدمات لبنى الإنسان ، وأحسنوا إلى إخوانهم البشر .

ومن أقوال فولتير فى هذا الصدد : « ما يجمل بى معرفته هو نوع المجتمع الذى كان موجودا حينذاك ، وكيف كان يعيش الناس فى أحضان أسرهم ، وما هى الفنون التى كانوا يمارسونها » . ويقول فى موضع آخر : « وكما أنه من اللازم معرفة أعمال الملوك الذين غيروا وجه الأرض وبخاصة هؤلاء الذين عملوا على تحسين أحوال أممهم ، فكذلك علينا أن نتجاهل هذه الطائفة من الملوك الجفاة الذين تثقل أسماؤهم الذاكرة » .

ومقياس التقدم عند فولتير ، والغاية التى وجدت من أجلها الحكومة هى إسعاد الأمم والدول ، ويشمل هذا استقرار السلم وتوفير الأمن والقوانين الصالحة ، والمالية الثابتة الدعائم ، وإشاعة الرخاء والعيش الراغد فى البلاد ، وفوق كل شىء ولنجعل كل شىء العناية بالفنون والعلوم والتربية والاستنارة وتهذيب الأخلاق ، وهو

يشيد إشادة شعرية بما قدمته العبقرية الإنسانية وجلال الفن الذى لا ينال منه القدم ، ويقول : « إن سدا للمياه فى قناة تضم بحرين ، وصورة من عمل الرسام بوسان ومأساة جيدة وكشف حقيقة أشياء أغلى قيمة آلاف المرات من سرد أخبار الغزوات والغارات » .

ويسر فولتير ويشعر بالارتياح حينما يتناول عصور التاريخ التى استمتع الجنس البشرى فيها بثمرات عبقريته الطليقة ، مثل عهد أغسطس فى روما ، وعهد الدتشى فى إيطاليا ، وحكم لويس الرابع عشر ، ويمقت العصور التى سادت فيها الهمجية والجهل والخرافات والتعصب .

ولكن المؤرخ إذا حاول أن يجعل سرده للحوادث متلاحم الأجزاء متصل الحلقات فلابد له من الاعتماد على نظرية تربط الأسباب بالمسببات ، وتنظم المعلومات التى يجمعها ، وفولتير برغم لمعان تفكيره لم يعن بهذه الناحية ، ولم يعطها حقها من التقدير ، ولذلك كان ينقص مؤلفاته التاريخية العمق والتماسك ، وكتاباته التاريخية غنية بالإيحاءات والتفسيرات والتعميمات ، وهو من غير شك يلقى ضوءا على الموضوعات التى يتناولها ، ولكن قراءه عبثا يحاولون البحث عن تصور لسببية يسترشدون به فى تيه المعلومات التى يوافيهم بها ، وتمكنهم من استخلاص معنى الحوادث فى مجموعها الشامل ، وقد لحظ الناقد الفرنسى المعروف إميل فاجيه أن مقالة فولتير عن الآداب ينقصها التخطيط وتوضيح الاتجاه ، وأن الفوضى شائعة فى نواحيها ، فهى ليست سوى مجموعة من عادات الشعوب وطبائعها وسجل للحوادث السياسية وطائفة من النوادر والطرائف ، ونحن عندما ننتهى من قراءتها لا نشعر بوجود فكرة عامة تنظمها وتجمع شواردها ، وهى بوصفها تاريخا لأوروبا من عهد شارلمان إلى عهد الأحياء جيدة وصالحة ، ولكنها باعتبارها ممثلة لأفكار فولتير عن التاريخ قليلة الحظ من النجاح .

على أن نقاد فولتير يرون أنه يمكن القارئ أن يكوّن من مختلف كتابات فولتير التاريخية فكرة عامة عما يقترب من أن يكون رأيه فى فلسفة التاريخ ونظرية النسبية ، وقد كان فولتير من القائلين بالمذهب الطبيعى الإلهى أو مذهب التأليه مع إنكار الوحى ، أى أن الوجود فى نظره كان آلة تديرها قوانين لا تنثنى ولا تلين ،

والكائنات جميعها خاضعة لهذه القوانين التى لا تتغير ، ولذلك ينكر وجود العناية الإلهية فى تفسيره التاريخ ، ولا يؤمن بالمعجزات ، وهو يقول عن نفسه : « لست ملحدا ، ولست كذلك ممن يعتقدون بالخرافات ، وإنى أؤمن بالله ، ولكن الإله الذى أؤمن به ليس هو إله المتصوفين ، أو إله علماء اللاهوت ، وإنما هو إله الطبيعة ، والمهندس العظيم والمحرك الأول الدائم الذى لا يتغير » .

ولكن هذا الإله الفولتيرى خارج الآلة الضخمة ، وهو يرقبها مراقبة سلبية ، ومن السخف ، فى رأى فولتير ، أن تعزو إليه ما يحدث فى هذا الكوكب الهين الشأن ، فهو صانع الآلة ومحركها ، ولكن الآلة نفسها تسير تبعا لقوانين ثابتة ، ولا شىء يستطيع أن يعترض تلك القوانين أو يحولها عن مجراها .

ووجود الشر فى الكون من بواعث الأسف ، وفولتير لا يقلل ولا يستهين بنصيب الإنسان من الشقاء المادى والمعنوى ، سواء أكان هو يجره على نفسه أم كان منشأ الشر أسباب لا قبل له بدفعها ، ومن كلماته : « إن الكرة الأرضية التى نعيش بها مسرح مجزرة وهدم وتخريب مترامى الأنحاء ، ومعظم التاريخ البشرى هو تاريخ النمور والقردة » . وعند فولتير أن علينا أن نقبل هذا الوضع كما نقبل وجود الزلازل والبراكين والصواعق والزوابع ، أى باعتبارها جزءا من عمل الآلة ، وليست هناك آلة مسلمة من العيوب بريئة من الأخطاء ، وفولتير بهذه الطريقة يجنب الله تبعة الكوارث التى تحدث بهذا الكون الخاضع للقوانين التى لا تتغير .

ولكن إذا كان الكون خاضعا لقوانين ثابتة فإن تاريخ الإنسانية يلزم أن يتضمن وجود العلاقة بين السبب والمسبب ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك ما دام كل إنسان يعمل بموجب القوانين المسيطرة على الكون ، وفولتير لا يخالجه شك من هذه الناحية ، وكل حادثة فى نظره من إلقاء حجر أو سقوط عصفور إلى تداعى الإمبراطوريات وتدهورها هى نتيجة للنظام الكونى ، والإنسان كسائر الأشياء خاضع لقانون السببية ويبدو لنا أن هذا كله يؤكد أن فولتير كان من القائلين بالجبر فى التاريخ ، ولكن الأمر على خلاف ذلك ، فإنه كان حينما يطبق هذا على الحوادث والوقائع يعدّله ، فهو يسمح بالمصادفة بأن تلعب دورها ، وأن يأخذ الحظ مجاله فى الشؤون الإنسانية ، ويقول عنه النقاد : إنه كان يروقه الوقوف على الأحداث التافهة التى

تمخضت عن نتائج غاية فى الخطورة ، ومن أمثلة ذلك الحادثة التى رواها فى كتابه فى عهد لويس الرابع عشر ، وهى الشجار الذى وقع بين دوقة ملبورو والسيدة ماشام فى مخدع الملكة آن بإنجلترا ، وكان المؤرخ بولنجبروك هو منشئ القصة ، ومضمونها أن الدوقة قلبت زجاجة ماء على ثوب منافستها السيدة ماشام فى حضرة الملكة آن ، فغضبت الملكة عليها ، وكانت نتيجة ذلك سقوط وزارة حزب الأحرار ومجىء المحافظين إلى الحكم ، وغير هذا التغيير مجـــرى الحوادث ، وأدى إلى عقد معاهدة أترخت والصلح مع فرنسا ، أى أن زجاجة ماء كانت السبب فى عقد معاهدة أترخت !

ولكن من الإسراف فى المبالغة القول بأن فولتير كان يرى التاريخ سلسلة من أمثال هذه الحوادث الطارئة ، كما إنه من الإسراف الاعتقاد بأنه كان جبريا فى نظره للتاريخ ، وموقفه على ما يبدو هو أن المصادفة ولو أنها تلعب دورا ظاهرا فى أحوال البشر وتاريخ الإنسانية ، إلا أننا إذا أطلنا النظر فى المصادفات اتضح لنا أنها ليست سوى العلاقة المحتومة بين الحوادث التى تقع فى هذا الكون ومعرفتنا التى يعتورها النقصان وعدم استطاعتنا الوصول إلى الأسباب النهائية للأشياء هى التى تجعلنا نعزو بعض أحداث التاريخ إلى المصادفة .

وبرغم اعتقاده بالجبر فإنه كان مع ذلك غير مستعد ليؤكد أن كل حادثة فى التاريخ متصلة اتصالا لا انفصام له بسلسلة الحوادث السابقة ، ففضلا عن قذفات المصادفات فإن هناك بعض الأحداث التى لا تترك أثرًا فى سير التاريخ كفروع الشجرة التى قد تزول دون أن تترك أثرا فى سير نموها ، وكثير من الحوادث ليس لها أنساب ولا صلات ، وهو يقول فى هذا الصدد : « لو لم تعمل العملية القيصرية لوالدة يوليوس قيصر لما استطاع قيصر أن يقضى على الجمهورية ، ولو أن مكسمليان البافارى لم يتزوج وارثة برجانديا والأراضى المنخفضة لجنب ذلك أوربا مائتى سنة من الحروب ، ولكن سواء أكان قيصر قد بصق شمالا أو يمينا ، وسواء كانت وارثة عرش برجانديا تصفف شعرها على هذا النمط أو ذاك ، فإن هذه أشياء ليس لها أى تأثير فى المجموع الكلى العظيم الذى نسميه التاريخ » .

أى أن فولتير يفرق بين الحوادث التى لها أثر فى التاريخ والحوادث التى لم

تخلف أثرا ، وهو فى كتابته للتاريخ لا يذكر لنا شيئا عن العادات الشخصية والسمات الأخلاقية للأشخاص البارزين الذين يتحدث عنهم إلا إذا كان لها تأثير فى العالم الخارجى ، وهذه الطريقة بطبيعة الحال يتبعها أكثر المؤرخين ، فإن أول واجبات المؤرخ التمييز بين الحوادث الهامة التى لها دلالتها ، والحوادث التافهة الخالية من الأهمية ، ولكن فى القرن الثامن كان لابد من العناية بهذه المسألة إذا لم يكن التاريخ قد تخلص بعد كل التخلص من طريقة كتابة الحوليات ، وعيبها الأصيل هو حشد المعلومات التافهة والحوادث الخالية من الأهمية إلى جانب الأحداث الهامة ، وكان كاتب الحوليات يذكر الأوبئة والطواعين وأخبار الخسوف والخوارق والفظائع لا لأن لها أهمية تاريخية ، وإنما لمجرد أنها حدثت أو قال بعض الناس إنها حدثت ومن ثم يمكن أن يقال إن فولتير عمل على رفع مستوى الكتابة التاريخية بتوجيه الأفكار إلى هذه الناحية ، وبهذا اقترب من التحليل العلمى للحوادث .

وفولتير لا ينفى وجود الحرية فى عالم الأعمال الإنسانية ، ولكنه يؤكد أنه لا توجد إرادة من غير سبب ، وأن الإرادة تخضها طبيعة الأشياء ، والإرادة ولو أنها ليست حرة إلا أن الإنسان حر ما دام يستطيع أن يعمل طبقا لما يريده ، والرجل الذى تقوم الحوائل دون ما يريد ويمنع عنه هو الذى ليس له حرية ، وهذا التفريق على وضوحه هام فى فلسفة فولتير التاريخية ، وعليه يتوقف تصوره للقوة الدافعة فى التاريخ ، فالإنسان فى رأيه هو الذى صنع ما نراه فى الدنيا وليست العناية الإلهية ، والتاريخ حركة أرضية خالصة ، ونتيجة لأهواء الأفراد والجماعات التى تعمل بوعى وبغير وعى فى سلسلة من الحركات أحيانا شديدة عنيفة ، وأحيانا أخرى هادئة لينة ، ولكنها مصحوبة على الدوام باضطراب وهدم .

وأشد الأهواء هو حب النفس ، وهو أساس المحافظة عليها ، وهذه الصفة الضرورية والنافعة إلى حد ما تنقلب إلى الأنانية والبحث عن المصلحة الذاتية ، وتصبح مبدأ للعمل وموقفا تجاه الحياة ، وتتجلى أخيرا فى التعاظم والكبرياء والطموح وحب الشهرة وشهوة السيطرة والرغبة فى التسلط على الغير ، وهى بطبيعتها غير متسامحة . وتحاول بلوغ غايتها بالعنف أو الخديعة ، وفى الحالة الأولى تسوق إلى الحرب والقتل ، وفى الحالة الثانية تتنكر فى زى الدبلوماسية ،

ولكن مهما تكن الصورة التى تبدو فيها فإنها فى الواقع أعظم قوة هدامة فى العالم ، ولو أطلق عليها العنان لأدت إلى تخريب المجتمع .

ولكن من حسن حظ الإنسان أنه ليس مجردا من الوسائل التى تكبح جماح القوة الهدامة ، وتصلح ما تفسده وتبنى ما تهدمه ، فإلى جانب حب الذات يكشف لنا فولتير فى أعماق العقل الإنسانى عن غريزة العدالة وحب النظام ، وهما على ما يبدو دافعان يصحبان نمو العقل ، وهما بهذه المثابة جزء من طبيعة الإنسان مثل الأهواء الوحشية والميول الهدامة ، ووظيفتهما الإنقاذ والتسوية والبناء ، ويقول فولتير فى خلال مقالته عن الأدب : « فى وسط هذا النهب والسلب والهدم والتحطيم الذى نشاهده خلال مدة تسعة قرون نرى حب النظام الذى يوصى سرى فى الجنس البشرى ، وهو الذى منع الخراب النهائى وشل حركته » وهذه النزعة البناءة تعمل فى بطء ولكنها مثابرة ، فتصلح ما جره على العالم الطموح والغرور وشهوة حب السيطرة ، وتخلق الظروف الملائمة للتقدم ، وتسير إلى الأمام .

وعلاوة على ذلك فإنه يظهر من الحين إلى الحين رجال عظماء تتمثل فيهم روح العصر ، وعن طرقهم تجد القوة الإنسانية البناءة السبيل إلى التعبير عن نفسها ، وهؤلاء هم أبطال الإنسانية حقا ، مثل يوليوس قيصر وشارلمان والإسكندر الثالث وهنرى الرابع وفردريك ولويس الرابع عشر ، ومقياس عظمة هؤلاء الرجال هو الخير الذى قدموه للعالم .

ومعنى ذلك أن فولتير ينظر إلى التاريخ باعتباره معركة بين قوى منافسة وسجلا للأهواء والحماقات والجرائم ، وتتخلله من الحين إلى الحين العبقرية الإنسانية ، أى أن هناك عقلا مشرفا على حركات المجتمع ، وهذا العقل هو جماع الذكاء الإنسانى ، ومقره الأرض ، وقد حث هذا الرأى المفكر على البحث العلمى عن قوانين التقدم . ويرى فولتير أن هذه المعركة الناشبة بين القوى الهدامة والقوى البناءة مهما طال أمدها فإنها تسفر فى النهاية عن انتصار التقدم والنظام والعقل والحضارة .

وهناك ثلاثة أشياء تؤثر بلا انقطاع فى عقل الإنسان ، وهى الطقس والحكومة والدين ، وهذه العوامل الثلاثة تفسر فى رأيه لغز العالم .

وقد كان المفكر الفرنسى بودان فى طليعة من استرعوا الأنظار إلى أهمية تأثير

الطقس فى الجزء الأخير من القرن السادس عشر ، وكان هذا التصور مغريا ، وحمل بعض المفكرين على الإسراف فى تقدير أهميته ، وبخاصة المفكرين الذين جاءوا بعد بودان ، وقد أثرى الكاتب الفرنسى منتسكيو التاريخ فى تحليله المشهور لأهمية الطقس فى كتابه « روح القوانين » ولكنه بالغ وأسرف حين قرر أن الآداب لا حيلة لها تلقاء العوامل المادية ، ولا نزاع فى أن إغفال تأثير عامل البيئة يوقعنا فى الخطأ ، ولكن إهمال الجانب الروحى كذلك يسوقنا إلى المادية الجافة ، وقد استطاع فولتير برهافة حسه وحسن إدراكه أن يضع كل عامل من هذين العاملين فى المكان المناسب ، فهو من ناحية يعارض التفسير الآلى للتاريخ الذى يتعارض مع حرية الإرادة ، ولكنه فى داخل حدود هذا التصور لا ينكر على الطقس مكانته باعتباره عاملا مؤثرا ، ومن أقواله فى ذلك: « الشمس والجو يفرضان سلطانهما على إنتاجات الطبيعة جميعها من الإنسان إلى الفطر » والطقس قد يكون له تأثير فى جمال الأجسام وقوتها ، وفى ميولنا وطبيعة عبقريتنا ، فسكان المناطق الاستوائية سمر الوجوه ، وسكان المناطق المعتدلة بيض الوجوه ، وكثير من الحقائق التاريخية يمكن أن نفسرها تفسيرا جغرافيا .

ولكن فولتير يتساءل قائلا : « إذا كان الطقس كل شىء فكيف نفسر التقلبات التى توالت على المصريين واليونانيين أو الحضارات الرومانية وجميعها قد استولى عليها الجمود ؟ من الواضح أن المفتاح غير موجود فى الجو ، ومن المغالطة أن نؤكد أن الشعوب الشمالية هزمت دائما الشعوب الجنوبية ، أو أن المذاهب الدينية لا تؤثر تأثيرها إلا فى حدود جغرافية معينة فإن فتوح العرب وانتشار المسيحية براهين تنقض ذلك ، وكذلك رأى منتسكيو القائل إن روح الحرية لا تسكن إلا فى المناطق الجبلية ينقضه ثورة جمهوريات هولندة وفينيسيا وبولندة » .

ويكثر فولتير من تقديم الأمثلة التى تنقض الرأى القائل إن التاريخ خادم للجغرافيا ، فمن القرن العاشر إلى القرن السادس عشر مرت إيطاليا بسلاسل متوالية من الثورات العجيبة « فى حين أن جبال الأبينايين لم يتغير موضعها ونهر البو ما يزال يجرى فى مجراه» « وقد أطاح الإنجليز برأس الملكة مارى ستيوارت وشارل الأول دون أن يسألوا هل هبت الريح من الشمال أو من الجنوب » .

ويستخلص من ذلك أنه من الواضح أنه لا الحرارة ولا البرودة ولا الرطوبة ولا الجفاف هى التى تفصل فى مصير المخلوقات البائسة الفانية التى تزحف على سطح الكرة الأرضية ، وإنما العوامل المؤثرة مصدرها الدين والحكومة .

وكان فولتير يفضل الحكم الجمهورى ، ولكنه كان يعيش فى أوروبا التى يحكمها ملوك يتمتعون بالحكم المطلق ، فلم يجد مندوحة عن قبول هذا النوع من الحكم ، وكان يمدح الحاكم الخير ويقول : « إن الملك الصالح هو خير هدية تقدمها السماء للأرض » وكان ينتظر من الحكومات أن تنشر التسامح ، وتمنع التعصب والاضطهاد ، وتسن القوانين الحكيمة وتسمو بالتعليم وتعمل على تقدم الفنون ، وتطلق العبقرية الإنسانية من عقالها ، وتفسح لها المجال .

وإلى جانب تأثير الطقس وتأثير الحكومة يضع فولتير تأثير الدين ، ولتأثير الدين فى رأى فولتير المكان الأول فى المؤثرات ولكنه فى نظره إلى الدين متأثر إلى أبعد حد بوجهة نظر العصر الذى عاش فيه ، وهو يفوق معاصريه فى شدة وطأته على الدين ، وعنده أن المنبع الأصلى للأديان جميعها هو حاجة الإنسان إلى العامل الأخلاقى ، والأديان جميعها فى رأى فولتير تعلمنا حقيقة بعينها ، وهى أن نتحرى العدل سواء كان ذلك عن لسان زرادشت أو كونفوشيوس أو السيد المسيح ، ولكن الحق الذى يعلنه الدين قد شابه الفساد الذى تطرق إليه من مطامع الطامعين ، واستغله القساوسة لخداع الجماهير وتسخيرهم فى قضاء لباناتهم ، والسلطة التى تمتع بها القساوسة كانت فى رأى فولتير كارثة على الإنسانية ، ويحمل فولتير الأديان وزر الكثير من الحروب والاضطهادات التى حدثت فى العالم ، ولا يخلو رأى فولتير فى هذا الصدد من التجنى ، فلو أن العالم خلا من العقائد والأديان لما امتنعت الحروب وتوقف الاضطهاد، ولظل الصراع على امتلاك الأرض قائما ، وتصادمت المصالح القومية ، وليس التعصب من خلق الأديان ، وإنما هو شىء كامن فى طبيعة بنى الإنسان ، وستظل الناس تضيق بالمعارضة وتحاول سحق أعدائها أينما وجدتهم ، والقائمون بالثورة الفرنسية أسلموا رؤوس مخالفيهم للمقصلة لأنهم يمثلون نظاما للحكم يخالف النظام الذى أقاموه .

ومما يؤخذ على فلسفة فولتير التاريخية اعتقاده أن الناس فى كل زمان ومكان

هم الناس ، وأن الطبيعة البشرية واحدة ، وإنما العادات هى التى تختلف ، ولم يخطر بباله أن إنسان العصر الوسيط مثلا يختلف الاختلاف كله عن الإنسان فى عصر فولتير لأن قوامه الفكرى ودائرة آرائه ومعتقداته وأوهامه وأحلامه مختلفة عن المحيط الفكرى فى عصر فولتير ، وأول واجبات المؤرخ الحق هو محاولته تخطى الحواجز والسدود التى تفصل الأزمنة بعضها عن بعض والتجرد من أفكاره واتجاهاته وميوله جهد طاقته وأن يبحث عن الفروق لا الشبهات بين عصره والعصور السالفة حتى يصل إلى كنهها ، والعيب الأصيل فى تفكير فولتير التاريخى أنه كان يزن مختلف العصور بميزان عصره .

روبسبيير

في سنة ١٧٧٥ ميلادية كان لويس السادس عشر ملك فرنسا لم يمض على بلوغه السنة الحادية بعد العشرين سوى أيام قلائل ، وقد جاء حديثا من حفلة تتويجه في كاتدرائية رينز يتقدم في موكبه بباريس إلى كاتدرائية نوتردام ، وتلبث هنيهة في كلية لويس الكبير على أطراف الحى اللاتينى ، واصطف الطلبة للترحيب بالملك الشاب، وكان بينهم ذلك الشاب المخاطر المقدام كامى رميولان الذى صار ضالعا في فظائع السنوات القادمة ، ولكن الطالب الذى وقع عليه اختيار أساتذته لما عرف عنه من مثابرة واجتهاد ليقرأ الخطبة التى أعدت باللغة اللاتينية لتحية الملك كان فرانسوا ماكسيمليان روبسبيير ابن أحد المحامين فى مدينة أراس ، وكان حينذاك فى السابعة عشرة من عمره ، وكان هذا أول لقاء أعده القدر بين الملك الذى غلب عليه الحياء واستولى عليه القلق ، وساورته الشكوك فى نفسه ، وبين هذا الغلام ذى الجبهة الميلاء والشفتين الناحلتين ، والأنف الأشم والعينين القصيرتى النظر والشديد التأنق فى ملبسه ، والذى شاء القدر بعد ذلك أن يكون أعدى أعداء الملك وأقواهم حجة فى المطالبة بتقويض عرشه والإطاحة برأسه .

وقد صار ماكسيمليان روبسبيير من أبرز رجال الثورة الفرنسية وأشيعهم ذكرا ، وصار كذلك أشدهم غموض شخصية ، وخفاء أمر ، مما دعا إلى اختلاف فى وصف شخصيته ، وتقويم الدور الذى قام به فى الثورة ، وقد عده بعض المؤرخين شيطانا مريدا مستحقا لأن يبوء باللعنة ، وأنه كان وحشا ضاريا دائم التعطش إلى إراقة الدماء ، وإزهاق الأرواح وأنه ساق الكثير من الأبرياء الصالحين إلى المقصلة ، ولم يتورع عن الغدر ببعض أصدقائه ومعاونيه ، كما وقف فى صفه مؤرخون آخرون ، فقالوا عنه : إنه كان الوطنى المثالى والسياسى الذى يؤمن بالشعب ، ويسعى لما فيه خيره ومصلحته ، والمشرع الأمين الشديد المراقبة لضميره ، والذى كان مثالا فى طهارة النفس ونزاهة اليد ، والامتناع على مغريات الفساد ونوازع

الإسفاف ، وربما كانت الآراء الحديثة فى تقديره ووزن شخصيته أقرب إلى الاعتدال ، وأنأى عن التطرف والمغالاة ، فهو ليس بالسواد الذى يصوره به كارهو شخصيته ومنتقدو سياسته ، وهو كذلك ليس بالبياض الذى يسبغه عليه الذين يتصدون للدفاع عنه وتسويغ أعماله ومواقفه ، فقد كان للرجل نواحيه الإنسانية الجديرة بالتقدير والعطف ، كما أنه تورط فى ارتكاب جرائم منكرة ، وأتى بأعمال مستفظعة جديرة بأشد اللوم والإنكار .

وإذا كانت الثورات تتيح الفرصة للمصلحين الذين يحاولون البناء على الأسس السليمة فإنها كذلك تفسح المجال للغلاة من الهدامين والأشرار الماكرين ، وذوى الطبائع الملتوية ، وأصحاب السلوك الشاذ والاتجاهات المنحرفة ، وبعض عصور التاريخ تمتلئ بالعيوب والنقائص ، ويعم فيها الفساد حتى يصبح الهدم والتدمير من المطالب الملحة ، ومحاولة الإصلاح فى مثل تلك الظروف السيئة لا مفر من أن تقترن بما ينفر منه الرجل الذى يكره القسوة ، ويمقت الإرهاب ، ويميل بطبيعته إلى الرفق والاعتدال ومعالجة الأمور فى هدوء وأناة ، وكثير من الإصلاحات التى جاءت بها الثورات تمت فى الظروف القاسية والعواصف الهوجاء العاتية ، ويرى الذين أطالوا دراسة تاريخ الثورات أن فى كل ثورة يجىء وقت تجد الثورة نفسها مرغمة على مقاومة الحركة المضادة لها ، والمعركة التى تقع بين الثورة والحركة المضادة لها معركة لا تعرف الهوادة ، ولابد من أن يتمكن أحد الطرفين من سحق الطرف الآخر ليتم له النصر ، ويظفر بالغلبة ، ويصفو له الجو ، ومن أمثال ذلك ثورة أنصار الخلافة العباسية فى أول أمرها على فلول الحزب الأموى وما ارتكب فيها من أهوال وأريق من دماء وأهدر من كرامات واستبيح من محرمات .

وما يزال التاريخ يذكر فظائع عهد الإرهاب فى باريس سنة ١٧٩٣ أو فى روسيا سنة ١٩١٧ ، ومعظم الثورات التى حدثت فى التاريخ لم تخل من حوادث القسوة والهدم والتدمير والإسراف فى العنف ، وقد وجد بفرنسا فى عهد الثورة – كما وجد فى عهد كل ثورة – قوم يستمتعون بإراقة الدماء وقتل النفوس ، ولقد وقعت تبعة عهد الإرهاب على كاهل روبسبيير ، وقد ساقته إلى هذا الإجراء السياسى الخطير المكروه وطنيته وإخلاصه الضيق الأعمى لمذهبه السياسى ، وهذا هو حال الكثيرين

ممن يرتكبون ضروبا من القسوة والأعمال المنكرة فى غمار الثورات ولهب أحداث الانقلابات .

وقد كان روبسبيير أكبر أولاد أسرته الأربعة ، وقد ماتت والدته وهو فى السابعة من عمره ، واشتد حزن والده على فقدها حتى تبعها إلى القبر بعد ثلاث سنوات ، وأتم ماكسيمليان فى سنة ١٧٨١ دراسته فى باريس ، وعاد إلى أراس مسقط رأسه ، وبدأ فيها يمارس مهنة المحاماة ، وكان يقيم مع شقيقته ، ويتحرى الاقتصاد فى حياته ، وقد عرف بالاستقامة وحسن السيرة والتزام الجد فى أموره ، ومباعدة المرح والفكاهة فى سلوكه وأحاديثه ، والعكوف على العمل ، وقد اشتهر بذلك حتى اختاره أسقف أراس وهو فى منتصف العشرينات من عمره قاضيا فى محكمة الرياسة المحلية بالمدينة الإقليمية ، وقد آثر الاستقالة من هذا المنصب على أن يحكم بالإعدام على أحد المجرمين ، وهى حادثة لها دلالتها فى الكشف عن دخيلة هذا الرجل .

وحينما كان يدرس القانون ويمارسه كان مشغولا بقراءة روسو ، وكثيرا ما يقال : إن كتاب العقد الاجتماعى كان إنجيل روبسبيير بوجه خاص ، فقد كان متشبعا بآراء روسو ، شديد التحيز لها ، والإعجاب بها ، وقد استمد من روسو فلسفته السياسية وآراءه فى الديمقراطية وإصلاح المجتمعات الإنسانية ، وحينما وصل إلى مركز السلطة حاول أن يضع نظريات روسو موضع التنفيذ ، وقد نزل روسو من نفس روبسبيير منزلة كارل ماركس من نفس الزعيم لينين ، وإن كنت أرى أن لينين كان أقوى شخصية وأمضى عزما من روبسبيير .

ولقد كان روبسبيير شديد الإيمان برأى روسو فى حقوق الإنسان ، كما أخذ عنه رأيه فى خلود الروح ، ولكنه لم يلق باله إلى أن الحقوق تستلزم ضروبا من الواجبات ، كما أنه لم يخطر بباله أن البشر مجموعة من المتناقضات ليس من اليسير إخضاعها لصيغة من الصيغ أو إدماجها فى قالب من قوالب السلوك ، وكانت شدة تعصبه لآرائه تغريه بأن يسىء الظن بكل من يخالفه ويعمل على إيذائه واضطهاده .

وفى سنة ١٧٨٨ وصلت إلى أراس أنباء تفيد أن مجلس طبقات الأمة سيدعى للانعقاد بعد إخفاق الوزراء الذين حاولوا إصلاح الأحوال السيئة ، ورشح روبسبيير

نفسه ليكون عضوا فى هذا المجلس ، وقال فى الخطبة التى تقدم بها للترشيح :

« إن الكائن الأسمى يسمع ابتهالاتى ، وهو يعرف ما تنطوى عليه من إخلاص وحماسة ، وآمل أنه سيجيبها » .

ونجح فى الانتخاب ، وفى مايو حضر أول اجتماع للمجلس فى فرساى ، ولم يكن هذا الشاب الذى لم يجاوز بعد الثلاثين من عمره والذى كان يغلب على محياه العبوس والانقباض من الشخصيات التى تلفت النظر وتثير الاهتمام من أول نظرة ، وقد ألقى فى الجمعية خطبا ضافية الذيول ولكنها مملة ، وكان صوته ضعيفا وإشاراته غير بارعة ولا معبرة ، ولكنه كان شديد العناية بملبسه كدأبه طوال حياته، وقد تجاهله الكثيرون من زملائه ، ولم يحفلوا بأمره ، ولكن العظماء بينهم رأوا أنه رجل من طراز خاص ، وأنه خالص النية فيما يقول ، قال عنه ميرابو خطيب الثورة المشهور : « إن هذا الشاب يؤمن بما يقول وسيكون له شأن » . أما روبسبيير الذى عرف بالعفة وطهارة السيرة فقد أدرك عبقرية ميرابو ، ولكنه قال عنه : « انحراف ميرابو عن سنة الأخلاق سيقضى على مكانته » .

وقد ظل روبسبيير غامض الشأن فى أثناء الحوادث الجليلة التى وقعت سنة ١٧٨٩ مثل الاستيلاء على الباستيل ، وإشعال النار فى بيوت العظماء فى الأقاليم ، وكان اهتمامه فى المجلس موكلا بالتفصيلات القانونية الصغيرة ، والنظر إليها فى ضوء آراء روسو ، وحينما انتقلت الجمعية إلى باريس بدأ يظهر تأثير روبسبيير فى الموقف السياسى .

وفى أحد ديار الرهبنة فى شارع أونوريه اتخذت الجماعة التى عرفت باسم اليعقوبيين مقر ناديها فى سنة ١٧٨٩ وبعد ثلاثة أشهر من إنشاء النادى انتخبت روبسبيير رئيسا له ، وكان اليعقوبيون من غواة الحديث ، وكانوا يجتمعون فى كل ليلة وتدور بينهم الأحاديث ، وكان روبسبيير يتحدث معهم ويطيل الحديث ويردد الكثير من الصيغ المحفوظة ، والأفكار العادية المبتذلة الممجوجة ، وبرغم ذلك كان أغلبية اليعقوبيين راضية عن ذلك ، ومعجبين بهذا الحديث الممل ، ومساندة حزب اليعقوبيين هى التى قررت مصير روبسبيير السياسى وأوصلته إلى ذروة المجد والنفوذ .

وعرف روبسبيير بعد ذلك بأنه من الأعضاء اليساريين البارزين ، وعدّه أنصار الملك مع مارا ودانتون أعدى أعداء النظام الملكى .

ومات ميرابو فى سنة ١٧٩١ وبموته انتهت المرحلة الأولى من مراحل الثورة الفرنسية ، وكان روبسبيير يقيم فى باريس وحيدا ، ويعد خطبه ، ويقضى بعض أمسياته مع كامى ريمولان .

وكان لويس السادس عشر لا يثق كثيرا بميرابو ، ولكن موت ميرابو بعث اليأس فى نفسه ، وقد حاول بعد شهرين الهرب مع أسرته ، وأعيد من فارن إلى باريس مجللا بالعار مهيض الجناح ، وألقى روبسبيير خطبة فى نادى اليعقوبيين وصف فيها عمل الملك بأنه خيانة ، واضطربت الأمور فى باريس ، وخيف من حدوث رد فعل مضاد للثورة ، وأصبحت حياة قادة الثورة معرضة للخطر واضطر دانتون وريمولان ومارا إلى أن يختبئوا ، وكثر فى نادى اليعقوبيين الأعضاء الغاضبون ، وألم بهم الخوف ، وحاول روبسبيير أن يهدئ روعهم ، ويشعرهم الثقة بأنفسهم .

وحينما انفض الاجتماع لقى روبسبيير عند باب النادى وهو يحاول الخروج المدعو دوبلوا ، وهو بناء على شىء من اليسار ، وقد خشى أن يصاب زعيمه بسوء ، فأشار عليه بمصاحبته إلى منزله فى شارع سان فلورنتين ، ووصلا إلى المنزل فى منتصف الليل ، وصار هذا المنزل ملاذ روبسبيير طوال السنوات الباقية من حياته ، وقد رحبت به أسرة دوبلوا وعطفت عليه زوجته وبناته ، وأعجبن باستقامة أخلاقه ودماثة طباعه ولين جانبه ، وكان يروق روبسبيير الجلوس فى وسط هذه الأسرة التى شملته بعطفها ، ويرى تمثاله النصفى موضوعا فى أحد أركان الحجرة ، وقد ازدانت الحيطان بصوره ، وكان يحادث أفراد الأسرة فى تبسط وارتياح ويشرح لهم الأسباب التى تحمله على ما يأتى من الأعمال ، ولا يمل الأنس بهم والاطمئنان إليهم حتى فى أمسيات عهد الإرهاب الحافل بالمآسى والفظائع ، وكان هناك حينما حمل لويس السادس عشر إلى المقصلة ، وكان جالسا وراء الأستار فى حجرته ، وهو يسمع صليل العربة التى حملت دانتون فى شارع سان أونوريه .

وفى آخر سنة ١٧٩١ ذهب روبسبيير إلى أراس ليقضى إجازة قصيرة ، وقوبل فيها بالإعجاب ، واجتمعت الجمعية التشريعية فى أول يوم من أكتوبر سنة ١٧٩١

وهو اليوم الذى انفضت فيه الجـمعية الوطنية ، وبفضل تأثير روبسبيير استبعد أعضاء مجلس طبقات الأمة من الانتخابات التشريعية ، وكان باعث ذلك الرغبة فى إبعاد أنصار النظام الملكى ، وسيطر على هذه الجمعية المعتدلون من الثائرين وهم المعروفون بالجيرونديين ، وكان روبسبيير بطبيعة الحال بعيدا عن هذه الجمعية ، ولكنه كان يراقب أعمالها وهو فى نادى اليعقوبيين ، ويلـــقى الخطب ويوجه النقد .

وعمل الأشراف الذين هجروا البلاد حينما قوى أمر الثورة على الدس لها ، وسعوا فى إحباطها وإغراء الدول المجاورة بها ، وبخاصة النمسا وبروسيا ، ورأى جماعة من الجيرونديين ضرورة مصادرة أملاك هؤلاء الأعيان المؤتمرين بالدولة وإعلان الحرب على النمسا ، وعارض الملك ذلك فى أول الأمر ، ولكنه اضطر أخيرا إلى الخضوع وعين وزارة من الجيرونديين .

ولم يكن روبسبيير راضيا عن فكرة إعلان الحرب ، وألقى الكثير من الخطب فى معارضتها ، ولكن عجلة الثورة كانت تزداد سرعة ، واقترح إبعاد رجال الدين الذين لا يقسمون يمين الولاء للنظام الجديد ، فجمع الملك شجاعته وأقال الوزارة المكونة من الجيرونديين ، وهاجم لافايت جماعة اليعقوبيين ، وأشعل الوطنية الفرنسية هجوم دوق برنزويك على الأراضى الفرنسية ، وهاج ذلك أهل باريس ، ففى العاشر من شهر أغسطس قتل الحرس السويسرى الذى كان معدًا لحماية الملك ، ولم يكن روبسبيير ممن لا يميلون إلى الفوضى ، ولذلك قضى اليوم العاشر من شهر أغسطس فى هدوء بمنزل أسرة دوبلوا .

وبعد يومين حضر انعقاد مجلس الكوميون الثورى ، وانتظر الثائرون من هذا الزعيم المبجل المتأنق أن يقول شيئا ، فلم يخب توقعهم ، وألقى روبسبيير إحدى خطبه الفضفاضة ، وكان مما قاله فيها : « إن الشعب الفرنسى الذى طال عليه عهد الاضطهاد والحط من شأنه قد شعر بأنه قد حان الوقت ليقوم بالواجب الذى فرضته الطبيعة على الأحياء جميعا ، وبخاصة على الأمم كلها ، وهذا الواجب هو العمل على ضمان سلامتها بالمقاومة الكريمة للظلم والطغيان ، وهكذا بدأت الثورة التى شرفت الإنسانية ، ولنذهب أبعد من ذلك قليلاً ، ولنقل إنها الثورة الوحيدة التى لها

هدف جدير بالإنسان ، وهو إيجاد جماعات سياسية على الأسس الخالدة ، أسس المساواة والعدالة والعقل ، وأى هدف آخر كان فى استطاعته أن يضم هذا العدد الكبير من الجموع الغفيرة ويجعلهم يعملون متعاونين بلا رؤساء وبغير شعارات ؟ وأى قضية أخرى كانت توحى تلك الشجاعة السامية الصامدة وتأتى بمعجزات من البطولة أسمى مما عرفه تاريخ اليونان والرومان » .

ويعد أن ألقى روبسبيير خطبته انتخبه الكوميون ليكون المتحدث بلسانه إلى الجمعية الدستورية وأن يطلب انتخاب جمعية وطنية ومحكمة ثورية .

وقد أدى ذلك إلى عودة الجيروندين إلى الحكم واختيار دانتون وزيرا للعدل ، ولكن الخوف كان لا يزال يخالج النفوس ، واستولى البروسيون على لنجواى ، وفى اليوم الثانى من سبتمبر استولت الغوغاء فى باريس على السجون ، وقتل ما يقرب من الألف أو يزيد قليلا ، وفى أول أكتوبر عقد المجلس الوطنى جلسته ، وفى اليوم التالى ألغى النظام الملكى ، وكان معظم أعضاء المجلس الوطنى من الجيروندين ، ولكن نواب باريس كانوا من الجبليين ، وكان روبسبيير زعيمهم غير مدافع ، وشغل دانتون بإثارة الحماسة واستنهاض العزائم للمضى فى الحرب ومدافعة الغزاة .

وفى التاسع والعشرين من أكتوبر وجّه المدعو لوفيد هجوما شديدا فى المؤتمر الوطنى إلى روبسبيير قائلا فيه : « يا روبسبيير إنى أتهمك بأنك أطلت فى تشويه سمعة أحسن الوطنيين المخلصين وأنقاهم صفحة ، وإنى أتهمك لأنى أرى أن شرف المواطنين الصالحين ونواب الشعب ليس ملك يمينك ، وإنى أتهمك بأنك بذلت أقصى ما فى وسعك لاضطهاد نواب الأمة والافتراء عليهم وتعريضهم لسوء الفهم وجعلهم هدفا للذم من الآخرين ، وأتهمك بأنك جعلت نفسك موضوعا للعبادة والتقديس ، وعملت على أن يقال فى حضرتك إنك الرجل الوحيد صاحب الفضيلة فى فرنسا ، وأنك الرجل الوحيد الذى فى وسعه إنقاذ البلاد . . . » .

أخاف هذا الانفجار روبسبيير فطلب مهلة أسبوع لإعداد الدفاع عن نفسه ، وأيده فى ذلك دانتون ، ووافق المؤتمر على ذلك ، وأعد روبسبيير رده الضافى الذلول جريا على عادته فى إعداد خطبه ، وملأه بالقوالب المحفوظة والأفكار الذائعة المألوفة ، ومن أقواله فى تلك الخطبة :

« لقد علمت أن أحد الأبرياء من المسجونين هلك ، وقال البعض إن الهالكين أكثر من ذلك ، ولكن هلك واحد شيء كثير ، ومن الطبيعى أيها المواطنون أن نريق الدمع على مثل هذا الحادث ، وأنا نفسى بكيت كثيرا لهذا الخطأ القاتل ، وإنى لحزين لأن المسجونين الآخرين ولو أنهم جميعا يستحقون الموت بموجب القانون، يسقطون قتلى العدالة غير المنظمة من الشعب ، ولكن علينا أن نستبقى دُموعنا ، ونحتفظ بالقليل منها لعشرات الآلاف من الوطنيين الذين ضحى بهم الطغاة حولنا ، ولنبك على هؤلاء المواطنين الذين سقطوا موتى تحت أنقاض منازلهم المتهدمة التى حطمتها مدافع الطغاة ، ولنحتفظ بالقليل من الدموع لأطفال أصدقائنا الذين قتلوا أمام عيونهم وأبنائهم الرواضع الذين طعنوا وهم بين ذراعى أمهاتهم ، طعنهم هؤلاء المأجورون المستوحشون الذين غزوا البلاد » .

وبعد إلقاء خطابه حدثت ضجة فى المجلس ، ولكن الأعضاء فى الشرفة صفقوا لها استحسانا ، برغم ما أبداه لوفيد من الاعتراض، وكسب روبسبيير المعركة ، وتابع انتصاراته ، وكان الجيروندیون من أنصار الاعتدال فى وقت كان يبدو فيه الاعتدال أمرا غير طبيعي، وأدرك روبسبيير طبيعة الموقف ، فشرع يطالب بتقديم الملك للمحاكمة وإعدامه ، وكانت حجته أنه لا يمكن أن يسود السلام والملك على قيد الحياة ، والملك المخلوع بموجب هذا المنطق يظل محورا للحركة المضادة للثورة ، وأخذًا بهذا الرأى واستجابة لهذا النداء قدم الملك للمحاكمة فى ١٩ يناير سنة ١٧٩٣ وحينما أخذت الأصوات قال روبسبيير وهو يعطى صوته : « إنى لا أعرف شيئا عن تلك الإنسانية التى تضحى بالشعب كله وتحمى الطغاة ، وأعطى صوتى بالموافقة على الإعدام » .

وتم إعدام الملك فى صباح اليوم التالى ، ومرت العربة التى تحمله إلى المقصلة على منزل لأسرة دوبلوا ، وأقفل روبسبيير النوافذ حتى لا يزعج ذلك خاطر بنات الأسرة ، وقد يكون لقتل الملك مسوغ من وجهة نظر الثورة ، ولكنه كان خطأ من الناحية السياسية ، فقد أثار إعدامه غضب أوروبا جميعها ، وأصبحت فرنسا فى حالة حرب مع سائر الدول .

وتحرج الموقف فى الأشهر الأولى من سنة ١٧٩٣ وكان إعدام الملك الذى أقره

الجيرونديون وسيلة لإطلاق العنان للمتطرفين، وخاف المجلس الذى يمثل فرنسا من الكوميون الباريسى ، وعمت الفوضى وتوالت هزائم الجيش ، وخيف من مجيء برونزويك والبروسيين إلى باريس ، واستنهض دانتون عزيمة الشعب لدرء الخطر ، وأهاب بالجمهورية أن تحمى نفسها ، ولكنه أدرك أن النصر لا يتم بالكلام ، وأن لا مفر من المحافظة على النظام وحسم الفوضى ، وعجزت الحكومة البرلمانية عن مواجهة الموقف ، ويرجح أن دانتون كان صاحب فكرة إيجاد لجنة الأمن العام ومحكمة الثورة فى إبريل سنة ١٧٩٣ .

وبدأ عهد الإرهاب بإنشاء لجنة الأمن العام ، وكان عهد الإرهاب لونا من الدكتاتورية استلزمتها ضرورة الموقف المحفوف بالأخطار ، وقد حاول دانتون خلال هذه الأشهر المزعجة أن ينقذ الجيرونديين ، ويحفظ كيان الجمهورية ، ولكن الجيرونديين كانوا جماعة من المثاليين أخافهم الموقف الذى مهدوا السبيل لإيجاده ، وخافوا غوغاء الباريسيين الذين لم يستطيعوا السيطرة عليهم .

وظل روبسبيير خلال ذلك يوالى الخطب الحافلة بما استمده من آراء روسو ، ومن أقواله فى هذا الصدد « إنه فرض على المجتمع أن يهيىء أسباب المعيشة لكل أفراده ، سواء بإيجاد عمل لهم أو بضمان أسباب البقاء للذين لا يستطيعون العمل » .

ولما أرغم الجيرونديون على إنشاء محكمة الثورة اضطروا كذلك إلى حملها على العمل ، واتهمت المحكمة مارا بالخيانة ، فوصف نفسه أمام القضاة بأنه من رسل الحرية وشهدائها ، وقد اتهمه جماعة من الدساسين وبرأته المحكمة ، وارتفع شأنه بين الغوغاء .

وهدد الكوميون الباريسى مجلس النواب ، وأمر الجيرونديون بإلقاء القبض على هيبر أحد أوغاد الثورة ، وكان فى أول أمره صحافيا ثم تحول إلى كاتب رسائل هجاء وحملات تشنيع وانتقاص ، ولكن الكوميون الباريسى تصدى للدفاع عنه ، وكان من أعضائه البارزين ، فأطلق سراحه ، وحينما أقبل الصيف كان دانتون قد أجهد نفسه وتوقفت سيطرته على لجنة الأمن العام التى رشح لعضويتها روبسبيير ، وسرعان ما أصبح المسيطر عليها ، وغضب الباريسيون على الجيرونديين ، وفى يوليو أودت

طعنات شارلوت كوردى بحياة مارا ، وأطاحت المقصلة بعد ذلك برأس الملكة مارى أنطوانيت ورؤوس الكثيرين من أعضاء حزب الجيروند ، ووقعت تبعة ذلك كله على روبسبيير ، ولكن الواقع أنه لمدة أشهر قلائل كانت السلطة غير المحدودة فى يد هيبر وأعوانه ، ولم يكن روبسبيير يجرؤ على المعارضة .

وعاد دانتون فى آخر نوفمبر إلى مجلس النواب ، وقد حرص على إنهاء عهد الإرهاب ، وكان واثقا من ديمولان ، وأمل أن روبسبيير سيعينه على ذلك ، ولكن روبسبيير الذى قيل عنه أنه غير قابل للفساد كان ثملا بالسلطة التى أصبحت فى يده ، وخشى أنه إذا أوقف الآلة الدائرة فإنها قد تحطمه وتقضى عليه ، فرفض معاونة دانتون ، وأيده فى ذلك صديقاه الوفيان جست وكوتون .

ومن عجيب أمر روبسبيير أنه كان لا يضيق ذرعا باستمرار المقصلة بالإطاحة برؤوس ضحاياه ، ولكنه كان لا يحتمل الاستمرار فى التجديف ، فلما حاول هيبر وأتباعه الاحتفال بتنصيب آلهة العقل قاوم روبسبيير سياسة الثورة المعارضة للدين ، وكان يمقت هيبر ويزدريه ، وصار يعتقد بعد ذلك أنه يجب القضاء على هيبر وأنصاره ، ولكنه لم يصنع شيئا خلال فصل الشتاء ، وكان دانتون فى باريس ، وخاف رجل النظريات رجل العمل ، وعاد من الأقاليم أتباع لجنة الأمن العام ويدهم ملوثة بالدماء ، وكانوا يحملون على كل من يجترئ على نقد الاستمرار فى الاستعانة بالمقصلة ، وفى مارس شعر روبسبيير بأن نفوذه قوى ، فأمر باعتقال هيبر ، وأحيل على المقصلة مع أعضاء آخرين من أعضاء الكوميون ولم يعترض أحد على ذلك ، وتوقف عمل الكوميون .

وبدأت اللجنة تعمل للقضاء على دانتون وديمولان ، وحمل سان جست على دانتون فى المجلس مستعينا بمذكرات أعدها روبسبيير ، وكان روبسبيير مريضا فلم يحضر جلسات اللجنة ، ولكنه وافق على المحاكمة وأقر الإدانة ، وكان مصرع دانتون مما أساء أشد إساءة إلى سمعة روبسبيير ، ودمغه بالعار الأبدى ، وكان دانتون رجلا ماردا جبارا فى مزاياه وعيوبه ، وقد عاش حرا جريئا ، وكان فى موته شجاعا جلدا ، وبموت دانتون انتصر روبسبيير ، ولكن انتصاره كان انتصارا مؤقتا ، فلم يمض على مصرع دانتون سوى أحد عشر أسبوعا حتى كان روبسبيير قد شاركه فى مصيره .

وقد انتصرت جمهورية روبسبيير ، ورأى روبسبيير أنه لابد للجمهورية من الإيمان بالله ، وقرأ قبل مصرع دانتون بخمسة أيام على مجلس النواب تقريرا طويلا عن الدين والأدب يشمل البندين الآتيين :

١ - يعترف الفرنسيون بوجود الكائن الأسمى وخلود الروح .

٢ - يقرون أن عبادة الكائن الأسمى من واجبات الإنسان .

وتضمن التقرير أن الإلحاد نزعة أرستقراطية ، ووردت فيه أيضا الحكمة السياسية التى كثر ترديدها ، وهى أنه إذا لم يكن الله موجودا فمن الضرورى أن نستحدث وجوده ، وقد استمد روبسبيير هذه الأفكار من كتب روسو وتعاليمه ، وعند روبسبيير أن الكاهن الحقيقى للكائن الأسمى هو الطبيعة ، وأن معبده هو الكون ، وأن الفضيلة هى ديانته .

وقبلت باريس فى بادئ الأمر آراء روبسبيير ، كما رضيت من قبل عن تخريفات هيبر ، ولكنها سرعان ما أدركها الملل ، أما روبسبيير فإنه بعد أن عمل على إقرار فكرة وجود الكائن الأسمى أخذ يشدد قبضته على محكمة الثورة ، ولم يعد يسمح للمسجونين بالدفاع عن أنفسهم ، وخال روبسبيير أنه قد قضى على المعارضة ، فوقع فى الخطأ الذى كلفه حياته ، وكشف عن طبيعته الشديدة التعصب ، الضيقة الأفق .

ففى آخر شهر مايو احتفل حظيته تاليان ، وعمل على أن يقضى على الرجال الذين لا مبدأ لهم ولا مثل عليا ولا عقيدة ، والذين عرفوا فى حياتهم الخاصة بعدم التقيد بالآداب المتواضع عليها.

وكان من هؤلاء الرجال تاليان وفوشيه وبارير ، وأحس هؤلاء الخطر الذى يهدد حياتهم ، وأن عين روبسبيير تراقبهم ، وأنه يعد الشبكة لاصطيادهم ، فأخذوا يأتمرون به ، ويعقدون الجلسات السرية لتدبير طرق القضاء عليه ، وكان تاليان الذى خشى على زوجته وفوشيه الذى خاف على رقبته أكثر العاملين على هدم روبسبيير نشاطا ، واتفق المؤتمرون على مهاجمة روبسبيير فى يوم ٢٧ يوليو سنة ١٧٩٤ وكان صبح ذلك اليوم عاصفا شاحبا عصيبا ، وقد شغل فى أثناء الليل أعداء روبسبيير وأصدقاؤه ، أما أعداؤه فكانوا يعدون صحيفة الاتهام ، وأما أصدقاؤه فكانوا يجمعون الحجج والأسانيد للدفاع عنه ، أما هو فنام تلك الليلة ملء جفنيه .

وفى الصباح ارتدى ملابسه فى تأنقه المعهود ، ووجه تحياته الرقيقة إلى أفراد أسرة دوبلوا التى أحبته وعطفت عليه . ووصل إلى المؤتمر فى الساعة الثانية عشرة ، وكان هناك تاليان وفوشيه وباريز، وقد جلسوا جنبا إلى جنب متوجسين قلقين ، وكانت المناقشة غير منظمة ولا متماسكة ، وقد استغرقت ساعات ، ولم يوفق روبسبيير فى الدفاع عن نفسه ، وطلب تاليان صائحا عدم الخروج عن الموضوع ، فعلق روبسبيير على ذلك قائلا وقد تملكه الغضب : «إننى أعرف جيدا كيف أعيد النظام إلى المناقشة » .

وكان هذا الرد الذى لم يخل من الخشونة مؤيدا لاتهامه بالاستئثار بالسلطة ، فقوبل بصيحات عالية تردد كلمة « الطاغية » ووقف روبسبيير تلقاء ذلك حائرا واجما مترددا وقد فقد السيطرة على نفسه وامتلاك أعصابه ، وصاح أحد النواب المجهولين قائلا : « إن دم دانتون يغصك بريقك » .

واعتقل معه صديقاه سان جست وكوتون ، وكذلك شقيقه أغسطين ، وترددت الشرطة فى أول الأمر فى إلقاء القبض عليه ، وأخافهم الأمر ، واستولى الذهول على روبسبيير ، فقد جاءت النهاية مسرعة وغير منتظرة ، وأطلق عليه فتى فى التاسعة عشرة من عمره رصاصة أصابت فكه وأدمته ، فحمل الرجل المتأنق إلى المقصلة وقد لف رأسه بلفافة قذرة ووجهت إليه النساء الشتائم والسباب حينما صعد إلى المقصلة وهو لا يزال فى دهشة حائرة ، ولكن مضيفاته من أسرة دوبلوا بكين مصرعه بدموع حارة غزيرة .

وبموت روبسبيير انتهى عهد الإرهاب ، بل يرى بعض المؤرخين أكثر من ذلك ، وهو أن الثورة الفرنسية نفسها ختمت بمصرعه .

ويرى المؤرخ بيلوك أن روبسبيير كان فى الواقع أعظم مما يبدو ، وأن القدر قد خصه بدور عظيم فى مسرحية من أعظم المسرحيات التى عرفها التاريخ ، وقد أظهر خسة نفس فى القيام بهذا الدور ، وقد عرف بين الناس جميعهم بالأمانة والامتناع على الفساد ، ولم يمد يده إلى مال ، ولم يطمع فى نيل منصب يمكنه من الثراء ، وظل طوال عهد سيطرته قانعا بالإقامة عند أسرة دوبلوا مخلصا لعقيدته .

ويعلل الكاتب البريطانى هاملتون فايف ما أصاب روبسبيير من التحول بقول

الشاعر البريطانى شلى : « إن السيطرة مثل الوباء الجارف تلوث كل ما تلمسه » وقد ختم توماس كارلايل كلامه عنه بقوله : « عسى الله أن يرحمه ويرحمنا » ولعلها أنسب ما يقال فى التحدث عن رجل لا يزال لغزا من ألغاز التاريخ ، ولا يزال كبار الباحثين والقدامى والمحدثون من المؤرخين مختلفين فى تقدير أعماله والكشف عن أسرار شخصيته .

تاليران

معنى الدبلوماسية فى العصر الحديث تسوية العلاقات الدولية بين الأمم بطريق المفاوضات ، وهى من ثم تحاول البحث عن الحلول الملائمة للمشكلات الناشئة عن اختلاف السياسات وتصادم المصالح ، وتمهد السبيل لتذليل الصعاب وتهيئة الجو لإيجاد العلاقات الحسنة .

وكلما نمت العلاقات التجارية والروابط الاقتصادية بين الأمم وتشابكت مصالحها وتقاربت وتفاهمت زال جانب الوحشة الذى يرين دائما على العلاقات بين الغرباء ، وقل الميل إلى الاكتفاء الذاتى ، والنزوع إلى العزلة ، وازداد شعور الأمم بحاجتها الماسة إلى التفاهم الحسن وتحرت وجوهه وأسبابه .

ولا يكتفى فى العصور الحديثة باختيار مندوبين من الحين إلى الحين ليتولوا فض الخلافات وتسوية المشكلات ، وقد استدعى الأمر وجود مندوبين دائمين وممثلين رسميين بين مختلف الأمم ، وقد اقتصر ذلك فى بادئ الأمر على الأمم المتجاورة ، ثم تجاوز ذلك إلى الأمم البعيدة النائية والمختلفة فى الدين والعادات والتقاليد ، وذلك تبعا لتحسن المواصلات وتيسير أسباب التقارب بين الأمم .

وكلمة « دبلوما » التى اشتقت منها كلمة دبلوماسية كان معناها الأصلى وثيقة من صورتين ، وقد اختلفت دلالة الكلمة على مر العصور شأن الكثير من الكلمات التى تكتسب معانى مختلفة على توالى الزمن ، ولكن كلمة الدبلوماسية ظلت محتفظة بدلالتها على « الأعمال العامة » مثل المعاهدات والتراخيص ، وقد يتسع معناها فى المستقبل فيشمل ما هو أكثر من ذلك .

وقد أضيف إليها معنى آخر إذ صارت تدل على موقف التحفظ والاقتصاد فى الحديث ووزن كل كلمة وتقدير ما وراءها من تبعة ، ومن دواعى ظهور هذا المعنى أن المفاوضين كانوا دائما يحاولون التغلب على منافسيهم فى حكومة المفاوضة واستعمال كل ما فى جعبتهم من أساليب البراعة فى المناقشة وإدارة الحوار والعلم

بالبواطن والأسرار والدخائل الخفية والإشارات المبهمة والكاشفة التى تمكن المفاوض من أن يستميل المفاوض من الجانب الآخر إلى جانبه ، ويحمله على الأخذ بوجهة نظره ، وكانت العلاقات القديمة بين الأمم تسوغ هذا التحفظ ، وتوصى بالاقتصاد فى الصراحة والإمعان فى التكتم والسرية ، وكان بعض رجال السلك الدبلوماسى يتهمون بالتجسس والعمل على تصعيد الأسرار وكشف مواطن الضعف ، ورمى بعضهم بمحاولة إفساد ذمم الوزراء ليبوحوا لهم بأسرار الدولة ومستوراتها لتتمكن الأمم التى أوفدتهم من استغلال ذلك فى توجيه سياستها ، وكان تفاوت العقليات بين الأمم المختلفة واختلاف العادات عقبة كأداء فى سبيل الدبلوماسية الصريحة المكشوفة ، وأغلب الظن أن الدبلوماسية الحديثة أقل إمعانا فى الخفاء والسرية من الدبلوماسية القديمة التى كان المكر والدهاء والكيد والدس لحمتها وسداها .

وأول أهداف الدبلوماسى هى رعاية مصلحة أمته والمحافظة على مكانتها ، والتعبير فى لياقة ومنطق متماسك عن آرائها ووجهات نظرها ، وبيان موقفها من مختلف المشكلات العالمية والقضايا العامة فى دقة وإقناع وحسن بيان ، وأن يحسن دراسة الأمم التى يقيم فى بلادها ، ويتفهم سياستها ، ويتعرف تياراتها الفكرية ، وأحوالها الثقافية والاقتصادية ، وميول أهلها وعواطفهم الغالبة عليهم ، وأن يرى الأشياء بنواظرهم ، وبذلك يستطيع أن يدل أمته على منحى تفكيرهم ويصور آراءهم أصدق تصوير ، ولا يتيسر ذلك إلا بمخالطة طبقات الأمة التى يقيم ببلادها ، وذلك دون أن ينغمس فى شؤونها السياسية الداخلية وخلافاتها الحزبية والمذهبية ، لأنه إذا لم يتحر ذلك أصبح موضع الشك وفطنة الاتهام ، وهذا من غير شك من عوامل إفساد العلاقات بين الأمم وتعكير الجو السياسى .

وتتفق آراء المؤرخين ورجال السياسة والدبلوماسيين على أن شارل موريس دى تاليران بريجور الفرنسى (١٧٥٤ - ١٨٣٨م) الذى كان يوما ما أسقف أوتان وأمير بتيفنت كان مضرب المثل فى التمثيل الدبلوماسى وما يستلزمه من دواعى الكياسة واللباقة والذكاء الحاد والفطنة البالغة .

ويقترن اسم تاليران على الدوام بكل ما هو لامع ومتألق فى حسن التصرف

الدبلوماسى وما يتطلبه ذلك من ضبط النفس ، وامتلاك زمام الأعصاب ، وإخفاء التأثرات ، والمحافظة على سمة الوقار والاتزان ، وتناول الأمور بالبساطة المقترنة بالعمق والهدوء الخالى من جمود الحس وبلادة النفس ، وقد أجاد تاليران فى رأى دارسى حياته ومتتبعى أخبار سيرته تمثيل هذا الدور ، ووصل به إلى أقصى درجات الإجادة والإتقان ، وموقفه فى مؤتمر ڤيينا (١٨١٤- ١٨١٥) الذى استطاع فيه وهو ممثل فرنسا حين هزمت جيوشها وهيض جناحها ، أن يسيطر على مجالس الحلفاء المنتصرين لا يزال موضع الإعجاب ومناط الدهشة ، وقد تلاقت الآراء فى الإعجاب بملكات الدبلوماسى القدير .

ولكن اختلفت الآراء فى تقديره من الناحية الأخلاقية ، وقرفه بعض المؤرخين بالغدر والخيانة والجشع فى أخذ الرشا والتنكر للآراء والعقائد التى كان يدين لها، واستدلوا من أخبار حياته على أنه لم يف لأحد ، ولم يخلص لمبدأ ، وأنه عاش نهازا للفرص ، جاريا وراء متعة الجسد ، وقد بدأ حياته من هيئة كبار رجال الدين ، ولكنه كان يعيش عيشة ترف وفجور ، وكان مندوبا لرجال الأكليروس فخان عهدهم ، واشترك فى عمل الدستور المدنى ، وهو من الطبقة الأرستقراطية ولكنه تخلى عن طبقته وخدم الجمهورية ، وكان وزيرا فى حكومة الديركتوار واتمر بها وعمل على إسقاطها ، وكان الخادم المخلص لنابليون ولكنه هجر وسعى فى هدم بنيانه وتقويض دولته ، وكان معروفا عنه أنه من دعاة الاعتدال فى السياسة ومجافاة التعصب ولكن ذلك لم يمنعه من الانضمام إلى المتطرفين ضد حكومة لويس الثامن عشر التى كانت تمثل السياسة المعتدلة . وكان فى طليعة أنصار الحكومة الشرعية وبرغم ذلك أزاح عن العرش الملك الشرعى شارل العاشر ليحل محله الملك البورجوازى لويس فيليب ، وقد أخلص فى خدمة الحكومة الأورليانية ، ولكن نقاده لم ينسوا له سالف مواقفه وماضى تقلباته .

وكانت سفارة لندن آخر ما شغله من المناصب الحكومية ، وقد عمل بها أربع سنوات ، وأدركته الوفاة بعد اعتزال الخدمة الحكومية بثلاث سنوات ونصف سنة .

وليس من المستنكر أن تثير مثل هذه السيرة العجيبة الأقاويل والشبهات حول حياة تاليران ، وتدفع من ناحية بعض المؤرخين إلى الإسراف فى التحامل عليه

وتشويه سمعته ، كما تستحث من ناحية أخرى باحثين آخرين إلى محاولة تحرى الحقائق وتمحيص المعلومات لإنصاف الرجل والعمل على كشف حقيقته ، وتفسير خفايا شخصيته .

واللورد جراى تشارلز رئيس الوزارة البريطانية من ١٨٣٠ إلى ١٨٣٤ كان يقول عنه لأصدقائه المقربين : « إن تاليران وكاسلرى وبروجام أعظم أوغاد عرفها التاريخ » ولكن دوق ولنجتون قائد معركة وترلو المظفر وقد أتيحت له فرص لمخالطة تاليران والتعرف عليه من قرب صرح فى مجلس اللوردات ردا على هجوم عنيف قام به بعض الأعضاء على تاليران وكان حينذاك سفيرا لفرنسا فى بريطانيا قائلا : « فى كل معاملة من المعاملات العظيمة التى حدثت فى مؤتمر ڤيينا ، وفى كل مفاوضة شغلت بها مع الأمير تاليران من أول الأمر إلى آخره لم أجد أصلب منه عودا ، وأعظم مقدرة فى الدفاع عن مصالح بلاده ، كما لم أجد من هو أكثر منه استقامة ونبلا فى جميع اتصالاته بوزراء البلاد الأخرى » وأضاف قائلا : « إنه يعتقد اعتقادا صادقا مخلصا أنه لم يفتر على رجل فى حياته الخاصة والعامة كما افترى كثيرا على تاليران » .

وهى شهادة لها قيمتها إذ لم يكن هناك سبب خاص يدعو دوق ولنجتون إلى المصارحة بها وتأكيدها .

وقد كثرت المواد التى قدمت للمؤرخين لإصدار حكمهم على الرجل إزاء محكمة التاريخ ، وقد طبعت مذكراته الخاصة التى كتبها فى أواخر حياته سنة ١٨٩١ ولكن بعض المؤرخين يثيرون الشك فى صحة المعلومات الواردة بها .

وتناول حياته السير هنرى ليتون والمؤرخ الفرنسى ألبير سورل ، وفى سنة ١٩٣١ ظهرت ترجمة حياته الوافية التى كتبها المؤرخ الفرنسى لاكور جاييه ، كما كتب عنه المؤرخ الفرنسى لويس مادلان ، وقد عنى بدراسة حياته السياسى البريطانى دى كوبر وكتابه عنه من التراجم الشائقة الممتعة .

ومما هو جدير بالملاحظة أن المؤرخين الفرنسيين بوجه عام يقفون من تاليران فى أغلب الأوقات موقف الخصومة والعداء ، فى حين أن المؤرخين الأجانب سواء كانوا من الإنجليز أو من الأمريكيين أو الإيطاليين أو الألمان أكثر عطفا عليه وأعظم

تقديرا لمواهبه السياسية وحكمته الدبلوماسية وتساميه فوق النزعات الجامحة ونوبات الكراهة المدمرة التى كادت تقضى على المجتمع الأوروبى .

وقد ولد تاليران فى باريس يوم ٢ فبراير سنة ١٧٥٤ وكان أكبر أولاد أسرة من أعظم الأسر الفرنسية ، وقد أهمله والداه منذ ميلاده ، وتركاه للمربية لأنهما كانا شديدى الاتصال بالبلاط الملكى ، وحدث له وهو فى الثالثة من عمره أن سقط من فوق صون الثياب فأصيبت قدمه إصابة بالغة تركته يظلع فى مشيته طوال حياته ، وقد حال ذلك بينه وبين الانتظام فى سلك الجندية حسب التقاليد التى كانت متبعة فى أسرته ، وقد أرغمه والداه على دخول الكنيسة وأن يكون من رجال الأكليروس ، وكان بطبيعته فولتيرى النزعة بعيدا عن الروح الدينية حريصا على الاستمتاع بالحياة ، وكان لويس السادس عشر قد سمع عنه ما جعله يتردد فى رفعه إلى مرتبة أسقف أوتان ، وقد قسم وقته بعد بلوغه تلك المرتبة بين طلب المتعة وخدمة الدولة ، ونجح فى المجالين نجاحا ملحوظا ، وقد عاش عشرين سنة قبل سقوط النظام الملكى بفرنسا فى بذخ وإسراف ، مضيفا يقدم لزائريه أشهى ألوان الطعوم ، وزائرا يسحر من يغشى قصورهم بأحاديثه الجذابة الساحرة وملاحظاته الساخرة .

ولم يمنعه ظلعه من الكلف بالنساء ، بل ربما كان من أسباب عطفهن عليه ، ومن عجيب أمره أنه لم يتزوج بإحدى النساء الفاتنات من حظياته ، بل اختار زوجة له مدام جران التى لم تكن موفورة الحظ من الجمال أو الذكاء ، ولم يكن قد تم طلاقها من زوجها السابق .

ولكن الولع بالنساء ولعب الميسر وألوان الأطعمة والمشروبات لم تمثل سوى جانب واحد من جوانب حياة هذا اليافعة ، فقد كان يدمن قراءة الكتب ، وبخاصة الكتب التى تتناول الموضوعات السياسية والاقتصادية ، ويدرس طبائع الناس وأحوال المجتمع .

وقد كان فى مطلع شبابه حينما حضر حفل تتويج لويس السادس عشر فى كاتدرائية ريمز سنة ١٧٧٥ وفى السنة نفسها صار طالبا فى السوربون وبرغم كراهته للنظام الأكليروسى التحق به فى سنة ١٧٧٩ ومكنه المرتب الذى كان يتقاضاه من أن يعيش مستقلا عن والديه معيشة تلائم الطبقة التى كان ينتسب إليها أكثر من ملاءمتها

للوظيفة التى كان يقوم بها ، وفى سنة ١٧٨٠ اختاره قساوسة تور مندوبا عاما عن رجال الأكليروس ، وقد أظهر براعة ملحوظة وقدرة عملية فائقة فى القيام بفرائض هذه النيابة ، وعمل على التوفيق بين مصلحة الشعب ومصلحة رجال الدين .

على أن القيام بواجبات النائب العام للقساوسة لم تكف لإشباع نهم هذا الرجل الطموح المتطلع إلى توسيع دائرة نفوذه العملى ونشاطه السياسى .

وصادق فى هذه الفترة رجلين من رجال فرنسا البارزين ، وهما كالون الذى تولى الشؤون المالية فى فرنسا ، وعن طريق صداقته به استطاع تاليران أن يعرف الكثير عن الشؤون الخارجية وأن يفيد من تلك المعرفة ، والرجل الآخر الذى صادق تاليران هو ميرابو الذى صار فيما بعد أقدر خطباء الثورة الفرنسية ، وأحد أعلامها البارزين .

وحينما قامت الثورة كان أسقف أوتان قد أصبح من الرجال ذوى المكانة المرموقة فى باريس والمعروفين بسرعة الخاطر والبديهة الحاضرة واللمعان فى الصالونات والمقدرة العلمية والفطنة السياسية ، وكانت عراقة نسبه وصلاته الوثيقة بالكثيرين من ذوى النفوذ والمكانة العالية وذكاؤه اللماح وطموحه البعيد المدى ، وعدم تردده فى سلوك السبيل المفضية إلى النجاح . كانت كل هذه تنبىء بأنه سيكون خليفة لهذا الكاردينال العظيم الذى استطاع أن يسيطر على مصير فرنسا ، ويجمع فى يديه أزمة السلطة وعرفه التاريخ باسم الكاردينال ريشلييه .

وكانت الحكومة الفرنسية تعانى فى ذلك الوقت أزمة مالية عسراء ، على حين كانت الكنيسة واسعة الثراء ، وبرغم ضخامة ثروتها كانت مرتبات رجال الدين غير متعادلة ، وكان معظم الأساقفة من الطبقة الأرستقراطية ، ولهم مرتبات عالية ، فى حين كانت الكنيسة تقتر على صغار القساوسة فتمنحهم مرتبات ضئيلة ، وكانت الكنيسة مثل الأشراف تقاوم مطالب الإصلاح ، وبخاصة طلب المساواة فى دفع الضرائب .

وانتخب تاليران نائبا عن القساوسة فى الجمعية العمومية ، وحينما حضر إلى فرساي فى مايو سنة ١٧٨٩ لحضور جلساتها كانت تدور برأسه أفكار أطال دراستها وتمحيصها ، وكان يريد أن يكون لفرنسا نظام دستورى كالنظام السائد فى إنجلترا ،

وأن يكون الحكم الملكى محدود السلطة ، وأن يكون هناك مجلس نواب منتخب ومجلس آخر على نمط مجلس اللوردات فى إنجلترا له حق مراجعة القوانين وتنقيحها وقبولها أو رفضها ، وكان هذا هو مثله الأعلى للنظام السياسى ، ولذلك كان فى مختلف ظروف حياته يعتقد أن التحالف بين فرنسا وإنجلترا من ألزم ما يلزم لمصلحة فرنسا وتحسين أحوالها ومعالجة مشكلاتها ، وقد تحرى ذلك فى سياسته منذ عهد الثورة الفرنسية إلى نهاية حياته ، وقد استبان له قبل نشوب الثورة أن أخلاق الملك والملكة ستكون عقبة دائما تعوق الإصلاح التدريجى ، وقد كان الملك طيب القلب ، وقد بولغ كثيرا فيما نسب إلى الملكة مارى أنطوانيت من الاتهام بالإسراف الشديد ، ولكن طيبة قلب الملك لم تكن كافية لعلاج الموقف ، وكان الشعب الفرنسى يعتقد اعتقادا راسخا أن الملكة طائشة مبذرة ، وذلك فى الوقت الذى كانت الأزمة المالية قد بلغت أشدها .

واتفقت آراء تاليران مع آراء ميرابو ، وكثر التقاؤهما فى قصر فرساى وفى باريس بعد ذلك ، وكان تاليران بطبيعته يكره العنف والقسوة ، ولكن كراهته للغباء كانت أشد وأقوى ، وقد أدرك أن غباوة البلاط الفرنسى هى التى ستجعل التطور السياسى السلمى غير ممكن وأنها ستؤدى حتما إلى قيام الثورة الهوجاء .

ولما اشتد الدفع الثورى أخذ تاليران يشعر بالقلق ، وكان الرجل واقعيا لا يتأثر بالعواطف ، ويتناول أمور الدنيا فى ترفق وهدوء ، وأصحاب هذا المزاج عرضة لأن يتهمهم المتعصبون للأفكار أو للأشخاص بعدم الإخلاص للفكرة وقلة الولاء للأشخاص ، وكان أول اتهام وجه لتاليران بالتخلى عن مراعاة مصلحة الكنيسة حينما أعطى صوته فى تأييد الرأى القائل باستيلاء الدولة على أملاك الكنيسة ، وكان هذا الاستيلاء أمراً محتوما لشدة حاجة الدولة إلى المال ، وقد أطلق أنصار الكنيسة عليه لقب « يهوذا الأعرج » .

وفى الأشهر التى كثرت فيها الاضطرابات سنة ١٧٨٩ بدأ سيل المهاجرين يتدفق على الشواطئ الفرنسية ، وفى خلال ذلك كان تاليران مقبلا على العمل فى مختلف اللجان محاولا إصلاح العيوب وعلاج المشكلات بما أفاد من خبرة وبما رزق من بصيرة نفاذة ، ومن أعماله البارزة فى تلك الفترة التقرير الذى قدمه عن إصلاح

التعليم العام ، ومشاركته فى تقديم الدستور المدنى مما زاد سخط رجال الدين على هذا الأسقف الذى عد مرتدا .

وفى مايو سنة ١٧٩١ أصدر الفاتيكان أمرا بمنعه من مباشرة الشؤون الدينية وعزله من طائفة رجال الدين إذا لم يكفر عن ذنبه فى خلال أربعين يوما ، وكان ميرابو قد مات فى العام السالف ، وقوى نفوذ المتطرفين ، وأصبحت الإقامة فى باريس صعبة على رجل نشأ نشأة أرستقراطية ، فأوصى إلى رجال الدولة إيفاده إلى لندن لتسيير سبيل التفاهم بين فرنسا وإنجلترا إذا عجز عن عقد محالفة بينهما .

وعاد إلى باريس بعد مصرع رجال الحرس السويسرى فى ١٠ أغسطس ، وظل بها حتى شهر سبتمبر ، وعلم أنه قد اتهم بممالأة الأسرة المالكة ، وأن اسمه ورد فى قائمة المنبوذين من حماية القانون ، فعاد إلى إنجلترا ، وظل فى لندن حتى أجبرته الحكومة البريطانية على مبارحة الجزر البريطانية فى يناير سنة ١٧٩٤ دون تحذير سابق ودون ذكر الأسباب الداعية إلى طرده ، فبعث برسالة إلى وليام بت رئيس الوزارة البريطانية فى ذلك العهد يحتج على هذه المعاملة فلم يتنازل رئيس الوزارة إلى الرد عليه ، فرحل إلى أمريكا مطرودا من وطنه ومن أوروبا خالى الوفاض ، واضطر إلى أن يبدأ حياته من جديد وهو فى الأربعين من عمره ، واستغرقت الرحلة ثمانية وثلاثين يوما ، وقصد فيلادلفيا ، وكان بها بعض المهاجرين من الفرنسيين المطرودين من بلادهم ، وأراد أن يحظى بلقاء الزعيم الأمريكى الكبير جورج واشنطن ، ولكنه رفض لقاءه ، وفى نوفمبر سنة ١٧٩٥ تلقى أخبارا من فرنسا تبعث على الطمأنينة وتشجع على العودة ، فانتظر حتى انقضت أشهر الشتاء ، وأبحر إلى هامبرج فى آخر يونيو سنة ١٧٩٦ .

وقد أسفرت الثورة الفرنسية عن حكومة الديركتوار ، وكانت هذه الحكومة من أشد الحكومات الفرنسية فسادا ، وقد ظلت تحكم فرنسا مدة أربع سنوات من نوفمبر سنة ١٧٩٥ إلى نوفمبر سنة ١٧٩٩ وكان أكثر رجالها إمعاناً ، ولذلك كانوا فى حاجة إلى رجل له مثل خبرة تاليران السياسية وتجاربه المنوعة وقدرته على تصريف الشؤون العملية ، وبرغم أنه كان من النبلاء السابقين وهيئة رجال الدين ولا صديق له من ذوى النفوذ فقد وقع عليه الاختيار ليكون وزيرا للخارجية ، ويروى

أن مدام دى ستايل الكاتبة المعروفة ساعدته على نيل هذا المنصب ، وأغرت رجال حكومة الديركتوار بالاستفادة من مواهبه غير المنكورة ، وتجلت براعته فى شطرنج الأزمات وتجنيب الدولة الكثير من المشكلات ، وقد عرف فى الوقت نفسه كيف يستغل الظروف لمصلحته الخاصة واستطاع أن يجمع ثروة طائلة مكنته من أن يعيش طوال حياته فى سعة من العيش .

وسرعان ما أدرك أن حكومة الديركتوار مع عجزها وفسادها لن تستطيع البقاء ، وفى سنة ١٧٩٩ كان فى طليعة العاملين على إسقاط تلك الحكومة وإحداث انقلاب ١٨ بريمر الذى مكن نابليون من الاستيلاء على السلطة بوصفه القنصل الأول .

وعرف نابليون له هذه اليد الغراء فاختاره وزيرا للخارجية فى عهد القنصلية ، وقد احتفظ بهذا المنصب فى عهد الإمبراطورية النابليونية حتى اتسعت شقة الخلاف بينه وبين رئيسه نابليون بونابرت ولم يجد بدا من الاستقالة بعد الانتهاء من معاهدة تلست سنة ١٨٠٧ وبرغم ذلك ظل يوجه السياسة الفرنسية خلال السنوات الحافلة بالأزمات .

ويقول عنه المؤرخ برنار دى لاكومب « كان هو الذى أوجد السلم فى أوروبا ، وهو الذى وفق بين فرنسا الثورة وروسيا القياصرة، وذلك بعقد الاتفاق مع القيصر بولس الأول ، وهو الذى أعد معاهدة لونفيل ومعاهدة أمينز ، وهو الذى تولى المفاوضة لعقد الاتفاق مع البابا ، وهو الذى نظم إيطاليا فى مؤتمر ليون ، وكان حسب قول بارانت موحى السياسة المتبعة ، وكان رجال الدبلوماسية جميعا يتقربون منه ويخطبون وده ، وكان الصحفيون ونقلة الأخبار يسارعون إلى التقاط كلماته ، ويبادرون إلى إذاعتها بين الناس ، وكانت الشعراء تهدى إليه الأماديخ ، والسيدات الجميلات يقدمن لكلبه الصغير الحلوى ، وزوار باريس من الغرباء يسجلون ما يروى عنه من النكات البارعة والأقوال المأثورة » .

وإعجابه فى بادئ الأمر بنابليون وإخلاصه له ومساعدته فى الوصول إلى السلطة ومده له بالنصائح القيمة والوصايا الحكيمة يكاد ينعقد عليه اجتماع المؤرخين ، فقد كان يرى أن الحكم الشخصى ضرورة لازمة ، وأنه لابد من إيجاد الحكومة القوية الفعالة بأية طريقة من الطرق ، وكان بطبيعته ميالا إلى استقرار السلم ، وكان تثبيت

مكانة فرنسا يستلزم فى أول الأمر أن تخرج من الحرب منتصرة ، لأن قيمة الحرب فى رأيه أنها مقدمة للسلام الدائم ، ولكن حينما ركب نابليون رأسه ولم يستطع أن يكبح شهوة حب التوسع والغلبة بدأ تاليران يرى أن مصلحة فرنسا أصبحت متعارضة مع أهداف نابليون ومطامعه التوسعية ، وصار نابليون فى رأيه غير مخلص لفرنسا ، وهذا هو موضع الخلاف بين المؤرخين الفرنسيين والمؤرخين الأجانب ، فالمؤرخون الفرنسيون لم يستطيعوا أن يغتفروا له انقلابه على نابليون وعمله على تحرير فرنسا من نيره ، ولم يستطيعوا التفرقة بين نابليون والحكومة الفرنسية ، وهم من ثم يعتبرون تاليران خائنا للدولة لأنه عمل على إسقاط نابليون ، ولكن المؤرخين الأجانب نظروا إلى المسألة من زاوية أخرى ، وهم يرون أن تاليران كان محقا فى سعيه لإنقاذ فرنسا من مطامع نابليون الجنونية التى أدرك ببعد نظره وحصافته السياسية أنها ستؤدى فى النهاية إلى سقوطه والإضرار بمصلحة فرنسا .

وابتداء من سنة ١٨٠٤ بدأ تاليران يرى أن أيام المجد والانتصارات الباهرة ستسفر عن النكبات المتلاحقة والكوارث الرهيبة إذا لم يتخل نابليون عن رغبته فى إخضاع القارة الأوروبية لسلطانه القاهر ، وفى أرفرت اغتنم الفرصة للاتصال بالقيصر الإسكندر الأول من وراء ظهر نابليون ، وحرص القيصر على رفض الشروط التى عرضها عليه نابليون ، واستقال تاليران من وزارة الخارجية سنة ١٨٠٧ .

وفى سنة ١٨٠٩ حدث تقارب بين تاليران وفوشيه وزير الداخلية فى عهد نابليون ، ولم يكن ما بينهما قبل ذلك عامرا ، وكان التنافس بينهما على أشده والعداء مستحكما ، ولكنهما أدركا معا ما تنطوى عليه سياسة نابليون من الأخطار ، فتناسيا مؤقتا ما بينهما من خلاف ، وعلم نابليون وهو فى إسبانيا بزيارة فوشيه لتاليران وترحيبه به ومبادلته الحديث معه منفردين ، فأكبر نابليون الأمر ، وكان يعرف أنهما أقدر وزرائه ، وقدر خطورة هذا التقارب ، فسارع إلى العودة من أسبانيا ، ووصل إلى قصر التويلرى فى ٢٣ يناير ، وبعد أيام من وصوله دعا أعيانه إلى جلسة سرية ، وفيهم تاليران وفوشيه ، وفى بعض الروايات أنه دعا فوشيه على حدة ولامه لوما شديدا على هذا التقارب الجديد ، ثم بدأ حديثه فى الاجتماع المعقود بملاحظات عامة تضمنت رأيه فى أن الوزراء وأعيان الدولة ليس من حقهم

أن يفكروا لأنفسهم أو أن يعبروا عن أفكارهم ، وأن الشك فى صحة آرائه معناه بدء الخيانة ، وأن مخالفة رأيه جريمة .

وتدفق بعد ذلك سيل من الشتائم الجارحة على تاليران ظل مدة نصف ساعة بغير انقطاع ، وكان تاليران فى خلال ذلك متكئا فى عدم اكتراث على منضدة صغيرة ،ولم يترك نابليون نقيصة ولا جريمة دون أن يقذفه بها ، فهو لص وجبان وخائن ، ولم يحسن القيام بواجب واحد ، وأنه لا يؤمن بالله ، وأنه المسؤول عن قتل دوق دانيان ، وأنه خدع كل من عمل معهم ، وأنه هو الذى أشار عليه بحرب شبه الجزيرة الأسبانية ، وضايق نابليون سكوته وعدم اكتراثه ففقد السيطرة على نفسه ، وعير الرجل بعرجه وخيانة زوجته له ، وأخيرا هز قبضة يده كأنه يهم بضربه قائلا : « إنه قذارة فى جورب من الحرير » . . . واستفظع الحاضرون ما حدث ، فقد أخرج الغضب نابليون إلى غير ما هو لائق بمكانته ، وانفض الاجتماع ، وكان يبدو أن أقل الناس تأثرا بما حدث هو تاليران نفسه ، ولم يبد على وجهه أى أثر للتأثر أو الانفعال ، وكأنه لم يسمع شيئا ، والكلمة الوحيدة التى قالها تاليران وهو منصرف مع أحد الأعيان الخارجين هى : « من دواعى الأسف أن يكون رجل عظيم سيىء التربية إلى هذا الحد » .

ولم يمنعه ذلك من الحضور فى اليوم التالى ، وكان يوم الأحد، وكان نابليون يحب أن يلقى فيه الكثير من وزرائه وخاصة رجاله ، وبكر تاليران فى الحضور ، وتعمد الإمبراطور تجاهله ، وتحدث إلى الجالس على يمينه والجالس على يساره ، ولم يمنعه ذلك من موالاة الحضور ، وفى إحدى الليالى أخذ مكانه ، وتحدث نابليون مع جاره وأهمله ، وسأل جاره فى بعض الأمور ، وتردد الرجل فى الإجابة ، فاغتنم تاليران الفرصة وتولى الإجابة وأعطى نابليون المعلومات اللازمة كأنهما كانا على أحسن ما يكون من العلاقات .

وهكذا استطاع تاليران أن يكسر الثلج ، وقد لام نابليون نفسه على فقده السيطرة على أعصابه ، وشكر لتاليران موقفه ، وربما ظن أن مثل هذه الشتائم والإهانات التى وجهها إلى تاليران تنسى وتغتفر .

وفى السنوات الخمس التالية لم يكن تاليران مرضيا عنه ، وفقد ثقة الإمبراطور

الذى كان يتلقى من الحين إلى الحين ما يثبت انحرافه عنه ، ولكنه آثر الإبقاء عليه ، ولما سئل عن سبب ذلك قال إنه لا يستطيع الإضرار به ، وإنه لا يزال محتفظا بقليل من الميل إليه ، والواقع أن نابليون كانت له عيون على تاليران تحصى عليه كلماته وحركاته ، ومن ثم كان نابليون مطمئنا واثقا من ثبات مكانته ما دام يحرز الانتصارات المتوالية ، وفى حديث لنابليون مع الكونت موليه أنكر على تاليران كفايته السياسية ، وانتقد سيرته نقدا مرا ، وكان رد موليه على نابليون قوله : « إنه على الأقل يوافقنى الإمبراطور على أنه بارع فى الحديث شائق » فأجابه نابليون قائلا : « هذا هو مصدر انتصاراته ، وهو يعرف ذلك » .

وحينما عاد نابليون من روسيا كان فى حاجة إلى النصيحة ، ولما استدعى تاليران لاستشارته أشار عليه تاليران بالدخول فى المفاوضة ، ودعاه نابليون إلى العودة لوزارة الخارجية ، ولكنه اعتذر فى برود قائلا : « إنه استبعد منذ سنوات ، وذلك لا يمكنه من أن يكون على بينة من سير الأمور فى الأزمة الحادثة » . ولما قال له نابليون : « إنك تحاول خداعى » أجابه فى صراحة : « أنا لا أتقلد الوظيفة لأنى أعتقد أنك تخالف الآراء التى أرى فيها سعادة بلادى ومجدها » ... وقد بذل تاليران ما يستطيع من الجهد ليثنى عزم نابليون عن التورط فى الحملة الروسية ، وحرص فى سنة ١٨١٢ على أن لا يمكن جواسيس نابليون من العثور على أى دليل يدينه بالخيانة ، وفى لقاء مع نابليون فى يناير سنة ١٨١٤ تعرض لسيل آخر من الشتائم على غرار ما سبق أن حدث له « فهو كاذب وخائن ولص ولا يؤمن بالله » وقد حنى رأسه فى أدب ولزم الصمت .

ولما زال عهد نابليون ، وتقدم تاليران ليقسم يمين الولاء للملك لويس الثامن عشر قال له : « هذا يا سيدى يمين الولاء الثالث عشر، وآمل أن يكون آخر يمين للولاء أقسم به » .

وبرغم أن أسرة البوربون لم تحسن معاملته فقد ظل محتفظا بمكانته بين كبار الساسة ورجال الدبلوماسية ، فظل مترنخ السياسى النمساوى دائم الصلة به ، وصادق القيصر الإسكندر ، وكان حسن العلاقة بالوزير البريطانى ، وقد أرغم الحلفاء فى مؤتمر ڤيينا على أن يعاملوا فرنسا على قدم المساواة لا باعتبارها مجرمة

حرب ، واستطاع أن يوقع بين ساسة الحلفاء خشية أن يتفقوا على انتزاع أجزاء من الحدود الفرنسية .

وقد طلب منه لويس فيليب العودة إلى وزارة الخارجية فآثر أن يكون سفيرا لفرنسا فى إنجلترا ، وظل بها حتى سنة ١٨٣٤ .

وقد سوى هذا الدبلوماسى القدير الخلاف الذى قام بينه وبين الكنيسة ، وحضر وفاته فى ١٧ مايو سنة ١٨٣٨ الأب ديبانلوب ، وكان تاليران قد بلغ الرابعة بعد الثمانين من عمره الحافل بالأحداث والمغامرات .

ويروى عنه قوله : « أود أن يستمر طوال قرون قادمة البحث عما كنته وما فكرت فيه وما قصدته » وقد مر على وفاته أكثر من قرن وربع ، ولا يزال البحث التاريخى دائرا حول تقدير مواقفه واستجلاء غوامض شخصيته وخوافى سيرته .

وقد استطاع تاليران أن يحتفظ بمكانته واستقلال تفكيره أمام شخصية نابليون المنيفة وعبقريته المحلقة ، وقد دافع تاليران عن اتهامه بالتغلب بقوله : « إنى لم أتخل قط عن حكومة خدمتها إلا بعد أن تخلت هى عن نفسها ، وقد كنت على الدوام أحرص على مصلحة فرنسا فى تقديرى قبل أن أرعى مصلحة أى حزب أو مصلحتى الخاصة أو مصلحة أصدقائى ، ومصلحة فرنسا فى تقديرى لا تتعارض مع مصالح أوروبا الحقيقية » . ويرى المدافعون عنه أنه ربما كانت أساليبه ملتوية ، ولكن الهدف الذى كان يرمى إليه هدف سليم ، وإنقاذ فرنسا كان يستلزم الموقف الذى وقفه من نابليون ، وقد غامر فيه بحياته كما يرى المؤرخ الإيطالى فيررير و ، ومن كلماته عن الدبلوماسية قوله : « أود أن أبطل اعتقادا شائعا أن الدبلوماسية ليست الغش والخداع ، وإذا كان الإيمان الصادق لازما فى أى أمر من الأمور فهو لازم قبل كل شىء فى السياسة ومعاملاتها لأن هذا هو الذى يجعلها قائمة على أساس سليم ويكفل لها البقاء » وقوله هذا خلاصة تجربة طويلة ، وثمرة حكمة عميقة ، فهو جدير بالتقدير .

نابليون المفكر

كان نابليون رجلا محلق العبقرية ، شامخ الشخصية ، صارم العزم ، بعيد الهمم ، وأحد نوادر قادة الجيوش والأمم المعروفين فى التاريخ ، وقد تجلت مواهبه فى صور واضحة ومواقف مختلفة منذ مستهل نشأته ، وطالعة أمره ، مما مهد له السبيل إلى بلوغ الذروة وتخطى العقبات المعترضة ، وكان مزودا بمؤهلات عدة ، وقدرة على العمل خارقة ، وقد أثارت عبقريته المتعددة الجوانب إعجاب معاصريه ودهشتهم حتى تكاثرت حول سيرته عجائب الأخبار ، ونسجت الأساطير ، وفتن به قوم فأضافوا إليه من الصفات ما يكاد يسمو به إلى مكانة الآلهة ، وكرهه قوم وأسرفوا فى كراهته حتى صوروه فى صورة الشيطان المريد ، وهذا يجعل المؤرخين الذين يعرضون لسيرته ووزن أعماله وتقدير مواقفه فى حاجة ماسة إلى اصطناع الحذر والتزام الحيدة فى مواجهة الأخبار المتناقضة والآراء المتعارضة .

ولا نزاع فى أن الصفة الغالبة على نابليون بوجه عام هى أنه أحد الرجال العمليين الأفذاذ ، أى أنه لم يكن من طبقة المفكرين الخلاقين أو الفلاسفة المعدودين أو كبار رجال الفن والأدب ، وحينما نعرض لاختيار أفكار أحد رجال الأعمال لنتعرف قيمتها ، فإننا لا ننتظر منه أن تكون أفكاره واضحة الخطوط ، بارزة المعالم ، متماسكة المنطق ، مدعومة بالشواهد والأسانيد مثل أفكار الفلاسفة المتخصصين ، أو العلماء الدارسين ، وذلك لأن التفكير فى ميادين الفلسفة ومجالات العلم يستطيع إلى حد كبير أن يكون مسرحا من الأهداف الدنيوية المباشرة ، وغير خاضع للاعتبارات التى لا يجد رجال الأعمال مندوحة عن أن يحسبوا لها الحساب رعاية لمصالحهم الخاصة أو أهوائهم الغالبة ، على أن تفكير رجال الأعمال فى كثير من الأحايين يتضمن نظرات كاشفة لامعة هى ثمرة الممارسة المباشرة ، والتجربة الواسعة المستفيضة ، وحسبها ذلك لجعلها جديرة بالتأمل والتفكير .

وقد كان تفكير نابليون متجها بطبيعة الحال فى جوهره إلى النواحى العملية حتى قيل عنه : إن تفكيره كان حقائق واقعة وليس كلمات مرسلة ، وكان لا يبالى بالصيغ المألوفة والألفاظ الذائعة على ألسنة معاصريه والتى شاعت خلال عهد الثورة الفرنسية ، وبهذا التصميم على الذهاب إلى ما وراء الألفاظ ومواجهة الحقائق استطاع نابليون أن يرى الأشياء فى ذاتها ، وبهذا الإصرار على الواقعية استطاع السيطرة على فرنسا ، ومن أسرار نجاحه أنه كان يساير روح العصر ويحسن فهم اتجاهاته ، وقد أدرك أن الأمة الفرنسية قد ملت الفوضى التى خلفتها الثورة الفرنسية ، وأصبحت مستعدة لأن تلقى مقادتها للرجل الحديدى الصلب الذى يستطيع أن يحسم الفوضى ، ويعيد النظام إلى نصابه بصورة تقر الأوضاع وتصون الأمن .

وكان أسلوب نابليون فى الحديث وإصدار الأحكام وإلقاء الأوامر واضحا محددا ، ويمتاز بالإيجاز والقوة ، وكان يضيق فى مجلس الدولة بسماع الخطب الفضفاضة والكلمات المنمقة الطنانة ، وقد انتقد مرة تقريرا قدمه له الكونت دى شامبانى وزير خارجيته قائلا له : « أسلوب التقرير ليس عمليا بما فيه الكفاية ، إن ما أريده هو التفكير الصارم لا الطلاوة والتوشية » وشدة ولعه بالدقة والوضوح كانت تجعله يطالب رجاله بتحرى الدقة والوضوح ، والويل لمن كان يخيب ظنه من هذه الناحية ، إلى حد أن بعض رجاله كان يعمد إلى اختلاق الوقائع ليجعل كلامه مقبولا ، ويعتمد على الحظ فى إخفاء كذبه ، ويبدو هذا الحرص على الإيجاز والوضوح فى رسائله ، ففى أواخر مارس سنة ١٨٠٨ عرض عرش إسبانيا على أخيه لويس ملك هولندة فى تلك الفترة ، وبعد أن بين له مزايا ذلك العرض قال له فى رسالته : « رد علىَّ ردا قاطعا ، إذا عينتك ملكا على إسبانيا هل توافق ؟ وهل أستطيع الاعتماد عليك ؟ أجبنى بهاتين العبارتين ، قل : قد تلقيت رسالتك المؤرخة يوم كذا وجوابى عن ذلك . . . نعم أو لا » .

وكان هو نفسه صريحا ودقيقا فى إبداء رأيه سواء فى الرجال الذين عرفهم أو فى النساء ، ففى الوقت الذى سادت فى فرنسا أفكار المساواة بين الرفيع والوضيع والإشادة بحقوق الإنسان أعلن نابليون أن الناس لا يمثلون الإنسانية الكاملة ، وأنهم

مخلوقات لهم قابليات خاصة ، وعادات وميول معينة ، واتجاهات وعيوب ونقائص كثيرات ، ومعنى ذلك أنه لم يكن حسن الظن بالطبيعة الإنسانية ، ولا ميالا إلى الأفكار المثالية ، ويعجبنى فى هذا المقام قول المؤرخ هولند روز عنه : « من ناحية السياسة الداخلية فى فرنسا كان الإمبراطور تابعا لمذهب بنتام قد وضع التاج على رأسه » وهو يقصد بذلك أن نابليون كان يسير على سياسة مذهب المنفعة الذى قال به بنتام ، وهو بوصفه مفكرا سياسيا يسلك دائما سبيل المساومة ، وقد عبر عن انتهازيته سنة ١٨٠٠ حينما قال : « سياستى قائمة على أن أحكم الناس كما يريد العدد الأكبر منهم أن يحكموا ، وأظن أن هذا هو طريق الاعتراف بسيادة الشعب ، وقد أنهيت الحرب الفنلندية باعتناقى الكاثوليكية ، وبدخولى فى الإسلام استطعت أن أضع قدمى فى مصر، وباعترافى بسلطة البابا استطعت أن أكتسب الرأى العام الإيطالى ، ولو أننى حكمت اليهود لأعدت لهم بناء هيكل سليمان ، وكذلك سأتحدث عن الحرية فى الجزء الحر من سان دومنجو ، وسأبقى على نظام الرق فى جزيرة فرنسا (موريناس) وحتى فى الجزء غير الحر من جزيرة شان دومنجو ، مع العمل على الحد منه ، وتلطيف وقعه ، وسأعمل على إدخال النظام والخضوع للطاعة حيث أحتفظ بالحرية».

وهذا الاعتراف الهام يرينا طبيعة السياسة النفعية التى سار عليها نابليون طوال حياته ، وهو لا يخفى عامل الأنانية المستتر وراءها ، وقد أوتى من القوة والصراحة ما جعله يكشف لنا أوراقه ويعلن مذهبه ، والجماعات فى رأى نابليون تقاد بالعقل ويسيطر عليها بالحزم والعزم .

وهذا الاتجاه العملى كان يزيده تغذية اطلاعه على التاريخ ، وقد كان كلفا بقراءة التاريخ منذ كان ضابطا صغير الرتبة فى مطلع حياته العسكرية ، وقد قرأ جمهورية أفلاطون ،وكتب لنفسه ملخصات عن الحكم فى فارس وأثينا وجغرافية بلاد اليونان وتاريخ مصر القديمة وآشور والهند ، واطلع على تاريخ العرب والحركة الإسلامية، ولكن الحياة لم تكن فى نظره رسالة يقوم بها كما كان يرى متزينى وغيره من المثاليين ، وإنما كانت فى رأيه سيرة يعمل خلالها على بلوغ أهدافه وتحقيق مطامعه .

ولم يكن راضيا عن الطريقة التى يكتب بها التاريخ ، فقد كان حريصا على معرفة الحقائق والمراجع التى استقيت منها ، وقد ذكر وهو فى سانت هيلانة أنه رمى إلى إعادة كتابة الحوليات الفرنسية من أوثق المراجع والعناية بوثائق وزارة الخارجية ، كما كان يرى أن المؤرخ فى حاجة إلى الخيال ، ومن أقواله فى هذا الصدد : « من المسائل المتفق عليها أن المؤرخ بمثابة القاضى ، وسيكون اللسان المعبر عن الجيل التالى ، ولذلك من اللازم أن تتوفر فيه كثير من صفات الكمال إلى حد أنه من الصعب أن نصدق أنه من الممكن أن يكتب تاريخ جيد ، وما يمكن الحصول عليه حسب الطلب من رجال متزنى العقل قد أوتوا شيئا من الموهبة هو رسائل تاريخية تدور حول موضوع معين وتكون ثمرة بحث شاق مؤيد بوثائق صحيحة مشفوعة بمحفوظات انتقادية تلقى ضوءا على الحادث ، وإذا كانت هذه البحوث والوثائق والمواد مفرغة فى قالب من السرد الجيد فإن مثل هذا العمل سيكون قريب الشبه بالتاريخ إلى حد كبير » .

وتقترن عند نابليون عادة سرعة النفاذ إلى صميم المشكلات ولب الحوادث بالقدرة على الإيجاز الجامع ، وكان من النادر أن يلقى نابليون خطبا مسهبة ، وكان إذا أراد أن يلخص الآراء فى مسألة من المسائل العارضة استطاع أن يقوم بذلك فى دقة وإحكام ، ومن قبيل ذلك رده على مرافقيه من العلماء وهو قادم إلى مصر على السفينة « لاوريان » فبعد أن عرض العلماء ما عندهم من الحجج التى تنفى وجود الله أشار نابليون إلى السماء وقد رصعتها النجوم وقال : « ولكن يأيها السادة الألباء من صنع هذا كله ؟ » .

وحينما كان قنصل فرنسا الأول أثيرت مسألة ضرورة وجود وارث له سواء كان من أحد أبنائه أو كان ابنا متبنى ، أجاب نابليون هذه الإجابة الموجزة : « الوارث الطبيعى لى هو الشعب الفرنسى ، إنه ابنى ، وإنى لم أعمل لغيره » .

والمسألة الشائعة فى حياة نابليون هى موقفه من مسألة القضاء والقدر ، وربما استطعنا أن نستخلص من كثرة ترديده لكلمة الحظ والإشارة إلى نجمه أنه كان قدريا ، كما كان من عادته أن يصلّب حينما تبلغه أنباء مثيرة ، ولكن إصدار الأحكام على طبيعة معقدة وشخصية متعددة الجوانب مثل نابليون يستوجب الحذر ، ويتطلب

الأناة وتقليب الأمر على وجوهه المختلفة ، وربما يكون نابليون قد اكتسب عادة التصليب منذ نعومة أظفاره ، فليس فى أعماله ولا فى أقواله ما يدل على الثقة المطلقة بالقدر ، وبرغم استمتاعه فى بعض الأحايين بالحديث عن نجم حظه فإنه كان ينقض هذا الاعتقاد حينما يتحدث عن نفسه وينفض أسرارها ، ومن أقواله لجورجو الذى لازمه فى سانت هيلانة قوله : « إن الإنسان حر دائما وسيد نفسه » وفى إبان علو نفوذه كان يعلن دائما أنه يعمل كل شىء بحساب ، وقد كتب مرة ضمن رسالة إلى أخيه جوزيف بونابرت : « لا يستطيع الإنسان فى الحرب أن يكسب شيئا إلا بالحساب وإعمال الفكر ، ولا يأتى بثمرة سوى الشىء الذى فكر الإنسان فيه تفكيرا شاملا مستوعبا » .

ومن تصريحاته فى سنة ١٨١٣ : « إنى أغادر مكانا وأذهب إلى غيره ، وأبرح سانت كلود لأذهب إلى موسكو ، وليس باعث ذلك الميل الخاص أو من أجل الأصدقاء ، وإنما سبب ذلك الحساب الجاف» .

والرجل الذى يعتمد فى أعماله على التفكير المتواصل الدقيق لا يكون فى العادة قوى الاعتقاد بسلطان القدر ، لأنه يؤمن بكفاية عقله ، ولا يعتمد على قوة خارج شخصيته ، وكان فرط الثقة بالنفس من الصفات التى لازمت نابليون منذ بدء نشأته ، وفى مختلف أدوار حياته ، وكان يعمل دائما على أن يكون سيد الظروف المحيطة به لا خادما لها خاضعا لمقتضياتها ، وكان شديد الإيمان بأن الإقدام والشجاعة والهمة العالية والعزيمة الماضية تحتم الحوادث وتسيطر عليها .

والقائد العظيم عادة لا يكون قدريا ، فما الذى كان يرمى إليه نابليون بإشاراته الكثيرة إلى القدر ونجم الحظ ؟ لقد كان يعمل كل شىء بحساب ، ويهدف إلى غاية ، فما غايته فى ترديد الإشارة إلى الحظ ؟

من المحتمل أن يكون قد تأثر باطلاعه على فكرة اليونان عن الحظ والقدر ، وقد كان من المعجبين بترحم فلوطارخ ، وكثير من الحوادث المروية فيها تشير إلى فكرة الحظ وتأثيرها فى الرومان واليونان ، وسيرة تيموليون التى ذكرها فلوطارخ من أمثلة ذلك البارزة ، فلم يكن تيموليون قائدا بارعا فى وضع الخطط الحربية ، وقد أقدم على قيادة حملة صغيرة إلى صقلية لتحريرها من الطاغية ديونيزاس

والقرطاجنيين ، وكانت المحاولة من ناحية الأهبة والاستعداد تنذر بالإخفاق وتبعث على اليأس ، ولكن كانت هناك علامات تبشر بالخير ، وقد استطاع بالحيلة والحذق أن يتسلل عبر المضيق ويتحاشى سفن القرطاجنيين ، وفاجأ جيوشهم ، وأصاب منهم غرة ، وتم له النصر عليهم ، وأذهل هذا الانتصار المدن اليونانية ، وجعلها تعتقد أنه محبوب من الآلهة ، فانحازت إلى صفه ، ونجح فى الاستيلاء على قلعة سرقوسة وعلى ديونيزاس نفسه ، ويقول فلوطارخ : إن هذه الحوادث جميعها جعلت الناس تكبر شأن تيموليون وتعده إنسانا مقدسا قد أرسلته العناية الإلهية لينتقم لأهل صقلية وينقذهم من نير العبودية ، وقد كانت هذه الانتصارات المتتابعة إلى حد كبير ثمرة الاعتقاد بأنه مشمول برعاية الآلهة .

وكان نابليون يعرف هذه القصة معرفة جيدة ، كما كان يعرف قوة تأثير الاعتقاد بالخرافات فى أذهان العامة ومنهم جمهرة جنوده وأتباعه ، وقد نبذ عقيدته الدينية واستبقى فيما يظهر إيمانه بحظه لأنه كان نافعا له فى إشعال حماسة الجند وتعلق الأتباع به ، فمن المحتمل إلى حد كبير أن كثرة إشاراته إلى حظه كان يقصد بها كسب العامة إلى صفه ، وقد صمم نابليون على أن يكون الحظ من أنصاره وأعلن ذلك ونجحت الحيلة ، ولكن هذا الرجل الدائم التفكير كان يسهر الليل لا ليراقب نجم حظه ، وإنما ليراجع التقارير التى له ويدرسها وليرسم الخطط ويدير الأمور قبل أن يملى التعليمات ويصدر الأوامر .

وقد كان نابليون مولعا بأشعار أوشيان البطل الأرلندى الذى عاش فى القرن الثالث الميلادى ، وقد قرأ الترجمة الإيطالية لأشعاره وأعجب بها إعجابا شديدا ، وكانت قصائد الكاتب الأرلندى ماكفرش تلك التى زعمها ترجمة لأشعار أوشيان قد ذاعت وشاعت حينذاك ، وقد راق نابليون فيها على ما يظهر كثرة مغامرات البطل الأرلندى ، وكان يذكر هذا الإعجاب لمن يلقاهم من الإنجليز .

وكان نابليون بوجه عام يميل إلى الشعر البليغ الذى يعبر عن المشاعر السامية ، ولكن ذوقه فى الموسيقى والتصوير والنحت كان محدودا ، ولم يبدأ اهتماما يذكر بطرائف كبار أساتذة التصوير الموجودة فى متحف اللوفر ، وكان حينما يقف إزاء إحدى هذه الصور يكتفى بالسؤال عن اسم صاحب الصورة قائلا : « من هذا ؟ » أما

فى فن المعمار فكان يعجب بالضخامة ، وقد قال غير مرة إن أشد ما أثار دهشته أهرام الجيزة وتمثال العملاق المسمى « قريون » ويمكن أن نعزو إلى هذه النزعة فخامة الأثرين الفنيين اللذين أقيما بباريس فى عهده ، وهما قوس النصر وعمود فندوم .

والرجل الذى يمضى معظم وقته فى معالجة مشكلات الأدب والفن ، وينزع إلى التأمل والتفكير ويطل على الدنيا من حجرة المطالعة يكبر فى العادة شأن الرجال العمليين ، وربما عدهم أجل منه شأنا وأسمى مكانة ، ولعل هذا من الأسباب التى تدعو الشعراء إلى صوغ المدح للأبطال والأعيان ، وقد كان جيتى كبير شعراء الألمان يعد لقاءه لنابليون وحديثه معه من أهم حوادث حياته ، وقد ظل محتفظا بإعجابه الشديد بنابليون حتى بعد سقوط دولته وانقضاء عهده ووفاته ، ففى حديث له سنة ١٨٢١ مع صاحبه أكرمان قال عن نابليون : إنه ولد ليحكم الدنيا وإنه كان يجد سعادته فى الحكم والسيطرة وإنه كان كفؤاً لتناول كل موقف .

وحينما التقى جيتى بنابليون فى أرفرن انتقد نابليون مسرحية « محمد » التى ألفها فولتير ونقلها جيتى إلى اللغة الألمانية ، وقد عاب نابليون على فولتير مجانبته الحق فى تصوير شخصية نبينا الكريم .

كذلك انتقد نابليون بوجه عام المسرحيات التى يلعب فيها القدر دورا كبيرا وقد أبدى لجيتى إعجابه بكتابه « أحزان فرتر » وقد أخذ على جيتى أنه جعل فرتر يبادر إلى الانتحار مدفوعا بعاملين وهما إخفاقه فى الحب وخيبة أمله فى طموحه ، وحب نابليون للوضوح والدقة جعله يعتقد أن الجمع بين هذين الدافعين يتنافر مع الطبيعة الإنسانية ، والعجيب أن جيتى أقر نابليون على وجهة نظره ، وقد ذكر لويز الذى ترجم لحياة جيتى أن ورنر الأصلى – وهو جبر ومسلم ، الذى أسماه جيتى فى روايته باسم ورنر قد انتحر مدفوعا بهذين السببين ، والظاهر أن جيتى قد نسى ذلك حينما واجهه نابليون بنقده .

وفى محادثة أخرى مع جيتى فى ويمار أبدى نابليون بعض ملحوظات منطوية على نقده لشيكسبير ، وقال لجيتى : « يدهشنى أن رجلا راجح العقل مثلك لا يميل إلى أصحاب الآراء الحاسمة والألوان الواضحة » .

ولم يرد جيتى على ذلك ، واسترسل نابليون بعد ذلك فى الحديث عن المأساة ، وحث جيتى فى النهاية على أن يكتب مأساة عن « موت قيصر » يكشف فيها الخطط العظيمة التى كان يريد قيصر تنفيذها لو مد عمره ، واقترح على جيتى أن يصحبه إلى باريس ، وذكر له أن مجال المشاهدة بها أوسع ، وأنه سيجد هناك مادة عظيمة لخلقه الشعرى .

وفى أثناء حفلة رقص أقيمت فى ويمار دارت مناقشة حادة بين نابليون والكاتب النقادة ويلاند ، وكان موضـــوعها المؤرخ الرومانى تاسيتوس (سـنة ٥٥ إلى ١٢٠ق .م) وكان سبب احتدام المناقشة قول نابليون : إن المأساة مدرسة للرجال المستنيرين ، وإنها من بعض الوجوه تفوق التاريخ ، وتجمع فى اللحظة التى ألقى فيها نابليون بهذا التصريح جماعة من المفكرين فى أحد أركان الحجرة ، واسترسل الإمبراطور يقول مخاطبا ويلاند : « أؤكد لك أن المؤرخ تاسيتوس الذى تكثرون من الاستشهاد بل لم يعلمنى قط شيئا ، وهل نعرف أعظم منه تنقصا للرجال وتنكيتا عليهم ، وهو مع ذلك ظالم لهم ؟ وهو يعزو أبسط الأعمال إلى الدوافع الإجرامية وهو يصور أباطرة الرومان جميعهم أشرارا سفلة لكى يكسب الإعجاب للعبقرية التى هتكت سترهم ، وحولياته أولى بأن تسمى ملخصا لسجلات الأباطرة من أن تسمى تاريخا للإمبراطورية ، فهى لا تخبرنا بشىء سوى الاتهامات والمتهمين وأخبار الذين فتحوا شرايينهم فى الحمام ، وهذا الذى لا ينى يتحدث عن الجواسيس هو نفسه أعظم الجواسيس ، وأى أسلوب ؟ وأى غموض لا يلمح فى ظلماته ضوء ؟ ولست من كبار المتمكنين من اللاتينية ، لكن غموض تاسيتوس واضح فى عشر تراجم أو اثنتى عشرة ترجمة قرأتها فى الفرنسية أو الإيطالية ، ومن ثم استنبطت أن الغموض أصل فيه ، وأنه ليس مقصورا على أسلوبه، وإنما يشمل كذلك تفكيره ، ولقد سمعت ثناء عليه من أجل الخوف الذى يوقعه فى نفوس الطغاة ، فهو يجعلهم يهابون الشعب ، وهذا نكبة على الشعب نفسه ، ألست على حق يا سيد ويلاند ؟ » .

وتوقف نابليون عن الحديث معتذرا ببعض الاعتذار ، واسترعى نظر الجماعة إلى براعة القيصر الإسكندر فى الرقص ورشاقة حركاته ، ولكن جماعة الحاضرين كانت أكثر اهتماما بمشاهدة المبارزة الفكرية منها برؤية الرقص البديع والحركات النشيطة .

وشجعت صراحة نابليون ويلاند على قبول التحدى ، فبدا يقول : « إن تاسيتوس لم يعمد إلى فضيحة الأباطرة والتنديد بهم لرعيتهم السافلة الوضيعة فحسب ، وإنما كشف كذلك مساوئهم للإنسانية جميعا فى مختلف الأجيال » وختم حديثه بقوله : إنه يأمل أن يسيطر العقل على الناس بدلا من العاطفة والهوى .

فأجابه نابليون : « هذا ما يقوله فلاسفتنا جميعهم ، وبرغم بحثى عن قوة العقل هذه فإنى لم أجدها فى أى مكان » .

فتجاسر ويلاند على أن يقول : « إن من علامات نموها الاهتمام المتزايد بتاسيتوس أقدر مؤرخى العصور القديمة على التلوين كما سماه راسين ، ولقد كانت الإمبراطورية فى عصره يحكمها هولان فباخ ، وقد سلقهم تاسيتوس ببيانه ونال منهم ، وقد كان مضطرا إلى أن يحصر نفسه فى سجلات روما ، وفى كتابة تاسيتوس تنعكس صورة ذلك العصر البائس الشقى الذى وقف فيه الأمراء والشعب وجها لوجه ، ولكنه حينما يصف العهود التى تحالفت فيها الإمبراطورية مع الحرية فإنه يعتبر ذلك أعظم الكشوف التى اهتدى إليها الإنسان » .

وأبدى الحاضرون استحسانهم ، واعترف نابليون بأنه تلقاء خصم عنيد ، وبأن موقفه محفوف بالأخطار ، ولكن براعته المعهودة لم تخذله فى هذا الموقف ، والتف حول جناح خصمه قائلا : « هل راسلت مصادفة الهر ميللر الذى لقيته فى بوتزدام ؟ » (والواقع أن المؤلف الألمانى جوهان فون ميللر كان قد حذر ويلاند من عداء نابليون لتاسيتوس) فأربك ذلك ويلاند ، واعترف بأن الأمر كما قدر نابليون ، وأدهش ذلك الحاضرين وأمتعهم ، وشجع ذلك نابليون على استئناف المناقشة مؤكدا « أن تاسيتوس لم يكشف عن الأسباب الداخلية المستترة للحوادث ، وأنه يترك علاقاتها الخفية الغامضة غير واضحة » ، وأوجز غرضه بقوله : « إنه يجب الحكم على الحكومات حسب البيئة » وأنهى المناقشة فى هذا الموضوع ، وقد أبلى فيها بلاء حسنا ، وحول مجرى الحديث إلى نواح أخرى ، وكان نابليون يحترم الرجل الذى يعرف ما يقول ، ويحسن التفكير ، فأهدى وسام الشرف الفرنسى لجيتى وويلاند .

وقد ظل نابليون إلى آخر أيامه وهو يكره تاسيتوس ، ولم يغير رأيه فيه ، ففى

جزيرة سانت هيلانة ، حيث نفى ، عاد فأكد رأيه فى أن تاسيتوس لم يفسر الدوافع التى تؤثر فى أعمال الرجال ، وأن القصص التى رواها عن الإمبراطور تيبريوس سخيفة ، ولماذا يحرق نيرون روما وهو الذى كان يحبها حبا جما ؟ لم يقدم تاسيتوس سببا يدعو إلى ذلك ، وسخر نابليون من فكرة عزو كراهته لتاسيتوس إلى معارضة تاسيتوس للطغيان .

وما من شك فى أن لتشديد تاسيتوس النكير على الطغاة والمستبدين أثرا فى تحامل نابليون عليه ، ولكن نقده لتاسيتوس ، مهما كانت أسبابه ، كان له تأثير حسن فى الدراسات التاريخية ، فقد أثار الشكوك فى صدق الصورة التى رسمها تاسيتوس لتيبريوس وغيره من ساسة زمانه وأعيانه ، ويرى كثير من الباحثين فى هذا العصر أن صوره الحزينة الشديدة النكر مبالغ فيها ، وليس أدل على ذكاء نابليون من أنه كان فى طليعة الذين لحظوا ذلك وأشاروا إليه ونبهوا عليه .

ومن الموضوعات الشائعة فى تفكير نابليون مسألة معتقداته الدينية ، كان نابليون فى إبان اعتلاء نفوذه واكتمال سلطته يلتزم الحيطة فى حديثه عن الدين ، وكان وزير خارجيته شابتال - وقد عرف نابليون معرفة ذاتية جيدة - يعتقد أنه تبين فيه مبادئ فقدان اليقين الدينى ، وكان هناك آخرون يعتقدون أنه كاثوليكى حسن العقيدة لأنه كان بين الحين والحين يحضر القداس ، وكان نابليون يرى من المسائل بها أن الكاثوليكية تناقض المثل الأعلى لنظام الحكم فى المستقبل ، ولم يكن كذلك حسن الرأى فى البروتستانتية لأنه كان يراها دعة لوحدة الإرادة العامة ، وكان يرى الدين بوجه عام قوة للمجتمع لأنه يغرى الناس بالإعراض عن طلب الحرية فى العالم إذ يحيى فيهم الأمل بالتعويض عنها فى الحياة الأخرى ، ولكنه عاد فغير رأيه فى هذا الموضوع ، فقد علمته التجارب احترام الدين ، وأدرك مزيته بوصفه من القوى الضخمة فى هذا العالم ، وأصبح يقدر الدين لأنه كان يرى فيه محذرا سياسيا للشعوب ، ولما علم بعد معركة إسرليتز أن أحد العلماء فى فرنسا حمل على الدين أرسل إليه يلومه على ذلك ويوبخه لأن الإلحاد مذهب هادم للنظام الاجتماعى ، إذ يجرد الإنسان من الأمل وكل ما يهون عليه احتمال آلام الحياة وفواجعها .

أما فى أثناء إقامته فى سانت هيلانة ، حيث لم يكن ملزما بمراعاة مقتضيات

السياسة وأصول الحكم فكان كثيرا ما يردد أن الإنسان مخلوق أرضى ، وأن الثور كذلك مخلوق أرضى ، أن الإنسان مجرد نوع أسمى من أنواع الثيران لأنه مكون من مواد أكمل نظاما ، وأنه من الممكن أن يظهر على الأرض فى المستقبل كائنات أسمى من الإنسان ، ويتساءل قائلا : « أين روح الطفل أو روح المجنون ؟ إن الروح تتبع الجسد ، وهى تنمو مع الطفل وتبلى فى الرجل العجوز ولكن فكرة وجود إله هى أبسط الأفكار فمن الذى صنع هذا كله ؟ » .

وفى مناسبات كثيرة كان يردد أن آداب المسيحية ليست سوى آداب سقراط وأفلاطون ، وكان يبدى فى بعض الأحيان إيثاره للدين الإسلامى ، وقد عجز عن الرد على شيوخ مصر حينما سألوه عن الثالوث ، وأصروا على أنه يتضمن الشرك بالله ، وأنه من أجل ذلك وثنى ، وكان يقول : « إن محمدا انتصر على نصف العالم المعروف فى عشر سنوات ، وإن المسيحية أتمت مثل هذا العمل فى ثلاثة قرون » ومن دواعى إعجابه بالإسلام أنه كان يراه عقيدة محاربة .

ويمكن أن نستخلص من آراء نابليون فى الدين أنه كان ينظر إلى الدين من ناحية أنه قوة سياسية على إثارة الناس إلى العدوان ، أو تقوية النظام بعد تغلب الفوضى ، وأنه يهون على الفقراء احتمال شقاء الحياة .

ومن الأقوال المنسوبة إلى نابليون وهو فى سانت هيلانة قوله : « كل شىء يعلن وجود الله ، ولكن أدياننا جميعها من الواضح أنها من عمل الإنسان . . . ومن المؤكد أننى لست ملحدا ، ولكنى مع ذلك لا أستطيع أن أصدق كل ما هو مخالف للعقل دون أن أكون غير أمين ومنافقا . . ومعرفة من أين أتت ، وماذا أكون ، وإلى أين أنا ذاهب من وراء علمى ؟ ومع ذلك فإن هذا كله حقيقة وإنى أنا الساعة الموجودة ولكنها لا تعرف نفسها ، وإنى أستطيع المثول بين القضاء الإلهى وأنظر فى غير جزع ، فهو لن يعثر فى نفسى على فكرة القتل، أو دس السم ، أو الموت الظالم أو الذى أعد من قبل ، وهى المسائل المألوفة فى حياة أمثالى ، ولقد كنت لا أريد سوى المجد والقوة والعظمة لفرنسا ، ولقد وقفت مواهبى ووقتى على ذلك ، ولا يمكن أن يعد هذا جريمة ، فهذه الجهود كانت تبدو لى فضائل » .

ويقول اللورد روزبرى السياسى الإنجليزى الشهير (١٨٤٧ - ١٩٢٩ م) إنه

يبدو أن ميل نابليون الحقيقى كان متجها نحو الديانة الإسلامية ، وقد صرح بأنها أجمل الأديان ، بل قال مرة – كما يروى روزبرى « نحن المسلمين » ولكن روزبرى يروى إلى جانب ذلك قوله : « لو اضطررت إلى اعتناق دين من الأديان لفضلت عبادة الشمس منبع الحياة والإله الحقيقى للأرض » .

ويمكن أن نستخلص من حياة نابليون ومجمل سيرته أنه كان لا يعمل من أجل تحقيق غاية سامية أو مثل أعلى ، بل كان يعمل من أجل مجده الشخصى ، ولم تكن تهمه فرنسا ولا أوروبا ولا الإنسانية جميعا ، وإنما كانت عظمته الشخصية ونفوذه الخاص وتفرده بالسلطة هى محور اهتمامه ومناط آماله واتجاهاته .

وهو يمثل النزعة الفردية واتجاه الفلسفة الإنسانية التى بدأت منذ عهد إحياء العلوم ، والكثير من أقواله ينم على فرط ثقته بنفسه واكتفائه بالاعتماد عليها .

والدين فى رأيه سند من أسناد الدولة ، ووسيلة من وسائل السياسة ، وربما كان الحكم على عقائد الرجال من المغامرات غير المأمونة العثار ، ولكن الأحاديث الكثيرة المعزوة إلى نابليون والتى رواها عنه أصحابه ومنهم من لازمه فى أكثر أدوار حياته ، ووفى له فى محبته ، لا تجعلنا نطمئن إلى أنه كان يدين بأى دين من الأديان ، إنه كان يؤمن بوجود إله ، ولكنه ينكر الأديان – برغم مفاضلته بينها – على الطريقة الفولتيرية التى كانت سائدة فى القرن الثامن عشر الذى ولد فيه نابليون .

بوشكين

إسكندر بوشكين هو أعظم الشعراء الروسيين غير مدافع ، وهو شاعر روسيا القومى المعبر عن عواطفها وخوالجها وسماتها النفسية ولون مزاجها وتطلعاتها الروحية .

ومكانته فى الأدب الروسى مكانة شيكسبير فى الأدب البريطانى وجيتى فى الأدب الألمانى ودانتى فى الأدب الإيطالى .

وقد يكون مستواه فى الأدب العالمى دون مستوى هؤلاء الثلاثة، ولكن المرجح أنه أقرب إلى نفوس الروسيين من جيتى إلى نفوس الألمان وأحب إليهم وأعز عليهم من شيكسبير فى نفوس البريطانيين ودانتى فى نفوس الإيطاليين .

وهو فى الوقت نفسه أشد الشعراء الروسيين استعصاء على الترجمة ، وأقلهم قابلية لها ، وليس ذلك لصعوبة أسلوبه ووعورة مصطلحاته وخفاء معانيه ، وإنما سبب ذلك بلوغ أسلوبه فى اللغة الروسية حد الكمال وغاية الإتقان ، مما يجعل المتصدى لترجمته إلى أية لغة أخرى مقصرا فى أدائه مهما أوتى من القدرة والتمكن .

وبوشكين مثل سائر الشعراء العظام الصادقى العبقرية لا يمتاز بما يصح أن نسميه بالاكتفاء الذاتى فى الإنتاج الأدبى ، فقد اطلع على الأدب الفرنسى وتزود منه ، وعرف الأدب الإنجليزى معرفة جيدة والأدب الإيطالى والأدب الألمانى ، وأفاد من اطلاعه على الأدب الأوروبى بوجه عام وظل مثابرا على هذا الإطلاع حتى أيامه الأخيرة ، ولكنه ظل مع ذلك روسيا خالصا فى صميمه ، وقد استطاع أن يطبع هذه المؤثرات جميعها بالطابع الروسى ، وينفض عليها صبغته الشخصية ، أى أن يهضمها جميعها ويحولها إلى أجزاء من كيانه ويمزجها بطبيعته ويجعلها جزءا من تقاليد الأدب الروسى .

ولم يكن مجيء بوشكين كذلك فلتة من الفلتات أو نتيجة ليس لها مقدمات ، فقد تقدمه رجال أعلام مهدوا له السبيل ، وأزالوا من طريقه بعض العقبات ، ومجيء

العبقريين الأفذاذ يسبقه فى العادة إرهاصات وطوالع تدل على تهيؤ الجو لقبول رسالتهم ، وتلقى وحيهم، وبوشكين هو رائد الأدب الروسى الحديث ، ولكنه مع ذلك ثمرة عصره ، وقد جاء محمولا على تيار النهضة التى بدأها المصلح الكبير والعاهل الخطير بطرس الأكبر .

ويمتاز شعر بوشكين بالبساطة المعجزة ، والإحكام غير المتكلف ، ومع شدة عنايته بتثقيف شعره وتجويد أدبه فقد كان يبدو لقرائه كأنه جاء عفوا بغير تعب ولا استكراه ، وكان بوشكين نفسه رجلا مشبوب الحماسة قوى العاطفة كريم النفس ، وكانت أشعاره المحكمة السبك الجيدة الرصف تنم على ما وراءها من عاطفة متأججة وحوافز قوية .

وقد ولد بوشكين فى ٢٦ مايو سنة ١٧٩٩ بمدينة موسكو من أسرة نبيلة قديمة ، ولكنها لم تكن فى وقت ميلاده واسعة الثراء ، وكانت والدته حفيدة هانيبال وهو أحد أبناء الأمراء الأحباش ، وكان القرصان فى أواخر القرن السابع عشر قد هاجموا شواطئ الحبشة وأسروا جماعة من الأطفال من بينهم طفل فى الثامنة من عمره ، وأبحروا بهم إلى الأستانة ، وهناك عرضوهم للبيع فى سوق الرقيق ، وكان هذا الغلام الحبشى من نصيب سفير روسيا فى الأستانة ، وقد رأى هذا السفير أن يقدم هذا الغلام الحبشى هدية للقيصر بطرس الأكبر ، وقد أعجب به القيصر ومنحه ظل رعايته وأسماه إبراهيم هانيبال ، وأشرف بنفسه على تعليمه وتنشئته .

وقد وصف بوشكين نفسه فى القصة المشهورة التى لم يتم فصولها قصة « زنجى بطرس الأكبر » كيف تولى بطرس الأكبر بنفسه زواج هانيبال من سليلة إحدى الأسرات الروسية العريقة ، وقبول الأسرة هذا الزواج وهى مرغمة مرضاة للقيصر واستجابة لأمره .

وواضح أن الدم الأفريقى الحار كان يجرى بحكم الوارثة فى عروق هذا الشاعر الكبير ، وقد اتخذ بعض العلماء من ذلك دليلا من إدانة بعض نظرية التفوق الجنسى التى كان يتشدق بها فريق علماء الأجناس والسلالات ، والمتأمل فى صورة بوشكين يلمح أنه كان جعد الشعر غليظ الشفتين بارز الصدغين فوراثته الأفريقية ظاهرة فى معارف وجهه كما هى ظاهرة فى أخلاقه وسماته النفسية وآثاره الأدبية .

ولم تظهر بوادر سرعة نضجه الفكرى إلا حينما بلغ التاسعة من عمره ، فقد استولى عليه حينذاك نهم شديد إلى القراءة والاطلاع ، فقرأ كتاب فلوطارخس عن أعيان الرومان واليونان والإلياذة والأوديسة والكتب الفرنسية التى وجدها فى مكتبة والده ، وقد وهب ذاكرة قوية واعية .

ومن المراحل الحاسمة فى حياته التحاقه فى سنة ١٨١٢ بمعهد « تسارسكويه سيلو » الذى أنشأه القيصر الإسكندر الأول فى سنة ١٨١١ لتخريج الشبان الممتازين من أبناء الأسر الروسية ليعهد إليهم بعد ذلك فى تولى المناصب الكبرى فى الحكومة القيصرية ، وكانت مدة الدراسة فى هذا المعهد ست سنوات يستكمل فيها الطالب إعداده ويستوفى ثقافته وكان هذا المعهد على مسيرة عشرة أميال من بطرسبرج .

وقد ظل بوشكين فى أثناء دراسته مثابرا على الاطلاع ، وكان فولتير هو الشاعر الحبيب إلى نفسه فى تلك الفترة ، وبدأ يقرض الشعر ، وكانت أولى محاولاته الشعرية باللغة الفرنسية ثم باللغة الروسية بعد ذلك ، وقد احتذى نماذج الشعراء الفرنسيين ، كما ترسَّم خطوات معاصريه من الشعراء الروسيين أمثال زوكوفسكى وكارامازين وغيرهما من أدباء عصره البارزين ، وسرعان ما ظهر تفوقه فى النظم وامتياز أسلوبه حتى اجتذب التفات مشاهير شعراء عصره وأثار حماستهم ، فأبدوا إعجابهم به وتقديرهم له ، فكان الشاعر زوكوفسكى الذى يكبره فى السن والذى سبقه إلى الشهرة يزوره فى معهده ويقرأ عليه أشعاره ، وواضح من ذلك أن الشهرة جاءته مبكرة ودون أن يبذل فى سبيلها جهدا كبيرا .

وكان سلوكه الشخصى وهو فى هذا المعهد مثل سلوك زملائه من ناشئة فتيان الأسر الأرستقراطية ، وهو التخلى عن قيود الآداب ، والانطلاق بغير عنان فى طلب المتعة والانغماس فى شتى ضروب اللهو وألوان القصف .

وكان الطلبة من خريجى هذا المعهد يلحقون بوظائف فى الحكومة ، فلما تخرج بوشكين ألحق بإحدى هذه الوظائف فى وزارة الخارجية ، واغتنم هذه الفرصة للمشاركة فى حياة المجتمع الراقى فى العاصمة ، بطرسبرج عند ذاك ، تلك الحياة الصاخبة المرحة المسرفة فى طلب المتعة والإمعان فى اللهو ، فكانت له

مغامرات غرامية لا تعد ، وأقبل على الشراب ولعب القمار ، وكانت له فى المبارزة جولات كثيرات .

وبرغم انغماسه فى هذه الحياة العابثة اللاهية كان مع ذلك غير مقصر فى موالاة الاطلاع ، والاستزادة من المعرفة والعمل على إنماء مواهبه ، وصقل ملكاته الفنية وتوسيع آفاقه الفكرية .

ونظم فى هذه الفترة قصيدته الضافية « رسلان ولوميلا » وهى طليعة آثاره الأدبية الكبيرة ، وهى رومانسية عن مدينة « كييف » القديمة جيدة النظم بارعة الفكاهة خلابة الأسلوب ، وقد تلقاها جمهور القراء بالحماسة والإعجاب ، ويلغ من تقدير الشاعر زوكوفسكى لها أن كتب إلى بوشكين بعد اطلاعه عليها وعلى صورته المهداة « إلى التلميذ المنتصر من الأستاذ المنهزم » .

على أن بعض النقاد المتشددين قد وجهوا اللوم إلى الشاعر لأنه تناول فى منظومته الأساطير الشعبية الروسية غير الجديرة بشاعريته ، وتأثر بوشكين بالأدب الفرنسى ظاهر فى هذه القصيدة ، ومهما يكن من الأمر فإن اشتغال بوشكين بنظمها مع قصائد أخرى يدل على أنه فى تلك الفترة كان يشعل الشمعة من طرفيها فيجمع بين الجد واللهو .

وكان ضمن ما نظمه بوشكين فى هذه الفترة قصيدة عن الحرية أشاد فيها بقتل الطغاة المستبدين ، كما نظم بعض المقطعات المتضمنة هجاء أركشيف والسخرية به ، وهو أحد مستشارى القيصر المكروهين ، وكان الرقيب بطبيعة الحال لا يسمح بنشر هذا النوع من الشعر ، ولكن جرت العادة فى ذلك العصر أن تنتقل النسخة الخطية لمثل هذا الشعر من يد إلى يد ، وتكاثرت الإشاعات حول اسم بوشكين من جراء ذلك حتى بلغت مسامع القيصر فأمر بنفيه إلى جنوب روسيا فى سنة ١٨٢٠ .

والواقع أن النفى كان لبوشكين نعمة فى طى نقمة ، فقد ازدهرت طبيعته الحارة فى مناظر بلاد القوقاز الرائعة وبين كروم شبه جزيرة القرم وما بها من أشجار السرو وأشجار الغار ، وانتقل بعد ذلك إلى كيتسينيف عاصمة بسارابيا التى انتزعت من الأتراك سنة ١٨١٢ ، وفى أثناء أقامته فى كيتسينيف عنى بمتابعة التيارات السياسية فى داخل روسيا واتصل ببعض جماعة الديسمبريين .

وكان أسلوب حياته فى هذه الفترة لا يختلف عن أسلوب حياته فى العاصمة ، فكان وقته مقسما بين الاطلاع وقرض الشعر وبين الميسر والمغامرات الغرامية والاشتباك فى المبارزات .

ونقل من كيتسنيف إلى أودسا ، وكان رئيسه بها حاكم مقاطعة بسرابيا الكونت فورنتسوف وكان رجلا شديد الكبرياء كثير الاعتداد بنفسه ، ويعامل من هم دونه فى ترفع وازدراء ، ولم يستثن من هذه المعاملة الشاعر العبقرى الطموح المعتز بأدبه وحسبه ونسبه ، وساءت العلاقات بينهما ، ومما زاد الخصومة بينهما اشتعالا أن صاحبنا الشاعر الذى كان فؤاده على الدوام رمية للغوانى الحسان وقع فى غرام زوجة الحاكم الحسناء ، ويروى أنها كانت الأنموذج الذى صاغ على مثاله شخصية تاتيانا فى روايته الشعر المشهورة « موجين أوينجن » وقد انتهت إقامته فى الجنوب بإبعاده بموجب أمر قيصرى إلى ضيعة والده فى ميخابلوفسك .

وفى أثناء إقامته فى الجنوب نظم من قصائده الطوال قصيدة أسير القوقاز ، وقصيدة نافورة باغشى سراى وقصيدة النور .

وكان متأثرا فى هذا الدور من أدوار حياته الأدبية بشعر بيرون وشخصيته الثائرة المتمردة ، ولكنه مع ذلك لم يكن من هؤلاء الذين مضوا يقلدون بيرون تقليدا أعمى ، وغاية ما فى الأمر أن بيرون كان من المؤثرات التى أثرت فى أدبه دون أن تطغى على شخصيته الخلاقة ، ولا نزاع فى أن تصوير بيرون لشخصية الأرستقراطى الثائر دون جوان الذى وهب حياته فى النهاية لتحرير اليونان من ربقة الحكم التركى كانت تستهوى خيال الشاب الروسى الأرستقراطى الراغب فى الحرية لبلاده ولغيرها من بلاد العالم .

وتعد قصيدة « النور » من خير قصائده ، وقد شاهد الكثير من حياة هذه الطائفة فى أثناء إقامته بسرابيا ، وراقته كثرة تنقلاتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وبطل هذه القصة « إليسكو » رجل عرف الدنيا وخبر الناس وسئم الحضارة وتاق إلى معاشرة النور وانضم إلى زمرتهم ، وأحب فتاة منهم ، ولكنها لم تبادله حبا بحب ، وملته وخدعته ، وآثرت عليه فتى من فتيان قومها ، وفى ذات ليلة لقيهما معا ، فلم يستطع كبح غضبه وإطفاء نيران حقده فقتلهما معا . والعجيب أن القبيلة اكتفت بإبعاده ،

وقال له والد الفتاة : « إننا قوم مستوحشون وليست عندنا قوانين ، ولكننا لا نحب أن نعيش مع رجل استباح القتل ، وأنت لم تولد لمثل هذه الحياة الطليقة لأنك لا تريد الحرية لنفسك ، ونحن قوم لسنا فى شىء من الشر وإن هان ، وقلوبنا منطوية على الرحمة ، وأنت قاس غليظ القلب غير هياب ولا وجل ، ومن الخير أن ترحل عنا » .

وفى إثناء إقامته فى ضيعة والدته وجد فى مربيته العجوز خير صديق ، وقد اعترف بأنه مدين لها بفرط حبه للأساطير الشعبية الروسية والقصص والحكايات الخيالية التى أفاد منها بعد ذلك فى بناء ما ألف من القصص والأساطير .

وقد أعقب تأثره ببيرون إعجابه الشديد بشاعرية شيكسبير الذى كشف له عن آفاق أكثر سعة وامتدادًا ، وقد ظهر تأثره به فى قصيدته التاريخية « بوريس جودينوف » وموضوعها مستمد من كتاب كرامازين عن تاريخ روسيا ، وهى تتناول حياة ديمتريوس المزيف الذى ادعى أنه ابن إيفان الرهيب القتيل ، وهذه القصيدة التاريخية حافلة بالمواقف الدرامية والحوار الشائق ، وقد أحب هذا المطالب بالعرش مارينا البولندية وأحبته هى لأنها ظنته ابن ملك ، وفرط حبه لها جعله يمتنع عن خداعها فصارحها فى أحد مواقف القصيدة بحقيقته ، فأجابته بأنها ستقطع علاقتها به ما دام الأمر كذلك ، ولكنه فى هذا الموقف يرتفع فوق العار والهزيمة ويرد عليها قائلا : « إننى برغم كونى دعيا دجالاً قد ولدت لأكون ملكا ، وإننى أحد الملوك الذى صنعتهم الطبيعة ، وإنى أتحدى قدرتك على إنزالى من هذه المكانة ، وحدثى الناس جميعهم بالسر الذى أفضيت به إليك فإنك لن تجدى بينهم مصدقا » ، وينتصر عليها بهذه الصراحة .

وهذه القصيدة التاريخية الحافلة على النمط الشيكسبيرى ، لا لأنها تحاول تقليد شيكسبير ، وإنما لأنها فى بعض مواقفها ترتفع إلى مستوى التخيل الصادق الذى ارتفع إليه شيكسبير أكثر من أى شاعر آخر .

وتمتاز لغة بوشكين فى هذه القصيدة بالبساطة ومجافاة التكلف، ولم تطبع هذه القصيدة إلا فى سنة ١٨٣١ ولم تظفر حين ظهورها بتقدير النقاد شأن بعض الآثار الأدبية العظيمة التى لا تظهر للنقاد محاسنها من أول وهلة .

وفى أواخر شهر نوفمبر سنة ١٨٢٥ سمع بوشكين نبأ وفاة القيصر الإسكندر الأول فجأة وهو فى طريقه من شبه جزيرة القرم إلى تاجزوج على بحر أزوف ، وأن أخاه قسطنطين قد اعتلى بعده عرش القياصرة ، ولم يلبث قسطنطين أن تخلى عن العرش لأخيه نيقولا .

وقد كانت حياة القيصر الإسكندر ملأى بالغرائب والمتناقضات، وقد بدا فى أوائل عهده نزاعا إلى التقدم والمبادئ الحرة ، وصادق نابليون ، ثم اختلف معه ، وهاجم نابليون فى عهده روسيا وانتصر على الجيوش الروسية فى معركة بورودينو ، ودخل بعدها موسكو دخول المنتصر الظافر ، وقد أثار ذلك شعور الروسيين القومى ، ووحد صفوفهم ، وجعلهم يقفون إلى جانب القيصر على اختلاف مشاربهم وتباين أهوائهم ونزعاتهم لرد عدوان الغير على بلادهم .

وقد اشتركت الجيوش الروسية فى القضاء على سيطرة نابليون فى القارة الأوروبية ، وعاد كثير من ضباط الجيش الروسى إلى بلادهم بعد أن عاشوا فى الخارج ردحا من الزمن ، وحفلت نفوسهم بأفكار الغرب عن الحرية والدستور والحكم الملكى المقيد .

وتأثر القيصر الإسكندر بالسياسى الرجعى النمساوى مترنيخ ، ومال إلى الرجعية بكليته ، وتنكر لمبادئ الحرية ، وخيب الآمال التى كانت معلقة عليه ومنوطة بحكمه ، وكان ذلك سببا لظهور الجماعة المعروفة بجماعة الديسمبريين ، وهم فريق من ضباط الجيش كانوا يطالبون بالدستور وتحرير المزارعين الأرقاء ، وقد اتصل بهم بوشكين ، ولكن بعده عن العاصمة لم يمكنه من مشاركتهم مشاركة كاملة ، كما أنهم من ناحيتهم لم يفضوا إليه بسر تآمرهم على إحداث الانقلاب الذى كانوا يتطلعون إليه لأنهم أدركوا أنه ليس فيه طبيعة المتآمرين ، وليس له قدرة على طول الاحتفاظ بأسرار السياسة وتدبير خططها .

ولم يكد القيصر نيقولا يعتلى العرش حتى قام الديسمبريون فى اليوم الرابع عشر من شهر ديسمبر سنة ١٨٢٥ بمحاولتهم لقلب نظام الحكم والمناداة بالحريات الدستورية ، وكان القيصر الجديد رجلا شديد الوطأة صلب الإرادة فأمر بإخماد الثورة فى مهدها ، ولم يتورع عن استعمال القسوة المتناهية ، وقدم المتآمرون

للمحاكمة ، وقد قضت بشنق خمسة من زعماء محاولة الانقلاب ، ونفى مائة وعشرين منهم إلى سيبريا ، وظل القيصر طوال حكمه يناهض الأفكار الحرة ويضطهد الأحرار وينكل بهم حتى عد عهده من أقسى عصور الحكم فى روسيا وأشدها ظلاما .

وبرغم صلة بوشكين ببعض الديسمبريين البارزين فإن الحكومة القيصرية لم تجد دليلا على إدانته واشتراكه فى حركة محاولة الانقلاب ، واغتنم بوشكين هذه الفرصة ليطلب العفو عنه واغتفار صلته بالديسمبريين .

ورأى القيصر نيقولا أن يغتفر للشاعر ذنبه ، ويعمل على تقريبه ، ويوليه رعايته ، فدعاه إلى مقابلته ، وأحسن لقاءه .

وليست هناك معلومات دقيقة عما دار بين الشاعر والقيصر من الأحاديث وقد بدا القيصر الماكر الذى كان يحسن التمثيل لبوشكين رجلا صريحا حسن النية ميالاً إلى الآراء التقدمية .

ويروى أنه ذكر لبوشكين أنه كان مضطرا إلى التزام الشدة مع الديسمبريين توطيدا لعرشه ، ولكنه لا ينوى بحال من الأحوال الاستمرار فى متابعة هذه الخطة ، وقال للشاعر إنه سيعفيه من تعنت الرقباء على النشر ويجعل من نفسه رقيبا على آثاره الأدبية .

وخرج بوشكين من حضرته مزهوا بتقدير العاهل القدير للشعر والشعراء وكان يعرض ما تجود به قريحته من الأشعار على الرقابة الملكية بدلا من عرضها على الرقيب العادى ، وكان الواسطة بينه وبين القيصر هوبكندورف رئيس الشرطة السرية .

وقد كانت علاقة بوشكين بالقيصر مدعاة لاتهامه بالتنكر لمثله العليا ونزوعه إلى الحرية ، ولكن الواقع أن بوشكين لم يكن بطبيعته من المشتغلين بالسياسة ، وكان يريد أن تتاح له الفرصة لمباشرة جهوده الأدبية فى جو هادئ ، وفضلا عن ذلك كان قد جال فى خاطره أنه يستطيع بقدرته الشعرية أن يحسن توجيه القيصر إلى ناحية الخير والإصلاح والتقدم .

ولم يكن بوشكين من طراز الخائنين المستذلين ، وقد أخذ يدرك أن ما أحاطه به القيصر من قيود خطية ، وما وراء رعايته له من انتقاص لحريته ، فطلب السماح له

بالسفر إلى القوقاز ، فلم يقبل طلبه ولم يجب ، وسأل القيصر الحصول على إجازة للذهاب إلى خارج روسيا فلم يجب طلبه ، وكانت حجة القيصر فى ذلك أنه يعنى بشأنه وأنه أعرف منه بالنافع له .

وفى ربيع سنة ١٨٢٩ أحب فتاة عمرها سبع عشرة سنة ، وهى نتاليا جوتشاروفا ، وطلب يدها ، ورفض طلبه ، فذهب يائسا إلى القوقاز واشترك فى حملة إخضاع بعض القبائل الجبلية الثائرة على حكومة القيصر ، ولما عاد من هذه الرحلة طلب إليه بيان الدوافع التى حدت به إلى السفر إلى القوقاز دون الحصول على إذن من القيصر .

وفى ربيع سنة ١٨٣٠ عاد بوشكين إلى طلب يد الحسناء الفاتنة التى ملأ حبها نفسه ، وأجيب طلبه فى هذه المرة ، ولما عرض اعتزامه الاقتران بها على القيصر وافق على ذلك ، وزوده بالنصائح والتحذيرات ، وأصبحت علاقته بالقيصر بعد ذلك شديدة التعقيد ، ويقول يانكو لافرن فى كتابه : « المدخل إلى الرواية الروسية » إن هناك من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأن القيصر كان مهتما بروحية الشاعر أكثر من اهتمامه بالشاعر .

وقد أتم بوشكين بعد زواجه روايته الشعر « يوجين أرتيجن » السابقة الذكر ، وهى تعد من أبدع الطرائف الأدبية فى الأدب الروسى ، وهى تصف المجتمع الروسى الذى عاصره بوشكين وصفا صادقا واقعيا ، وأرتيجن بطل هذه الرواية يمثل شبان بطرسبرج فى ذلك العهد ، وكان أبوه من كبار الموظفين ، وقد نشأ نشأة أرستقراطية وعرف آداب المجتمع ، وتمرس بمختلف الفنون الأوروبية ، وأتقن الحديث باللغة الفرنسية ، وكان شديد العناية بملابسه ، ويستطيع الخوض فى شتى الموضوعات ، ويتخير النكات البارعة ، ويضرب الأمثال المناسبة ، وقد جمع بين الاطلاع على أدب هوميروس وآراء آدم سميث فى الاقتصاد ، ويموت والده تاركا مجموعة من الديون ، ولكن أحد أعمامه يدعوه إلى الريف وقد أشرف على الموت ، وحينما يصل أرتيجن إلى الريف يكون عمه قد أسلم الروح ، ويعد نفسه وارثا لضيعة هذا العم ، ويستولى عليه الملل من الحياة الرتيبة فى الريف ، ويتفق حينذاك عودة أحد جيرانه الشبان من ألمانيا وهو الشاب لنسكى ، وهو شاعر شديد

التحمس لشيلر وغيره من الكتاب الألمانيين ، ودارس لفلسفة كانت ، ويقدم لنسكى أرتيجن لأسرة «لارن » المجاورة لهما وهى أسرة مكونة من أرملة وبنتيها ، وكان لنسكى قد أحب الفتاة الكبيرة أولجا ، وكانت فتاة مرحة لعوبا تحب اللهو والصخب ، على خلاف أختها الصغرى تاتيانا الحالمة التى كانت لا تميل إلى اللهو والمرح ، وتؤثر العزلة والانطواء على النفس، ويجذب منظر أوتيجن وأناقته قلب تاتيانا الخجول ويثير فى نفسها عاطفة الحب ، ويجعلها تعتقد أنها قد وجدت فتى أحلامها ، ولا تلبث أن تكتب إليه رسالة تعترف فيها بحبها له ، وإيثارها إياه ، ولكن أوتيجن يصارحها فى لهجة خالية من الحرارة بأنه قد خبر الحياة ولم يعد فى حالة تسمح له بقبول حب خالص مثل حبها ، وأنه غير جدير بهذه الهبة الكريمة ، ولا يملك أن يقدم لها مقابلا ، وقد تلطف فى إبلاغها ذلك حتى لا يجرح شعورها ، ونصحها بأن تقمع مشاعرها وتقتصد مستقبلا فى إبداء عواطفها ، حتى لا تقع فى حبالة أحد المخادعين العابثين بقلوب العذارى ، وقد تمالكت تاتيانا شعورها واحتملت الصدمة الأليمة وتماسكت وتجلدت ، واتفق أن أقامت بعد ذلك السيدة لارفين حفلة راقصة ، وكان بين من دعتهم لحضورها لنسكى ، الذى صار خطيبا لأولجا وصديقة أوتيجن ، وقد حضر الحفل جماعة من علية القوم وزهرات المجتمع ، وفى أثناء الحفل لمح أوتيجن أولجا خطيبة صديقه فدعاها لمراقصته ، ورقص معها عدة رقصات متتالية ، ومن بينها رقصة نصف الليل التى كانت قد وعدت بها خطيبها ، وأثارت مراقصتها لهذا الشاب الوسيم المتأنق غيرة خطيبها لنسكى وأغضبته ، فلما انتهت الرقصة لم يستطع مغالبة غضبه ، واتهم صديقه بأنه يحاول أن يسلبه حب خطيبته ، وحاول أوتيجن عبثا أن يهدئ غضبه ، ويزيل حقده ، ولكنه أبى أن يستمع إليه أو أن يقبل عذره ، وتحداه أن يبارزه فى اليوم التالى .

والتقيا فى الصباح الباكر ، وأسفرت المبارزة عن مصرع لنسكى ، ولما تبين أوتيجن أن صديقه قد قضى نحبه حزن على فقده ، وندم على سلوكه ، ووبخه ضميره ، ولم يستطع البقاء فى الضيعة لأن صورة صديقه كانت ما تنفك تطارده وغادر المقاطعة وأخذ يتنقل فى مختلف الأقطار ، وهو يحاول أن ينسى همه المقعد

المقيم ويرفه عن خاطره المكتئب ، ولكنه لم يوفق فى ذلك وظل قلق النفس موجع القلب مهتاج الخاطر ، وعاوده الحنين إلى بلاده وزيارة مسرح مأساته، فلما قدم العاصمة بطرسبرج أقبل عليه أصدقاؤه القدامى مرحبين مبتهجين بعودته ، وألحوا عليه فى البقاء بينهم حينا من الزمن بعد غيابه الطويل ، وتلقى دعوة إلى حضور حفلة راقصة فى قصر أحد النبلاء ، وكان يدعى الأمير جزيمين ، وأغراه أصدقاؤه بقبول الدعوة ، وكان قد أصبح زاهدا فى حضور أمثال هذه الحفلات، فيلبى الدعوة ويذهب غير حافل ، وفيما هو يطوف بغرف القصر قلقا حائرا لا تبرح ذاكرته المبارزة النكدة يلمح بين المدعوين سيدة حسناء باهرة الجمال ترتدى ثيابا فاخرة وتتزين بأنفس الجواهر وأغلى الحلى تتنقل بين صفوف المدعوين والمدعوات فى رشاقة مستحبة وجلال يجذب الأنظار ، ويدرك أوتيجن أن هذه السيدة هى ربة الدار ، وعرف بعد أن تأمل فى وجهها قليلا أنها صاحبته تاتيانا وجارته القديمة ، ولكنها لم تكن الفتاة الحالمة البريئة فقد استحالت سيدة مكتملة الأنوثة ظاهرة القسامة يحبها زوجها الأمير حبا يقرب من العبادة برغم ما بينهما من تفاوت كبير فى السن ، ولا يألو وسعا فى سبيل إسعادها ، وتثير رؤيتها فى نفس أوتيجن ميولا هائجة فيشعر بحب شديد لها ونزوع إلى التقرب منها ، ويثها حبه وهيامه ، ويقبل عليه الأمير جزيمين ويقدمه إلى زوجته الحسناء فى زهو واعتزاز ، وتلقاه تاتيانا بشىء من الفتور ، ولا تخفى سابق معرفتها به ، ثم تبتعد عنه فى صحبة زوجها ، ويتبين أوتيجن أنه مفتون بهذه السيدة ، ويأسى على الفرصة التى أفلتت منه فى الماضى ، ويعجز عن محاولته كتمان حبه ، ويعتزم أن يبوح لها بهواه مهما احتمل فى هذا السبيل ، ويترصدها فى ناحية خالية ، وينتهز فرصة اقترابها ويسرع إليها مبديا لها حبه وإعجابه ، ويناشدها أن تبادله حبا بحب لترد عليه سعادته الضائعة وهدوء نفسه المفقود ، فتذكره فى مرارة بما سبق أن صدر منه ، فيجثوا على ركبتيه ملتمسا الصفح عن ذنبه ، فتصارحه بأنها لا تزال محتفظة فى نفسها بحبها له ، ولكنها مع ذلك مصرة على الوفاء لزوجها المتفانى فى إسعادها وإدخال السرور على قلبها ، وتخشى انهيار مقاومتها فتبتعد عنه مودعة ، ويملأ اليأس قلب أوتيجن فيضع يده فى جيبه ويخرج مسدسا يسدده إلى رأسه ويخر على الأرض ميتا من فوره .

ويطرق بوشكين ميدان البحث التاريخى ويعنى بتاريخ الثائر يوجاتشيف الذى تزعم ثورة الفلاحين فى عهد الملكة كاترين الثانية ، ويزور المناطق التى حدثت فيها الثورة مثل مدينة أورنبرج ومدينة قازان ، وقابل بعض الأحياء المتقدمين فى السن الذين عاصروا هذه الحركة الثورية ، وقد كان يوجاتشيف ادعى أنه بطرس الثالث زوج الملكة كاترين الثانية المختفى .

وقد وصف بوشكين أحداث هذه الثورة فى روايته « ابنة القائد» وقد جرى منها على طريقة السير ولتر سكوت فى رواياته التاريخية وكتب قصصا أخرى مثل قصة بيروفسكى وملكة البستونى والليالى المصرية والعاصفة الثلجية وغير ذلك من القصص والأقصوصات التى تمتاز جميعها بإحكام السبك وبراعة التصوير .

وبينما كان الشاعر العظيم مثابرا على إنتاجه وماضيا فى سبيل إثراء الأدب الروسى بذخائر عبقريته وطرائف فنه تلقى رسالة بالبريد نصها « عقد كبار قواد فرقة « حملة القرون » وفرسانها اجتماعا رأسه رئيس الفرقة نارشكين ووافقوا بالإجماع على اختيار إسكندر بوشكين مساعدا لرئيس فرقة حملة القرون ومؤرخا للفرقة – سكرتير الفرقة الدائم س .ت .ج بورش » .

وكانت الإشارة المقصودة بهذه الأحجية واضحة ، فديمترى نارشكين الذى ذكر اسمه بوصفه رئيسا للفرقة كان يشغل أحد المناصب الكبيرة فى بلاط القيصر ، إسكندر الأول لأنه كان زوج محظية القيصر ، والكونت بورش كان كذلك من النبلاء الذين ساعدهم على التقدم ونيل المكانة السامية براعة زوجته المحبوبة فى اكتساب العطف السامى واستمالة القلوب فى تبصر وحسن تقدير ، وكانت السيدة نتالى زوجة بوشكين تنافس هاتين المرأتين فى الجمال والأخذ بمجامع القلوب ، وكذلك فى الضعف البشرى حسب أقوال بعض الناس ، وراجت إشاعات مضمونها أنها أشعلت نيران الحب فى قلب القيصر نيقولا الأول ، وكان من المنتظر إذن أن يرشح زوجها للترقية فى حملة القرون .

ولم يكن هناك دليل قاطع على أن السيدة نتالى لم تكن وفية لزوجها ، وربما كان بوشكين على حق فى محاولته الدفاع عن سمعتها ، ولكن الشىء المؤكد هو أنها وشقيقتها صادفتا فى أثناء خريف سنة ١٨٣٦ شابا فرنسيا جميل الصورة اسمه جورج

دانتيز ، وأظهرتا ميلا خاصا إليه ، وكان البارون هيكرن السفير الهولندى قد أعجب بهذا الشاب وتبناه وأضاف اسمه إلى اسم الشاب فصار اسمه دانتيز هيكرن .

وحينما تلقى الشاعر بوشكين قرار ضمه إلى فرقة « حملة القرون » عرف أن وراء هذه الحملة لتلويث سمعته والنيل من شرفه البارون هيكرن ، وكان يعلم أن زوجته عرضت سمعتها للقيل والقال بصداقتها البريئة لدانتيز ووجد أن ذلك كله ينطوى على مؤامرة مدبرة من الأب والابن المتبنى لهدم مكانته والولوغ فى عرضه وجعله أضحوكة بين الناس ، ولم يجد بوشكين إزاء ذلك بدا من دعوة الشاب دانتيز إلى المبارزة .

وبدأت محاولات غير مجدية للتوفيق بين الخصمين ولكنها لم توفق ، وتمت المبارزة فى فبراير سنة ١٨٣٧ وأصيب فيها الشاعر بجرح مميت ، وطلب القيصر من الحكومة الهولندية استدعاء وزيرها ورفض مقابلته قبل رحيله .

وبرغم التحريات الدقيقة وقفت المسألة عند هذا الحد ، وذلك بالرغم من أن كل إنسان كان يعلم أن الأحجية التى أثارت الشاعر قد صدرت عن جماعة البارون هيكرن ، ولكن اسم مؤلفها الحقيقى ظل مجـهولا ، وكان الاشتباه فى اسم مؤلفها موزعا بين أمير من النكرات اسمه جاجارين والأمير بطرس دلجوريكوف .

وفتر الاهتمام بتحرى الحقيقة فى أمر تأليف الأحجية ، وبعد مرور خمس وعشرين سنة على الحادثة كتب مؤلف رسالة عنوانها « أيام بوشكين الأخيرة » ذكر فيها أن دلجوريكوف هو مؤلف الأحجية، وكان دلجوريكوف حينذاك فى لندن فكتب ردا شديدا اللهجة ينكر فيه إنكارا حاسما كتابة الأحجية .

وفتر اهتمام الباحثين بهذا الموضوع مرة أخرى ، لعدم وجود الدليل الكافى .

وظلت المسألة مطوية حتى سنة ١٩٣٧ ، ففى تلك السنة عرضت على أحد خبراء الخطوط فى إدارة البحوث الجنائية بلينتجراد « بطرسبرج سابقا » نسختان أصليتان من الأحجية التى مر عليها تسعون سنة ، ومعها أمثلة من خط هيكرن وجاجارين ودلجوريكوف ، وقضى الخبير بأن الأحجية مكتوبة بخط دلجوريكوف برغم تكلفه إخفاء ذلك أثناء الكتابة .

ونرى من ذلك أن مصرع شاعر روسيا العظيم وأحد شعراء العالم المعدودين

كان نتيجة مؤامرة وضيعة دبّرها رجل مسن خليع فاسد الأخلاق هو الوزير الهولندى البارون هيكرن ، واشترك فيها شاب مدلل مفتون خامل الذكر تافه القيمة وأمير وضيع النفس مطبوع على الكذب والوقيعة والدس .

وقد قضى الشاعر العظيم نحبه وهو لم يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره الخصيب وحياته النافعة لأمته وللإنسانية جميعا .

أبراهام لنكولن

فى إحدى ضواحى بلتيمور بمقاطعة فرجينيا جلس فوق ربوة طالبان يعبثان ببعض الحشائش النامية ، ويتبادلان الحديث عن المستقبل ، وكان أحد هذين الطالبين نجل ممثل معروف كان يعد فى مسارح لندن فى المرتبة الثانية بعد الممثل الذائع الصيت أدمند كين ، وقد هاجر هذا الممثل - واسمه جونياس بروتاس بوت - إلى الولايات المتحدة ، وعلت شهرته وتوطدت مكانته .

قال الطالب ند أورام لصاحبه : « ماذا تريد أن تعمل ؟ » .

فأجاب جون ويلكز بوت : « لا أريد أن أكون ممثلا بارعا مثل أبى ، وإنما أريد أن يعرف اسمى فى التاريخ ، ولو أن تمثال رودس الضخم الأشم كان لا يزال قائما لعملت على استنزاله ، وقضيت نحبى راضيا مطمئنا لأنى قمت بعمل لم يقم به أى إنسان قبلى » .

وقد أطلق على بوت اسم « جون ويلكز » وهو اسم أحد الزعماء الشعبيين المهرجين ، وكان عضوا فى مجلس النواب معروفا بالقحة والدعارة وقبح المنظر ، وقد اشتهر بأنه المدافع عن حرية الصحافة فى انجلترا ، وقد أشبه بوت سميه فى القدرة على استغواء الفتيات ، ولكن بوسيلة مختلفة عن وسائل سميه ، فقد رزق حظا موفورا من الوسامة ، وكان يعنى بترجيل شعره الأسود الفاحم وتسريح شاربه ، ويضاف إلى ذلك أنه كان يجيد إصابة الهدف بالمسدس ، وكان هذا كله فى سنة ١٨٦٤ ولما يتجاوز سنه الخامسة بعد العشرين .

وقد أظهر استعدادا طيبا فى العمل بالمسرح ، وطاف بأنحاء الولايات المتحدة حتى بلغ كاليفورنيا وبلغ دخله فى العام الواحد عشرين ألفا من الدولارات ، ولكنه كان يغار من أخيه أدون الذى نجح نجاحا مرموقا فى تمثيل روايات شيكسبير حتى أصبح النجم المفضل فى نيويورك ، ولذلك آثر جون أن يظفر بالنجاح فى واشنجتن العاصمة السياسية للولايات المتحدة .

وكانت واشنجتن حينذاك برغم وجود مجلس النواب الأمريكي بها لا تزال بلدة ناشئة أشبه بالقرى منها بالعواصم الزاهرة ، ولكنها مع ذلك كانت سائرة فى طريق التقدم ، وقد بدأت تكثر فيها الفنادق والمطاعم الحافلة بألوان الطعام والأشربة ، وكان توفر الأطعمة لازما بوجه خاص فى النصف الأول من أبريل سنة ١٨٦٥ فقد أقبل القوم على الإكثار من المسكرات فى أثناء الليل وأطراف النهار احتفالا بالانتصارات المتوالية على الولايات الجنوبية ، وإيذان الحرب الداخلية التى استمرت أربعة أعوام بالانتهاء .

وكان باعث هذه الحرب مشكلة قانونية ، فحينما بدأ الأمريكيون يشقون الطريق إلى الغرب من أمريكا طلبت المقاطعات الجديدة الانضمام إلى « الولايات المتحدة » وكانت نظم الحكم الأصلية تسمح بوجود الرقيق وتعترف بشرعية العبودية ، ولكن ضمير الشعب أخذ يستيقظ ، وظهر حزب سياسى لم يكن مستعدا لمنح حق الاستعباد فى الولايات الجديدة التى لم يكن لها هذا الحق من قبل، وفى سنة ١٨٦١ نجم خلاف شديد ، فقد أعلنت إحدى عشرة ولاية من ولايات الجنوب رغبتها فى الانفصال عن الولايات الشمالية التى كانت تهدد حقها فى الاحتفاظ بقانون الاستعباد الذى كان مباحا بموجب نظام الحكم القديم .

وكان أبراهام لنكولن رئيس حكومة الولايات المتحدة فى ذلك الوقت ، وبرغم أنه فى بادئ الأمر كان مدافعا عن حقوق الولايات الجنوبية القديمة إلا أنه أعلن بعد ذلك عزمه على إلغاء العبودية إلغاء تاما ، وبذلك أصبح فى نظر الجنوبيين رمزا يمثل محاولة القضاء على حضارتهم ، وكانت حضارة الجنوب قائمة على العبودية مثل حضارة الرومان وحضارة روما ، وقد نشأ جو ويكلز بوت فى الجنوب ، وصار لنكولن فى خياله الجامح يمثل تمثال رودس الأشم ، فلا بد إذن من هدم هذا الصرح الشاهق .

وكان لنكولن رجلا طويلا ممشوق القوام ، فى مفصله لين واسترخاء ، أسود الشعر ، متلبد شعر الذقن رافله ، وقد قاسى الكثير فى طفولته ، ولم يتلق سوى القليل من التعليم واستطاع متأخرا أن ينتظم فى سلك المحامين ، واجتذب الانتباه السياسى بقوة خلقه ومضاء عزيمته، وقد قيل إنه لم يكن عنده من الخبرة بشؤون

الدولة ما يكفى للنهوض بالأعباء فى إبان تلك الأزمة ، ولكنه كان فى الواقع السياسى الذى يشعر بالجو المحلى ، ويحسن رصد علامات الزمن وطلائع الحوادث.

وكان بعض أعيان حكومته يضحكون من تكهناته حتى تثبت صحتها ، ثم يضحكون بعد ذلك لأنها رغم غرابتها كان لها مايسوغها ، وأحبه الأمريكيون ، وتعلقت به قلوبهم ، فأعادوا انتخابه للرياسة مرة ثانية ، وحينما لاحت لوائح النصر أخذ يتحدث عن موادعة الجنوبيين والترفق بهم فى إجراء الصلح ، وإحلال العفو والغفران محل حب التشفى والانتقام ، فترددت الإشاعات عن مؤامرات تدبر للخلاص منه ، وكثر الهمس عن المحاولات الخطية لاغتياله ، وكان الرجل حينذاك واهن الجسد من فرط الإعياء ، فقد بذل جهودا جبارة ، واحتمل أعباء شاقة وصبر وصابر ، وفى الوقت الذى يفكر فيه فى مداواة الجرح ولم الشعث ومعالجة ويلات الحرب الداخلية وإزالة آثارها كان بوت يضع الخطط للقضاء عليه .

وكانت مسلاة الرئيس الوحيدة هى الذهاب إلى المسرح ودار الأوبرا ، وكان يزورها مع زوجته وأصدقائه المقربين ، وقد شغل ذلك بال وزير الدفاع إدوارد ستانتون وأطال همه ، فقد كانت الإشاعات عن تدبير المؤامرات لقتل الرئيس ما تنفك تأتيه من مختلف المصادر ، وقد نصح الرئيس كثيرا بالإقلال من الظهور فى الأماكن العامة حيث يسهل استهدافه للأخطار ، ويتعرض للاعتداء على حياته، وكان كلما ألح عليه فى ذلك يجيبه لنكولن قائلا : « إذا كان مقدرا لى أن أقتل فإنى سأموت مرة واحدة ، ولكننى إذا عشت فى خوف دائم من الموت فإننى سأموت مرارا وتكرارا » .

ومهما يكن من أمر فقد قبل بعد لأى أن يكون له حرس ، وتأكدت علاقات المودة بينه وبين رئيس حرسه ، ومن سخرية القدر أنه فى اليوم الموعود كان رئيس فرقة الحرس هذا متغيبا فى أحد الأعمال الرسمية ، وناب عنه فى الإشراف على الحراسة أحد رجال الشرطة ، وكان رجلا عاجزا أشد العجز قليل الشعور بالتبعة ، وفى اللحظة التى كان يتوقعها ستانتون ويخشاها كان رئيس الحرس الهمام باركر مشغولا باحتساء كأس من الشراب !

وكانت الخطة التى وضعها بوت لإزالة الرئيس من الطريق معقدة ، وتحتاج إلى مشاركة رجال كثيرين ، ولذلك بدأ يبحث عمن يستطيع أن يثق بهم من أصحابه ، ووقع اختياره على صديقين من بلتيمور عرفهما منذ عهد الدراسة ، وهما ميخائيل أولفن ، وكان شابا مليحا صاحب لهو ، وصامويل أرنولد وكان جادا ضخم الوجه ، وكلاهما كان من الجنوب ، وكذلك كان الشاب الناشئ دافيد هيرولد الذى كانت سنه لا تتجاوز السابعة عشرة ، وكان شديد الإعجاب ببوت منذ رآه يقوم بالتمثيل فى أحد المسارح الإقليمية ، وكانت له معرفة جيدة بالخيل والصيد والطرق والمسالك ، وعنده ذخيرة من القصص المسلية ، ولم يكن خارق الذكاء ، ولكنه كان على جانب من سرعة الخاطر ، وكانت هناك الأرملة مارى سرات صاحبة المنزل الذى يقيم فيه بوت وابنها جون الذى كان لا يخلو من الحصافة ، وقد ضم بوت إلى من أشركهم فى التآمر رجلين آخرين ، وهما جورج انزبرودت الألمانى وكان من مدمنى الشراب المصابين بعقدة الشعور بالنقص والذين يتخلون عن جماعتهم ولا يتورعون عن الخيانة إذا استلزم الأمر ، وقد ضمه بوت إلى جماعته لأنه - على ما يبدو - كان يعرف كيف يحرك المعدية عبر نهر بوتوماك ، والآخر هو لويس باول الذى اشتهر باسم « لويس بين » وكان معروفا بأنه لا يخطئ الإصابة بالمسدس ، ويجيد استعمال السكين ، وكان يغضب ويثور إذا عورض ، ولا يبالى بقتل أى إنسان إذا أمر بقتله ، وكان شديد الغباء ، يضل الطريق ويتيهم عليه أمره إذا ترك وشأنه .

وفى شهر يناير من تلك السنة كثر اجتماع لويس بين بصاحبه بوت فى منزل السيدة سرات ، وكان لويس ينتظر اللحظة التى يؤمر فيها بقتل أى إنسان ، وكان أولفن وأرنولد لا يزالان فى بلتيمور لأنهما لم يكونا لازمين فى هذه المرحلة .

وقال بوت : « إذا استطعنا أن نخطف الرئيس فإن ذلك سيبدو فى صورة عمل من أعمال الحرب ، وهو فى حكم القائد الأعلى للجيش ، ويمكن أن نجعله أسيرًا ونفتدى به الكثير من أسرانا » .

فقال انزبرودت : « ولكن كيف نفعل ذلك ؟ إن ستانتون معه مائة من الحرس فأنت فى حاجة إلى عصبة من الرجال » .

فأجاب بوت قائلا : « كلا ، لقد رسمت الخطة المناسبة ، وكل شىء متوقف

على الوصول إلى المفتاح الرئيسى للغاز تحت المسرح مباشرة ، ومتى عم الظلام المكان كله استطعنا القيام بالأعمال الباقية، وهذا فى وسعك يا سيد سرات فإن عندك من الجلد والثبات ما يكفى للنهوض به » .

فقال جون سيرات : « إنى يا سيد بوت مستعد للقيام بذلك » .

« لقد دبرت الأمر ، وسأدخل مع لويس مقصورة الرئيس فى لحظة انطفاء الأنوار » .

فسأله هيرولد : « وماذا تصنع بالحارس ؟ »

« إن سكين لويس كاف للبت فى أمره ، ويستطيع هو وأنا تكميم فم الرئيس وتكتيفه – وهو سيرى مسدسى – ونדليه إلى المسرح بحبل ، أليس هذا واضحا يا سادة ؟ » .

واسترسل بوت فى الحديث متحمسا قائلا : « وأنت يا سيد سيرات ستسلم الجسد على المسرح ، وسأوافيك هنالك ، وأنت تعرف قدرتى على الوثب ، وسبق لك أن رأيت وثبتى وأنا أقوم بالتمثيل فى رواية ماكبث ، وسأثب فى تلك المرة من المقصورة إلى المسرح ، ونسرع بالرئيس إلى الخارج ، ونسلمه لدافيد الذى يكون منتظرا بالعربة فى الساحة الخلفية ، وسنقوم بذلك يا دافيد » .

فأجاب الشاب وقد التمعت عيناه إعجابا ببطله المحبوب « نعم يا سيد بوت ، إنى أعرف كل الطرق فيما بين واشنجتن وريشموند ولن أخيب لكم أملا ، ولكن عليكم أن تعبروا به النهر » .

فقال بوت : « هذا عمل جورج انزبرودت » .

فرفع انزبرودت رأسه من الشراب الذى كان يحتسيه وقال : « إنى أعرف كيف أعبر به النهر ، نعم لقد عبرت النهر مع الكثيرين فى السنوات الأربع الأخيرة حسب ما أظن » .

ولم يكن من الحزم فى شىء الخوض فى أحاديث المؤامرة فى المنزل ، فقد كان الكثيرون من النزلاء يتسمعون هذه الأحاديث ، ويدفعهم حب الاستطلاع والرغبة فى التجسس على جيرانهم إلى استقصاء أخبارها ، وكان من هذا الطراز رجل من نزلاء المنزل يدعى جوزيف ويشمان ، وكان قصير القامة بدينا حاول أن يكون قسيسا ولكنه أخفق فى ذلك ، وقد سمع طرفا من حديث المؤامرة فلم يملك لسانه ، وكان لذلك نتائج سيئة فيما بعد .

وعرف بوت من أصدقائه الممثلين أن لنكولن وزوجه سيذهبان إلى مسرح فورد فى ليلة ١٨ يناير ، فأخذ دافيد فى إعداد الخيل للعربة التى ستحمل الرئيس الأسير وتطوى به مسافة الأميال بين واشنجتن وريشموند مستقر الجنوبيين ، وأعد كل شيء ، ولكن فى اللحظة الأخيرة فشلت المؤامرة ، فقد كان الرئيس مجهدا جدا فلم يستطع الحضور إلى المسرح .

ولكن لم يمض زمن طويل حتى لاحت فرصة أخرى ، فقد كانت قوات الجنرال إليساس جرات تتقدم ، وتدفع أمامها جيوش الجنوبيين برغم براعة قيادتهم ، فإذا كان بوت يريد ن يصنع شيئا فإن عليه أن يبادر إلى العمل ، وإلا فان الحرب تنهى كل شيء ، فاستدعى بوت صاحبيه أولفلن وأرنولد من بلتيمور ، وفى يوم ١٧ مارس اجتمع المتآمرون جميعا اجتماعهم الأول والأخير .

وكان بوت قد اتخذ حجرة خاصة فى مطعم من المطاعم الرئيسية ، وجاء أولفلن متألما من آثار الخمر فقد كان الاحتفال بالانتصارات التى أحرزتها جيوش الشماليين تشجع على الإسراف فى الشراب ، وزال ما كان يشعر به من التعب حينما تناول الطعام وعب من الشراب اللذين أعدهما بوت ، وبينما كان المتآمرون يأكلون ويشربون أخذ بوت يشرح لهم خطته لخطف الرئيس ببراعة الممثل القدير ، وأعجب هيرولد بالخطة ، واستخف السرد انزبرودت وأولفلن، واستغرق سيرات فى التفكير ، وتضايق لويس بين من الحديث ولكنه قنع بالأكل والشراب .

وخرج أرنولد الضخم الوجه من صمته معترضا قائلا : « إنى أرى المسألة شديدة التعقيد ، فهم يقولون إن الرئيس رجل قوى ، وسواء أكان يحمل مسدسا أم لا فإنه سيقاوم قبل أن تكتموا فمه وتكتفوه وتذيع حينذاك نذر الخطر » .

فدافع جون عن الخطة التى بدت له معقولة وعملية لمعرفته بالمسرح من داخله ، ولكن صامويل أرنولد اعترض قائلا : « إنى لا أسهم فى تنفيذ مثل هذه الخطة ، وإذا لم يتم شيء فى مدى أسبوع فإنى سأنفض يدى من هذا الأمر » .

وأيده أولفلن قائلا وهو يضحك : « وهذا هو موقفى » .

فقال بوت : « يا صمويل ويا ميخائيل لا يمكن أن تعنيا ما تقولان ، إنكما سيدان

شريفان وقد عرفتكما طوال حياتى ! فكيف تنسحبان ؟ وما أحسب عندكما شيئا تقترحانه ؟» فأجاب صامويل متشدقا « أحسب أن عندى ما أقترحه » .

وقد أقام بوت خطته على أساس معرفته بالمسرح من الداخل ، أما صامويل أرنولد الذى كان يعرف ضواحى المدينة معرفة جيدة فقد رأى أن مهاجمة الرئيس فى الضواحى أسلم عاقبة حيث يمكن توفر عنصر المفاجأة والاعتماد على اشتراك الكثيرين فى المحاولة ، والرئيس يكثر من زيارة مستشفى الجند ، والطريق إليه لا يخلو من وعورة تتيح الفرصة لإعداد الكمين ومهاجمة العربة التى تقله .

واقتنع بوت بهذا الرأى ، ووضعت خطة لمهاجمة الرئيس يوم ٢٠مارس ، فقد وعد القائمين على المسرح والملحق بالمستشفى للترفيه عن الجنود بحضور الحفلة الصباحية ، وفى باكورة الصباح خرج المتآمرون من واشنجتن ، وفى ظلال الأشجار تناقشوا فى تفاصيل المحاولة ، وأوضح بوت لكل فرد من المتآمرين الدور الذى عليه أن يقوم به ، وأقبلت العربة السوداء اللامعة الخاصة بالرئيس تشق الطرق المترب ، واستعد بوت للقيام بمهمته ، ولكنه حينما ألقى نظرة فى داخل العربة لم يجد بها الرئيس ، فأعطى الإشارة غير المنتظرة ، وساور الجماعة الشك فى أن سر المؤامرة قد كشف ، وحينما عاد المتآمرون إلى نزل سرات ثاروا ببوت وأبدوا عدم ثقتهم به ، فإن تخلف الرئيس عن حضور الحفل بعد أن أعلن ذلك لا بد أن يكون سببه تسرب أخبار المؤامرة ، وعاد صامويل أرنولد وأولفلن إلى بتليمور ، وأخذ جون سيرات يذيع أنه قد دمرت حياته ، وطلب من جوزيف ويشمان أن يبحث له فى الحكومة عن عمل كتابى وارتحل إلى الجنوب .

ولم يبق من المتآمرين حول بوت سوى الشاب هيرولد المعجب ببطولته ، ولم يقطع انزيرودت الصلة ببوت لأنه كان يدفع لهما أجر سكنتهما بالنزل .

وكان جوزيف ويشمان يعمل فى الإدارة الخاصة بأسرى الحرب ، وحدث مرة أن دار الحديث بينه وبين بعض زملائه عن المؤامرات التى تدبر ضد الرئيس ، فقال جوزيف لزملائه إن تلك الإشاعات فيها من الصدق أكثر مما يظنون ، وأنه سمع فى النزل الذى يقيم به ما يثبت ذلك .

فقال له أحد زملائه : « ألم تبلغ العميد ماك ديفت الضابط الخاص بالإشراف

على الأمن ؟ » وحث هذا السؤال ويشمان على أن يفعل ما كان يجب أن يفعله من بادئ الأمر إذا كان فى قصته ذرة من الحق ، فأسرع إلى مساعد رئيس الشرطة الحربية وأبلغه ما ترامى إلى سمعه ، وسرعان ما أحاطت الشرطة بنزل السيدة سرات ، ولكن البحث لم يسفر عن شيء ، ولم يرفع الأمر إلى إدوارد ستانتون برغم أن الذين قاموا بالبحث كانوا مسؤولين أمامه ، وربما كان السبب فى ذلك أنهم شكوا فى أقوال ويشمان ، وهكذا أراد القدر أن يهيئ فرصة أخرى لبوت لإسقاط تمثال رودس الأشم الضخم ! وكان لنكولن يشعر شعورا خفيا أن حياته قاربت نهايتها ، فقد قال للسيدة هاريت بتشرسناو مؤلفة الرواية المشهورة : « كوخ العم توما » : « مهما تكن الطريقة التى ستنتهى بها الحرب فإنى أشعر بأنى لن أعيش طويلا بعد انتهائها » .

وسقطت ريشموند معقل الجنوبيين ، وانتظرت واشنجتن الشروط النهائية للتسليم للجنرال جرانت ، وجاء القائد إلى واشنجتن للاتفاق على تخفيض نفقات الجيش فى وقت السلم ، وكان حريصا على العودة إلى منزله فى برلنجتن ليرى أطفاله بمناسبة عيد القيامة ، ولذلك اعتذر عن قبول الدعوة التى وجهها إليه الرئيس لحضور حفلة التمثيل فى مسرح فورد فى مساء يوم الجمعة الحزينة ، وكان جرانت لا يحب الظهور فى المجتمعات ، ويميل إلى الحياة العائلية المنزلية .

وفى صباح ذلك اليوم كان بوت يحتسى الخمر فى صالون جون ديرى ، وقد لحظ ديرى أن بوت قد أسرف فى الشراب خلال ذلك الأسبوع بوجه خاص ، وطلب منه بوت أن يرسل أحدا إلى مسرح فورد لشراء تذكرتين لحضور الحفلة المسائية ، وعجب من ذلك جون ديرى ، فقد كان يعرف الصلة الوثيقة بين بوت ومسرح فورد ، فسأله لماذا يرسل ثمن تذكرتين ، فقال بوت : « إن الرئيس سيحضر تلك الحفلة ، ويستطيع فورد أن يبيع كل مقعد مرتين ، وأنه يخجل من استغلال مجاملة صاحب المسرح ، وقال لديرى إنه سيمر عليه لأخذ التذكرتين فى الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم » .

ولم يكن بوت يريد التذكرتين باسمه ، ولم يكن على بينة من قصة ويستمان ، ولم يكن يدرى هل ورد اسمه ضمن الأسماء التى ذكرها ويستمان أم لا ، وقد وضع خطة جديدة فى أثناء تناوله الشراب ، وكانت هذه الخطة أضيق نطاقا من الخطتين

السابقتين ، كان هو الذى سيقوم بالدور الرئيسى فى الخطة الجديدة ، وقد يئس بوث من انتصار الجنوب ، ولكن لنكولن ، وهو سبب الهزيمة التى منى بها الجنوب ، يمكن القضاء عليه ، والمؤامرة فى هذه المرة هدفها القتل لا الخطف .

وكان يوم الجمعة الحزينة من أيام الرئيس الحافلة بالأعمال ، فقد بدأ كعادته يقرأ الرسائل الواردة له فى تلك الساعة السابعة ونصف، وتناول فطوره ، وتحدث مع زوجته عن رغبته فى الذهاب إلى مسرح فورد لحضور تمثيل مسرحية « العم الأمريكى » المضحكة وحضور القائد جرانت ، وقالت له زوجته : « وإذا لم يحضر القائد ؟» فسألها أن تدعو الكولونيل راتبون وخطيبته الآنسة هارس ليكونا معهما فى المقصورة .

وبعد نصف ساعة مجلس الوزراء ، وكان جو المجلس يشعر بأن حادثا جللا يوشك أن يحدث وقد تعود الوزراء سماع النوادر الطريفة التى كان يرويها لهم الرئيس ، وكانت هذه النوادر تلقى ضوءا على الموضوعات التى يناقشها المجلس ، وكان بعض الوزراء يتذوق هذه النوادر ويستريح لها ، وبعضهم مثل إدوارد ستانتون لم يكن راضيا عن هذه الطريقة لأنه كان يرى فيها إضاعة للوقت والحرب الداخلية دائرة الأرحاء ، وتحدث لنكولن فى ذلك الصباح عن الأحلام ، وروى لهم حلما رآه منذ ليال قلائل ، وقوام هذا الحلم أنه كان يطوف فى الجناح الشرقى بالبيت الأبيض ، وسمع أصوات المعزين الذين لم يستطع أن يجدهم ، وأخيرا سمع من أحد الناس أن الرئيس قد مات ، وتابع الحديث قائلا : « ولكننى بإساءة أظن أن هذا غير حقيقى لأننى لا أزال حيا » وتمهل فى الحديث واسترسل قائلا : « فى الليلة الأخيرة رأيت حلما عجيبا ، فقد رأيته قبل سقوط حصن سبتمبر وقبل معارك بول ران وجتزبرج ويلمنجتن ، رأيت أننى فى قارب عجيب الشأن لا يمكن وصفه ، وأننى أتحرك بسرعة إلى شاطئ مجهول » .

ولحظ خاصته أنه لم يذكر هذا الحلم الذى أزعجه لزوجته العصبية المزاج ، والتى كانت تعلق أهمية كبيرة على أمثال هذا الحلم، فقد خشى تأويلاتها له .

وشعر بشىء من الإجهاد بعد تناوله وجبة الغداء ، وركب العربة مع زوجته التماسا للراحة ، وأفاده الهواء المنعش النقى والتأكد من النصر ، فتغيرت حالته

النفسية ، وشعر بالارتياح ، وعلت روحه المعنوية ، وأشرق وجهه بالابتسام ، وقال لزوجته : « لم أشعر فى حياتى قط بمثل الغبطة التى أشعر بها اليوم » .

فأجابته مارى لنكولن قائلة : « ألا تذكر أن مثل هذا الشعور انتابك فى اليوم السابق ليوم وفاة طفلنا الصغير » .

وشغل بوت فى ذلك اليوم بالاستعداد لتنفيذ المؤامرة ، واتسع نطاق الخطة فلم تقتصر على قتل الرئيس وحده ، بل اشتملت كذلك على قتل أندرو جونسون نائب الرئيس ، ووزير الخارجية وليام سيوارد ، وكان طريح الفراش من جراء حادث خطير أصيب فيه .

وفى المساء نحو الساعة الثامنة اجتمع بوت بثلاثة من أصحابه المخلصين ، وحينما عرض عليهم الخطة قال له جورج انزبرودت : « أى قتل ؟ إنى لا أستطيع القيام بذلك » .

فقال له بوت فى شموخ : « إنك ستفعل ذلك ، وستقتل أندرو جونسون ، وإلا فإنى سأرتب الأمور بحيث لا يكون هناك أهمية للمسألة - قتلته أولم تقتله » .

وخضع جورج انزبرودت فى النهاية ، أما لويس بين فقد أبدى ارتياحه لاقتراب ساعة العمل ، وكان عليه أن يحمل مجموعة من الأدوية إلى منزل سيوارد ويزعم أنها من الطبيب المشرف على علاجه ، ويصعد إلى الطابق العلوى ويدخل حجرة الرجل العجوز ويصوب إليه المسدس أو يستعمل السكين ، وكانت العقبة الوحيدة فى طريقة أنه لم يكن يحسن معرفة شوارع واشنجتن ، ولكن أمكن التغلب على هذه العقبة بجعل داولد هارولد مرشدا له .

وبقيت مسألة واحدة ، وهى مسألة كيفية الوصول إلى مقصورة الرئيس واختيار طريق الهرب ، وكانت هذه المشكلة الثانية سهلة ، وهى أن يرشو العامل الموكل بالمسرح ، وكان هذا العامل يعرف السيد بوت ممثلا قديرا ، وينتظر منه المساعدة فى المستقبل ، وكان عليه أن يحضر الحصان الذى سيمتطيه بوت بعد قتل الرئيس فى السقيفة بالساحة الخلفية للمسرح ، ويظهر فى الساعة العاشرة .

وذهب بوت إلى المسرح فى الساعة الحادية عشرة ليحضر تجربة تمثيل الرواية ، ويستكمل استعداده لتنفيذ المؤامرة ، ولم يكن فى حضوره ما يدعو إلى

الريبة ، فهو ممثل معروف ، ولا بأس فى مشاهدته للتجربة التى يقوم بها زملاؤه من الممثلين ، واستطاع أن يتسلل إلى ناحية المقصورة التى سيشاهد الرئيس منها تمثيل الرواية فى الحفلة المسائية ، ولحظ وجود كسر فى مغلاق الباب المفضى إلى المقصورة ، واختار اللحظة التى سيلقى فيها الممثل بعض العبارات المضحكة التى تجعل صوت قهقهة الضحك تفوق صوت طلقات المسدس ، وتخطيها ، مما يتيح له فرصة الهرب بعد إطلاق الرصاص ، واغتنم فرصة اشتغال الممثلين بالقيام بالتجربة ، وعمل على توسيع ثقب صغير فى ألواح خشب المقصورة بحيث يستطيع من هذا الثقب أن يرى مكان جلوس الرئيس .

ومر بوث على جون ديرى لأخذ التذكرتين حسب وعده ، وجلس بعد ذلك يحتسى الشراب ، ويحرر رسالة للمخابرات ليبقى اسمه فى التاريخ ، وأعلن فى الرسالة أنه مدبر المؤامرة ، ويبالغ فى بيان الأسباب التى حملته على تدبيرها ، وأضاف إلى اسمه أسماء انزبرودت وبين وهارولد ، وفى الساعة الثامنة من المساء أخبرهم أنه أدانهم بالاشتراك معه فى المؤامرة ، وأنه لا فائدة من التراجع ، ولم يخطر لأحد منهم الإقدام على التبليغ عن المؤامرة قبل حلول الميعاد المضروب ، وعهد بالرسالة إلى أحد الممثلين لتوصيلها إلى الجرائد ، وقد نسى الممثل أن يسلم الرسالة .

ووصل لنكولن ومعه زوجته إلى المسرح فى الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والثلاثون ، ودخل المقصورة ، وفى الساعة التاسعة كان بوث مع عمال المسرح يبادلهم النكات ، ويقدم لهم الشراب ، وتركهم بعد ساعة ثملين لا يستطيعون حراكا ، وضمن بذلك عجزهم عن التدخل فيما يحاوله .

ونال السكر من انزبرودت فلم يفعل شيئا ، وحينما ترك بوث عمال المسرح هاجم لويس « بين » منزل سيوارد العجوز حاملا الأدوية ، وقد دله هارولد على المنزل ووقف فى انتظاره ومعه الخيل ، واعترض طريق بين خادم زنجى وهو مندفع إلى حجرة نوم سيوارد فثار غضب بين ، واشتد حنقه ، وضرب الخادم الزنجى بطرف المسدس ، ولكنه لم يقتله ، وانطلق الخادم يصيح خارج المنزل طالبا النجدة لوجود قاتل بالمنزل ، وأطلق « بين » رصاصة على نجل سيوارد فى طريقه إلى

الطابق الأعلى وطعن ابنته ، وطعن الرجل العجوز فى أجزاء شتى من جسمه ، ولكنه فى هذه الثورة الوحشية لم يتمكن من أن يطعن طعنة قاتلة ، وحينما سمع هارولد صياح الخادم مستنجدا للقبض على القاتل اعتلى جواد « بين » وأسرع للقاء بوت خلف ساحة جسر الأسطول حسب الاتفاق بينهما . وصل « بين » الطريق وكان أول من ألقى عليهم القبض من المتآمرين .

ونجح بوت فى مهمته ، فقد ذهب حارس الرئيس الكونستابل باركر خارج المقصورة فى الساعة التاسعة ليتناول الشراب مع سائق العربة وخادم الرئيس الخاص ، ولم يكن هناك حارس على باب المقصورة حينما جاء بوت فى الساعة العاشرة والدقيقة الحادية عشرة، وكان ظهر رأس لنكولن باديا لبوت من الثقب الذى وسعه فى الصباح ، وكانت زوجة الرئيس جالسة على مقعد أمامه ، وعلى مقربة منها الآنسة هارس ، وجلس راثبون على كثب من الرئيس ، ودفع بوت الباب فى رفق وهو يمسك أنفاسه ، وأطلق الرصاصة التى أصابت الرئيس خلف أذنه اليسرى ، وطعن الكولونيل راثبون ، وكان بوت يجيد الوثب ، فحاول أن يقفز إلى المسرح ، ولكن حينما وثب اشتبك مهمازه فى بعض الزخارف المدلاة .

ولم ير أحد دخان البارود الأزرق ، ولم يسمع صوت إطلاق النار ، لأن جمهور النظارة كان مستغرقا فى الضحكات التى أثارتها كلمات الرواية على ألسنة الممثلين ، وهبط بوت المسرح وكسر رسغه قبل أن يلحظ أحد ما أصاب الرئيس .

واستطاع بوت أن يخرج من المسرح ويمتطى الجواد الذى فى انتظاره مع هارولد ، وطوى فى تلك الليلة خمسة عشر ميلا ، ودافع عن نفسه ، وقاوم قبل أن يصيبه الرصاص ويخر قتيلا ، ودفع سائر المتآمرين من دمائهم ثمن انقيادهم لأوهام ممثل استخفه الغرور ودفعته الأثرة إلى اغتيال رجل من أنبل الرجال الذين عرفتهم الإنسانية فى العصر الحديث .

ولتر سكوت والرواية التاريخية

حينما تأثر الأدب البريطانى بالنزعة الرومانسية التى سادت فرنسا وألمانيا خلال القرن الثامن عشر غلبت عليه فكرتان عظيمتان، الفكرة الأولى الشعر التاريخى ، وجاءت الفكرة الثانية بالشعر الفلسفى ، وقد مثل الفكرة الأولى أقوى تمثيل علمان من أعلام الأدب البريطانى وهما ولتر سكوت وسوزى ، ومثل الفكرة الثانية وردزورث وشيلى ، وكانت هاتان الفكرتان أوربيتين ، مثلهما فى فرنسا فيكتور هيجو ولامرتين ودى موسيه ، وفى ألمانيا شيلر وجيتى وهيتى .

وكانت الفكرة الأولى ترى أن المثل الأعلى لأى أمة من الأمم ليس هو المثل الأعلى المطلق ، ولاخلاصته المثل العليا ، وإنما هو أحد المثل العليا المتعددة ، فهناك مثل أعلى للرجل الهمجى ، كما أن هناك مثلا أعلى للإنسان فى عهد الإقطاع أو فى عهد إحياء العلوم أو فى الحضارات القديمة مثل الحضارة المصرية أو الحضارة اليونانية، ويستتبع ذلك أننا إذا أردنا أن نقدر مدى تأثر أى حضارة بمثلها العليا فإن علينا أن نستعيد تصورها للحياة ونشعر شعورها ما وسعنا الإمكان ، وقد كان الروائيون وكتاب الدراما يصفون ويصورون الشخصيات الحديثة والعادات والأحوال الراهنة ، ويطلقون عليها أسماء قديمة ، وهذا لون التزييف ، والحق يقتضينا أن نصور مشاعر أهل الأزمنة التى سبقت زماننا بسماتها المعروفة واتجاهاتها المأثورة ، فلا تجمل البطل القديم الذى تحاول عرض حياته ورسم شخصيته ، ولا تشوهه ، وإنما تعمل على كشف طبيعته وإعطاء صورة أقرب ما تكون إلى حقيقته مهما كانت هذه الصورة مخالفة لمشاعرنا ومنافرة لذوقنا ، وقد كانت هذه الفكرة حافز نشاط وباعث اهتمام للحماسة التاريخية التى وجدت أقوى ممثل لها فى الشاعر الروائى الأسكتلندى ولتر سكوت .

وكانت الفكرة الثانية تدور حول مشكلة ما هو الإنسان وما مصيره ولماذا جاء إلى هذه الدنيا ، وقد تكفل بها الشعراء النزاعون إلى الفلسفة .

وقد ولد ولتر سكوت فى ١٥ أغسطس سنة ١٧٧١ بأدنبرة ، وكان والده أحد كتبة العقود والمواثيق لأمراء اسكتلنده وهو منصب قضائى رفيع ، وكانت والدته ابنة أحد أطباء أدنبرة ، وكان هو تاسع أبناء الأسرة التى بلغ عدد أفرادها اثنى عشر ، مات منهم الأوائل فى باكورة طفولتهم .

وكان ولتر ضعيف البنية ، وأصيب فى شهره الثامن عشر بصدمة شلل الأطفال أحدثت له عاهة فى إحدى ساقيه ، فظل يظلع فى مشيته طوال حياته مثل خلفه ومعاصره الشاعر الكبير بيرون .

وقد وجد من بيئة أسرته وأسلوب تنشئته ودوافع غريزته ما حفز مواهبه ، وأثار خياله ، فقد كان والده شغوفا بالآثار وبخاصة آثار بلاده ، وعالما بتاريخ الكنيسة وقوانين عهود الإقطاع .

وأرسل ولتر وهو فى الثالثة من عمره إلى إحدى الضياع ليفيد جسمه العليل من الهواء النقى وعلاج ساقه الضامرة ، وقد لف وهو عار من الثياب فى حلة شاة حديثة الذبح وجعل يثب وهو فى هذا الرداء بوصفه علاجا لما ابتلى به ، وقد جعله هذا العائق الذى عاقه عن متابعة الحركة يتجه إلى القراءة ويمعن فيها .

وكان منذ نشأته شديد الإصغاء للأقاصيص والأساطير التى تروى له ، وقد طبعت فى ذاكرته الواعية أخبار الحروب والوقعات التى حدثت فى أسكتلنده فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكان له من تلك الذكريات معين لا ينضب حينما عكف على التأليف، وكان وهو فى الثالثة من عمره يحفظ عن ظهر قلب بعض القصائد الحماسية ، ويتغنى بها بصوت عال ، ولكنه فى غير ذلك كان كسولا، ويجد صعوبة فى استيعاب الحقائق الجافة ، وفى اليوم الذى اطلع فيه على مجموعة القصائد والمقطوعات الشعرية التى جمعها برسى من الشعر القديم نسى الإقبال على الطعام برغم الشهية القوية لابن ثلاث عشرة سنة ، وحفظ الكثير من هذه المجموعة ، وكان يتلو ما حفظ على مسامع أترابه فى الدراسة وغيرهم ممن يودون سماعها .

وبعد أن عمل كاتبا مع والده كان يملأ درج مكتبه بثمرات الخيال التى استطاع جمعها ، وقوى ميله إلى أقاصيص البطولة والمغامرات الخيالية والحقيقية ، وأصابه

مرض شديد ألزمه الفراش طويلا ، ومنع من الكلام ، فلم تكن له متعة سوى قراءة الشعر والقصص والروايات وكتب التاريخ والجغرافيا والاطلاع على الخرائط التى تصور وتبين مواقف الجيوش ، وحينما استرد صحته واستطاع المشى جعل أكثر مشياته فى المناطق التى لها شهرة تاريخية ، قال عن نفسه : « أرنى قلعة قديمة أو ميدان معركة ، وفى التو واللحظة ترنى قد ألفتها وملأتها بالمحاربين فى أزيائهم ، وأغرقت أسماع المتصنتين إلىّ بحماسة وصفى » .

ومع موالاته التجوال فى طلب المعرفة ظل خلال سبع سنوات يرحل فى كل سنة إلى النواحى المقفرة النائية فى منطقة ليدز ديل الواقعة فى جنوب أسكتلنده يكشف كل جدول ويعرج على كل طلل دارس ، وينام فى أكواخ الصيادين ، ويجمع الأساطير والقصائد الحماسية التى تصف أعمال البطولة ، وكان يقرأ الوثائق والمواثيق والعهود المحلية والأشعار اللاتينية وسجلات الكنائس ، وحتى الوصايا والعقود .

وكانت الدروع الصدئة والرقاق القذرة تجتذب انتباهه وتملأ رأسه بالذكريات والشعر ، وقد أنفق مبلغا من المال ضخما مما دره عليه أدبه فى ابتناء قلعة تحاكى قلعة الفرسان فى العصور القديمة بأسوارها وحواجزها وأسقفها الهرمية المتعرجة وطنفها التى تتخللها فتحات لإلقاء الأحجار وأبراجها الشامخة ، وزودها بالصواوين المنقوشة والمحلاة بالزرد والدروع والسيوف والخوذات ، ولمدة سنوات طويلة كانت أبواب القلعة مفتوحة لكل طارق يريد استعادة ذكريات عهود الإقطاع السالفة بعاداتها ومظاهرها ، وكان يشمل الحاضرين جميعهم بسابغ كرمه ، وبخاصة الأقارب والأصدقاء والجيران ، ويسمعهم القصائد الحماسية ونغمات الموسيقى الحربية ، ويشرب معهم الأنخاب ويقرع الكؤوس ، وتقام الحفلات الراقصة التى لا يجد فيها أحد اللوردات من الحاضرين غضاضة فى مراقصة ابنة أحد أصحاب الطواحين ، فقد كان سكوت يساوى بين ضيوفه ، فلا تفريق بين فاضل ومفضول أو رجل من المصارية وآخر من الدهماء، وكان هو نفسه وهو مقبل على ضيوفه ومغتبط بهم ينثر عليهم أقاصيصه الشائقة ويتحفهم بما ادخره خياله الوثاب ، وذاكرته الواعية، من النوادر المسلية والأحاديث المرحة التى كان يعرف سيد قلعة أبوتسفورد كيف يرويها نافخا فيها من روحه ، ومعطيها نصيبا من حيويته الدافقة .

وقد التحق سكوت بجامعة أدنبرة سنة ١٧٨٣ وحضر درس اللاتينى واليونانى ومحاضرات المنطق ، ولم يكن ميالا إلى دراسة اللغة اليونانية وتقدم بعض التقدم فى دراسة اللاتينى ، وحصل على معرفته للفرنسية والإيطالية والأسبانية ، وأخيرا درس اللغة الألمانية ، وحينما بلغ الخامسة عشرة من عمره بدأ يتدرب على الأعمال القانونية فى مكتب والده ، ولم يكن أبوه راضيا عن اتجاهاته الأدبية وانشغاله بحفظ الشعر ونظم بعض القصائد ، وقام بترجمة بعض أشعار الشاعر الألمانى بيرجر إلى الإنجليزية وترجم بعد ذلك مسرحية « جوتس فون برليخنجن » التى ألفها الشاعر الألمانى الكبير جيتى إلى الإنجليزية .

وفى سنة ١٧٩٦ أصيب بصدمة عاطفية ، فقد ظل سنوات يهوى الآنسة مرجريت ستيوارت ابنة السير جون بكشنر ، وأمل أن يتزوجها ، ولكنها تزوجت السير وليام فوربز ، وقد أصاب ذلك كبرياءه ، ونال من إبائه ، وتزوج فى السنة التالية الآنسة شاربنتيه ابنة أحد الملكيين الفرنسيين من مدينة ليون .

وكان فى سنة ١٧٩٢ قد استدعى للعمل أمام المحاكم وظل أربعة عشر عاما يمارس هذه الوظيفة اسميا ، وفى سنة ١٨٠٥ قدم للطبع « نشيد آخر المغنين » وخطر بفكره أن يكتب رواية تاريخية ، وقد نجحت قصيدة « نشيد آخر المغنين » نجاحا لم يكن ينتظره سكوت ، وبرغم أنه كان حينذاك فى الرابعة بعد الثلاثين من عمره فإنه لم يكن قد وثق من أن مجال سبقه وتفوقه هو ميدان الأدب ، ونظم بعد ذلك « مارميون » و« سيدة البحيرة » وعدة قصائد أخرى، ونجحت « سيدة البحيرة » نجاحا تجاوز ما كان يؤمله ، ورفعت مكانته ، وصار فى طليعة شعراء عصره ، وكان قد حاول قبل ذلك أن يكتب قصة نثرية ، ولكنه أعرض عن المضى فى هذا السبيل حينما عرض بعض فصولها على أحد أصدقائه من النقاد ، فأشار عليه بتركها لأنها تنم على عجزه فى كتابة القصة واحتفظ بها سكوت فى أحد أدراج مكتبه حتى وقعت عليها عينه مصادفة فى سنة ١٨١٢ وهو يبحث عن بعض أدوات الصيد فى مكتبه ، فأعاد قراءتها ، وعقد العزم على إتمامها وتقديمها للطبع .

وفى سنة ١٨١٤ أعلن أنه هجر الشعر ، فقد نزل إلى الميدان شاعر لم يجد سكوت أنه يستطيع مجاراته ، وهذا الشاعر هو اللورد بيرون .

ولقيت رواية « ويفرلى » نجاحا منقطع النظير ، رسم لسكوت اتجاه حياته الأدبية بعد ذلك ، وأخذت تتتابع رواياته التاريخية ، وكانت تظهر فى أول الأمر خالية من اسم المؤلف وكأنما فتح له بها كنز ثمين .

وبدأ يشترك سرا مع أسرة بلانتين أصحاب دار الطباعة ، وقد نجم عن هذا الاشتراك بعد سنوات الكارثة المالية القاصمة التى ذهبت بكل ما جمع من مال واقتنى من ضياع ، وركبه من جرائها دين ضخم جاهد السنوات الباقية من حياته فى سبيل تدبير المال الكافى لسداده ، فأرهق نفسه ، وأتلف صحته ، وحملها ما لايطاق من الجهد حتى قضى نحبه فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٣٢ .

وقد تناول فى رواياته التاريخية تاريخ انجلترا وفرنسا وألمانيا والشرق الأدنى ، ولكن تفوقه كان يظهر حينما يتناول تاريخ أسكتلنده القريب العهد من عصره بوجه عام .

وقد وضع سكوت الأساس الذى بنى عليه كتاب الرواية التاريخية بعده ، ويقول المؤرخ البريطانى المعروف الدكتور تريفليان « لقد صنعت الرواية التاريخية الكثير لجعل التاريخ شائقا مقبولا ولتمنحه قيمة ، لأنها حركت الخيال التاريخى ، والحقيقة أنها فى مدى مائة سنة غيرت تصورنا للماضى حينما بدأ سكوت بقصائده الشعرية التاريخية ورواياته يحدث ثورة فى التاريخ ، وقد وجد التاريخ وهو فى إبان نشأته مكونا من عنصرين بارزين من عناصر القرن الثامن عشر ، العنصر الأول : البحث الصبور الدائب الذى تولاه علم الآثار والعاديات ، والعنصر الثانى هو عادة التعميم الإجمالى ، وهى عادة سبق بها القرن الثامن عشر التاريخ غير الفلسفى الذى كان يدور على الألسنة وتتلقفه الأسماع ، والذى كان سائدا فى العصور السابقة ، ولكن برغم هذا السبق فإن هذه العادة - عادة التعميم الإجمالى - قد غاب عنها الكثير من النقاط الهامة لأنها كان ينقصها العطف والتجربة، وذلك أن عصر الاستنارة نسى فيما نسيه ماذا كانت حقيقة المتعصب الدينى أو الثائر » .

وفى هذا الموقف الذى وصفه لنا العلامة جورج ماكولى تريفليان فى مقاله القيم عن « التاريخ والرواية » ظهر سكوت ليفيد من تقدم علم العاديات والعناية بالآثار القديمة وبعمق التحليل التاريخى الذى كان ينظر إلى الإنسان باعتباره مخلوقا غير

متطور ، وقد أظهر سكوت أن النفير لا يشمل ملابس الإنسان وأسلحته فحسب بل شمل كذلك أفكاره وآدابه ، وذلك حسب توالى العصور واختلاف البيئات وتباين الطبقات .

ويرى تريفليان أن المؤرخين الذين ظهروا بعد سكوت نظروا إلى التاريخ نظرة تختلف تمام الاختلاف عن نظرة المؤرخين الذين ظهروا قبله .

ونظرا لأهمية هذا الرأى الذى أبداه المؤرخ تريفليان أزيده وضوحا فأقول إن سكوت ظهر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وفى هذا القرن الهام بدأت بوادر العناية بكتابة التاريخ كتابة جدية قوامها البحث والتحرى والتنقيب وظهرت فلسفة التاريخ .

ومن أعلام هذا القرن فولتير ، وكان مؤرخا من طراز فذ ممتاز ، وكتابه عن عهد لويس الرابع عشر يعد من طرائف الكتابة التاريخية .

وظهر فى ذلك القرن كذلك المؤرخ البريطانى العظيم جيبون مؤلف كتاب « تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » وهو من كتب التاريخ العظيمة الخالدة ، وغيرهما من المؤرخين الممتازين .

ولكن كتاب التاريخ فى القرن الثامن عشر برغم إجادتهم وتجديدهم فى كتابة التاريخ كان ينقصهم شىء هام ، وهو فهم نفسية العصور التى يصفونها ويعرضون علينا تاريخها .

ومن أقوال المؤرخ تين فى نقدهم قوله المأثور : « فى كتب فولتير وجيبون وروبرتسون لا تجد المعرفة الواسعة والأحكام الناقدة وحدهما ، بل تجد كذلك وصف النظم والقوانين وصفا دقيقا صحيحا ، وموجز القول إننا نرى كل شىء إلا « أرواح الرجال» ، وموهبة الخيال العاطف التى تمكن الكاتب من الامتزاج بمشاعر الغير قد حرم منها مؤرخو القرن الثامن عشر » وهى موهبة لازمة للمؤرخ ، وبدون هذا الخيال العاطف لا يستطيع المؤرخ أن يتغلغل إلى روح العصر الذى يتصدى للكتابة عنه ، ولا أن يشارك الشخصية التى يحاول أن يؤرخ لها أعمالها ومشاعرها ووجهات نظرها .

ومن أقوال النقادة الفرنسى إميل فاجيه (١٨٤٧- ١٩١٦) فى نقد فولتير :

« النقص الرئيسى فى فولتير هو عجزه الأصيل وعدم قدرته على الخروج من حدود نفسه ، وهذا النقص يتخلل أخلاقه ويسيطر على سلوكه وتصرفاته ، ويكون آراءه فى السياسة والتاريخ والفلسفة ، وانحصار رأى فولتير فى أهل عصره يجعله يخطىء فى الحكم على بنى الإنسان » .

ومعنى ذلك أن أهم ما يؤخذ على مؤرخى القرن الثامن عشر بوجه عام هو نقص الحاسة التاريخية الذى جعلهم يعتقدون أن الإنسان فى كل العصور مثل انسان القرن الثامن عشر ، وغض النظر عما يعرض له من تغيرات ويطرأ عليه من اختلاف الأحوال ، وجيبون وهو أقدر مؤرخى ذلك العهد يأخذ عليه النقاد أن عقله المتشكك الناقد لم يستطع فهم المعارك الدينية والخلافات المذهبية التى كانت تعصف بالناس عصفا وتؤثر فى حياتهم ونفوسهم تأثيرا عميقا فى خلال العصور التى وصفها فى تاريخه ، وقد ذكر جيبون قصة هذه الخلافات الشديدة المثيرة ، ولكن القارىء يشعر بأنه كان يشرف على القوم الغارقين فى هذه الخلافات وترتسم على وجهه ابتسامات الاحتقار او الإشفاق لأنه لم يستطع فهم جوهر هذه الخلافات ، ولذا عجز عن تفسيرها أخيرا .

وعدم التفات مؤرخى القرن الثامن عشر لألوان التغيرات التى استهدف لها تاريخ العالم جعل كتابة التاريخ رتيبة مملة تكاد تكون أخباراً مكررة وحوادث معادة وصورا متماثلة ، وقد أخل ذلك بالعنصر الفنى والمنهج الأدبى فى كتابة التاريخ وعرض حوادثه وتصوير شخصياته البارزة ، وأتاح ذلك الفرصة لظهور الروائى المؤرخ الفنان ولترسكوت .

والظاهر أن العنصر الأدبى لازم فى كتابة التاريخ ، فإذا أبعد من ناحية احتال على الدخول من منفذ آخر ، والشعور بالحاجة الماسة إلى هذا العنصر الأدبى هو الذى ساعد على ميلاد الرواية التاريخية ، وكان من أهم عوامل الرواج الذى ظفرت به روايات ولتر سكوت ، وقد استطاع سكوت بخياله القوى وعطفه الشامل أن يعرض على قرائه صورا تاريخية نابضة بالحياة ملونة باللون المحلى حتى ساد الاعتقاد بأن التاريخ الذى يتعلمه الناس من روايات ولتر سكوت أصدق تصويرا ، وأصح تحقيقا وأقوى فى النفوس تأثيرا من التاريخ الذى تحتويه الكتب الجافة المملة

التى يخرجها المؤلفون المتخصصون بعد الإمعان فى التحقيق ، والتحذلق فى عرض الموضوع ، وادعاء العلم الواسع والبحث العميق .

وفى روايات ولتر سكوت نرى النورمانديين والأنجلو ساكسون والأسكتلنديين والإنجليز والصليبيين والمتطهرين قد انتفضوا من قبورهم واستردوا حياتهم القومية العارمة وعواطفهم الجائشة الطاغية، وقد استرعى ذلك نظر المؤرخين ، وجعلهم يعيدون النظر فى كتابة التاريخ فقد كانوا يغفلون فى كتاباتهم العناية باللون المحلى وإبراز خصائص العصور المختلفة ، وكان من أثر ذلك أن أصبحت كتابتهم غثة مملة جدباء خالية من الحياة ، فلماذا لا ينتفعون بهذا العنصر الذى أدرك أهميته الروائيون وفى طليعتهم ولتر سكوت ؟

وقد ألقى المؤرخ الفرنسى أوجستين تيرى ضوءا على تأثير المؤرخين بطريقة ولتر سكوت ، وكان قد ساءه ما أصاب فرنسا فى أوائل القرن التاسع عشر من اكتساح الجيوش الأجنبية لأراضيها ، فبحث عن موضوع تاريخى يبث فيه آلامه ويعبر خلاله عن آرائه السياسية ، وظن أن هذا الموضوع الملائم هو غزو النورمانديين لانجلترا ، وهو يقول فى ذلك : « أقبلت على تناول هذا الموضوع باهتمام شديد ، ولكن بعد محاولات استبان لى أننى أزيف التاريخ ، وذلك لأننى كنت أستعمل نفس القواعد لعصور مختلفة ، ولما كانت أفكارى السياسية قد غلبتنى على أمرى وسيطرت على ، لذلك كنت أحاول كتابة التاريخ على طريقة فلاسفة القرن الثامن عشر ، ومعنى ذلك أننى كنت أستخلص من الحوادث التى أرويها صفوفا منظمة من البراهين تثبت معتقداتى بدلا من أن أقدم تقارير مسهبة فضفاضة » .
وبعثت فيه البحوث التى أجراها فى موضوعه المختار حماسة واهتماما حتى أصبح لا يقنع باتباع الأسلوب القديم فى تناول التاريخ ، وحار حينا من الزمن فى التماس الأسلوب المناسب ، وفى ذلك الوقت وقعت فى يده رواية ولتر سكوت فأخرجته من حيرته ، وكانت له بمثابة الكشف والإلهام ، فقد وجد فيها سر الحوادث النابض بالحياة ، المعبر فى أجلى بيان عن الفروق بين مختلف الشعوب وتباين العصور ، وتراءى له أن خيال ولتر سكوت قد استطاع أن يبعث الناس من القبور ، ويجعلهم يستردون الحياة ويتحركون إزاء عين القارئ ، وعبر تيرى عن هذا الشعور بقوله :

« وارتفع إعجابى العظيم بهذا الكاتب إلى درجة أسمى حينما وازنت بين معرفته الواسعة الغزيرة للعصور القديمة وبين اطلاع أشهر مؤرخينا المحدثين العديم اللون ، ومن ثم رحبت بظهور طرفته الفنية المسماة « إيفانهو » بحماسة قوية ، ففى هذا الكتاب استطاع سكوت بعينه النسرية أن يلقى ضوءا على العصر الذى شغلت به ثلاث سنوات ، وقد أرانا بجرأته العبقرية كيف أن النورمانديين والسكسون غزاة ومنهزمين قد وقفوا وجها لوجه على الثرى الإنجليزى ، وذلك بعد الغزو بمائة وعشرين سنة ، وقد رسم بألوان شعرية فترة من الفترات فى هذه الدراما الطويلة التى كنت أحاول أن أكتب عنها بقلم المؤرخ الكادح » .

وقد شد ذلك من عزم تيرى ، وجعله يعلن الحرب على المؤرخين العاطلين من الخيال الذين لا يستطيعون أن يصوروا الماضى ويعيدوا بناءه .

وهذا الطريق الذى اتبعه تيرى فى كتابه عن الفتح النورماندى مسترشدا بطريقة ولتر سكوت فى رواياته التاريخية هو نفسه الطريق الذى سار فيه المؤرخون الذين اتبعوا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر هذا المنهج مثل سيموندى ويرسكوت وماكولى وكارلايل وفون رانكن وغيرهم .

ويمكن أن نستخلص من ذلك أن نقص العنصر الفنى فى كتابة التاريخ أدى إلى ظهور الرواية التاريخية ، ولذلك كان من المنتظر وقد عاد هذا العنصر إلى كتابة التاريخ على يد أعلام المؤرخين فى القرن التاسع عشر أن يقل الإقبال على الرواية التاريخية ، فقد استطاع المؤرخون أن يسدوا هذا العجز ، ويستوفوا هذا النقص ، وينفخوا من روحهم حياة فى كتابة التاريخ ، ويظهروا العصور فى جوها الملائم ولونها المناسب .

ولكن قوة تأثير سكوت فى توجيه الكتاب الروائيين لم يكن من السهل مقاومتها ، وقد ظهر فى معظم الدول الأوربية كتاب روائيون يحاكون طريقته ، ويضربون على قالبه ، منهم مانزونى فى إيطاليا وهادف فى ألمانيا وألفريد دى فنى وفيكتور هيجو وديماس فى فرنسا ، بل وصل تأثيره إلى روسيا وظهر فى أدب بوشكين وترجنيف وتولستوى وغيرهم من الكتاب الروسيين .

وقد حاكاه فى الشرق العربى المؤرخ المعروف جورجى زيدان ، فقد تناول فى رواياته التاريخية الكثير من الحوادث والشخصيات البارزة فى التاريخ الإسلامى .

ويعزو المؤرخ النقادة ظهور الروايات التى تصف العادات والأحوال والتقاليد المعاصرة التى نبغ فيها من الروائيين والروائيات أمثال مس أوستن ومس برونتيه وجورج إليوت وبلور وتكرى وديكنز وغيرهم إلى تأثير سكوت ، وتعد روايات أمثال هؤلاء الكتاب والكاتبات تسجيلا روائيا تاريخيا للعصر الذى عاشوا فيه ، وبكوا أحواله ، ويصح أن نسميها روايات تاريخية معاصرة .

وبرغم المكانة العالية التى يلفها أدب ولتر سكوت وتأثيره البعيد المدى فى الأدب الأوروبى بوجه خاص والشهرة القليلة النظير التى حظى بها فى حياته ، وتقدير الكثيرين من كبار النقاد وأعلام الأدب لأدبه ، وعلى رأسهم شاعر ألمانيا وأديبها العظيم جيتى ، فإنه لم يسلم من النقد ، وبعض هذا النقد كان غاية فى الشدة والقسوة ، وإن كان أكثره قد أصاب الهدف وأطلعنا على نواحى الضعف والتهافت فى أدب سكوت ، ومهما يكن من الأمر فإن تقدير النقاد لأدب سكوت بوجه عام لا يضعه فى المكانة العالية التى رفعه إليها معاصروه الذين كانوا يرون أن عبقريته وإنتاجه فى الشعر والرواية يؤهلانه لأن يوضع إلى جانب الشاعر البريطانى العظيم وليام شيكسبير .

وفى أعقاب وفاته كتب عنه الناقد الفرنسى سانت بيف يقول من مقال موجز : « كان سكوت فى وصفه للأخلاق غير متحيز ويعكس الحياة كما هى ، ويصف الناس بأهوائها وميولها والبيئة التى احتوتهم دون أن يقحم شاعره أو أن يدخل شخصيته » .

أما توماس كارلايل المؤرخ النقادة الأسكتلندى فكان فى طليعة من وجهوا النقد إلى مواطنه العظيم ، لقد لخص حكمه عليه فى الفصل الصفافى الذى كتبه عنه حينما ظهر كتاب لوكارت عن سكوت بقوله : « كانت حياته دنيوية ، وطموحاته دنيوية ، وليس فيه شىء روحانى وكل ما فيه اقتصادى مادى من الأرض » .

وقد عاب عليه المؤرخ النقادة تين إسراعه فى إخراج مؤلفاته ، وعد ذلك دليلا على قلة تحريه للحقائق ، وقال فى نقده : « كل هذه الصور من الماضى البعيد الذى يعرضها صور زائفة ، وليس فيها صحيح سوى الملابس والمناظر والمظاهر الخارجية ، أما الأعمال والأقوال والمشاعر وما إلى ذلك فإنها كلها أشياء منمقة مستحضرة مصبوبة فى القوالب المستحدثة ، وحينما نتأمل أخلاق المؤلف وحياته

يساورنا الشك ، فماذا كان يريد ؟ وماذا كان يطلب ضيوفه فى قلعته؟ وهل هو من طلاب الحق كما هو سواء كان قبيحا أو متوحشا قاسيا ؟ وهل هو باحث منقب لا يبالى بالثناء ولا يعبأ إلا بالبحث عما يطرأ على الطبيعة الحية من التغيرات ؟ كلا ، إنه لا يعبأ بذلك كله ، . . وليس عنده وقت ليصل إلى أغوار النفوس التى يصفها ، فهو يحصر اهتمامه فى المظهر الخارجى ، ويرى الصور والخارجيات ، ويصفها ويطيل فى ذلك أكثر مما يصف المشاعر الداخلية » .

وعلى هذا النمط يسترسل تين فى تقديره لولتر سكوت ، وواضح أنه يأخذ عليه قلة توفره على بحث العصور التى تصدى لوصفها فى رواياته ، وإسراعه فى الإخراج الذى حال بينه وبين الإجادة فى رأى تين .

وقد أفاد كتاب الرواية التاريخية من نقد تين الشديد لروايات ولتر سكوت فتحروا الدقة وبالغوا فى الاستقصاء حتى جاءت بعض طرفهم الأدبية الروائية آية فنية عظيمة تجمع بين دقة البحث وقوة الخيال وبراعة العرض .

ومن كتاب القرن التاسع عشر الذين أنصفوا سكوت وأحسنوا تقديره الكاتب الأمريكى الكبير إمرسن ، قال عنه : « رأى النقاد أن شعر سكوت ليس سوى نثر منظوم ، وإذا كانت أشعاره قد نجحت نجاحا جزئيا فإن رواياته قد نجحت نجاحا كليا ، وقد كان من الطبقة الأرستقراطية ، وكانت فيه فضائل تلك الطبقة ومفاتنها ، ولكن إنسانيته العالية وإقباله على العمل جنباه عيوبها وأنقذاه من مساوئها ، كان يخالط صغار المزارعين من جيرانه وصغار التجار والناس العاديين والرعاة وصائدى الأسماك والنور وبنات المزارعين والسيدات العجائز ، وهو فى تعدد شخصيات رواياته وتنوعها يقترب من شيكسبير ، وبعض مصورى الشخصيات فى الشعر والنثر قدموا للأدب طرزا قليلة من الطبائع والأخلاق مثل سرفنتيز وديفو وريشلادسون وجولد سمث وستيرن ومنايدبخ ، ولكن سكوت كان يصور بقوة ونجاح كل شخصية فى الجمع الحاشد الذى يطالعنا فى رواياته ، وقد أنقذه حسن تقديره من أخطاء الشعراء وضعفهم ومن أنانيتهم وشدة غيرتهم ، وكان رجلا فى تصرفاته وأخلاقه ، كان رجلا عاقلا مستقيما كبير القلب جبارا قديرا على منازلة الحوادث لا تزعزعه الخطوب ، ولا تفل عزمه النوازل بل تزيده قدرة على الكفاح » .

وهذا تقدير كريم يتفق مع ما عرف عن كاتبه من سماحة النفس وسعة الأفق

ورأى الكاتب الروائى المعاصر فورستن يخالف ما ذهب إليه إمرسن ، فهو يقول عنه فى كتابه القيم عن القصة : « أما من ناحيتى فإنى لا أعبأ بسكوت ، وأجد صعوبة فى فهم شهرته المستمرة ، ومن السهل فهم شهرته فى عصره ، فقد كانت هناك أسباب تاريخية هامة تدعو إلى ذلك وكان علينا بحثها لو أننا اتبعنا التسلسل الزمنى ، ولكن حينما نتصيده من نهر الزمــن ولمجلسه للكتابة فى تلك الغرفة المستديرة مع الروائيين الآخرين فإنه يبدو فى مظهر أقل تأثيرا ، ويرى أن عقله تافه وأن أسلوبه ثقيل ، وأنه لا يستطيع البناء ، وليس عنده الاعتزال الفنى ولا العاطفة ، وكيف يستطيع كاتب خلو من هاتين الصفتين أن يخلق الشخصيات التى تثير نفوسنا من أعماقها ؟ » .

ويعلل فورستر بقاء شهرة سكوت بأنه كان يعرف كيف يروى القصة ويثير طلعة القارئ .

وأختم الحديث عن السير ولتر برأى الكاتب النقادة الفيلسوف الإيطالى بندتو كرونشه ، فقد خصه بنقد بدأه بقوله : « يعد ولتر سكوت الشاعر والكاتب الروائى العظيم فى طليعة كتاب النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وقد انتشرت مؤلفاته فى كل النواحى ، وظهر مقلدون له فى شتى الجهات ، وقليل من الكتاب من كان له مقلدون وتلامذة مثل سكوت ، ولم يعجب به جمهور القراء العاديين فحسب ، بل شمل الإعجاب به كبار كتاب العصر وشعرائه ، فجيتى يقول عنه : « عبقرية عظيمة لا نظير لها تحدث بحق تأثير بالغ فى قراء العلم » ، وفى وطنه أسكتلنده كانوا يقارنونه بشيكسبير [١] ، ولكن فى العصر الحاضر قلت هذه الشهرة ، فإن النقد التاريخى – وبخاصة بعد ظهور مقال تين – أظهر قسوة فى الحكم عليه وانتقص قيمته ، ورواياته طويلة ، ويشعر القارئ بتعمل فنها وتكلفه ، وكانت السوق حينذاك فى حاجة إلى هذه السلعة ، وكان الطلب أكثر مما تدعو إليه الحاجة ، وقد بدأ حياته

(١) كتب كرونشه هذا التقدير لأدب سكوت فى العشرينات من القرن الحالى .

ينظم الشعر استجابة لما كان مطلوبا، وفى مدى سنوات قلائل أدرك أن الذوق قد تغير ، وأن الطلب يستلزم شيئا آخر ، فانتقل من الشعر إلى النثر ، وأحاط اسمه بغموض ، وسمى نفسه مؤلف ويفرلى ، ونجح نجاحا كبيرا ، وحينما يقرأ الإنسان تاريخ حياته يعجب بهذه المثابرة والقدرة على الإنتاج التى كانت تمكنه من إخراج روايتين أو ثلاث روايات فى عام واحد ، ويعجب بقدرته على الابتكار ، والقلعة الفخمة التى بناها لنفسه من المبالغ الضخمة التى جمعها وكرمه وبسط يده الذى حاكى به الأمراء الموسرين والسادة الأثرياء ، ولا شىء روى عن تجاربه فى الحب أو أفكاره أو عن المعارك الروحية ونوبات خيبة الأمل ، وتعين كتاب سيرته بالحديث عن الخسارة المادية الجسيمة التى منى بها زميله فى النشر والطباعة ، وكيف غالب سكوت الكارثة وامتشق القلم وتعهد بسداد الديون التى ركبته ، وأفسد صحته وحمل نفسه ما لا يطيق من الجهد ، وكان طلب روايات السير ولتر سكوت نتيجة لنمو الشعور القومى التاريخى السياسى الذى جاء بمثابة رد فعل لعقلية القرن الثامن عشر وتأثير الثورة الفرنسية ، ولم يكن سكوت موحد هذا الاتجاه ، ولكنه عرف كيف يستغله ويستجيب لمطالبه ، ولا يمكن انتقاص فضله من هذه الناحية ، فقد وصلت رواياته إلى مستويات لم يصل إليها الفلاسفة ولا الشعراء ، فقد جعلت الناس فى الدول الأوربية يرجعون إلى تاريخهم ، وينقبون فى ماضيهم وأحوالهم السالفة ، وتأثر به المؤرخون المحترفون ، وتركوا أسلوبهم الممل ، وعرضهم الخالى من التكوين ، وإن كان لسوء الحظ قد أغرى بعضهم بأن يتصور التاريخ على نمط الرواية التاريخية ، ولكن هذا الاتجاه قد انتهى عهده ، وبقى التأثير الحسن الذى تركه سكوت ، ومن غير الممكن فى العصر الحاضر أن نستوفى الكتابة عن خصائص ومميزات الكتابة التاريخية فى القرن التاسع عشر دون أن نطبع فى حسابنا الدور الذى لعبه سكوت فى تطويرها ، وبطبيعة الحال لا يصح أن نحكم على طريقته فى تكوين حبكة الرواية بمعايير العهد الحاضر ، لأن هذه المقارنة تضر به وتظلمه وتظهر عجزه وقلة تجربته ، والذى يتبع أساليبه فى بناء الرواية فى العهد الحاضر يعرض نفسه للسخرية ، ولكنه يوازن بكتاب عصره ويحكم عليه بميول القراء فى زمنه » .

وأكتفى بهذا القدر من كلام كرونشه ، وقد اختلفت آراء النقاد فى تقدير أدب

سكوت ومكانته ، ولكن لم يستطع أحد من ناقديه أن ينكر عليه سراوة نفسه ونبل أخلاقه وكبر قلبه وعظيم تأثيره فى الأدب العالمى .

بسمارك - رجل الدم والحديد

الذى يدرس تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ، ويحاول أن يتبين التيارات السياسية والاجتماعية التى سادت فيه وغلبت عليه يواجهه أينما اتجه اسم بسمارك ، فإن له مكانة بارزة وتأثيرا بعيد المدى بين كبار الساسة الذين عرفهم القرن التاسع عشر ، وهو ونابليون بونابرت يعدان فى الرعيل الأول من الرجال العمليين فى العالم الحديث ، وقد عنى الكثيرون من المؤرخين الألمانيين والفرنسيين والإنجليز والأمريكيين بدراسة تاريخ حياته ، وكان منهم المعجبون به ، والمقدرون لعظمته وبراعة خططه وأساليبه وإنجازاته السياسية ، ومنهم الناقمون عليه والكارهون لسياسته التى شجعت على اتباع أساليب القوة والعنف ، وتسويغ السياسة المكيافلية التى تضع مصلحة الدولة فوق الاعتبارات الأخلاقية والإنسانية ، ولا تبالى بأى لوم أو نقد يوجه إليها فى هذا الصدد ، وقد استطاع بسمارك فى خلال ثمانى سنوات أن يغير خريطة أوروبا ، ويجعل إمبراطورية الهوهنزولرن الألمانية أقوى قوة حربية فى العالم .

وكان الألمان بعد هزيمتهم فى الحرب العالمية الأولى ينادون بالعودة إلى سياسة بسمارك البناء القدير الذى كان يعرف متى يضرب الضربة الموفقة فحسب ، بل كان يعرف كذلك متى يتوقف عن الضرب ويؤثر المهادنة والصلح وتأكيد العلاقات الودية ، وقد جمعت تأملاته الفكرية وأحاديثه ، ويضعها الألمان فى مستوى أحاديث شاعرهم الكبير جيتى ومصلحهم الدينى الشهير مارتن لوثر .

وقد ولد بسمارك فى ٢ أبريل سنة ١٨١٥ وكان الإمبراطور نابليون قد فر من جزيرة البا ، وعاد إلى فرنسا ، وانفض مؤتمر فينا، ونشأ فى كنيبوف فى بومرانيا ، وكان أبوه فردينان فون بسمارك من سادة الريف ، وكانت والدته من أسرة مينكن التى أخرجت بعض أساتذة القانون والتاريخ ، والمعروف أنه ورث منها الفطنة الحادة والذكاء اللامع ، والطموح المترامى ، كما ورث عن أبيه الترفع الأرستقراطى ، وقد

كان أجداده من ملاك الأراضى فى براندنبرغ ، ويرجع تاريخهم بها إلى أكثر من خمسمائة سنة ، وقد عرفوا بالكبرياء والصلابة وكان جده من الألمان الذين تأثروا بآراء روسو ، وجر عليه ذلك غضب فردريك الأكبر ، أما والده فكان هادئ المزاج غير طموح ، التحق فى مطلع شبابه بالجيش ، ولكنه سارع إلى التقاعد ، وعاد إلى ممتلكاته ، ولم يشترك فى حرب سنة ١٨٠٦ أو حرب سنة ١٨١٣ ، وقد أثرت الوراثة الأرستقراطية فى بسمارك فمالت به مذهب المحافظين طوال حياته .

وقد نشأ أوتو أبى النفس ، لا يقبل الضيم ، ومن ذكريات حداثته أنه هرب من منزل أسرته حينما أساء أخوه معاملته ، وعثر عليه تحت شجرة زيزفون فى المزارع التابعة لأسرته ، ولم تكن أيام طفولته سعيدة ، فقد كان لا يحظى بعطف والدته ، ولم تكن التربية فى المدرسة ملائمة لمزاجه ، وقد لبث طوال حياته يشكو المعاملة القاسية التى عومل بها فى المدرسة ، وكانت معاداة طبقة النبلاء عامة فى تلك الفترة بالمدارس ، وكان ذلك من بواعث تأصل دوافع التحدى فى نفسه ، وقد أتقن أثناء دراسته اللغة الألمانية ، وقرأ الكثير من كتب التاريخ ، وعرف عنه التقصير فى احترام مدرسيه ، وغلبت عليه نزعة الشك ، وحينما التحق بجامعة جوتجن كان يدعو زملاءه الطلبة إلى المبارزة إذا اعتقد أن أحدهم قد سخر منه أو استخف به .

وكان من أترابه بها موتلى الذى صار بعد ذلك من كبار المؤرخين الأمريكيين والديبلوماسيين البارزين ، وقد ظل صديقا لبسمارك حتى شيخوخته ، وقد أكسبه ميله إلى المبارزة وانتصاره فيها احترام زملائه ، وروى عنه موتلى أنه كان لا يتحدث معه حديثا معقولا إلا حينما يكونان منفردين ، وقد استشف موتلى عناصر البطولة التى كانت كامنة فى أعماق نفس هذا الطالب المشاغب الكثير الاعتداد بنفسه ، والشديد التعصب لطبقته .

وحينما بلغ الحادية والعشرين عين فى منصب دبلوماسى فى أكس لاشابل ، ولكن لم ترقه الواجبات التى كلف القيام بها ، فاستقال منه ، وأتيحت له فرصة أخرى ، ولكن سرعان ما مل حياة الوظيفة الرتيبة ، فرأت أسرته أن تعهد إليه بالإشراف على أملاكها فى كنيبهوف وعاش من سنة ١٨٣٩ إلى سنة ١٨٤٧ عيشة النبيل الريفى الشاب ، يقضى معظم وقته فى الصيد والشراب والمغامرات الغرامية ،

وأسرف فى هذه الناحية حتى اشتهر بالتهور ، ولكنه مع ذلك اكتسب خبرة بالزراعة ، ودرسها دراسة علمية ونظرية ، وقرأ فى خلال ذلك الكثير من الشعر والتاريخ بالفرنسية والإنجليزية والألمانية ، وقام برحلة إلى إنجلترا ، وأعجب بأهلها ونظمهم السياسية ، ولكنه مع ذلك كان يرى أن هذه النظم التى يغلب عليها الطابع الديمقراطى لا تصلح إلا للشعب البريطانى ، ويعاوده السأم بعد عودته من رحلته، ويمل الإقامة فى بوميرانيا ، وكان يتسلى أثناء ذلك بقراءة شعر بيرون ، وفكر فى القيام برحلة إلى مصر وسوريا ، وربما إلى أبعد من ذلك ، كما فكر فى العودة إلى خدمة الحكومة ، واتفق أن مات والده فى تلك الفترة ، وتولى فى الثلاثين من عمره ضيعة شينهوزن ، وترك كنيبهوف حيث شب ونشأ ، وقد شعر بالأسى حين فارقها ، واتجه تفكيره إلى الزواج ، وكان قد تعرف بيوحنا فون لوتكمر ، قبل وفاة أبيه بعام ، وكانت تصغره بتسع سنوات وميالة إلى التدين ، وتم زواجه بها ، وكان بسمارك زوجا مثاليا ، جم العطف على أسرته ، شديد التعلق بها ، كثير العناية بأولاده ، شغوفا بهم .

ولم يكن فى وسع هذا الرجل الصارم العزم ، الشديد بنفسه ، والممتلئ حيوية ، أن يظل بعيدا عن مجال الحياة العامة وميدان السياسة . وسعى سعيه حتى صار فى سنة ١٨٤٧ عضوا فى مجلس النواب البروسى ، وعرف بتأييده الشديد لآراء المحافظين ، وكان فى اعتقاده أن هذا هو اللائق بالسادة البروسيين .

وكان ملك بروسيا من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٦١ فردريك وليام الرابع ، وكان رجلا شديد الزهو والخيلاء ، متشعب النزعات والأهواء ، وينقصه الثبات والاستقرار وسعه الإحاطة بالمشكلات السياسية ، وبعد أن كان فى أول أمره ميالاً إلى تأييد مبادئ الحرية اعتنق المذهب القديم ، وهو الاعتقاد بحق الملوك الإلهى . ولم ينفذ شيئا من مقترحات الإصلاح التى قدمت له ، وقد أجبره الرأى العام على أن يعقد فى برلين فى فبراير سنة ١٨٤٧ أول برلمان بروسى ، وادعى هذا البرلمان لنفسه حق سن القوانين ومراقبة مالية الدولة والتصديق على القروض العامة ، وأزعجت هذه المطالب فردريك وليام ، فلم يسعه إلا أن يحل هذا البرلمان ، ولكنه واجه فى مارس سنة ١٨٤٨ ثورة خطيرة بعد أن عرف عنه أنه مناوئ لحركة الإصلاح ،

وأخافته هذه الحركات الثورية فوعد بدعوة البرلمان ، وكان الجيش مواليا له ، وأعيان الدولة لم يكونوا ميالين إلى تأييد الحركة الديمقراطية ، وفى شهر نوفمبر من السنة نفسها فض البرلمان بعد دعوته إياه معتمدا على مؤازرة الجيش ، وحدث بعد ذلك أن جاءته دعوة من برلمان فرانكفورت ليقبل عرش الإمبراطورية الألمانية ، ولكنه رفض قبول تاج غير مرفوع إليه من الأمراء ، كما أنه لا يقر دستورا لم توافق عليه الحكومات الألمانية ، وقد أدرك أن قبوله لتاج الإمبراطورية الألمانية ومقترحات برلمان فرانكفورت الديمقراطى النزعة يعرضه لصدام مسلح مع النمسا ، وربما مع روسيا كذلك ، وآثر أن يظل ملكا على رعاياه البروسيين المخلصين ، وقضى بذلك على محاولة برلمان فرانكفورت ومشروع قيام ألمانيا متحدة حرة ، واطمأن بال الأمراء الذين خافوا أن يفقدوا عروشهم .

ولما هدأت فورة الثورة وجد ملك بروسيا فى مواجهته شفارتزن برج رئيس وزراء النمسا الذى رفض أن يعترف بقيام اتحاد بين بروسيا وكثير من الولايات الألمانية تحت رعاية بروسيا وأيدته فى ذلك حكومات بافاريا وسكسونيا وورتمبرج وهانوفر التى كان ملوكها يخشون الانضمام على اتحاد تتزعمه بروسيا ، وأصر شفارتزن برج على حل الاتحاد الألمانى الذى دعا إلية فردريك وليام، وتوعد بروسيا بالحرب إذا أصرت على إنشاء العصبة الجديدة ، ورأى فردريك أن جيشه غير كامل الأهبة ، وأنه لا يستطيع منازلة النمساويين وبخاصة بعد أن ناصرهم القيصر الروسى نيقولا الأول ، وفى أولمتز سلمت بروسيا بمطالب النمسا .

وكان الشاب البروسى البوميرانى أوتو بسمارك يراقب هذه الحركات ، فقد كان عضوا فى برلمان برلين ، وقد ساءته هزيمة بروسيا فى هذا الصراع على النفوذ ونشدان الوحدة الألمانية ، وقد قضى السنوات من ١٨٥١ إلى سنة ١٨٦٢ فى التدريب على الأعمال الرسمية ، وكان فيما بين سنة ١٨٥١ وسنة ١٨٥٨ المبعوث البروسى إلى المجلس الاتحادى فى فرانكفورت ، ومن سنة ١٨٥٩ إلى سنة ١٨٦٢ كان سفير بروسيا فى البلاط القيصرى بسان بطرسبرج ، ثم نقل فى السنة نفسها سفيرا فى باريس لمدة بضعة أشهر .

واستدعى بعد ذلك رئيسا لوزراء بروسيا ، وكان هو الموجه لسياسة بروسيا من سنة ١٨٦٢ إلى سنة ١٨٩٠ التى استقال فيها .

وكان سبب استدعائه أن الملك وليام الأول الذى تقلد زمام الأمور فى بروسيا سنة ١٨٥٨ بوصفه وصيا على العرش حينما ظهرت أعراض الجنون على أخيه الملك فردريك وليام الرابع ، كان يمقت الحركات الشعبية ، ويحرص على أن تصبح بروسيا قوة حربية مرعية المكانة مرهوبة الصوان ، حتى لا تتعرض مرة أخرى لمثل الإذلال الذى أصابها فى أولمتز ، وقد ولى الملك بعد وفاة أخيه فى سنة ١٨٦١ وحدث فى سنة ١٨٦٢ خلاف شديد بينه وبين البرلمان البروسى ، فقد اقترح الملك تقوية الجيش وإعادة تنظيمه ، ولكن البرلمان عارض فى ذلك ورفض الموافقة على الضرائب التى يستلزمها إعادة تنظيم الجيش ، واضطر الملك إلى حل البرلمان ، ولكن الأحرار الذين عارضوه عادوا فى البرلمان الجديد أقوى مما كانوا ، وأخاف ذلك الملك ، فمال إلى التسليم بمطالبهم ، ولكن المحافظين أقنعوه بأن يقوم بمحاولة أخيرة قبل الإذعان وأشار عليه فون رون وزير الدفاع أن يدعو بسمارك لإنقاذ الموقف ، فاستدعى من أفينيون ، وقبل أن يتقلد رئاسة الوزارة .

وأبلغ بسمارك البرلمان أنه سيمد العمل بالضرائب السابقة بموجب مرسوم ، وأنه سيترك للمستقبل أمر إصدار قانون لتصحيح الوضع ، وصارح البرلمان قائلا : « إن ألمانيا لا تبغى أن ترى بروسيا تعتنق المبادئ الحرة ، ولكن تبغى السلطان ، وللدول الألمانية فى الجنوب أن تغض الطرف عن مبادئ الأحرار ، ولكنها من أجل هذا لن يعهد إليها أحد بالدور الذى تقوم به بروسيا ! ويجب أن تستجمع بروسيا قواها ، وتحتفظ بها للحظة المواتية التى أفلتت مرارا ، إن حدودنا منذ معاهدات فينا لا تلائم دولة سلمية ، والخطب وقرارات الأكثرية لا تفصل فى كبرى مشاكل هذا العصر ، بل يفصل فيها الحديد والدم لا ما ارتكب عام ١٨٤٨ » .

وكان لهذه الكلمة صدى مدو فى أنحاء بروسيا ، ولامه عليها صديقه رون ، وقال بسمارك معتذرا عن صدورها منه « إن كل ما قصدت أن أقوله هو أن الملك بحاجة إلى جنود لا إلى خطب كيما يتقدم بالمسألة الألمانية ، وهذا مجرد إنذار لفينا وميونخ لا دعوة إلى استخدام القوة مع الدول الألمانية الأخرى بحال من الأحوال ،

والدم معناه الجند فحسب ، على أنه كان خليقا بى أن أتخير ألفاظا أخرى أكثر احتياطا » .

وثارت حينذاك مشكلة شلزويج وهولشتاين ، وكانت هاتان الدوقيتان تابعتين لملك الدانمارك منذ سنة ١٤٦٠ ولكنهما لم تكونا تؤلفان جزءا من مملكة الدانمارك ، وفى سنة ١٨٦٢ صارتا مثار خلاف بين الدانمارك من ناحية وبروسيا والنمسا من جهة أخرى ، وكان الغالب على شلزويج العنصر الدانماركى ، أما هولشتاين فكانت الكثرة فيها من العنصر الألمانى ، وكانت الدانمارك تتطلع إلى ضمهما ، كما كانت بروسيا من ناحيتها تميل إلى ضمهما إليها ، وفى سنة ١٨٦٣ أقدم ملك الدانمارك كريستيان التاسع على ضم شلزويج إلى الدانمارك ، فاتفق بسمارك مع النمسا على أن تتناول الدولتان مشكلة شلزويج وهولشتاين ، وكان هذا الاتفاق سريا ، وطلبت بروسيا والنمسا من الملك كريستيان أن يلغى ضم شلزويج إلى الدانمارك ، ولما رفض ذلك هاجمت جيوشهما شلزويج فى أوائل سنة ١٨٦٤ وبطبيعة الحال لم تستطع الدانمارك مقاومة جيوش الدولتين ، ولم تظفر الدانمارك بتأييد عملى من فرنسا وانجلترا ، ولذلك اضطرت إلى تسليم الولايتين للنمسا وبروسيا ، وتم الاتفاق بين الدولتين على أن تتولى النمسا الإشراف على هولشتاين ، وأن تحكم بروسيا ولاية شلزويج .

وأدركت الحكومة النمساوية أن بسمارك قد استدرجها بدهائه إلى المشاركة فى هذه الحرب . وحاولت الخروج من هذا المأزق ، ولم يكن بسمارك قد أكمل استعداده لمصارحة النمسا بالعداء ، إذ كان عليه أن يقنع أولا الملك وليام بضرورة محاربة النمسا .

ولحسن حظ بسمارك كان نابليون الثالث مع أغلب الساسة البارزين فى أوروبا مخطئين فى تقدير قوة بروسيا وقوة النمسا ، وكانوا يرون أن أى توسع لدولة النمسا يخل بالتوازن الدولى ، ولكن اتساع رقعة بروسيا ليس فيه خطر ، إذ يجعلها قوة مواجهة للنمسا .

وحينما اجتمع بسمارك فى سبتمبر سنة ١٨٦٥ بإمبراطور فرنسا فى بياتز تلقى منه تأكيدات بأن النمسا لن تظفر بأية مساعدة من فرنسا ، وقدر نابليون الثالث أنه فى حالة

اشتباك النمسا فى حرب مع بروسيا وإيطاليا يستطيع أن يتدخل فى المرحلة الأخيرة ليصلح ما بين الطرفين المتحاربين وينال لقاء خدماته بعض المزايا لفرنسا فى منطقة الراين ، ولم يعكر بسمارك صفاء هذه الأحلام .

ومضى فى محاولة ضم إيطاليا إلى جانب بروسيا ، ويسر له ذلك أن النمسا كانت مستولية على مقاطعة البندقية فى إيطاليا ، ولذلك كانت إيطاليا مستعدة للمشاركة فى أى حرب تثار على النمسا ، وبدأ بسمارك محاولته فى ربيع سنة ١٨٦٥ وفى أبريل سنة ١٨٦٦ حصل على موافقة إيطاليا ، ولكنها اشترطت أن تعلن الحرب فى خلال ثلاثة أشهر ، وتعهد الطرفان بأن لا يعقدا صلحا إلا مشتركين ، وأتم بسمارك استعداده للحرب ، ولم يعجزه التماس أسباب إثارة الخلاف بينه وبين النمسا ، وفى يونيو سنة ١٨٦٦ أرغم النمسا على إعلان الحرب ، ولم ينضم إلى جانب بروسيا من الولايات الألمانية إلا بعض الولايات الصغيرة التى كانت تخشى بأسها ، أما الممالك الأربع وغيرها من الولايات الصغيرة فقد أخذت جانب النمسا ، وكان بسمارك واثقا الثقة كلها من الجيش ، ومتأكدا من أنه أكثر أهبة وأعظم تدريبا من جيش النمسا ، وكان شدة تعلق البروسيين بالنظام وولائهم لوطنهم .

وهزم الإيطاليون فى موقعة كستوزا ، ولكنهم برغم ذلك شغلوا بمحاربتهم جانبا كبيرا من الجيش النمساوى ، وكان الميدان الرئيسى للحرب بوهيميا ، وقد انتصر البروسيون على النمساويين انتصارا حاسما فى موقعة كونجراتز ، ولم يستغرق هذا الصراع أكثر من ستة أسابيع .

وقد أدهشت كفاية الجيش الألمانى أوروبا وأخافتها ، وبرغم هزيمة الإيطاليين فى كاستوزا فقد سأل الإمبراطور فرانسيس جوزيف نابليون الثالث أن يتوسط فى إنهاء الحرب ، وعقدت معاهدة براج فى شهر أغسطس ، ونزلت النمسا عن مقاطعة البندقية لإيطاليا ، واكتفت بروسيا بطرد النمسا من الاتحاد الألمانى الذى أصبح يشمل الولايات الشمالية ومعها سكسونيا ، واحتفظت الولايات الجنوبية باستقلالها ، وضمت بروسيا هانوفر ونساومس كاسل ومقاطعتى شلزويج وهولشتاين إلى رقعتها ، وحينما التمست الولايات الألمانية الجنوبية من نابليون الثالث التدخل من أجل حمايتها أفهمها بسمارك أن نابليون الثالث يتطلع إلى أن يضم

إلى فرنسا بعض الأراضى الألمانية تعويضا له عن تزايد قوة بروسيا ، فرأت الولايات الجنوبية أن محالفة بروسيا أهون الضررين ، وفى الشر خيار ، وهكذا ساعدت أنانية نابليون الثالث سياسة بسمارك .

وقد كان الهدف الذى ترمى إلى إصابته سياسة بسمارك هو توحيد ألمانيا تحت زعامة بروسيا ، وبعد الانتصار على النمسا لم تكن الوحدة المنشودة قد تحققت ، فما زالت الحكومات الأربع الجنوبية خارجة عن الاتحاد ، وقد رأى بسمارك أن من الخير ضمها بعد هزيمة فرنسا ، وقدر بسمارك أن انتصار بروسيا فى محاربة فرنسا كفيل بأن يحمل الحكومات الأربع الجنوبية على طلب الانضمام إلى بروسيا ، وتكمل بذلك الوحدة الألمانية ، وكان الأحرار البروسيون ناقمين على بسمارك لاستبداده برأيه ، وتنكره للديمقراطية والمبادئ الحرة ، ولكن انتصار بروسيا فى الحرب على النمسا جعلهم يعجبون به ، ويغضون الطرف عن مقاومته لهم ، وقبلوا رأيه فى التعويل على القوة فقد تبين لهم أن القوة هى صاحبة الحق ، وغلب هذا الرأى على الشعب الألمانى ، وأثر فى تفكيره السياسى وثقافته بوجه عام .

ولكى تتم الوحدة بعد الانتصار على فرنسا كان على بسمارك أن يظهر فرنسا أمام الألمان فى مظهر الدولة المتغطرسة ، وأن يفقدها عطف الدول الكبرى الأخرى حتى لا تقف فى صفها إذا نشبت الحرب بينها وبين بروسيا ، وكان لا بد من إعداد أقصى ما تستطيعه بروسيا من قوة لإحراز النصر ، وقد اعتمد فى ذلك على كفاية القائد القدير مولتكه ، وكان هذا الرجل جديرا بما وضعه فيه بسمارك من ثقة ، وقد نهض بأعباء هذه المهمة أقوى نهوض ، ووعد بسمارك روسيا بتأييدها فى مسألة إعادة النظر فى معاهدة سنة ١٨٥٦ الخاصة بإغلاق مضيقى الدردنيل والبسفور .

وكان من المحتمل أن تساند إنجلترا فرنسا حليفتها فى حرب القرم ، ولكن بسمارك احتاط للأمر ، وخدع نابليون الثالث بأن جعله يبدى رغبته فى ضم بلجيكا إلى فرنسا ، واحتفظ بهذه الرغبة مكتومة ليعلنها فى الوقت الملائم ليحمل انجلترا على الإحجام عن مساعدة فرنسا ، وكانت حماية فرنسا لأملاك البابا فى إيطاليا تحول دون وقوف الملك عمانويل فى جانبها ضد بروسيا .

وسنحت الفرصة لبسمارك لاستدراج فرنسا إلى الحرب حينما خلا عرش إسبانيا

عقب حدوث ثورة فى سنة ١٨٦٨ وطرد الملكة ، وسعى الأسبان ليضعوا على العرش من يعوضها ، واتجهت أنظارهم إلى بيوت الإمارة الألمانية ، وكانت زودت نصف أوروبا بالملوك،ووقع اختيارهم على الأمير ليوبولد وهو من أمراء أسرة هوهنزولرن ، وهو يمت بقرابة بعيدة إلى ملك بروسيا ، وكان هذا الأمير أخا للأمير شارل الذى انتخب سنة ١٨٦٦ أميرا على رومانيا، وعرض هذا البيت الأمر على الملك وليام باعتباره رأس أسرة هوهنزولرن ، ولكن الملك لم يوافق على ذلك .

ولما نمى إلى باريس أن الأمير قبل عرش إسبانيا الخالى أحدث بها توترا دبلوماسيا شديد الخطورة ، ورأى الفرنسيون أن فى اعتلاء أمير ألمانى عرش إسبانيا تهديدا لهم وخطرا عليهم ، ورجح عندهم أن بسمارك وراء هذا التحدى ، وأن المقصود به إذلال الأمة الفرنسية ، ورأت الحكومة الفرنسية أنه إذا لم يسحب هذا الترشيح فإنها ستكون مضطرة إلى إشهار الحرب على بروسيا ، وأعلن الدوق دى جرامون وزير خارجية فرنسا فى مجلس النواب أن هذه المسألة تمس شرف بلاده ، وتنال من مكانتها ، ولما علم الأمير بتأزم الموقف وأنه سيجر إلى حرب طاحنة بين فرنسا وبروسيا غير مأمونة العواقب أعلن تنازله عن الترشيح ، وعد الفرنسيون هذا التنازل أو التراجع نصرا دبلوماسيا عظيما ، وطاروا به سرورا ، وحملت الحماسة الدوق دى جرامون - وكان أكثر من كبير الوزراء ميلا إلى الحرب وأخذ بروسيا بالشدة - على أن يطلب تأكيدا صريحا من ملك بروسيا بالتصديق على هذا التخلى ، وأن يتعهد بعدم تجديد هذا الترشيح فى المستقبل ، بل ذهب إلى مدى أبعد من ذلك ، وذلك بأن اقترح على السفير البروسى بباريس أنه يجدر بمليكه أن يعرب عن أسفه على حدوث هذا الترشيح .

وتأثر نابليون الثالث بهذه الحماسة الطاغية ، فأنفذ هو ووزير خارجيته تعليمات فى ١٢ يوليو إلى بنديتى السفير الفرنسى فى برلين بأن يقابل الملك وليام فى مدينة إمز ، ويحصل منه على تأكيد لتنازل الأمير عن العرش ، وأنه لن يقر فى المستقبل أية محاولة لإقامة أمير من أسرة هوهنزولرن على عرش إسبانيا ، وكان فى مأمول جرامون أنه متى تم ذلك يستطيع أن يحرز انتصارا باهرا فى مجلس النواب الفرنسى ،

ولما علم بسمارك بما طلب من وزير ألمانيا المفوض فى باريس غضب ، لأن هذا الوزير اكتفى بأن ينصح فى أدب بصرف النظر عن هذا الطلب ، وأقال الوزير من منصبه ، وأبرق إلى الملك فى أمر يهدد بالاستقالة إذا استقبل بنديتى السفير الفرنسى فى برلين مرة أخرى .

وزاره فى أثر ذلك بمنزله مولتكه ورون ، ووردت إليه وهما عنده برقية من إمز مضمونها أن الكونت بنديتى فاجأ ملك بروسيا وهو يتنزه وطلب منه بإلحاح شديد أن يبرق إلى الحكومة الفرنسية فى الحال بأنه يتعهد بعدم الموافقة على ترشيح أى أمير من أسرة هوهنزولرن لعرش إسبانيا فى المستقبل ، وأن الملك رفض ذلك فى شىء من الحزم ، وأن الملك تلقى فى تلك الأثناء كتابا من الأمير كارل أنطون يؤكد ما تلقاه بنديتى من باريس عن تنازل الأمير ليوبولد عن العرش الأسبانى ، وأنه لذلك قرر بعد إبلاغ ذلك للكونت بنديتى أن لا يستقبله ، وأنه ليس لديه ما يقوله ، ولما اطلع بسمارك على هذه البرقية وجه إلى مولتكه بضعة أسئلة عن مدى قوة الجيش واستعداده، وصارحه مولتكه قائلا : « إن الإسراع بشن الحرب خير من التلكؤ»، وتناول حينذاك بسمارك البرقية وأجمل مضمونها الخاص برفض الملك أن يستقبل السفير الفرنسى ، وأنه ليس لدى جلالته ما يبلغه إياه فوق ما بلغه ، وأصدر بيانا إلى الصحف ضمنه فحوى البرقية بعد التعديل الذى أدخله على نصها .

وقد أدرك بسمارك من أول لحظة أن الحرب واقعة لا محالة .

وفى صباح يوم ١٤ يوليو أحدث نص البرقية الذى نشر فى الجرائد الألمانية هياجا فى الوزارة الفرنسية والرأى العام الفرنسى ، وقال الإمبراطور نابليون الثالث : « لو لم يكن ثمة باعث لنا نستطيع أن نتقدم به لخوض غمار الحرب ، فإننا مضطرون إلى الامتثال لمشيئة الشعب » ، وكانت جموع الشعب تهتف فى شوارع باريس قائلة « إلى برلين لتحيا الحرب » .

ويرى المؤرخ البريطانى الأستاذ فيشر أن تبعة نشوب هذه الحرب بين فرنسا وبروسيا يجب أن تقع على كتفى بسمارك وجرامون ، ولا يخلى كذلك من اللوم وليام والإمبراطور نابليون الثالث وبطبيعة الحال يحاول المؤرخون الفرنسيون أن يلقوا تبعة هذه الحرب على عاتق بسمارك ، لأنه كان يراها لازمة لاستكمال الوحدة

الألمانية ، كما يحاول المؤرخون الألمان من ناحيتهم إلقاء اللوم على نابليون الثالث لرغبته فى إذلال بروسيا ، وكراهته لتزايد قوتها واتساع نفوذها واندفاع وزير خارجيته جرامون وعتفه البالغ حد الحماقة .

ولما حاول الأستاذ لورد R.H.lord من جامعة هارفارد الأمريكية أن يطبع كتابا عن « أصول الحرب الفرنسية البروسية » فى سنة ١٩٢٢ طلب من وزارة الخارجية الألمانية الاطلاع على الوثائق الخاصة بها ، وكان بها ستة ملفات خاصة بترشيح الأمير الألمانى لعرش إسبانيا ، ولكن قد كتب عليها أنها ملفات سرية ، ولذلك كانت السلطات الألمانية لا تسمح بالاطلاع عليها ، لأن ما احتوت عليه كان ينقض ادعاء بسمارك أن مسألة الترشيح كانت مقصورة على الحكومة المؤقتة فى مدريد وأسرة الهوهنزولرن التى اتفق أن رئيسها كان ملك بروسيا إلى أن تدخل الفرنسيون فى الأمر وكانت الناس لا تصدق ذلك .

ولم تطلق حكومة ويمار يد الأستاذ لورد فى الاطلاع على الملفات السرية ، وإنما سمحت له بالاطلاع على الوثائق الخاصة بسير الأحداث من ٤ يوليو سنة ١٨٧٠ إلى ما بعد ذلك ، وظلت وثائق المفاوضات التى أدت إلى قبول الأمير ليوبولد سرية ، واستشارت بعد ذلك وزارة الخارجية اثنين من المؤرخين الألمان الخبيرين بالوثائق فى مسألة السماح بالاطلاع على وثائق المفاوضات السرية ، ولكن هذين المؤرخين قدما مذكرة فى ١٤ مارس سنة ١٩٢٤ يشيران فيها بالمحافظة على سرية تلك الوثائق لأنهما وجدا أنه من الممكن أن يستخلص منها أن بسمارك كان يحاول أن يجد عذرا وجيها لإشعال نار الحرب ، وأنه ليس من المرغوب فيه أن يسمح للمؤرخين بالوصول إلى هذه النتيجة ، وقالا ضمن ما قالاه فى هذه المذكرة : « إن الألمان يحملون العبء الثقيل وهو عبء تبعة حرب سنة ١٩١٤ وأنه يجمل بهم أن لا يساعدوا على إقامة الدليل الذى يمكن من إلقاء تبعة حرب سنة ١٨٧٠ عليهم » .

قد جمعت هذه الوثائق بعد ذلك فى كتاب طبع بالألمانية [1] وترجم إلى

(١) وقد تناول المحقق الأدبى لجريدة التايمز البريطانية هذا الكتاب بالعرض والنقد فى العدد ٢٩٢١ ، المؤرخ ٢١ فبراير سنة ١٩٥٨ .

الإنجليزية فى سنة ١٩٨٥ ، وقد أظهرت هذه الوثائق أن بسمارك كان يحاول إغراء أعضاء فرعى الأسرة - الفرع الكاثوليكى والفرع البروتستانتى - بقبول العرض الأسبانى ، ويلوح لهم بما ينطوى عليه هذا القول من إحراز الأمجاد ، وتحقيق الأمانى والأحلام ، ولم يكن هذا العمل سهلاً لأن ملك بروسيا لم يكن مستعدا للموافقة على قبول هذا الترشيح ، وقد نجح بسمارك فى حمل الأمير كارل أنطون رئيس الفرع الكاثوليكى والأمير ليوبولد على القبول ، ولكن حينما اعترضت فرنسا وافق الأمير على الانسحاب من الترشيح ، وأقرته الأسرة على ذلك ، ولم تصبح الحرب محتومة إلا بعد أن أذاع بسمارك مضمون برقية أمز .

على أن هذه الوثائق لا تدين بسمارك ، وإنما تكشف عن اهتمامه بوصفه رئيس وزراء بروسيا بتقوية نفوذها وبسط سلطانها ، ولكن من سوء حظ بسمارك أن بونين ناشر الوثائق ألحق بها يوميات الصاغ فون فرسن ، وكان من ضباط أركان حرب الجيش البروسى وموضع ثقة بسمارك وموكله فى المفاوضات الخاصة بالعرش الأسبانى ، ففى سنة ١٨٧٠ كان هذا الصاغ فى سيجما رنجن لإقناع الأمير بالقبول ، وقد ذكر فى يومياته أن الأمير كارل أنطون كان مترددا فى الإشارة بالقبول وأنه قال : « ماذا يكون رأى فرنسا فى هذا الموضوع ؟ أليس من المحتمل أن يثير مشكلات ؟ » فقال له فرسن : « إن هذا هو ما يريده بسمارك » ، فأجابه الأمير كارل أنطون : « نعم ، فقد يريد ذلك الكونت بسمارك ، ولكن هل هذا حقيقة فى مصلحة الدولة ؟ » فأجابه فرسن قائلا : « إن مصلحة بسمارك ومصلحة الدولة شىء واحد » ، ولذلك هددت الحكومة الإمبراطورية مترجم حياة فرسن بأنه سيتهم بالخيانة إذا قدم اليوميات للنشر ، وحفظت اليوميات مع الوثائق السرية ، وكان بسمارك مثل كافور الإيطالى ونابليون الثالث يرى ضرورة إخفاء مثل هذه الوثائق ، ويحرص على ذلك ، ويحتاط له ، ولكن الأمر كما يقول المثل العربى « من مأمنه يؤتى الحذر » .

وبعد انتصار الألمان فى الحرب ، واستكمال الوحدة ، وانتزاع الألزاس واللورين من فرنسا ، صار بسمارك ينشد السلام ويتحاشى الحرب ، وقد ظل الموجه للسياسة الألمانية طوال حياة الملك وليام الأول ، وقد طبع سياسة ذلك

العصر بطابعه الخاص ، ولونها بلون شخصيته الجبارة ، ولم يكن يعرف الرحمة ولا الهوادة فى تنفيذ خططه ، وتحقيق أهدافه ، ولا يتردد فى اتباع الأسلوب الذى يراه قمينا بأن يوصله إلى ما يريد .

وفى أول مارس سنة ١٨٨٧ تداعت صحة الإمبراطور وليام الأول وقضى نحبه . وكان الإمبراطور الجديد يحتضر فى بيته ، ومهد ذلك السبيل لأن يرتقى عرش الإمبراطورية الألمانية وليام الثانى ، وكانت سنه لا تتجاوز الثامنة بعد العشرين ، وقد عرف بسمارك كيف يحمل الإمبراطور وليام الأول على اتباع نصائحه وإقرار خطته وتوجيهاته ، وقد هدد بالاستقالة فى بعض الأزمات التى اشتد فيها الخلاف بينه وبين الإمبراطور وليام الأول ، وكان الإمبراطور فى النهاية يذعن لرأيه وينزل على حكمه ، ولكن طبيعة وليام الثانى كانت مختلفة عن طبيعة جده ، ولم يكن مستعدا لإطلاق يد بسمارك كما فعل الجد .

وظهرت بوادر الخلاف بين الإمبراطور ومستشاره منذ أول عهده بارتقاء العرش الإمبراطورى ، وكان فى حاشيته من يحرضونه على عدم الانقياد لنصائح المستشار الحديدى ، وقد كان فالدرس رئيس أركان حربه فى طليعة المتملقين الذين كانوا يحرضونه على الاستئثار بالسلطة ، ويترحنون بدواته ونزواته ، ومن أقواله له : « إن فردريك ما كان ليصبح الأكبر لو أنه وجد عند توليه الحكم رجلا فى سلطان بسمارك وخطر شأنه واحتفظ به » .

وكان فالدرس يتطلع إلى منصب المستشار ، وكان غياب بسمارك عن البلاط يتيح الفرصة للدساسين وصانعى الشر ، حتى صمم وليام الثانى على أن يسير فى طريقه ويعمل برأيه الخاص .

واضطر بسمارك بعد أن كثرت الخلافات بينه وبين الإمبراطور إلى أن يستقيل ، وقبلت استقالته بسنة ١٨٩٠ ، وقد توفى بسمارك سنة ١٨٩٨ .

ولا ينكر أحد على بسمارك أنه كان من مهرة صناع الدول وبناة الأمم ، وأنه من الشخصيات العظيمة التى تحاك حولها الأساطير ، وتتناقض الأخبار ، وتختلف فى تقديرها الموازين ، وقد وجد فيه بعض مواطنيه السياسى الحكيم الذى أدى إهمال نصائحه إلى وقوع الكوارث ، وأخذ بعضهم عليه اتباعه فلسفة القوة التى كان

ممثلوها وعباد البطولة ونقادها يسلمون بعظمة شخصيته المنيعة ، ويرى المؤرخ الألمانى أيك Eyck « إن الجدير باللوم فى أعماله أكثر من الذى يستأهل المدح ، وأنه حتى حينما يتبع النصيح السليم فإن أساليبه كانت خشنة بغير موجب ، وكان يتحدى الأصدقاء والأعداء على السواء ، ويعادى الكنيسة والأحزاب ، وقد أغرق سعادة ابنه بأن منعه لأسباب سياسية من الزواج بالمرأة التى أحبها ، ومقاومته للحركة الاشتراكية تنم على قلة صبره ، وضيق خياله ، وقصر نظره، وكان مرور الأيام يزيده استبدادا برأيه ، وأن وليام الثانى كان محقا فى قبول استقالته سنة ١٨٩٠ وربما كانت أكبر أخطائه أنه لم يدرب مواطنيه على أن يحملوا تبعة الحكم حينما يتخلى عنه » .

وحكمه الأخير عليه « إنه كان يستطيع أن يكون مرنا لينا مثل رجال البلاط ، ومهذبا أريبا كيسا مثل مركيز من الطراز القديم ، وأن يكون هجاء ساخرا مثل هينى ، ورقيق الإحساس مثل الشعراء ، وكذلك أن يكون فظا غليظ القلب مثل طغاة عصر الإحياء ، وماكرا حولا مثل الثعلب ، وشجاعا مقداما مثل الأسد ، وقدأغدقت عليه الطبيعة إغداقا يندر أن جادت على غيره من البشر بمثله ، ولكنها مع ذلك حرمته الإحساس بالحق والعدالة ، ولذا تراه واقفا فى صفوف العمالقة شخصية غير محبوبة ، وأقل من ذلك أن يرغب أحد فى أن يتشبه بها أو يحذو حذوها ، وإنما هو شخصية تدرس ، ويرغم ضيق حدودها تستحق الإعجاب » .

ويرى المؤرخ الألمانى ماركس Marcks « إنه كان أسدا وثعلبا معا ، وأنه كان صادق الإيمان برسالته المقدسة ، ولكنه أدرك أن خطبة الجبل لا يمكن الأخذ بها فى لعبة السياسة الخشنة ، فبغير الشدة والفن من المتعذر أن تفوز » .

ويلقى هذا المؤرخ تبعة حرب سنة ١٨٦٦ وحرب سنة ١٨٧٠ على منافسيه الذين رفضوا الاعتراف بحق ألمانيا فى أن تكون أمة يدير حكومتها الزعيم الوحيد القادر على ذلك ، وبأى حق كان يرفض نابليون الثالث اختيار ملك لاسبانيا ؟ والأثيم فى ذلك الموضوع ليس هو بسمارك ، ولا الإمبراطور الضعيف ، وإنما هو جرامون وزير الخارجية الذى أرغم بروسيا على أن تختار بين الذل والالتجاء إلى حمل السلاح ، ويدافع عن برقية أمز بقوله : « إنها كانت ردا على تحد يجب أن لا يحدث » .

ويرى المؤرخ الألمانى براند نبرج « إن من أعظم صفات بسمارك أنه كان يرى الأشياء كما هى فى الواقع ، وأنه كان يقدر نتائج الإجراءات التى يتخذها بدقة مدهشة . . . وكان عديم الرحمة فى اختيار الوسائل القمينة بتحقيق أغراضه ، وأستاذ فى فنون الدسائس والحيل الماكرة . ولكن أى رجل دولة قد استغنى عن هذه الأساليب وأحوال الدنيا على ما هى عليه » .

ويؤكد براند نبرج أن بسمارك لم يكن من غواة الحرب والمغامرة ، ولكنه فى سنة ١٨٦٦ لم يجد أمامه طريقا آخر ، وكذلك كان حكمه على حرب سنة ١٨٧٠ وقد عمل على ترشيح الأمير الألمانى لعرش إسبانيا ، ولكن هل كان هذا حقيقة شركا منصوبا لاصطياد نابليون الثالث كما رأى أونار بوخر ؟ ويرد على ذلك قائلا : « كلا ، إنه أراد أن يقيم العقبات فى طريق محاولات نابليون الثالث الحصول على حلفاء فى حالة نشوب حرب فى المستقبل ، وكان يعلم أن هذا الترشيح قد يسفر عن الحرب ، ولكنه كان يعتبر أن نشوب المعركة أمر لابد منه ، ورأى أن نابليون الثالث نفسه كان يعد لها العدة ، فهل ينتظر حتى يستكمل الإمبراطور استعداده ويرى أنه من القوة بحيث يستطيع أن يوجه الضربة ؟ وهل تهمل بروسيا تقوية مرغوبة لموقفها السياسى لمجرد أن فرنسا قد تعترض على ذلك وتلجأ إلى إشهار السلاح ؟ لقد أوجد عمله فرصة الحرب ، ولكن السبب الأخير هو غضب فرنسا من الوحدة الألمانية ورغبتها فى منعها » .

والمؤرخ الألمانى اونكن Oncken يكيل لبسمارك المدح ، ويعجب به إعجابا لا حد له ، ويرى أنه كان يجمع بين الإرادة القوية والمرونة العظيمة ، وبين الواقعية اليقظة والخيال الخلاق ، وأنه فعل الشىء الصحيح فى الوقت المناسب ، وربما أسرف فى حديثه عن الدم ، والحديد ، ولكن إيطاليا اتبعت الطريق نفسه ، ومن السخف القول أنه فى جيل لويس بونابرت وجورتشاكوف وفيكتور عمانويل وكافور وبالمرستون ودزرائيلى كان السياسى الوحيد الذى يلبس الدرع تحت السترة الدبلوماسية ، وأن تشجيعه وضع أمير من أسرة هوهنزولرن على العرش الأسبانى كان أقل إثارة للعداء من محاولات نابليون الثالث تكوين حلف ثلاثى من النمسا

وإيطاليا ، وكانت فرنسا طامعة فى ضم منطقة الراين ومتلهفة على الحرب ، وبرقية أمز حملت الفرنسيين على الإسراع بإعلان الحرب التى كان الإمبراطور وجرامون قد صمما على إعلانها .

ويفند المؤرخ الأمريكى جوزيف فولر الرأى القائل إن بسمارك كان ميالاً إلى السلم بعد سنة ١٨٧١ وأنه العملاق الذى حال بين وقوع حرب بين النمسا وروسيا ، ويقول إن مخادعاته وتلفيقاته جعلت ألمانيا عرضة لعداوة الخصمين .

وهكذا تختلف آراء المؤرخين فى تقدير سياسته الخارجية وسياسته الداخلية ، وما أحسب أنه من الممكن أن تقال الكلمة الفاصلة فى تقدير أعمال المستشار الحديدى ووزن شخصيته ، لا لأن المؤرخين ينظرون من زوايا مختلفة ، ويضعون على عيونهم نظارات متباينة الألوان والأبعاد فحسب ، بل لأنه كذلك كلما تتابعت الأيام وتوالت الأحداث صعب استخلاص النتائج من الأعمال ، وتكاد تتفق الآراء فى أنه كان فى معالجته أمور السياسة الخارجية أكثر حصافة ، وأعظم كفاية منه فى تناول المشكلات الداخلية ، وأنه كان يحتقر الديمقراطية ويتنكر لفكرة الحرية ، وأنه لم يعمل على إعداد مواطنيه لحمل تبعة الحكم ، وأنه بعد أن أوجد الدولة القومية فى أعقاب الحروب الثلاث التى أثارها عرف متى يقف ، ويساعد على توطيد السلم فى أوروبا، وقد قصر جهوده على خدمة بروسيا فى أول الأمر ، ثم الإمبراطورية الألمانية بعد ذلك ، وقنع بهذا النصيب .

راسبوتين أو الشيطان المقدس

الشيطان المقدس هو اللقب الذى أطلقه على راسبوتين أحد خصومه الألداء ، وهو القس الراهب اليودور ، وجعلها عنوان رسالة ألفها فى التشهير براسبوتين والنعى عليه ، وكان اليودور رجلا مرهوب السطوة ، معروفا بسلاطة اللسان ، وله فى الهجاء الباع الواسع وقد كان للاتهامات التى وجهها إلى راسبَوتين والأفاعيل الشنعاء التى نسبها إليه أثر كبير فى خلق تلك الصورة التى يظهر فيها راسبوتين رجلا خبيث الطوية سيئ المكرة والسبب الرئيسى فى انهيار الحكم القيصرى فى روسيا .

ولم يكن من المنتظر فى عهد الثورة التى أطاحت بالنظام القيصرى أن ينظر إلى حياة راسبوتين نظرة محايدة ، ويعمل على إدخال أى تعديل على تلك الصورة الشوهاء التى أبرز بها للعالم ، فقد كان يروق القائمين بالثورة الإبقاء على تلك الصورة لتكون شاهدا على الفساد الذى ارتكست فيه روسيا القيصرية ، يضاف إلى ذلك ولع الكثيرين باختيار الفضائح المدوية والحوادث المثيرة .

ويؤكد لنا المؤرخ العلامة المفكر رينيه فيليب ميللر فى دراسته الممتعة المؤيدة بالوثائق التاريخية لحياة هذا الرجل العجيب الشأن أن الكثير من الوقائع زيفت والكثير من التواريخ وضعت والكثير من الأسماء الخاطئة للأشخاص والأمكنة لفقت حتى أصبح من الصعب استقصاء الحقائق ، وقد حاولت ابنته ماتريونا فى رسالة لها صغيرة أن تنصف أباها ، وترد إليه شيئا من الاعتبار ، ولكن ما ذكرته عن أبيها ليس الحق كل الحق ، فإن حبها له واحترامها لذكراه جعلاها تغفل الإشارة إلى الظلال السوداء فى حياته ، وتكتفى بوصف الرجل الطيب الرحيم العطوف الذى عرفته أبا لها .

وكان راسبوتين رجلا موفور الحيوية ، فيه الكثير من الصفات الطيبة مقترنة بالكثير من نواحى الضعف ، فهو رجل كثير الجوانب ، شديد التعقيد ، فيه من التناقضات ما يوجب على من يحاول رسم شخصيته وتصوير أخلاقه أن يكون شديد العناية فى تقدير ما له وما عليه .

وتبدأ قصة حياة راسبوتين فى سيبريا ، فقد كان والده من صغار المزارعين بها ، وكان إلى جانب عمله فى الزراعة يقوم بتربية الخيل ، وقد وفق فى ذلك ، وصلحت أحواله ، وكثر ماله ، ونشأ راسبوتين محبا للخيل ، شديد الكلف بها ، ميالاً إلى القراءة فى الكتاب المقدس والاستماع إلى ما به من أقاصيص .

ولما اكتمل نموه ، وصلب عوده ، عجب من أمره الأب بيوتر قس الناحية ، فقد وجد فيه مزيجا عجيبا من التقوى ، ولكنه كان مع ذلك يشارك لداته من شبان الناحية فى الإقبال على الشراب وتصيد الفتيات ، ولقد قبله بيوتر على علاته ، وأغضى عما يعرفه من هفواته ، لأنه كان دائم القراءة فى الأسفار المقدسة .

وتزوج الشاب جريجورى ، ورزق أطفالا ، وكان مع ذلك لا يزال عائشا فى كنف أبيه ، وفى جانب من دار أبيه كان هناك قبو يشبه الغار لإيواء الأولياء أو الهاربين من مطاردة الشرطة .

وحينما بلغ الثالثة بعد الثلاثين من عمره غيرت حادثة عرضية سير حياته ، وذلك أن نجاح أبيه فى تربية الخيل أغراه بأن يضيف إلى أعماله فى الزراعة نقل الناس على ظهور خيله من مكان إلى آخر ، وتولى هذه المهمة جريجورى الذى كان يحسن رياضة الخيل ويجيد التفاهم معها ومعرفة طبائعها .

وفى ذات يوم قام بنقل الطالب القس ميلك زاتروسكى إلى دير فيركلوتير ، وتبادلا الحديث فى خلال الرحلة ، ولم يعبأ جريجورى بإعادة الخيل إلى دار أبيه بل ظل فى البر .

وكان دير فيركلوتير أقرب إلى أن يكون منفى لمعاقبة الرهبان الخارجين على العقيدة ويشرف على إدارته طائفة من أشد الرهبان محافظة ، وأعجب ذلك الجو جريجورى ، ولكنه سرعان ما سلم زمام نفسه للجماعة الخارجة على العقيدة ، وهم أنصار مذهب الكلستى ، وهو مذهب يرمى إلى التخلص من الخطيئة بالانغماس فيها والندم فى أعقاب ذلك على اقترافها ، وهذا فى نظر أصحاب هذا المذهب هو الطريق المؤدى إلى التوبة الصادقة والإيمان الحق ، وهم يقولون : كيف يتوب مع الذنب من لم يقارفه ؟ وكيف يندم على الخطيئة من لم يقع فى شباكها ويذوق حلاوتها ويتجرع مرارتها ؟

وفى أثناء إقامته فى الدير كان يلتزم كبح جماح نفسه ، وقمع شهواته ، وكبت نزواته ، وينزل على ما يتلقى من أوامر ، ويعمل بما يفرض عليه من نصائح وتوجيهات ، ولما هم بترك الدير بعد أن أمضى فيه قرابة عام أو أكثر قليلا مثل بين يدى الأب مكارى الراهب الذى كان يعد قديس الناحية ، فقد عاش سنوات فى غار ، فباركه بيديه المعروقتين ، وأنهضه وأوصاه بأن يقوم بمهمة التبشير بتعاليم الإنجيل فى روسيا ولم يكن يعرف فرط تأثر جريجورى بمذهب الكلستى ، وعند أتباع هذا المذهب أن جوهر المسيحية هو الندم والتوبة، ومن ثم لا بد أن يأتى الإنسان ما يندم عليه ويتوب عن ارتكابه ، والخلاص عن طريق الخطيئة هو خلاصة هذا المذهب الملائم للذين لا يستطيعون الاستجابة للمبادئ والكف عن المحظورات ، وقد اتجه جريجورى راسبوتين إلى الأخذ بهذا المذهب الملائم لطبيعته .

وعاد إلى والده وزوجته وأطفاله الذين هجرهم دون أن يذكر لهم كلمة عن أسباب غيابه ، وكان قد أرسل لحيته فلم تعرفه زوجته فى بادئ الأمر ، ولكنها سرعان ما لمحت عينيه الصغيرتين النفاذتين اللتين عرفت قبل ذلك ما فيهما من سحر عجيب ، وجاذبية لا قبل لأحد بمقاومتها ، وعانق زوجته ، وأثار دهشتها حينما اتجه إلى السلالم الخفية التى تفضى إلى القبو المستور .

وظل أفراد أسرته لمدة ثلاثة أسابيع يسمعون تارة العويل المنبعث من القبو وأخرى ينصتون إلى الأناشيد الدينية والتسبيحات الدالة على الغبطة والابتهاج . واقتنع أبوه أن ابنه قد أصبح من عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين .

وشاعت أخبار تقواه فى القرية ، وكان أهل القرية يعرفون الكثير من ماضيه ، وأنه لم يكن من خيرة الشبان ، بل لعله كان أشقى من سائر أترابه ، وأقبل عليه الرجال ليعرفوا ما شأنه ، ويتبينوا أحواله، وتبعهم النساء ، وأخذ به الجميع ، وكانوا يعودون من حضرته متأثرين بكلماته ومظهره ونظراته الآسرة ، وقل الإقبال على كنيسة الحى ، وساء ذلك الأب بيوتر قس الكنيسة ، فانبرى لمنازلة الشيطان ، وخرج من صومعته مغلول العزم ، وذهب أحد رجال الشرطة بإيعاز من القس إلى زيارة راسبوتين فى قبوه ليرى هو نفسه جلية أمره ، ولكنه بعد أن جالسه أخذ

بسحره ، وكان من السابقين إلى التماس البركة من « الأب جريجورى » وأبلغ رؤساءه أنه لم يجد ما يدعو إلى الريبة ، وأهملت شكوى الأب بيوتر .

وتأهب راسبوتين للقيام بالمهمة التى أوصاه بها الأب مكارى ، ولكن قبل أن يبرح عرينه إلى قازان كثرت أحاديث الناس عن ذهابه إلى الغابات المحيطة بيكروفسكو مصحوبا بأتباعه من النساء ، حيث كان يثبت لهن عمليا ضرورة اقتراف الخطيئة للندم عليها والتماس المغفرة ، وظل مظهر النساء المصابات بالعصاب والحريصات على التوبة عن طريق ارتكاب الخطيئة من المظاهر الملازمة له الحافة به أينما اتجه ، والبينات المؤيدة لحدوثه ثابتة بالروايات المختلفة والأدلة القاطعة ، وهذا هو جانب الدجل وناحية الضعف والتهافت فى حياة هذا الرجل العجيب الشأن .

وقد ذهب إلى قازان بوصفه من الحجاج ، وكان يشفى المرضى فى الطريق ، وقد كان لسحر نظراته وطريقته فى الحديث التى تجمع بين الخشونة والعذوبة والدهاء والسذاجة أثر ملحوظ فى إبراء الأسقام ، وتبديد الأوهام ، وإدخال السرور على النفوس .

وتابع السير حتى وصل إلى لييننجراد – وكانت تسمى حينذاك بطرسبرج – فى سنة ١٩٠٤ وهى عاصمة الحكومة القيصرية ، ودخل أكاديمية اللاهوت ، واستخف الطلبة النجباء فى بادئ الأمر بهذا الفلاح القادم من سيبيريا ولهجته الريفية ، وكانت قد سبقته إليها شهرته بإبراء المرضى ، فأخذوا يرشقونه بالأسئلة اللاهوتية ليختبروا معرفته بالمسائل الدينية ، وكان يرد على أسئلتهم فى إيجاز ووضوح دون أن يعانى مشقة ، ولحظ عميد المعهد الأب فيوفان تحلق الطلبة حوله فى دهليز المعهد ، وكان هو الذى يتولى اعتراف القيصر ، فتسلل خفية ليعرف سبب تجمع الطلبة حول راسبوتين ، وأدهشته إجابات هذا الفلاح الغريب على أسئلة الطلبة ، وأضاف إليها أسئلة من عنده أدق وأصعب من الأسئلة التى وجهها الطلبة إلى راسبوتين ، ولم يعجز راسبوتين عن الإجابة ، بل كان يرد على الأسئلة فى وضوح ودقة ، وفى بعض إجاباته كان يوسع أطراف الموضوع ، فما تمالك الرجل أن أعجب براسبوتين ، بل حدث ما هو أدعى إلى الدهشة ، فقد التمس هذا العالم الدينى الراسخ القدم فى اللاهوت البركة من الفلاح النكرة الذى لم يكن يدرى من أمره شيئا .

وفى اليوم التالى صحب الأب فيوفان راسبوتين إلى الأسقف هيرموجن ، وكان على دراية بالشؤون الدنيوية ، وله خبرة عريضة بالمسائل السياسية ، ولكن راسبوتين عرف مع ذلك كيف يتناول هذا الأسقف ، ويوقعه تحت تأثيره ، وكان الأسقف هيرموجن مثل الأب اليودور - أحد كبار رجال الدين - فى جماعة « اتحاد روسيا الحقيقية » وزكى الاثنان راسبوتين فى الانضمام إلى أعضاء هذه الجماعة التى كانت تعمل على مقاومة اتجاه روسيا إلى الغرب ، وكان رأيهما أن هذا الفلاح القادم من سيبريا أصلح لتمثيل روسيا من أعضاء « الدوما » - وهو مجلس النواب الروسى - ومن هؤلاء الذين يدعون الآراء الديمقراطية .

وكان الأب اليودور معروفا بشدة وطأة هجماته على موظفى الحكومة وسلقهم بلسانه الحاد حتى أطلق عليه لقب الشتام ، وكان من أشد أنصار النظام الملكى ، وكان له أتباع كثيرون ، وقد ندم بعد الأوان على مساندته لراسبوتين .

ولما صحب الأسقف هيرموجن والأب فيوفان راسبوتين ليقدماه « للشتام » وجدوه مشغولا بالصلاة ، وأطال الدعاء والتوسل ، ولم يجرؤ الأسقف ولا الأب فيوفان على مخاطبته وهو مقبل على الصلاة والانهماك فى تلاوة الأدعية ، ولكن الفلاح الجريء عرف كيف يتصرف فى هذا الموقف ، فقال مخاطبا الأب اليودور الرهيب : « إنك ياأخى تحسن الصلاة ، فدعها الآن ، وتوقف عن مضايقة الرب بصلواتك ، فحتى هو فى بعض الأوقات يحتاج إلى الراحة ، وهذان الرجلان عندهما بعض أشياء يودان بحثها معك » .

ومنذ سنوات طوال لم يجرؤ أحد على مخاطبة اليودور بمثل هذه اللهجة التى خاطبه بها راسبوتين ، وقد استطاع راسبوتين بهذه الطريقة أن يغلب الرجل على أمره ، ويستولى عليه حتى النهاية على وجه التقريب ، وحينما استطاع الخلاص من تأثير راسبوتين صار ألد خصومه ، ولكنه فى هذا الموقف برغم شعوره الباطنى بكراهة راسبوتين تصدى لأحد المحامين الحذرين الأفاضل الذى عارض فى ترشيح راسبوتين ليكون أحد أعضاء « اتحاد روسيا الحقيقية » وقد تم انتخابه لعضوية هذا الاتحاد ، وتطوع الأب فيوفان بمناصرته ، وكان من الذين يسروا له الوصول إلى السدة القيصرية .

وحينما جاء راسبوتين إلى بطرسبرج فى سنة ١٩٠٤ كان يجلس على عرش القياصرة نيقولا الثانى آخر القياصرة من أسرة رومانوف ، وكان رجلا ضعيف الإرادة ، سيئ الظن ، كثير التوجس ميالاً إلى الاعتقاد بالخرافات ، ولم يكن مع ذلك شريرا فاسد الطوية ، ويقال إن والدته كانت تعنفه لسرعة موافقته على الآراء التى تبدى له، وحينما طلب إليه فى سنة ١٩١٧ أن ينزل عن العرش وافق فى سهولة ويسر ، ولم يبد معارضة .

وكان القيصر نيقولا مشغوفا بحب زوجته الألمانية الأصل ، وكانت شديدة الحياء ، وقد جعلها هذا الحياء مكروهة فى الأوساط الروسية ، ورأى القيصر أن يحميها من شر هذه الكراهة بالتباعد عن المجتمعات ، وبأن يعيش معها فى شبه عزلة . فحتى الاجتماعات العائلية على العشاء التى كان يتناول فيها الشؤون السياسية ويتبادل الرأى مع أفراد أسرته والمقربين من أعيان دولته ورجالاتها ألغيت ، ولم يكن القيصر يقابل وزراءه إلا فى النادر ، وحينما تفرض عليه ذلك الطوارئ ، وكان يكتفى بقراءة التقارير المكتوبة التى تقدم له ، ويعكف على دراستها ، وكان هو والقيصرة كلما مرت الأيام أرادا إمعانا فى العزلة فى تزارسكو سيلو .

وقد احتواهما الخوف على نجلهما ولى العهد الذى رزقت به القيصرة بعد يأس ، ولكن من سوء حظ القيصر والقيصرة أن هذا الغلام الذى رزقا به بعد طول ترقب وانتظار وقلق كان مصابا بمرض خطير ، وهو مرض « الهيوفيليا » أو النزيف الدموى ، وكانت أقل حركة عنيفة أو اصطدام بالأرض تحدث له نزيفا داخليا وأوراما تهدد حياته ، وتسبب له آلاماً مبرحة ، وعجز الأطباء عن علاج هذا المرض الخطير الذى جاءه من ناحية والدته ، فقد كان مرضا وراثيا فى أسرتها .

وقد ألجأها الخوف الشديد على حياة ولى عهدها وحيرة الأطباء فى علاجه إلى الاستعانة بالدجالين من أمثال الدكتور فيليب الذى كان مساعدا لأحد الجزارين فى باريس ، وجاء إلى روسيا وادعى القدرة على معالجة الأمراض المستعصية ، ولكن بضرورة الحال لم يوفق فى علاج ولى العهد ، ورأيا بعد ذلك الاعتماد على بعض المجاذيب المصابين بالعاهات لاعتقادهما فى أن الله عوضهم عن عاهاتهم بالقدرة على إبراء المرضى ، ولكن هذا العلاج كذلك لم يأت بنتيجة .

وإيثار القيصر والقيصرة للعزلة جعل الجماعة التى كانت من قبل تغشى البلاط القيصرى تنقسم إلى جماعات صغيرة تحاول بشتى الطرق أن تعرف آراء القيصر فى السياسة واختبار الوزراء ، ولا تتردد فى تقديم الرشا لمن يوافيها بالأخبار الصحائح ، وكان الوزراء وكبار الموظفين يتنافسون فى ذلك ولا يتعففون عن استرضاء الخدم الذين يعملون فى القصر القيصرى لينقلوا إليهم بعض ما يدور بين القيصر والقيصرة من الأحاديث ، وما يكتبه القيصر من التأشيرات على التقارير التى تقدم له ويتركها فى بعض الأحيان على مكتبه .

واشتد قلق القيصرة على حالة نجلها الصحية ، وساورتها المخاوف حتى اعتلت أعصابها وساءت حالتها ، وقربت الأميرتين الغراندوقة ميليتسا والغراندوقة ستانيا شقيقتى ملك الجبل الأسود ليؤنسا وحشتها ، ويطيبا خاطرها ، بصوتهما اللين العذب وأحاديثهما الجذابة ، وكانت الأميرتان قد بلغتهما أخبار راسبوتين وقدرته على شفاء الناس من الأمراض ، وهما فى إحدى صالونات بطرسبرج ، وكان أول من حدثهما عن راسبوتين هو الأب فيوفان الذى يتولى اعتراف القيصر ، وتحدثت الغراندوقة ستانيا مع الأب جريجورى عن مرض ولى العهد ، فقال لها فى ثقة واطمئنان : « بلغى القيصرة أن تهدئ بالها فإنى سأشفى ولى العهد وأرد عليه الصحة والعافية » ولم يمض على ذلك أيام حتى أحضر الأب جريجورى لمعالجة ولى العهد، وكان الغلام قد شحب لونه ، وعلت حرارته ، والتوت ساقاه من الألم الذى كان يعانيه .

وكان صوت راسبوتين حسن الوقع فى السمع برغم لهجته الريفية ، وقد تحدث إلى الغلام فى رفق وحنان بصوته العذب الخالى من التكلف ، وأكد له أن حالته الصحية ستتحسن ، وأن مرضه سيزول ، ومس بيديه الخشنتين جسم الغلام ، ومر بهما على موضع الألم ، وفى خلال هذا التدليك الخفيف المحتمل أخذ يروى له بعض القصص والحكايات الشائعة بين مزارعى سيبريا ، والتى يمتزج فيها الخيال بالواقع ، فأخذ الكرى بمعاقد أجفان الغلام ، واستغرق فى نوم هادئ مريح ، وبهذه المقدمة الموفقة بدأ راسبوتين يعالج ولى العهد .

وقد استمر هذا العلاج فترة طويلة من الزمن قويت فيها ثقة القيصر والقيصرة

براسبوتين ، واشتد إعجابهما به ، وإيمانهما بقداسته، وأثار ذلك بطبيعة الحال حسد الحاسدين ، فكثرت حوله الوشايات والدسائس ، ونصبت له الشباك ، ولكن ثقة القيصر والقيصرة براسبوتين كانت فوق متناول الظنون والوشايات والدسائس والاتهامات ، وتدخل راسبوتين فى نظام الحكم وتوجيه سياسة الدولة، وكان الرأى الأعلى فى اختيار الوزراء وكبار رجال الدولة .

وكان راسبوتين يمقت الحرب لكثرة ضحاياها وما تحدثه من تخريب وإزهاق للأرواح ، ففي سنة ١٩١٢ عارض سياسة الغراندوق نيقولا التى كانت ترمى إلى اشتباك روسيا فى حرب البلقان ، وقد نجح فى ذلك ، ولكن إصراره على تجنيب روسيا ويلات حرب البلقان عرضه لعداء الغراندوق نيقولا ، وقلل من نفوذه فى البلاط القيصرى ، وأشير عليه بالسفر إلى بيت المقدس لأداء الحج ، فذهب إلى هناك ، وعاد من بيت المقدس إلى قرية بكروفسكو التى نشأ بها فى ربيع سنة ١٩١٤ وفيها وقع أول اعتداء على حياته ، فقد تصدت له امرأة عجوز مشوهة الصورة وهو فى طريقه إلى الكنيسة، وزاحمته فى الطريق فدفعها عن طريقه فى رفق ، ولكنها ترصدته فى خارج منزل أبيه واستجمعت قواها وطعنته فى بطنه بخنجر ، وبلغته وهو يتماثل للشفاء من تأثير هذه الطعنة الدامية أنباء نشوب الحرب العالمية الأولى ، فأرسل برقية إلى القيصر يحضه فيها على الامتناع عن دخول الحرب ، وفى برقية أخرى للقيصر صارحه فيها بأن روسيا إذا خاضت غمار الحرب فإنها لا تحصد من الثرى الروسى لمدة عشرين سنة سوى الحزن ، وقد أثبتت الحوادث التالية صدق تكهنه !

وفى خلال الحرب بلغ نفوذ راسبوتين قمته ، وكانت بعض نصائحه وتوجيهاته للقيصر صائبة ونافعة ، وقد ذكر للقيصر أن تموين الجيش بالأسلحة والذخائر ليس أهم من توفير الغلال للشعب ، وهنا عادت سياسته إلى مصادمة سياسة الغراندوق نيقولا الذى كان حينذاك القائد الأعلى للجيش ، ولم يتدخل راسبوتين فى الشؤون العسكرية ، وذلك بالرغم من أن معارضته فى هجوم الربيع على غاليسيا فى سنة ١٩١٥ قد أثبتت الأيام أنه كان على حق فيها ، وظل له الرأى الأعلى فى اختيار الموظفين للمناصب الكبيرة .

وعرف عن راسبوتين أنه يقبل الرشا ، وأنه يمكن الاستفادة إلى أقصى حد من نفوذه العظيم فى البلاط القيصرى عن طريق النساء وزجاجات النبيذ ، وكانت العلاقة بينه وبين الأسرة الحاكمة قد توثقت إلى حد أن أطفاله كانوا يلعبون مع أطفالها ، وكانت أسرة راسبوتين تقيم معه بشقة فى أحد شوارع بطرسبرج ، وفى كل يوم فى الساعة العاشرة كان القيصر والقيصرة يتصلان براسبوتين عن طريق التليفون .

وكان لراسبوتين تأثير شديد فى نفوس النساء ، وكانت تحضر إليه فى شقته نساء من طبقات مختلفة ، وكن يبالغن فى مدحه والتقرب إليه والعمل على استرضاء ولى الله المقدس ، وكانت تقوم بينهن مشاجرات عنيفة لتنافسهن على كسب مودته ، وفى أغلب الأوقات كان يحدث بينهن الخلاف الشديد على أيتهن تبادر على تقديم قدح الشاى للقطب الربانى ، وأيتهن تحظى بالجلوس على ركبتيه .

ومن الساعة الثامنة صباحا كانت تغص ردهة الشقة بصفوف مقدمى الالتماسات من جميع الطبقات ، وكلهم يتطلعون إلى لقائه ، وكان بوجه عام يحاول أن يصنع شيئا لهم ، ولكن إذا تقدم إليه أحد من المنتمين إلى أعدائه فإنه يمزق الالتماس ويطلق لسانه بألفاظ نابية وشتائم جارحة بلهجة الفلاح الروسى التى كان يلتزمها فى حديثه حتى مع كبار رجال الدولة وأعيان العصر .

وكان عنده كتاب يفحصون الطلبات والالتماسات التى تقدم له ، وكان مقدمو العرائض من علية القوم يقدمون له الأوراق المالية فيضعها فى جيوبه الواسعة التى كانت تمتلئ فى أكثر الأيام بها ، وكان رجال الأعمال الذين يلجأون إليه ويستعينون بنفوذه لإتمام صفقاتهم ونجاح مشاريعهم يعجبون من اتجاه تفكيره المباشر إلى صميم الموضوعات التى يتحدثون معه عنها وسرعة تأتيه فى فهم جوهرها دون عناية بالتفصيلات المملة والحواشى التى لا لزوم لها ، وبرغم كثرة الأموال التى كانت تعطى له فى نظير وساطته فى قضاء الحاجات وتحقيق المطالب فإنه لم يترك بعد موته لأرملته وأولاده سوى مبلغ ضئيل من المال يقدر بنحو مائتى جنيه ، وذلك لأن كثيرا من المال الذى كان يحصل عليه من الأغنياء المياسير كان يعطى جانبا كبيرا منه للفقراء والمحتاجين الذين كانوا يتقدمون إليه بالالتماسات والشكاوى ، فالمال كان عنده غاديا ورائحا على حد قول حاتم الطائى لزوجته حينما لامته على إسرافه فى الكرم .

وكان السياسيون الذين اتخذوه وسيلة للتقرب من القصر ، والوثوب إلى المراكز الاستراتيجية في الحكم سبب نكبته والعداء الشديد الذى وجه إليه ، وكانوا من أقوى أسباب هدم بنيانه والقضاء على حياته ، وقد كان يحسن تصريف أمور أصحاب الصفقات ومقدمي العقود ومن إليهم من المشتغلين بالمسائل الاقتصادية ، ولكن مشكلات السياسة أشد تعقيدا من مشكلات الاقتصاد ، وهى فى حاجة ماسة إلى خبرة دنيوية ومعرفة نفسية ويقظة دائمة فى مراقبة التيارات المتناوحة والتغيرات المتتابعة ، وكان راسبوتين حينما تعرض عليه الوساطة فى ترشيح أحد الرجال الطموحين لمنصب من المناصب العالية يقول لمحدثيه : « أرسلوه إلى لأختبر روحه » وكان بغريزته يحسن التمييز ويجيد وزن الرجال ويصيب المخر .

ولكنه برغم ذلك تورط فى خطأ خطير فى وقت كانت روسيا فيه مشتبكة فى حرب شعواء تهز كيانها من أعماقه ، وتهدد نظام الحكم القائم بها ، ففى هذه الأحوال المتأزمة المحرجة وروسيا فى أشد حاجة إلى رجل قوى يجيد الاضطلاع بالتبعات ، ويستطيع مواجهة المشكلات ، فرض راسبوتين على الحكم فى روسيا اثنين من رؤساء الوزارات عرفا بالضعف والعجز ، ولم يكونا يصلحان بحال لحمل أعباء رياسة الوزارة فى الظروف العصيبة التى كانت تجتازها روسيا والحرب دائرة الأرحاء ، وهذان الرجلان هما ستريرمر Sturmer وبروتوبوبوف Protopopoff وهذا هو ما بعث الأمير يوسيبوف على تدبير قتل راسبوتين .

ولم تكن أسرة الأمير يوسيبوف من الأسر الروسية العريقة ، فقد زادت ثروتها ، واتسع ثراؤها فى القرن التاسع عشر ، وتزوج الأمير إحدى قريبات القيصر ، وحينما فكر فى اغتيال راسبوتين أراد أن يحتاط لنفسه ، فسعى فى إشراك الغراندوق ديمترس - أحد أفراد الأسرة الحاكمة - فى المؤامرة ليتحاشى التعرض لبحث الشرطة ، وذلك لأن شؤون الأسرة الحاكمة كانت من اختصاص القيصر مباشرة .

وتلطف الأمير فى التماس الحيلة لاصطياد راسبوتين ، فذهب إليه طالبا الشفاء من آلام تنتابه فى ظهره عجز الأطباء العاديون عن علاجها وإراحته من آلامها الحادة ، وقد تحدث الأمير عن قدرة الرجل فى التدليك الساحر الذى كاد يفقده

إرادته ويجعله طوع أمر راسبوتين ، وكان يسرع فى الخروج من الحجرة هربا من سيطرة الرجل عليه .

وظل برغم ذلك يوالى الاتصال به ، ويعمل على كسب ثقته ، وأغراه بأنه سيقدمه إلى زوجته ، وهى من أعضاء الأسرة المالكة ، ومعرفتها تزيد نفوذه اتساعا ، وكان راسبوتين فى كثير من المواقف قليل الحذر إلى حد التهور ، فهو كان يعلم من غير شك أنه مراقب ، وأن مجموعة من الجواسيس تحصى عليه حركاته وسكناته ، وتقدم عنه يوميا التقارير الضافية لوزارة الداخلية وغيرها من الجهات الرسمية المعنية بأمره ، ومع ذلك لم يكف عن عادة تقبيل النساء جهرا وعلانية ، ولم يمتنع عن الاشتراك فى الحفلات الماجنة والسهرات الداعرة فى أندية بطرسبرج الليلية ، وشاعت الأحاديث السيئة عن إسرافه فى الدعارة ورقصاته وهو ثمل ومجرد من الثياب، وظل القيصر برغم ذلك كله يحمى ظهره ويرفض الاستماع إلى الذين يشون به ويكشفون مخازيه ، ويعادى من يناصبه العداء ويسعى فى إبعاده عن القصر صونا لسمعته وإبقاء على مكانته فى النفوس .

وأضمر له الشر صديقاه القديمان ، الأب اليودور والأب فيوفان ، وعداه من المارقين أتباع المذهب الكلستى ، وأنه وجد من تعاليم هذا المذهب ما سوغ له طلب الخلاص عن طريق الإمعان فى الخطيئة ، وكان راسبوتين واثقا الثقة كلها من قوة نفوذه وثبات مكانته، ولذلك لم يحفل بالاحتياط مما كان يدبر له من الدسائس ، وكان من الحين إلى الحين يعود إلى زيارة داره القديمة ، وفى إحدى هذه الزيارات دعا الأب اليودور إلى مصاحبته والإقامة معه ، وشاهد اليودور بعينيه الرسائل التى كانت ترد يوميا إلى راسبوتين وعليها الخاتم القيصرى ، وأثار ذلك حسده ، وكان ورود البرقيات كذلك لا ينقطع ، فلم يستطع اليودور احتمال ذلك كله فخرج على أصول الضيافة ، وتسلل خفية إلى مكتب راسبوتين ، وأخذ ما زعم بعد ذلك أنه الرسائل الواردة إليه من القيصرة ، وأصبح يعتقد أنه يملك سلاحا يمكنه من التغلب عليه وإبطال سحره ، وسواء كانت هذه الرسائل التى استولى عليها واردة من القيصرة أم لا فإنها أقنعته أن الرجل غارق إلى أذنيه فى شهوات الجسد ، ولكنه أخطأ

الحساب ، ونجم عن ذلك نفى «الشتام » إلى النرويج حيث بدأ حملة من الرسائل حشوها الطعن فى راسبوتين ملقبا إياه « بالشيطان المقدس » .

أما الأسقف هيرموجن –أحد من تركوه للالتحاق بجماعة أنصار روسيا الحقيقية – فقد استدعى جماعة من الشهود ليكونوا شهودا ، ودعا راسبوتين للقدوم عليه ، ولما جاء إليه أشبعه ضربا على رأسه بصولجانه حتى اعترف بتأثيره الإجرامى فى أسرة القيصر ، ووعد بأنه سيتجنب لقاء القيصر ، وكانت نتيجة هذا الاعتداء نفى الأسقف هيرموجن كما نفى قبله ضريبه الأب اليودور .

وهذه الحوادث مجتمعة كانت الأسباب التى حملت الأمير يوسيبوف على تدبير المؤامرة ، فقد كان فى رأيه أن راسبوتين قد أفسد النساء وأفسد القساوسة وأفسد السياسة وفوق كل شىء أفسد روسيا برمتها ، وكان تدبيره المؤامرة غاية فى البساطة ، فقد دعا الرجل إلى زيارة قصره ، وكان بالقصر حجرات تحتية لا تسمع منها الأصوات فى خارج القصر ، فغرس فيه الطنافس والسجاجيد الفارسية والصينية النادرة ، وزينها بأحسن أنواع الخزف ، وأعدها لاستقبال الرجل المقدس ، وكان والداه متغيبين فى قصرهما الشتوى فى شبه جزيرة القرم ، ولم يشترك معه فى المؤامرة سوى عدد قليل ممن يثق بهم حتى لا يذاع سره ويكشف أمره ، وهم الغراندوق ديمترى وأحد الأطباء وأحد كبار أعضاء الدوما ، كما استدعى ضابطين وبعض الخدم اللازمين لتنفيذ المؤامرة ، وكان الميعاد المحدد لقدوم راسبوتين بعد العشاء ، ولم يتأخر الرجل عن الحضور فى الميعاد المضروب فقد كان يطمع فى لقاء الأميرة كما وعده يوسيبوف ، وهى علاوة على كونها من الأسرة الحاكمة كانت مشهورة بالجمال ، واستقبله الأمير بالحفاوة اللائقة حين قدومه ، وقاده إلى الحجرات التحتية التى ازدانت بفاخر الرياش ، وسمع الرجل صوت الحاكى ، فسبب له ذلك بعض الإزعاج ، ولكن الأمير طمأنه وأزال قلقه بقوله أن بعض أصدقاء العائلة جاءوا لزيارة زوجته، وانهم سينصرفون قريبا ، وتأتى زوجته للترحيب بضيفها الموقر ، والواقع أن زوجته كانت متغيبة فى شبه جزيرة القرم ، وفى الحديث الذى دار بينهما وهما جالسان إلى مائدة الشاى قال راسبوتين: « إنى

شوكة فى جسد كثير من الناس لأنى دائما أقول الحق ، وجماعتكم الأرستقراطية شديدة الحسد والحقد ، ولكن ماذا يخيفنى منهم ؟ إنهم لا يستطيعون أن ينالوا منى ! لقد حاولوا ذلك غير مرة ، ولكن الله فى كل مرة خيب سعيهم » فأخاف هذا الحديث يوسيبوف ، وخاله موجها إلى شخصه ، فملأ له قدحا من الشاى وقدم له فطائر مسمومة أعدها الدكتور لازوفرت Lazovert وحشاها بالسيانيد ، وكان راسبوتين يلتهم الواحدة فى إثر الأخرى ، فقد كان قوى الشهية نهوما بالطعام والشراب ، واستمر فى الحديث دون أن يظهر عليه أى أثر لسريان السم فى جسده ، وأزعج ذلك يوسيبوف ، فبادر بتقديم إحدى زجاجات النبيذ المسموم التى أعدها لراسبوتين ، وسأله أن يذوق نبيذ آل يوسيبوف المشهور الوارد من شبه جزيرة القرم ، فأفرغ راسبوتين فى جوفه بضع زجاجات وطلب المزيد ، فناوله يوسيبوف زجاجات أخرى ، وحار فى تفسير عدم ظهور تأثير السم ، وخشى أن يكون الدكتور لازوفرت قد خدعه ، كما خطر فى باله أن يكون هذا الرجل إنسانا أعلى فى حيويته فهو يستطيع أن يحتمل من السموم ما يكفى لقتل جماعة من الناس العاديين ، ونظر فى عينى ضيفه ، وخيل إليه أنه يلمح فى نظراته الاحتقار وسوء الظن ، فنهض واقفا ، وأحضر قيثارة كانت معلقة على الحائط ، فابتسم راسبوتين وسر وطلب منه أن يعزف عليها إحدى الأغنيات المطربة ، وقال له أنه يروقه أن يسمع غناءه ، فعزف له الأمير على القيثارة ، وغنى إحدى أغنيات النور وأتبعها بأغنية أخرى وهو يستمع إليه فى سرور وغبطة ، وكان كلما توقف عن الغناء يطلب إليه الاستمرار وقد أشرق وجهه وظهرت عليه أمارات القديس الحقيقى .

ونفذ صبر المتآمرين ، وكانوا مجتمعين فى حجرة المكتب ، فأحدثوا صوتا ليستحثوا الأمير على المبادرة إلى العمل السريع ، ولحظ ذلك راسبوتين فقال له الأمير إنهم أصدقاء زوجتى يهمون بالانصراف ، وهيأ له ذلك العذر ليترك الحجرة ، واقتنع راسبوتين بأنه حينما يعود يستأنف الغناء والعزف على القيثارة .

والطريقة التى تم بها قتل راسبوتين لا تزال تحيط بها الشكوك، وقد ذكر يوسيبوف فى المحكمة الإنجليزية حينما كانت تنظر قضيته التشهيرية التى رفعها لمقاضاة شركة متروجولدوين ماير الأمريكية للأفلام السنمائية أنه أقدم على قتل

راسبوتين بباعث من ضميره ، وذكر أنه قدم له طبقا من الحلوى المسمومة يكفى لقتل ثلاثة من الناس العاديين ، ولما لم يحدث ذلك تأثيرا قدم له نبيذا مسموما ، وقيل إنه شعر بأن هناك محاولة مدبرة لاغتياله فجن جنونه وثار كالثور الهائج ، وهدرت شقاشقه ، وأخذ يحطم الأثاث الثمين ، فتجمع حوله يوسيبوف وأعوانه المتآمرون ، وأطلقوا عليه الرصاص حتى قضوا عليه ، ودفنوه تحت الثلج فى نهر نيفا فى الليلة نفسها ، وحينما سمع أحد رجال الشرطة صوت طلقات الرصاص ورأى آثار الدماء قيل له إن أحد الكلاب أصيب بسعار وكان لا بد من قتله ، ولتأكيد هذا الادعاء قتلوا كلبا أصيلا ، وقد حاولت ابنة راسبوتين التشكيك فى هذه الرواية ، وزعمت أن أباها كان لا يأكل شيئا حلو المذاق ، وإنه كان شديد الشعور بالجو الاجتماعى الذى يحتويه ، وكان لا بد أن يدرك فى الحال أن خطرا يترصد حياته ، وقد يكون لاعتراضها نصيب من الوجاهة والتقدير ، وقد تكون المأساة قد مثلت فى صورة أخرى ، ولكن الحلوى وزجاجات النبيذ لم تحدث تأثيرها لأن الذين أعدوها لم يحسنوا دراسة طبيعة راسبوتين دراسة كافية .

ولكن هل كان راسبوتين هو الذى أفسد روسيا وأحدث انهيار الحكم القيصرى ؟ الكثيرون يشاركونه فى هذه التبعة ، ولم يكن هو شرهم ، وقد أبيدت خلال الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ وثائق كثيرة تدين الكثيرين فبقى اللوم واقعا على رأس راسبوتين ، أما المتآمرون فقد حاولوا التنصل من ارتكاب الجريمة ، ولم يتورعوا عن الكذب لنفى الاتهام مما يشكك فى نزاهة بواعثهم ، وآثر الأمير يوسيبوف الاحتفاظ بذكر الحقيقة للمذكرات التى كتبها بعد انقضاء العهد القيصرى .

وكان مصرع راسبوتين فى ديسمبر سنة ١٩١٦ .

المهاتما غاندى

حياة غاندى وسيرته من الأمثلة التى ترينا تأثير الشخصية الإنسانية فى الحركة التاريخية ، ودراسة حركة الهند الاستقلالية وسائر حركات التحرير التى عرفها العالم خلال النصف الأول من القرن الراهن تكشف لنا عظمة هذا الرجل الفذ النادر الذى أطلق عليه قومه بحق لقب « المهاتما » أى الروح العظيم ، ورأى العالم فى مواقفه المشرفة وكلماته الحكيمة وتوجيهاته الإنسانية ما يجعله جديرا بهذا اللقب ، وبأن يدرج اسمه فى سجل العظماء الذين أحسنوا إلى الإنسانية ، وأفادوا الحضارة ، وقدموا أروع الأمثلة للبذل والتضحية .

وقد عده قومه قديسا ، وقد ظفر من تقديرهم لمكانته ، وتبجيلهم لشخصه ، بما لم يظفر به غيره من الأعيان والمشاهير ، ولم يكن غاندى من البراهمة ، وهم أسمى الطبقات فى الهند ، وبرغم ذلك كان البراهمة ينحنون فى حضرته احتراما وإجلالا لشأنه ، قال شاعر الهند الكبير رابندرانات طاغور « الأمة كلها تتبعه ، وتضمر له الطاعة لسبب واحد ، وهو اعتقادها بأنه قديس ، وأن أمة برمتها مختلفة الأجناس ، متباينة الطبائع والمثل العليا ، تعقد الخناصر على اتباع قديس معجزة حديثة لا يمكن حدوثها إلا فى الهند ، وتكفى قولتك « المهاتما غاندى ينهى عن ذلك » لتلطيف حدة الأحقاد العميقة المتغلغلة . وإنى أخالف غاندى فى أشياء كثيرة ، ولكنى أقدم له أسمى آيات الاحترام والإعجاب ، وليس هو أعظم رجل فى الهند فحسب ، وإنما هو أعظم رجل فى العالم اليوم » .

ولم تكن جماهير الشعب وحدها هى التى وقعت تحت تأثير شخصيته الساحرة ، فقد كان المثقفون جميعا فى الهند يعجبون به ، ويقدرون مكانته ، وذلك برغم أن سكان الهند مكونون من سلالات مختلفة الأرومة ، ويتحدثون بلغات مختلفة تتجاوز عشر لغات ، وتدين بنحل متباينة ، وتنتسب إلى شيع متعارضة ،

وقد عاش المسلمون وعددهم يتجاوز السبعين مليونا فى نزاع دائم وخلاف مستمر مع الهندوس .

ويقول البحاثة الألمانى رينيه فيلوب ميلّر Rene Julop Miller : « ينقسم سكان الهند حسب تقاليد النظام القديم الطبقى إلى أربع وثمانين طبقة رئيسية ، ونحو آلاف من الطبقات الثانوية ، وهذه الطبقات جميعها لا تزاوج بينها ، ولا يؤاكل فرد من إحدى الطبقات أى فرد من الطبقة الأخرى ، وخمس السكان من طبقة المنبوذين ، وهم يعاملون كأنهم من طريدى المجتمع ، ولمسهم بل مجرد نظرتهم أو خيالهم ينجس الهندوس المحافظ » .

وقد استطاعت شخصية غاندى الفذة أن توحد هذه الطبقات المتعادية ، وبذلك أحدث ثورة على التقاليد غير مسبوقة فى التاريخ ، وقد اجتذب قلوب المجوس وهم تجار كالكوتا الأثرياء ، كما ضم إلى صفوفه الاتحادات التجارية المنظمة على الأسس الاشتراكية ، وقرب بذلك ما بين البراهمة والمنبوذين ، وما بين الهندوس والمسلمين ، وما بين المجوس وعمال المصانع الفقراء .

وحينما كانت تعتل صحته ، وتسوء حالته ، ويخشى على حياته ، كانت تقام الصلوات فى المعابد ليمنحه الله الصحة والعافية ، وحينما أطلق سراحه من السجن عم السرور المدن والقرى ، وتوجه الهندوس فى معابدهم ، والمسلمون فى مساجدهم ، بالشكر لله ، ونظمت المواكب احتفالا بذلك من مختلف الطبقات ومتباين الأجناس ، وخطب الكثيرون فقالوا : إن غاندى رسول أرسله الله إلى الأرض للقضاء على الشر ، وأقفلت المتاجر ، وعطلت المصانع ، وأقام الأغنياء ولائم للفقراء .

وحينما كان غاندى راقدا فى المستشفى بمدينة بوتا كتب صديقه الإنجليزى أندروز : « هنا يرقد حاكم الهند الذى فاق تأثيره النفوذ الإمبراطورى ، وبعد أن ننسى أسماء الحكام الذين يقيمون الآن فى قصور دلهى سيظل اسمه يذكر مقترنا بالتشريف بين الناس ، وستنتقل ذكرى المهاتما غاندى من الأمهات الهنديات إلى أطفالهن بوصفها ذكرى أحد عظماء القديسين والمخلصين » .

وحتى خصوم غاندى والذين ناصبوه العداء تأثروا بشخصيته ، والسياسيون

الذين قاوموه وحاربوه أبدوا إعجابهم به ، وحينما ظهر غاندى أمام القضاء الإنجليزى متهما بالتحريض على مقاومة السلطات شعروا بقوة تأثيره ، وسحر شخصيته ، وتقول تلميذته المخلصة الشاعرة ساروجينى نيدى Sarojini Naidu : « كان غاندى فى نظر القانون مذنبا وخارجا على القانون ، ولكنه حينما دخل إلى ساحة المحكمة ، وقفت المحكمة إجلالا له ، وقدم له القاضى أسمى آيات الاحترام ، وفى النهاية بعد أن أصدر الحكم قال : « لا أستطيع أن أمسك عن القول بأنك من طراز مختلف عن أى إنسان بحثت قضيته أو من عسى أن أتناول قضيته » .

وكان لغاندى خصوم ألداء كما لسائر الزعماء السياسيين البارزين ، وكان العنف الذى يقابلونه به من الأدلة على عظمته مثل إجلال أتباعه له ، وقد حاول أحد الإنجليز المقيمين فى الهند أن يجمع آراء الطبقات المختلفة عن غاندى ، فقال له أحد الحكام الإنجليز : « إن هذا الرجل يذكرنى ببولس الرسول » .وقال له آخرون : « إنه ثورى خطير » ، وبعضهم وصفه بأنه : « رجل أوهام وخيالات » ، ووصفه فريق بأنه : « سياسى بارع أو مهيج غير متردد » ، وقال له آخر : « إنه مهما يكن من أمر هذا الرجل فإنه ليس رجلا عاديا ، وإنه يجتذب الألباب ، ويفرض عليك أن تستمع إليه » .

وذاعت صفات غاندى المقدسة فى القرى النائية فى الهند ونشأت أساطير حول سيرته ، وقد روى عالم النبات الهندى المشهور بوز Sir I. C. Bose أن بعض سكان الجبال قالوا له إنهم أقلعوا عن الصيد ، وحاولوا أن يعيشوا من الزراعة ، وكان تفسيرهم لهذا السلوك أنهم استمعوا إلى قول غاندى : « دعوا الغابة فى أمن وسلام » ولم يكن أحد منهم قد رأى غاندى ، وإنما أثر فى نفوسهم ما تناقله الناس عن طيبة نفسه وصلاحه وحكمته وأخذه بمذهب « الأهمسا » Ahimsa القائم على ضبط النفس ، ومقاومة العنف بالحسنى ، وكان هذا كافيا لإطاعة أوامره ، واتباع تعاليمه ، ولم يكتفوا بترك الصيد ، بل أخذوا على أنفسهم عهدا بأن لا يذبحوا الحيوانات فى المستقبل ، وحاولوا فى أول الأمر أن يبيعوا ما عندهم من الماشية ، ولكنهم لما لم يوفقوا فى ذلك ضحوا بثروتهم جميعا ، وذلك بتسريح الحيوانات التى عندهم ، وتركها حرة .

وكان هذا الرجل الذى عده أنصاره من القديسين قصير القامة نحيلا هزيلا ، ذا أذنين كبيرتين منفرجتين ، وعينين سوداوين واسعتين ، ولذلك كان ، إذا أراد أن يلقى خطبة على جمع من الأنصار يرتقى كرسيا ليتمكن الجمع الحاشد من رؤيته ، وكان إلقاؤه هادئا متزنا خاليا من الانفعال ، وينقصه الإشارات الخطابية العادية ، بل كان يندر أن يحرك ذراعا أو يرفع إصبعا فى أثناء الخطابة ، ويتحاشى فى حديثه الزخارف البلاغية والإثارة العاطفية ، ويعمل على أن يخاطب عقول سامعيه ، ولا يترك الموضوع الذى يتناوله إلا بعد أن يجلو غوامضه ، ويوضح خوافيه .

وكان غاندى عميق التدين ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يقبل أى فكرة دينية إلا إذا رضيها عقله ، وكان يرفض أى تفسير للمشكلات الدينية إذا كان يناقض العقل ، ويعارض الحاسة الأخلاقية ، وكان لا يدعى القداسة ، ولا يزعم أنه ممن يوحى إليهم ، ويقول عن نفسه : إنه ليس سوى خادم متواضع للهند والإنسانية ، وأنه لا يطمع فى أن يكون له شيعة وأتباع ، وأنه يحاول أن يتبع الحق الذى يتراءى له ويمثله ، وكان لا يتردد فى الاعتراف بالخطأ ، ويقول إنه أوتى ملكات فوق قدرة البشر ، وأنه عرضة للخطأ مثل أضعف المخلوقات البشرية .

وكتب قبل اعتقاله يقول : « إنه يأمل أن يكون اختفاؤه وحبسه خيرا للناس وبركة لهم ، لأن ذلك يبدد خرافة الاعتقاد بأنه يملك مواهب فوق المواهب البشرية ، كما يقضى على الاعتقاد بأن برنامج عدم التعاون لم يقبل إلا تحت تأثيره ، وعلى فكرة أن الأمة الهندية ليس لها إيمان مستقل عنه ، وكان أكبر أسباب نجاحه فى تزعم الحركة التى قام بها تحرره المطلق من الطموح ، وتجرده من المطامع ، وإعراضه عن طلب الشهرة» .

قال عنه صديقه البريطانى أندروز : « خلو المهاتما التام من الأثرة مكنه من أن يرى الأمور بصدق ووضوح أكثر من سائر الناس» .

وقال عنه أستاذه جوكهيل Gokhaale : « إنه من المعدن الذى نصنع منه الأبطال والشهداء ، بل الأكثر من ذلك أنه يملك القوة الروحية العجيبة التى تجعل من الناس العاديين الذين يلتفون حوله أبطالا وشهداء » .

ومحتوى خطبه خال من التأكيد والمبالغة ، وهو يتحدث فى هدوء ، ويقدم

نصائحه العملية فى كلمات بسيطة واضحة ، من أمثلة ذلك الحجج التى عرضها فى حديثه عن آلة الغزل وطريقة استعمالها الصحيحة والخيوط المناسبة ، وإمكان الاستغناء بها عن اجتلاب البضائع ، وقد كان لهذه النصائح والتوجيهات الحكيمة من النتائج والآثار ما تعجز عن إحداثه الخطب الحماسية ، فقد استجاب له مئات الألوف من الرجال والنساء من جميع الطبقات ، وعدوا من ألزم واجباتهم اليومية وأسماها أن يقضوا كل يوم بضع ساعات يغزلون أو يقبلون على النول ، وأصبح استعمال آلة الغزل فى القصور الفاخرة والأكواخ المتواضعة رمزا لاتحاد الهنود من مختلف الطبقات والعقائد والأجناس .

وحينما أعلن غاندى أن ارتداء الملابس المصنوعة من أقمشة أجنبية الصنع يعد إثما ، وطلب من أفراد الشعب أن يتخلصوا منها ، ويعملوا على إبادتها ، تحمس القوم لدعوته ، وبادروا إلى النزول على كلمته ، وأحرقت فى المدن الهندية الكبرى أطنان من الأقمشة البريطانية ، واشترك فى ذلك الرجال والنساء والأغنياء والفقراء .

ولم يكن هذا الزعيم الشعبى الجليل الشأن من هؤلاء المتعصبين الذين يغلب عليهم التجهم والعبوس ، ويصعب الاقتراب منهم ، وإنما كان رجلا تشع عيناه الرفق والحنان ، والشعور بالطمأنينة والوداعة والحبور ، ولم يكن فى وسع الأحداث الخارجية أن تسلبه هدوء النفس أو تعكر صفاءه ، وتفيض من نفسه نبع السرور ، قال عنه الشاعر الكبير طاغور : « كانت خفة الروح طبيعة ملازمة له ، ولم تتخل عنه حتى فى أشد الأزمات » وحينما عرف أصدقاؤه أن الأمر باعتقاله على وشك الظهور جاءوا إليه جازعين ليودعوه ، وكان يتلقاهم ببشاشته المعهودة ، ويهون عليهم بكلماته المرحة ، وامتلاكه زمام نفسه ، ويوجه إلى كل واحد من أصحابه كلمة حب وتقدير أو عبارة فكهة مستملحة .

وكان غاندى يلقى كل إنسان لقاء وديا ، ولذلك كان يضطر أعداءه وخصومه إلى ملاينته والترفق به ، وكان أسلوب حياته غاية فى البساطة ، فغذاؤه الرئيسى الموز والليمون والتمر والقليل من الأرز ولبن الماعز ، وكان لا يتعاطى المشروبات الروحية ، ولا يشرب القهوة ولا الشاى ، وقد حاول فى أثناء سنوات دراسته فى إنجلترا أن يتبع أسلوب الحياة الأوروبية ما وسعه إمكانه ، ولكنه أخفق فى ذلك ،

وكان يعتريه الخجل حينما يظهر فى المجتمعات ، وقدم له فى اجتماع لحم فتذكر العهد الدينى الذى قطعه على نفسه بأن يكون نباتيا متشددا فقام وترك المائدة وغادر الاجتماع ، ومن تلك اللحظة أعرض عن كل محاولة لجعل نفسه جنتلمانا إنجليزيا .

وقضى بعد ذلك سنوات عدة فى جنوب أفريقية يجاهد من أجل حرية أبناء وطنه الذين كانوا يعاملون أسوأ معاملة ، ويعانون ضروبا من الاضطهاد والطغيان ، وقد عاش بها عيشة زهد وتقشف ، وجعله تأثره بآراء راسكن وتولستوى يحاول إنشاء مستعمرة من رجال يؤثرون أن يعيشوا عيشة بسيطة ، وقد اشترى قطعة أرض ، وأقام عليها منازل ، وجعلها مقرا للهنود المهاجرين يستطيعون أن يعيشوا بها فى أمن وسلام ، وقد كلفه إنشاء هذه المستعمرة تضحيات شخصية مادية كثيرة .

ولما عاد إلى الهند أنشأ مستعمرة شبيهة بها ، ولكنها كانت مقصورة على أقاربه الأدنين وتلامذته الذين ارتضوا حياة الفقر والزهادة ليصلوا إلى معرفة الحق ، وكانت حجرات هذه المستعمرة لا تحوى سوى الضرورى من الأثاث البدائى ، ولأن الذين يقيمون بها كانوا قد عاهدوا أنفسهم على الاستغناء عن كل شيء لا تستوجبه المحافظة الضرورية على الحياة ، وكانوا جميعهم يشعرون بأنهم مضطرون إلى نبذ كل ما يزيد عن حاجتهم من المقتنيات ، وكان غاندى يقول لأصحابه : « من رأيى أننا جميعا نكون لصوصا بطريقة من الطرق إذا قبلنا شيئا لسنا فى حاجة إليه للاستعمال المباشر ، ومن قوانين الطبيعة الأساسية أنها توافينا بما يكفى لحاجتنا من يوم ليوم ، ولو اكتفى كل إنسان بأخذ ما يكفيه ولم يزد على ذلك لما كان فى الدنيا فقر ، ولما كان هناك من يموت جوعا ، وقد تحريت فى حياتى أن لا أملك شيئا لست فى حاجة إليه ، وما دام هناك ثلاثة من الناس يكتفون بوجبة واحدة فى اليوم فليس من حقنا أن نطمع فى أكثر من ذلك ، ويقتضينا الواجب أن نعانى باختيارنا المسغبة إذا استلزم الأمر لكى نعول الفقراء ونطعمهم ونكسوهم » .

وكانت حياة غاندى وأسرته تتبع هذه التعاليم ، فكانت حيطان داره عارية غير مزينة بالصور ، ولم يكن فى الحجرة التى كان يستقبل فيها زائريه سوى رف كتب ومكتب صغير ، وقد أعطى هو وزوجته كل ما كانا يمتلكان للفقراء ، وقد شاركته زوجته « كاستور باى » فى جهاده ، وقد كان تزوجها وهو فى الثانية عشرة من

عمره، ووقفت فى شجاعة وإصرار إلى جانب زوجها فى جهاده حينما كان فى جنوب إفريقية ، وحينما سجن والداها لمشاركتهما فى الحركة الوطنية ، ولما جاءتها رسائل من جميع أنحاء الإمبراطورية البريطانية تتضمن العطف أذاعت رسالة شكر قالت فيها : « ليس عندى سوى اثنين من أولادى فى السجن ، فى حين أن ألوفا من الشبان قد انتزعوا من أمهاتهم الحبيبات » .

وكان أولاد غاندى يقتدون به ، ويتبعون منهجه ، وحينما وجهت إليه تهمة المشاركة فى الحركة ضد الحكم البريطانى صاح قائلا : « إنى مذنب ، وإن التهمة الموجهة إلى صحيحة ، وما قلته وما صنعته قد قلته وصنعته عامدا متعمدا ، وكنت أدرك تمام الإدراك تبعتى ، وأطالب بأقصى العقوبة القانونية » .

وكانت تعاليم غاندى فى مراعاة التقشف والزهد تلزم مريديه وأسرته فى المستعمرة بمراعاة العفة فى العلاقات الجنسية ، فلا يسمح للمتزوجين بالإقامة فى جواره إلا إذا وعدوا وعدا صادقا بالتنازل عن علاقاتهم السابقة ، وأن يعيشوا مع زوجاتهم معيشة الأخ مع أخته ، وكان من رأى غاندى أن العفة التامة فى الفكر والكلام والعمل لازمة لبلوغ الكمال الروحى ، وأن الرجل الذى يكبح جماع شهواته الجنسية يفقد الخوف من الموت ، ويترك الحياة والابتسامة تعلو شفتيه ، وهذه الآراء تذكرنا برأى الروائى تولستوى فى روايته المشهورة : « كريتزر سونانا » فقد ذهب تولستوى فى هذه الرواية إلى أنه ليس هناك خطيئة تجر إلى عواقب سيئة رهيبة مثل الحب القائم على الشهوة ، وقد حاول أن يثبت فى الرواية أن مصدر السر جميعه يأتى من اتخاذ الرجل والمرأة كل منهما الآخر وسيلة للمتعة وابتغاء اللذة ، والزواج القائم على الحب الشهوى فى رأى تولستوى إثم ، ولذلك عده تولستوى من علامات النوع البشرى ، وكان غاندى كذلك يدعو إلى الامتناع عن ممارسة الشهوات الحسية ، وأن نحول القوة التى منحها لنا الله إلى العقلية والروحية ، وهو يعترف بأنه فى مطالع حياته خالف ذلك ، ولذلك عرف الخطر المادى والأدبى الذى نجم عن هذه المخالفة .

وقد نال غاندى إجازة الحقوق بعد أن أمضى فى إنجلترا ثلاث سنوات ، ولما رجع إلى وطنه زاول مهنة المحاماة زهاء سنتين ، وذهب إلى جنوب أفريقية للدفاع

عن قضية بإحدى الشركات الهندية ، وهناك وجد نفسه مضطرا إلى أن يخوض غمار السياسة دفاعا عن حرية مواطنيه من الهنود الذين كانوا يعملون بها .

وقد وجد غاندى أن الميل إلى الترف والانغماس فى الشهوات الجنسية سائد فى الهند ، فأراد أن يقدم لقومه مثلا من نفسه فى تحرى الزهد والتزام العفة ، ليثبت لهم أنه فى استطاعة كل إنسان أن يسيطر على نفسه ، ويكبح جماح شهواته ، ومن كلماته حينما أدخل السجن « كيف يكون فى الحياة بالسجن حرمان فى حين أن الحياة به ليست أقل بساطة من الحياة فى خارجه ، ولا الطعام به أقل من الطعام الذى تعودت تناوله » .

والواقع أن الانتقال من داره إلى السجن لم يكن فيه أى تغيير يذكر فى أسلوب حياته ، وكان يستغل أوقاته فى السجن فى إكمال ثقافته الأدبية ، ويملأ أوقات فراغه بالمطالعة ، وقد حدثنا أنه قرأ فى السجن مؤلفات كارلايل وبن جونسون وولتر سكوت وكتب تولستوى وتورو ورسكن مع الكتب الهندية المقدسة مثل البجافادجيتا ، ومن أقواله : « قرأت فى السجن الكثير من هذه الكتب لأول مرة ، وكنت فى العادة أبدأ فى الصباح بقراءة الجيتا ، وأخص منتصف النهار لقراءة القرآن ، وفى المساء كنت أقرأ الكتاب المقدس مع أحد الصينيين المسيحيين » .

وبرغم شدة ميله إلى المسيحية منذ شبابه ، واعتباره السيد المسيح من أعظم معلمى الإنسانية فى كل العصور ، فإنه ظل يدخر أعظم جانب من اهتمامه للاطلاع على كتب الديانة الهندوسية ، وفى اعتقاله فى برودا قضى معظم وقته فى قراءة المهابهاراتا Mahabharata فى نصها الأصلى ، كما شغل نفسه بالاطلاع على كتب الديانة الإسلامية ، وبخاصة السيرة النبوية وأخبار الصحابة ، كما قرأ كتب المتصوفة الألمانى جاكوب بهم ، وقد أعجب بها وأشار إليها مرات فى محاضراته ، واستشهد بمقتبسات من كتبه ، وهكذا كان له الاعتقال فرصة للاطلاع على الكتب التى كانت حياته السياسية الحافلة بالعواصف تحول بينه وبين التفرغ لقراءتها ، قال عن نفسه : « كنت أجلس ، وأخلو إلى كتبى ، وقد خالجنى سرور كسرور شاب فى الرابعة بعد العشرين من عمره ، وأنسى أننى فى الرابعة بعد الخمسين ، وصحتى معتلة » .

وقد ظل غاندى يتابع البحث فى كل ما يقرأ ، ويتناول الأديان جميعها ،

ويدرس تعاليمها ومبادئها وقد كان وضع أساس هذا البحث فى إبان نشأته ، وتبعا لتقاليد أسرته .

وقد ولد مهانداس كاراماشاند غاندى فى بورباندر سنة ١٨٦٩ بمقاطعة جو جيرات ، وكانت أسرته تدين بالجينية ، وقد عرفت الأسرة بعمق شعورها الدينى ، وميلها الشديد إلى تحرى الحق ، وقد تعرض جده لأبيه – وكان من كبار الموظفين – لغضب الأمير الحاكم، واضطر إلى ترك بلاط بورباندر ، ولما تلقاه حاكم ياماجاد مرحبا به مد إليه يده اليسرى مصافحا سيده الجديد قائلا فى شجاعة : « إنه برغم ما وقع عليه من الظلم فإن يده اليمنى لا تزال فى خدمة أمير بورباندر » .

واقتفى والده آثار أبيه ، فكان وزيرا للمالية ، وتعرض لغضب الأمير ستل أبيه ، فذهب إلى رأج كوت ، وحظى فيها بثقة الحاكم .

ومن الأفكار الأساسية فى النحلة الجينية وصية « الأهِمسا » التى تنهى عن القتل ، وقد تعرض غاندى وهو طالب للتأثر بآراء أضرابه من الطلبة فى الإلحاد ، ويبدأ يتنكر لعادات قومه وتقاليدهم ، وهو يرى أنه ذات ليلة أصابه كابوس لأنه أكل اللحم لأول مرة ، فأعرض عن ذلك كله ، وطوى ما بينه وبين زملائه المستنيرين ، ووقع فى الدين لشرائه سرا لفافات من التبغ ، واضطر إلى سرقة قطعة من النقود الذهبية من أخيه الأصغر ليسد ما عليه من الدين ، وندم فى أعقاب ذلك ندما شديدا على ما اجترح من إثم ، ولم يقو على تحمل وزر الكذب وفقدان الأمانة ، وصمم فى النهاية على أن يكتب اعترافا بذنبه ، وقدمه لأبيه وهو على فراش المرض ، فألقى عليه نظرة ، ومزق الورقة وقد دمعت عيناه ، وقد جعل هذا المنظر غاندى يكره الكذب والسرقة طوال حياته ، وهو يحدثنا بأن هذا النوع من الصفح الذى أبداه والده هو « الأهِمسا » الخالصة النقية .

وأتم غاندى دراسته الثانوية سنة ١٨٨٧ وبعد أن حضر بعض محاضرات فى جامعة هندية نصحه أحد البراهمة من أصدقاء أسرته بالذهاب إلى لندن لدراسة القانون ، ولم توافق والدته على سفره إلا بعد أن قطع على نفسه عهدا بالامتناع عن تناول النبيذ واللحم والمباشرة الجنسية ، وكان غاندى نفسه يؤثر دراسة الطب ، ولكن أخاه الأكبر بغض إليه تشريح جثث الموتى ، وترك غاندى زوجته وطفله

الحديث الولادة وأبحر على إحدى البواخر إلى إنجلترا ، وشعر بوحشة الاغتراب فى المدينة الضخمة ، ولكنه صمم على البقاء بها ثلاث سنوات حتى يتم دراسته ، وفى أثناء وجوده بلندن عرف مدام بلافتسكى ومسز بيزانت وهما من شهيرات المتصوفات ، وعاد إلى بومباى سنة ١٨٩١ بعد إتمام دراسته ونجاحه فى الحصول على الإجازة المطلوبة .

وفى أثناء اشتغاله بالمحاماة كان يحتفظ بحقه فى ترك القضايا التى يعهد بها إليه إذا وجد أن بعض الحقائق قد أخفيت عنه .

وحينما اعتدى عليه أحد المسلمين المتعصبين فى سنة ١٩٠٨ رفض تقديم المعتدى إلى المحاكمة ، وفى اليوم نفسه الذى وقع فيه الاعتداء عليه حذر أنصاره من اتخاذ أى خطوة ضد المعتدى وهو يرقد دامى الجراح وقال: « إن الرجل لم يكن يدرى ما هو صانع ، فقد ظن أنى مخطئ فيما أصنع ، وقد حاول إصلاح ذلك بالطريقة الوحيدة التى يعرفها ، ولذلك أطلب أن لا يتخذ أى إجراءات ضده ، وإنى أصدقه وسأحبه وأكسبه إلى صفى بالحب » .

وكان هذا ما حدث ، ففى السنة التالية أرسل هذا المعتدى إلى غاندى رسالة يؤكد فيها له مشاركته الوجدانية واحترامه العميق ، وأنه سيبذل أقصى جهده لانتصار أفكار غاندى ، وهكذا كان غاندى يعتقد دائما أن الحب هو السلاح الوحيد الذى يقاوم به الشر ، وقد هوجم واعتدى عليه من الغوغاء ثلاث مرات ، وكاد يقضى نحبه فى إحدى هذه المرات ، ولكنه كان لا يغضب على المعتدين ، وقد سجن أربع مرات وكان يحسن لساجنيه ، ولا يبدى أى لون من ألوان الامتعاض أو الكراهة ، وكان يوصى زملاءه من المسجونين بأن لا يعتبروا حراس السجن أعداء لهم ، بل ينظروا إليهم كأنهم إخوة ويقول : « إن حسن معاملتنا لحراس السجن ينتزع من نفوسهم سوء الظن والصرامة » .

وبرغم شدة تمسك غاندى بالهندوسية فإنه كان ينفر دائما من فكرة تجنب المنبوذين ويعتبرها عيبا فى الديانة الهندوسية لا يستطيع استساغته ، وقد أداه بحثه إلى أن مسألة عدم لمس المنبوذين ليست ناحية هامة فى الديانة الهندوسية الصادقة ، وقد صرح بأنه لا يتردد فى عدم طاعة الكتب المقدسة إذا كانت تناصر نظاما ظالما ،

وأنه لا يخضع لسلطة عقيدة تنافر العقل ، وتخالف ما يمليه القلب ، وقد اقتنع بأن إقصاء المنبوذين لا سند له من الدين ، وإنما هو من المسائل الدخيلة ، وأن الكتب المقدسة لا تستطيع أن تتجاوز حدود العقل ، وأن المقصود بها تنوير الأذهان وإظهار الحق ، وكان غاندى يصارح قومه بأن معاملة المنبوذين من أقوى أسباب النكبات التى حلت بالهند، ويقول لهم : « إذا كنا قد عوملنا فى جميع أنحاء العالم معاملة المصابين بالجذام فما ذاك إلا لأننا قد عاملنا خمس أبناء جنسنا هذه المعاملة نفسها ، لقد أبعدنا المنبوذين عنا فصرنا منبوذى الإمبراطورية البريطانية » .

وكان يعلن مرارا أن تحرير الهند من الاستعباد الأجنبى لا يكون ممكنا إلا إذا منح الهنود أنفسهم المساواة فى الحقوق للطبقات المضطهدة ، وأنه لا فائدة من الحديث عن تحرير الهند ما دام الهنود لا يحمون الضعيف ، ولا يساعدون العاجز ، وطلب من جماهير الشعب وهو فى السجن أن يسمحوا للمنبوذين بأن يشربوا الماء من آبارهم ، وبأن يلحقوا أبناءهم بمدارسهم ، وكان جانب كبير من جهود غاندى السياسية وقفا على مساعدة المنبوذين ، وأكد لإخوانه الهنود أن حركة عدم التعاون مع الإنجليز لا تتوج بالنجاح إلا إذا أشركوا معهم المنبوذين ، وشدة عطف غاندى على المضطهدين والمظلومين هى التى دفعته إلى مقاومة الحكومة البريطانية ، وأفكار غاندى السياسية جميعها مصدرها وباعثها فرط إنسانيته .

وقد أخذ على غاندى أنه لم يترك مكانا للفن فى حركة الإحياء الهندى ، ولما وجه إليه اللوم من أجل ذلك قال : إنه لا يجهل قيمة الفن ، ولكنه لا يرى جمالا يعلو على جمال الطبيعة غير المحدود ، وأن الفن الإنسانى لا يستطيع أن يصل إلى مستوى جمال الطبيعة ، ولا أن يبارى روعة السماء المرصعة بالنجوم ، وكان ينظر إلى الفن باعتباره عاملا اجتماعيا وأخلاقيا مناسبا ، وهو فى ذلك يقترب من آراء تولستوى عن الفن ، ومن كلماته : « الحياة أعظم من الفن ، ويجب أن نكون أعظم من كل الفنون ، بل إنى لأذهب أبعد من ذلك وأعلن أن الرجل الذى تقترب حيلته من الكمال هو أعظم الفنانين ، وما قيمة الفن إذا لم يكن له أساس من الحياة النبيلة ؟ » .

وكل ما هو حق جميل فى رأى غاندى ، والرجل التقى كذلك فنان ، فالسيد المسيح الذى عرف الحق فنان عظيم ، وكذلك النبى محمد والقرآن أعظم الأعمال

الفنية فى العالم العربى جميعه ،وغاندى يقدر الفن من ناحية إسهامه فى التمهيد للوصول إلى الكمال الأخلاقي، والفن الذى يكتفى بإخراج الطرف الفنية الجميلة فحسب لا حق له فى الوجود ، لأن الصورة الخارجية قوام أهميتها فى التعبير عن الروح الكامنة ، ويضرب غاندى مثلا لما يعده من الفن العديم الفائدة كتابات أوسكار وايلد ، ويقول : إنه لا ينصب نفسه ناقدا فنيا ، فهو يعرف حدود معرفته فى ذلك ،ولكنه يرى أن من حقه نقد أوسكار وايلد لما شاهده بنفسه من تأثيره السيئ أثناء وجوده فى إنجلترا ، ويقول غاندى : إن أعظم فن فى رأى أوسكار وايلد يقوم على كمال الصورة، ولذلك لم يتردد فى إعلاء شأن الخروج على الآداب ، ويرد على القائلين بأن الكثير من الطرف الفنية الجميلة أخرجها رجال خلت حياتهم من سمات الكمال بقوله : « لا يدل هذا إلا على أن الحق والباطل والخير والشر يمكن أن تتجاوز ، والفنان قد يعرف الحق مرة ، ويتورط فى الباطل مرة أخرى ، ولكن الجمال التام لا يوجد الا إذا كان موجده قد امتلأت نفسه بأنقى معرفة للحق » .

وغاندى فى إخضاعه الفن للمعايير الأخلاقية يتفق مع آراء تولستوى التى وضحها فى كتابه « ما هو الفن » والواقع أن غاندى كان ينظر إلى الفن والثقافة بوجه عام من ناحية تأثيرهما على الحياة الاجتماعية ، ولم يكن ينقص غاندى رهافة الحس واتساع الفهم ، ولكن معرفته بما تعانيه الطبقات الفقيرة من البؤس والحرمان كانت توجه تفكيره هذا التوجيه ، فإطعام الجائعين ومواساة البائسين لهما المكانة الأولى فى اهتمامه .

وقد أدرك غاندى أن سبب فقر الهند هو انتهاب ثروتها القومية، وذلك بتصدير محصولاتها الزراعية الخام ثم استيرادها بعد ذلك مصنوعة من الخارج ، ولذلك رأى أن إحياء الصناعات والمهن الهندية القديمة هو الذى يرد على الهند رخاءها السابق ، وينقذها من مخالب الفقر المدقع ، وكان هذا هو سبب دعوته إلى مقاطعة البضائع الأجنبية والعودة إلى استعمال المغزل .

وكان غاندى من أعرف الناس بما فى الهند من عيوب وآفات، وقد قاومها أشد مقاومة ، ولكنه كان فى الوقت نفسه يرى أن الحضارة الغربية قائمة على الإلحاد فى حين أن الحضارة الهندية قائمة على الإيمان بالله ، وعنده أن الذى يحب الهند

ويخلص لها يلزم أن يتعلق بثقافتها تعلق الطفل بصدر أمه ، ولم يكن ذلك عنده عن تعصب أو ضيق فى الفكر ، فإن « الاهِمسا » الصادقة التى كان يتبعها توصى بحب المخلوقات جميعها وتتضمن الانتصار على الدنيا عن طريق الحب والعطف وانتزاع السلاح من الشر بأن تقابله بفعل الخير، ويشمل عطف غاندى حتى الثعابين والوحوش الضارية ومن أقواله فى هذا الصدد : « لنذكر دائما أن الثعابين قد خلقها الله الذى خلقنا ، وخلق جميع المخلوقات الأخرى ، وطرائق الله لا نستطيع اكتناه سرها ، ولكن علينا أن نكون واثقين من أنه لم يخلق الحيوانات مثل السبع والثعبان والعقرب لكى تبيد الجنس البشرى » و « الأهِمسا » فى رأى غاندى علاج ناجع لكل الشرور والنقائص والمساوئ .

وقد أشار رومان رولان إلى التشابه بين غاندى وتولستوى فى كتابه القيم عن غاندى ، وهو يرى أن غاندى كان مسيحيا بطبيعته ، أما تولستوى فكان مسيحيا بقوة إرادته لا بطبيعته ، وقد راسل غاندى تولستوى فى سنة ١٩٠٩ أثناء إقامته فى لندن ، وأبدى تولستوى عطفا واهتماما بتلميذه الهندى ، وقال فى رده على رسالته : « تلقيت رسالتك الجد شائقة ، وقد سررت بها سرورا عظيما ، وأرجو الله أن يعين إخواننا الأعزاء فى الترانسفال ، وعندنا الآن تدور معركة بين اللين والقسوة ، وبين الوداعة والحب ضد الكبرياء والعنف التى يزداد الشعور بها عاما بعد عام ، وبخاصة فى الصراع القائم الحاد بين القوانين الدينية والقوانين الدنيوية لرفض الخدمة الحربية ، ومثل هذا الرفض يتزايد من يوم إلى يوم ، وأحييك تحية الإخاء ويسرنى دوام الاتصال بينى وبينك » .

والثورة التى قام بها غاندى ضد الحكم البريطانى معتمدا على قوة الخير والصلاح والامتناع عن العنف ومقابلة الإساءة بالإحسان قليلة المثال فى التاريخ ، وحقيقة أنه فى العصور السالفة دعا المصلحون والقديسون وموجدو الأديان إلى المقاومة السلبية فى مواجهة الشر ، ولكن الذى تمتاز به حركة غاندى الثورية عن الحركات السابقة هو أن غاندى كان لا يعد الامتناع عن العنف من التعاليم والوصايا الدينية والأخلاقية للأفراد والمجتمعات الصغيرة وحدها ، وإنما كان يراه أساسا للحركة السياسية ، وهو بذلك قد أحال التصور الأخلاقى إلى نظام سياسى عملى لأول مرة فى التاريخ ،

ويقول غاندى : « إن الأهمسا فى اعتقادى أسمى كثيرا من العنف ، والصفح أكثر رجولة من العقوبة . والقوى هو الذى يستطيع الصفح عن الضعيف ، والقوة لا تأتى من الكفاية البدنية ، وإنما تأتى من الإرادة التى لا تقهر » .

وكان يؤكد دائما أن الامتناع عن العنف ليس حالة سلبية ، وإنما هو فى الواقع مواجهة أسمى للضغط والاضطهاد .

وكان يرى أن فصل السياسة عن الأخلاق من أسباب انحطاط الأمم السياسى ، ويشير إلى أن موجدى الأديان العظماء كانوا كذلك من الساسة الكبار ، ويذكر فى ذلك السيد المسيح والنبى محمدا ، ولا تسمو الساسة وتشرف إلا إذا امتزجت بالعناصر الدينية .

وقد التقى مرة بالزعيم الوطنى الهندى المتطرف « طيلاق » Tilak وكان من كبار زعماء الهند السياسيين وأصحاب السابقة والجهاد الناصع فى الجهاد القومى ، وكان طيلاق رجلا قوى الشكيمة، ماضى العزيمة ، عظيم الاعتداد بنفسه ، وكان اجتماعه بغاندى من قبيل المصادفة فى منزل أحد أصدقاء غاندى على غير ترتيب سابق ، فلما تلاقى الزعيمان وجها لوجه أخذ كل منهما يتأمل الآخر وهو صامت لا يتكلم ، وأمضيا على هذه الحالة بعض الوقت ، وخرج الزعيم طيلاق من صمته ، ووجه هذا السؤال : « أنت تحب الهند حب الابن ، ولكنك تحب الحق كذلك ، فإذا خيرت بينهما فأيهما تختار؟ » .

فصمت غاندى مدة دقائق ، ثم قال فى تؤدة : « فى رأيى أن الهند والحق مترادفان ، ولكن إذا كان على أن أقوم بالاختيار بينهما فإنى أكون فى جانب الحق » . فانصرف طيلاق ، ولم يتلاق الزعيمان بعد ذلك .

فالوطنية عند غاندى لا تعلو على النزعة الإنسانية ، وآفة عصرنا الحاضر أن الأمم وبخاصة الأمم القوية البعيدة النفوذ العظيمة التأثير تمعن فى الوطنية الضيقة الحمقاء ، وتمزق الروابط الإنسانية ، وتغلب المصلحة الخاصة جميعها ، وقد ذهب هذا الرجل الفذ العظيم ضحية اعتداء أثيم من أحد المتعصبين المتهوسين يوم الجمعة الموافق ٢٠ يناير سـنة ١٩٤٨ .

كنفشيوس

يعد كنفشيوس من أعظم الرجال الذين عرفتهم الحضارة الصينية ، وأبعدهم أثرا فى حياتهم السياسية والاجتماعية والثقافية ، وقد قال عنه الحكيم الصينى منشيوس بعد مرور قرنين على وفاته : إنه أعظم الحكماء قاطبة ، وشدة إكبار الصينيين لمكانته جعلتهم يحيكون حول حياته الأساطير ، ويعزون إليه أقوالا لم تصدر منه ، وحملت الحكماء الصينيين وسائر أصحاب النحل والمذاهب الذين جاءوا بعده ، ونهجوا منهجه على أن يفسروا آراءهم فى ضوء أفكاره، ويتجهوا بمذهبه الأخلاقى الاتجاه الذى يلائم مذاهبهم الخاصة، وأفكارهم المستجدة ، ليدعموا مكانتهم ، وتظفر تعاليمهم بالصفة المطلوبة ، والتأييد المرجو ، ومن أجل ذلك يجد المتخصصون فى دراسة حكمة كنفشيوس وأحداث حياته أنهم فى حاجة ماسة إلى إطالة التحقيق وكثرة التحرى .

والمعروف عن كنفشيوس أنه ولد فى عام ٥٥١ ق . م . فى مدينة تشوفو ، وهى إحدى البلاد التى كانت تكون وقتئذ إمارة « لو » والتى تدعى الآن بولاية شان جونج ، وكان والده أحد المجاهدين الشجعان ، والإداريين الكفاة ، وقد صار أبوه حاكما فى إحدى المدن، ومديرا لإحدى المقاطعات فى ولاية « لو » وكانت هذه الولاية تعد فى هذه الفترة أرقى ولايات الصين حضارة ، وأكثرها تقدما ، وكانت الوظائف الحكومية بها وراثية ، وقد ولى كثيرون من أسرة كنفشيوس وظائف الحكومة جريا على هذا النظام الذى كان سائدا .

وقد تيتم فى باكورة حياته ، وظهر ميله الشديد إلى التحصيل منذ صغره ، فلم يكد يبلغ الرابعة عشرة من عمره حتى كان قد وعى كل ما عند معلمه من ذخائر المعرفة ، وفى الوقت نفسه كان لا يكف عن مباشرة التمرينات الرياضية ، وكان له ولع خاص بالموسيقى والعزف على القيثارة كما عرف بحبه للشعر ، وباستقامة الأخلاق ، ورجاحة العقل ، ورباطة الجأش .

ولما بلغ أشده عين فى وظيفة حكومية متواضعة ، إذ وكل إليه الإشراف على أحد الأهراء وبعض الأراضى العامة التابعة للحكومة ، ولكى يزيد دخله القليل صار يعطى دروسا لبعض الطلبة ، وأظهر تفوقا ملحوظا فى التدريس مما جعل الطلبة من الأسر النبيلة يؤمون داره لتلقى العلم ، وسرعان ما ذاعت شهرته ، وأثبت أنه أغزر سكان الولايات علما وأوسعهم معرفة .

ولم تكن ولاية « لو » ناعمة بالهدوء والاستقرار ، فقد كان الأمير جاو Jao حاكمها مسلوب الحول وكان يسيطر على الجيش ثلاثة وزراء من أبناء عمومته ، وكانوا يتوارثون الوزارة ، وكان هناك صراع على السيطرة بين الأمير ووزرائه وتنافس بين الوزراء على النفوذ والاستغلال .

وحينما بلغ كنفشيوس الخامسة بعد الثلاثين من عمره كانت الأمور قد تأزمت ، فقد حاول الأمير جاو jao أن يفاجئ رئيس الوزراء بالهجوم ، واستطاع القبض عليه واعتقاله ، وهو الفيسكاونت بنج Ping من قبيلة جى Ji ولكن الأمير لم يستمتع بهذا الانتصار طويلا ، فبينما كان يداول الرأى مع حاشيته فى قتل بنج أو الإبقاء عليه جمع الوزيران الآخران جموعهما وهاجما الأمير ، واستنقذ الوزير بنج من الأسر ، ولم يجد الأمير بدا من الفرار ، وقد مات بالمنفى ، وتبع كنفشيوس الأمير إلى منفاه ، ويبين لنا هذا المسلك جانبا من اتجاهاته السياسية ، فقد كان من الموالين للحكم القائم ، ولم يكن من محبذى الخروج على سلطة الأمير ، والتنكر للسلطة الشرعية .

ولم يكن الأمير السابق من الأمراء الذين يحسنون الحكم والنهوض بأعبائه ، ولم يلبث كنفشيوس فى المنفى طويلا ، وعاد إلى الولاية التى نشأ بها ، ولكنه رفض قبول الوظيفة الحكومية فى عهد بنج الذى استأثر بالسلطة وتقلد زمام الأمور بعد فرار الأمير السابق ، واستأنف كنفشيوس مهنة التدريس ، ويبدو أنه كان أول من احترف تدريس الموضوعات السامية التى كانت تعلو على المعلومات الدارجة المألوفة التى كان يتلقاها الطلبة قبل عهده ، وقد قدم مثلا يقتدى به ، وجرى الصينيون منذ ذلك العهد على اتباع مثاله واتخاذه قدوة ، ولما كان كنفشيوس عالما جليل الشأن ومدرسا موهوبا فقد رفع ذلك من قدر العلماء والمدرسين ، وجعلهم مناط الاحترام والتبجيل فى تاريخ الثقافة الصينية .

ويقول الباحثون فى تاريخ الحضارة الصينية أن الصين كان بها من الكتب أكثر مما فى سائر العالم ، وأن كنفشيوس بتعاليمه المأثورة ، وحكمته العميقة كان أقوى حافز للصينيين على طلب التثقيف الذاتى والعناية بتحصيل المعرفة ، والاستزادة من العلم والتعمق فى البحث .

وبعد ثلاث عشرة سنة حدث فى « لو » اضطراب داخلى أشد من الاضطراب السابق ، فقد أقدم ثلاثة من الشبان المتتسبين إلى أسر الوزراء تحت زعامة شاب مغامر على تدبير مؤامرة لقتل الوزراء الثلاثة القائمين بالأمر ، والاستيلاء على مناصبهم ، وكشفت المؤامرة فى اللحظة الأخيرة ، ولكن إخماد الثورة استلزم ستة أشهر من النزاع العنيف والحرب الشعواء ، وقد أقنع هذا الموقف الحكام المسيطرين بأنهم فى حاجة ماسة إلى الاستعانة بتعاليم كنفشيوس التى توصى بالاستقامة وأخذ النفس بمجافاة المطامع الذاتية ، ولذلك دعى إلى تقلد وظيفة فى الدولة ، وكان على رأس الحكومة فى ذلك الوقت أمير من أسرة جى والوزير هوان Huan ، وقبل كنفشيوس الوظيفة فى هذه المرة ليجنب وطنه الويلات ويرده إلى السير فى الطريق السليم .

وجريا على الطريقة الصينية رئى أن يعهد إلى هذا العالم الحكيم بالإدارة فى إحدى المدن من قبيل التجربة ، وبعد مدى عام استدعى إلى البلاط ، وأسند إليه منصب عال ، فقد عين « مديرا للجريمة » وهو فى تقديرى منصب يعادل منصب قاضى القضاة ، وتجلت فى تلك السنة شجاعته وقدرته الفائقة على الحسم فى المشكلات العارضة ، وسداد تفكيره ، وبعد نظره حينما عقد اجتماع بين أمير لو والأمير تسى Tsi صاحب الإمارة الأكبر رقعة المجاورة لإمارة لو .

وعرض كنفشيوس خطته لإعادة السلام وضمان استقرار الأمر فى إمارة « لو » ، وتضمنت هذه الخطة أن على الوزراء الثلاثة أن يعيدوا إلى الأمير السلطة والإشراف على حكم الإمارة ، وينزلوا له عن سيطرتهم الحربية بأن يجردوا قلاعهم فى المدينة من وسائل الدفاع والهجوم الموجودة بها ، وهى التى يعتمدون عليها فى الاستئثار بالنفوذ ، وكانت هذه الخطة تبدو غير قابلة للتنفيذ ، فإنه لم يعرف من قبل أن أحد النبلاء قد تنازل فى يسر وسهولة عن القوة الحربية التى يعتمد عليها فى توطيد قدمه

وإعلاء شأنه ، ولكن هذه الخطة كانت الطريقة الوحيدة التى تكفل عودة السلام والاستقرار ، وتجنب الهزاهز والاضطرابات ، وذلك بتركيز السلطة فى يد الحاكم الشرعى ، وكان كنفشيوس يعلم جيد العلم خطورة ما أقدم عليه ، وأن وضعه هذه الخطة سيعرضه لعداوات لا يخبو لهيبها ، ولا تهدأ حدتها، ولكنه كان يشعر بأن الواجب يقتضيه المصارحة برأيه ، والدعوة إلى الأخذ بخطته ، وكان حرصه على مصلحة بلاده أقوى من حرصه على الإبقاء على حياته .

ومما يدل على حسن تفكيره وسلامة تقديره أن كثيرين من الأشراف الأدنى منزلة من الوزراء ومعظم تلامذته ومريديه أيدوه فى ذلك ، ولم يكن ما بين الوزراء المستأثرين بالنفوذ عامرا ، فقد كان كل منهم ينافس الآخر ، ويغار منه ويحسده ، ويود لو كان الأمر جميعه بيده ، وتظاهروا بالموافقة على قبول الخطة المعروضة ، وشرع أحدهم فى تجريد قلعته من الحصانة ، وحاول الوزير هوان أن يتحاشى الخروج على الاتفاق فى العلانية ، فعمد إلى إعداد فرقة من رجاله للاستيلاء على العاصمة ، ويرجح أنه كان يقصد كنفشيوس ، ولكن كنفشيوس كان يتوقع ما سيعرض له من الأخطار ، فقد استهدف عداوة الوزراء، ولذلك أخذ حذره ، واستطاع بقوة تدبيره وحسن سياسته أن يضع الوزير « هوان » فى مأزق يلزمه فيه إما أن يؤيد فى وضح النهار الفرقة التى أغراها بالهجوم على العاصمة ، وإما أن يتخلى عنها ويعرضها للهزيمة ، ولو أنه قام بمناصرتها لعد ذلك نقضا للاتفاق ، وثورة على الأمير ، وكان فى هذه الحالة يثير عداوة نواب الإمارة ، ويبعثهم على التحالف ضده ، فأحجم عن الإقدام على مساعدة الفرقة ، وأسفر الهجوم على العاصمة عن الإخفاق والهزيمة، واضطر الوزير مرغم الأنف إلى أن يجرد حصنه من آلات الدفاع .

وقد أثار كنفشيوس ثائرة الوزير ، وجعله أضحوكة الشعب الصينى ، وهكذا استطاع عالم مدرس أن يجعل وزيرا خطيرا ، ومجاهد مقداما فى موقف مخز !

وأبى الوزير الثالث أن يجرد قلعته من السلاح ، وأعلن ذلك ، ولم يستطع الأمير أن يستولى على قلعته بمحاصرتها ، ورأى كنفشيوس أن حياته عرضة للخطر ، واضطر إلى الهجرة ، ولم يعد إلا بعد ثلاث عشرة سنة ، وكان الوزير « هوان » قد قضى نحبه ، واتفق أن أحد تلامذة كنفشيوس قام بخدمة جليلة للدولة

فيسر له ذلك ترغيب الوزير كانج Kang فى أن يدعو كنفشيوس إلى العودة لبلده ، ومات كنفشيوس بعد مضى خمس سنوات فى « لو » فى الرابع من شهر مارس سنة ٤٧٩ ق.م .

ومحاولة كنفشيوس إصلاح حكومة « لو » تبين أنه كانت له قدرة دبلوماسية كبيرة ، وأنه كان له نصيب موفور من الشجاعة الأدبية والصراحة ، وقد رغب فى أن يضحى بمستقبله من أجل خير وطنه ، وكان يمكن أن تنجح خطته لو أن الوزير « هوان » لم يخل بتعهده ، وقد أكبره أتباعه لأنهم رأوا فيه رجلا بعيد النظر ، سامى الأخلاق ، جم الإخلاص ، لا يتردد فى جعل مصلحة وطنه فوق مصلحته الخاصة ، ويقدم لهم المثل الأعلى فى حياته الخاصة وفى ولائه للدولة ، وكانت خدمة الدولة عنده هى الواجب الأسمى .

ولم يدع كنفشيوس الأصالة فى تقرير تعاليمه وإرسال نصائحه ووصاياه ، ولم يقل أنه ينكر المثل العليا التى نادى بها ، ودعا إلى تحقيقها ، وكان شديد الإكبار للتقاليد المرعية ، ولم يستطع أن يحمل نفسه على الاعتقاد بأن الرجال العظماء الغابرين قد قدموا مثلا عليا دون المثل التى أيدها ، ولذلك كان يقرأ ويستبين مثله العليا فى حكمة الصين القديمة وتعاليم فلاسفتها وحكمائها السابقين ، ويلقنها لتلامذته على هذا الأساس ، وربما كان كنفشيوس يقصد تفسير بذلك جزءا من حقها ، ولكنه كان يرى أن تعاليمه لا تثمر ثمرتها وتؤتى أكلها إلا إذا كانت مستندة إلى حكمة القدماء ، وقد استطاع بذلك أن يؤثر فى عصره وفيما بعد عصره تأثيرا بعيد المدى إلى حد أنه كان كثيرا ما يقال ويردد أن كنفشيوس هو الصين ، وأن الصين قد صاغت نفسها على مثاله ، وأن الصينى سواء كان بوذيا أو طاويا – من أتباع لوتزى – فإنه فى الوقت نفسه وقبل كل شيء كنفشيوسى ولا يستطيع الإفلات من كنفشيوسيته ، وقد أثر كنفشيوس كذلك فى حياة اليابانيين وصار جزءا من كيانهم ، وكثير من اليابانيين يقولون : إن اليابانى سواء كان شنتويا أو بوذيا فإنه مع ذلك كنفشيوسى ، لأن الكنفشيوسية لا تصادم الشنتوية ، ولا تعادى البوذية .

والفضيلتان اللتان يركز عليهما كنفشيوس اهتمامه أولا بآداب اللياقة بمعناها الواسع ومفهومها الشامل ، فهى تشمل آداب المجتمع وآداب البلاط ، والشعائر

الدينية ، ونظم العدالة ، وقواعد السلوك الحسن ، والمبادئ الأخلاقية القويمة ، ولا يكتفى كنفشيوس بأن يطالب الإنسان بأن يكون سلوكه فى حياته مطابقا لتلك المبادئ ، بل هو يريد قبل كل شيء أن يشعر بها قلبه ، ويمزج بها أحاسيسه ، حتى يكون إخلاصه فى اتباعها صادرا من أعماق ذاته ، ودخائل نفسه ، وخفايا وعيه ، ويتمثل ذلك فى استجابته إلى احترام النظام القائم والعرف المتبع ، ولكنه يتضمن كذلك نقضه لهذا النظام فى سبيل مثل أعلى للسلوك الأخلاقى ، وكان كنفشيوس مثلا أعلى للسيد المبدع من أرقى طراز .

والفضيلة الثانية التى يدعو إليها كنفشيوس ويصر عليها ويؤكدها هى فضيلة العطف الإنسانى ، ويشمل هذا العطف حب الآخرين ، وطيبة القلب ، وسلامة النية ، وأن لا تعامل الناس بما لا تحب أن تعامل به ، والحب عند كنفشيوس فى طليعة الفضائل التى يدعو إليها ، وقد نهج فى ذلك منهج السيد المسيح وبوذا .

وكانت الصين فى عهد كنفشيوس خاضعة للنظام الإقطاعى ، وفى ظل هذا النظام تختلف واجبات الإنسان نحو زملائه حسب مكانته ، فواجبات السيد المطاع غير واجبات التابع ، وليس فى المجتمع الإقطاعى مساواة .

وعلاوة على فضيلتى السلوك الحسن والحب لقن كنفشيوس تلامذته فضائل أخرى وبخاصة صدق الولاء ، واستشعار الخجل ، ورقة الحاشية ، والتواضع والحكمة ، وأن على الإنسان ألا يضع نفسه فى مكان الصدارة وطليعة الصفوف ، وأن عليه أن ينتظر حتى يضعه الناس فى الطليعة ، وعليه فى هذه الحالة أن يرفض أى تشريف يعرض عليه أول مرة ، وأن لا يقبل أى تشريف إلا إذا عرض عليه ورفض غير مرة ، وتكرر الإلحاح عليه فى قبوله ، وأن السيد الأريب الحق يسير دائما فى طريق التقدم ، فهو موطأ الأكناف وذو كفاية ، وهو شجاع وحسن المخالطة وبارع فى تناول المشكلات المعقدة ، وفضيلته الأساسية هى حب الغير .

وكان كنفشيوس عميق التدين ، ولو أنه مثل سقراط قليل الحديث عن الدين ، ولما كان أستاذا فى آداب السلوك فقد كان المنتظر منه أن يعنى بالشعائر الدينية والطقوس المرعية ، وهو يلحقها جميعها بالتقاليد التى يلزم تلامذته باحترامها ، ولقد كان يصرح بأن أداء الفرائض والواجبات الدينية لا يحمل الآلهة على المحاباة ،

ولا يؤكد الباحثون في الكنفشيوسية أنه كان يعتقد بوجود الأرواح والآلهة ، ويرون أنهم قد يكونون فى رأيه مجرد عوامل لتنفيذ إرادة الإله الأسمى ، وهو السماء ، فإذا كان للآلهة وجود فهم بمثابة الملائكة فى الديانة المسيحية ، ويرى كنفشيوس أن الإنسان إذا أساء إلى السماء فلن ينفعه التقرب إلى الآلهة والتماس العون منهم ، وليس فى الوجود سوى إله واحد ماضى الإرادة وهو السماء ، ونرى من ذلك أن فى العهد الذى غابت عقيدة تعدد الآلهة فيه كان كنفشيوس لا يؤمن إلا بإله واحد ، وبأن هذا الإله قد أرسله ليعلم الناس ، وأنه سيحميه ما دام فى حاجة إليه ، ويبدو من خلال هذا الاعتقاد أن العناية الإلهية تتدخل فى شؤون البشر وتتخذهم عوامل لحمايتهم فى القيام بواجباتهم.

وقد تعلق الصينيون بآراء كنفشيوس الأخلاقية تعلقا شديدا ، ولم ينحرفوا عنها إلا فى النادر ، والملحوظ فى تاريخ الأمم والحضارات أن فرط التعلق بمذهب من المذاهب أو نظرية من النظريات قد يعوق حركة التقدم ، ولكن الميزة الواضحة للكنفشيوسية أنها كانت خلال القرون الماضية القوة التى جنبت الصين تفرق الشمل، وتصدع الوحدة ، وحافظت على كيان الإمبراطورية الصينية، وليس معنى ذلك أن الصين لم تتعرض فى حياتها لموجات من الاهتزازات العنيفة والثورات المدمرة ، ولكن حياة الأمم والحضارات لا تخلو من النكسات ونوبات التصاعد والسقوط ، وحركة الكنفشيوسية كانت على الدوام تعين الصين فى استعادة التماسك بعد تمزق الشمل ، واسترداد الهدوء والاستقرار بعد التغلغل والاضطراب .

وكان الحكيم الصينى لوتزى أقدم الحكماء المعاصرين لكنفشيوس ، والمفروض والمظنون أنه قد التقى به ، وأكثر أنصار لوتزى من النساك المنصرفين عن الحياة ومشكلاتها ، وهو يدعو إلى الاستغراق فى التأمل ، وترك الأمور تجرى فى أعنتها وعدم المبالاة برأى العالم والامتناع عن المجاهدة والوقوف من الحياة موقفا سلميا ، وقد نازع مذهب لوتزى الكنفشيوسية حينا من الزمن ، ولكن آراء كنفشيوس العملية واتجاهاته الدنيوية تغلبت على مذهب لوتزى كما تغلبت على البوذية التى نازعتها حينا من الدهر ، ويبدو أن الكنفشيوسية أقرب إلى طبيعة الصينيين من أية عقيدة أخرى .

وقد حاول الإمبراطور شى هوانج تى أن يثبت أن التاريخ يبدأ به ، وأن يلغى تأثير آراء كنفشيوس وتعاليمه فأمر بحرق كتبه ، وكان الكثيرون من العلماء الصينيين يحفظون تعاليمه عن ظهر قلب ، وقد حكم هذا الإمبراطور من سنة ٢٢١ق.م. إلى سنة ٢١١ ، ولكن الأباطرة الذين جاءوا بعده ردوا لتعاليم كنفشيوس اعتبارها ، وشادوا له الهياكل والمعابد ، وأدخلوا تعاليمه فى برامج تعليم الشبان ، ومنهم من أمر بنقش تعاليم كنفشيوس على الحجارة ، وفى عهد أسرة زونج نشأت كنفشيوسية جديدة أضافت الكثير من الشروح والتعليقات ، وظلت مبادئ كنفشيوس من أول عهد أسرة هان إلى سقوط أسرة منشو أى ما يقرب من ألف عام مسيطرة على العقلية الصينية .

وكان الصينيون يرون أنفسهم أكثر الناس ثقافة وأوفرهم نصيبا من الحضارة ، وأن سائر شعوب العالم يعدون من الهمج المتخلفين إذا قورنوا بهم ، وكان اتصالهم بالعالم الخارجى محدودا فيما عدا البلدان المتاخمة للحدود وبعض الثغور الواقعة على المحيط الأعظم ، ولما أرسلت الإمبراطورية البريطانية بعض السفراء للتفاوض مع البلاط الصينى الإمبراطورى جرى فى وهم رجال البلاط الصينى أن هؤلاء الوافدين من الغرب جاءوا لدفع الجزية وتقديم فروض الطاعة والولاء للإمبراطور ابن السماء ، ولكن الأحداث المتوالية الفاجعة والنكبات المتلاحقة أيقظت الصينيين من الأحلام التى كانوا يغطون فيها ، وأخذت أمم الغرب فى دق أبواب الصين دقا عنيفا ، وتدمر استحكاماتها الساحلية وتبسط سيطرتها على أجزاء شتى من أراضيها، وأفاق هذا بطبيعة الحال خواطر الصينيين ، وحملهم على أن يرسلوا النظرة النافذة فى تاريخهم ومأثور وحدتهم ، ويتطلعوا إلى المستقبل فى دهشة وارتياب ، وبدا أن الصين ستغدو نهما مقسما بين الدول الغربية الطامعة فى الحصول على الامتيازات السياسية والاقتصادية والتى تنظر إلى الصينيين بوصفهم أمة متخلفة ، ورأى الصينيون أن استمساكهم بالفضائل الكنفشيوسية غير كاف ، وأنه ليس فى وسعهم متابعة الاستمرار فى الاستمتاع بأسلوبهم التقليدى فى الحياة ومواجهة المشكلات ، وأنه لا مندوحة لهم عن أن يضيفوا إلى ثقافتهم القديمة معرفة الفنون الحديثة والاتجاهات العلمية المعاصرة ، فأقبلوا على التزود من حضارة الغرب ، وقاموا بنقل الكثير من

المؤلفات العلمية والأدبية إلى اللغة الصينية ، وأخذوا فى تهذيب حواشى أمتهم وتذليلها لتلائم التعبير عن الحياة المعاصرة ، وتأكدوا من أن الثبات فى مواجهة الغرب يفرض عليهم تغيير نظمهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وحاول بعضهم أن يتخذ الكنفشيوسية أساسا للحياة الديمقراطية ، ورأى الصينيون المحافظون الحرص على أنماط الحياة القديمة والاستمساك الشديد بتعاليم كنفشيوس ، ولكن المعتدلين من الصينيين رأوا أنه لا مفر من إدخال الكثير من التعديل والتحوير على الآراء القديمة والتقاليد المرعية حتى لا تكون عقبة فى سبيل التجديد المطلوب ، واليقظة المنشودة ، وظهر فى الوقت نفسه فريق الغلاة المتطرفين الذين رأوا أن مواجهة تحدى الغرب تستلزم نبذ التقاليد القديمة بحذافيرها على وجه التقريب والأخذ بالأساليب الحديثة فى التصنيع والاقتصاد والسياسة والاجتماع بوجه عام ، أو على الأقل تطوير أساليب الحياة المألوفة بحيث تلائم الموقف الراهن والأحوال الماثلة .

وفى سنة ١٩١٧ تأثر المثقفون الصينيون بحركة عرفت باسم « التيار الجديد » وقد نادى بها هوشيه أحد طلبة الفيلسوف الأمريكى المعروف جون ديوى ، وقد برز بين قادة حركة الإصلاح الصينية ورواد الإحياء والتجديد الزعيم سان ياتس (١٨٦٦ - ١٩٢٥) وقد درس الطب فى هنلنج وتأثر بالثورة الروسية (سنة١٩١٥ -١٩١٧) وحشد القوى الثورية لقلب الأسرة الحاكمة وإسقاطها ، وأقام برنامجه على ثلاثة مبادئ أساسية ، وهى استقلال القومية الصينية ، والأخذ بالمبادئ الديمقراطية والنظام الجمهورى ، والعمل لمصلحة الشعب بإزالة النظام الطبقى وإيجاد المساواة الاقتصادية ، وكان لانتصار ثورة أكتوبر الروسية أثر كبير فى اتجاهاته السياسية ، فقد قربته من الحزب الشيوعى ، وجعلته يعيد تنظيم الحزب القومى (الكومنتنج) ويطالب بثورة ديمقراطية جديدة ، وكانت الأسرة الصينية الحاكمة قد سقطت سنة ١٩١٠ بتخلى الإمبراطور الشاب عن العرش .

وكان رجال الأعمال الغربيين يعيشون فى الصين على الاستغلال وانتهاب الثروة القومية ، ويتعالون على الصينيين مما جعلهم يسيئون الظن بالديمقراطية الغربية ، ويقتربون من النظام الشيوعى ، والديمقراطية الحقة تقدر الحرية ، وتقدر الفرد ،

وتنكر أى سلطة محدودة للدولة ، وكذلك الحال فى الآداب الكنفشيوسية ، وتنازل الروس للصينيين عن الأراضى التى كانوا يحتلونها فى الصين ، وقد أثار ذلك حماسة الصينيين وحبب إليهم النظام الشيوعى ولم تكن هناك عقيدة دينيه تعترض تقبل هذا النظام ، والآداب الكنفشيوسية تكاد تكون خالية من الاستعانة بما وراء الطبيعة ، واتجاهها اتجاه دنيوى خالص ، وقد رمى بعض الشيوعيين كنفشيوس بأنه الخصم اللدود للتقدم ، ولكن فريقا آخر رأى فيه بطلا من أبطال المطالبة بحقوق الشعب ، وتاريخ الصين الحديث يرينا الهزائم الحربية واستبداد رؤوس الأموال الأجنبية ومطامع الإمبريالية مهما تبلغ من القسوة والميل إلى العدوان والإذلال لا تستطيع فى المدى المتطاءل أن تستبد بأية موفورة للموارد الاقتصادية دافقة الحيوية ذات تاريخ حافل مثل الأمة الصينية ، وبعض الشيوعيين الصينيين يقتبسون من آراء كنفشيوس ومنشيوس وغيرهما من حكماء الصين وفلاسفتها القدامى ولا يشهر بهم ، بل يستغل مكانتهم فى تأييد الاتجاه الشيوعى ، ولن يفكر أحد بطبيعته تفكيرا مطابقا كل المطابقة لتفكير كنفشيوس أو غيره من حكماء الصين فى الوقت الحاضر ، كما لا يمكن أن يتفق تفكير أى فرد فى العصر الحديث مع كافة آراء سقراط أو أفلاطون ، ومع ذلك فإن آراء سقراط ومحاورات أفلاطون لا تزال لها أهميتها ولا تزال جزءا هاما من تراث الحضارة الغربية ، وكذلك الحال فيما يتصل بالفلسفة الصينية وحكمة حكماء الصين وفى طليعتهم كنفشيوس .

الفهرس

صدر من السلسلة

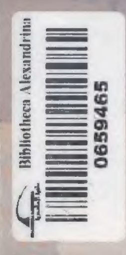
١ - المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الأول)
٢ - المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الثانى)
٣ - الغصن الذهبى (الجزء الأول)
٤ - الغصن الذهبى (الجزء الثانى)
٥ - كليله ودمنة
٦ - ابن جبير
٧ - فى موكب الشمس
٨ - هاملت
٩ - قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور
١٠ - الفنون الشعرية غير المعربة (المواليا)
١١ - رمز الأفعى فى التراث العربى
١٢ - التراث القصصى عند العرب
١٣ - تاريخ العرب قبل الإسلام
١٤ - حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى
١٥ - جماعة أبوللو (الجزء الأول)
١٦ - جماعة أبوللو (الجزء الثانى)
١٧ - الأساطير
١٨ - إبراهيم الكاتب
١٩ - إبراهيم الثانى
٢٠ - الأسطورة فى المسرح المصرى المعاصر - الجزء الأول
٢١ - الأسطورة فى المسرح المصرى المعاصر - الجزء الثانى
٢٢ - حديث السندباد القديم
٢٣ - أرض كليوباترا



ذاكرة الكتابة

الكاتب المؤرخ الأديب الناقد على أدهم « ١٨٩٧ - ١٩٨١ » هو واحد من أعلام الفكر العربى فى القرن العشرين ، وقد تميز هذا الكاتب الكبير باتساع ثقافته وصفاء أسلوبه ووضوح أفكاره وقدرته النادرة بين مثقفى عصره على الجمع بين الثقافة التاريخية والثقافة الأدبية ، كما أنه كان واسع الاطلاع على الثقافة الغربية القديمة والحديثة معا ، يضاف إلى ذلك كله أنه كان صاحب شخصية إنسانية تتمتع بالأخلاق الرفيعة والتواضع الكريم والضمير الحى الذى كان ملازما له فى كل ما يكتبه أو يقوله ، وهذا الكتاب الذى نقدمه اليوم « ذاكرة الكتابة » هو صورة حية من شخصية على أدهم فى علمه الواسع وتنوع ثقافته وأسلوبه الدقيق الواضح وأحكامه الموضوعية المخلصة فى كل قضايا الأدب والتاريخ .

ولقد لقى على أدهم من تكريم رواد الأدب والفكر فى عصره بعض ما يتحقه من الإعجاب والتقدير فقال عنه الأستاذ العقاد : « إن على أدهم رجل يدرس التاريخ بنظر الفيلسوف ورؤية العالم وحماسة الأديب » . وقال عنه الدكتور طه حسين : « على أدهم واسع الثقافة عميقها رفيعها » وقال عنه سيد قطب : « إن على أدهم ينظر للأدب بعين الفيلسوف ، ويتذوق الفلسفة بحسن الأديب ويتناول الشخصيات والحوادث بشعور مزيج من الفلسفة والأدب على السواء » . وقال عنه الدكتور زكى نجيب محمود : « إن على أدهم هو صورة لعصره الثقافى ثم هو إنسان عف اللسان » .



الثمن : ٣ جنيهات

الشركة الدولية للطباعة